
الطبعة الثالثة
الدكتور الشيخ
عدنان فرحان آل قاسم
«أبو أنس»
دروس في
السيرة النبوية
منهج تحليلي لدراسة أحداث السيرة النبوية
واستلهام المعطيات والدروس والعبر منها
العهد المدني
قدم له
العلامة الشيخ باقر شريف القرشي
دار السلام
الدكتور
عدنان فرحان
« أبو أنس
دروس
العهد المدني
٢



دُرُوسٌ
فِي السِّيرَةِ النَّبَوِيَّةِ

دُرُوس
فِي السِّيرَةِ النَّبَوِيَّةِ

طّبعة جديدة
مصَحَّحةٌ وَمنقّحَةٌ وَمَزِيدة
١٤٣٢هـ - ٢٠١١م

دار السّلام
بيروت - لبنان
لبنان : 009611472192 -009613461595
العراق : 009647802150376
E-mail:daralsalamco@hotmail.com

للتواصل مع المؤلف:
العراق 009647810957670
009647901849809
ايران 00989121536411
aboanasir@yahoo.com

دروس

في السيرة النبوية

منهج تحليلي موضوعي لدراسة أحداث السيرة النبوية واستلهام المعطيات والدروس والعبر منها

العهد المدني - القسم الأول

الدكتور الشيخ عدنان فرحان آل قاسم

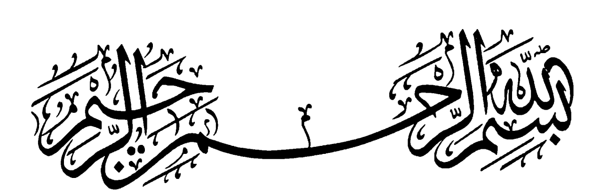
«أبو أنس»

قدم له

العلامة الشيخ باقر شريف القرشي

دار السلام

بيروت - لبنان



المقدّمة

بعد أن وفّقنا الله سبحانه لكتابة ونشر القسم الأول من دروس السيرة النبوية في عهدها المكي، ها نحن نضع بين يدي القارئ الكريم القسم الثاني من هذه الدروس التي تتناول القسم المدني من سيرة النبي الأكرم ﷺ.

وقد بحثنا في هذا القسم أحداث ووقائع سيرته المباركة ﷺ من حين هجرته إلى المدينة إلى حين وفاته، ولم نذكر الأحداث التي وقعت بعد وفاته ﷺ مباشرة، والتي قد تكون لها نوع صلة بسيرته كقضية الخلافة من بعده وما جرى عندها من ملابسات في تعيين الخليفة من بعده، لأنّ لها مجالها الخاص من البحث علّنا نوفق له في فرصة أُخرى.

والمنهج الذي اعتمدناه في هذا القسم من سيرته ﷺ هو: التقسيم الحولي للأحداث وذلك من خلال تقسيم أحداث السيرة بحسب تسلسلها التاريخي، وحسب سنيّ وقوعها، فتناولنا بالتسلسل أهم أحداث السنة الأُولى من الهجرة، وضمن محاور وعناوين محددة، ثمّ أحداث السنة الثانية والثالثة.. وهكذا إلى وفاته ﷺ.

وقد فرضت علينا منهجية البحث من جهة، وتنوع الأحداث وكثرتها من جهة ثانية، أن نقسم العهد المدني إلى ثلاثة أقسام:

القسم الأول: يحتوي على أحداث السيرة النبوية من الهجرة إلى نهاية غزوة خيبر.

والقسم الثاني: يحتوي على أحداث السيرة من غزوة بني المصطلق إلى سرايا الدعوة.

والقسم الثالث: يحتوي على أحداث السيرة من غزوة تبوك إلى وفاة الرَّسولﷺ.

وعلى ضوء هذا التقسيم سوف يكون العهد المدني من دروس السيرة النبوية في ثلاثة مجلدات لتنضم إلى المجلد الأول الذي تناول العهد المكي من السيرة النبوية، فتكتمل بذلك حلقات الكتاب ضمن هذه المنهجية في أربعة مجلدات.

وينبغي أن نذكر في هذه المقدمة بما أشرنا إليه في مقدمة المجلد الأول وفي خاتمته، من أن مصادر السيرة النبوية قد احتوت على كثير من الاستطرادات والأبحاث الجانبية التي تناولت الجوانب الفردية والشخصية لرسول اللهﷺ كنوع ملابسه، وطعامه، وخيله.. وغيرها من الأُمور، في الوقت الذي أهملت فيه جانب التحليل والتعليل، وبيان الأسباب والنتائج للأحداث والوقائع ومدى ارتباطها بالواقع العملي في حياة الأمة الإسلامية، ومقدار تأثيرها المباشر في مستقبلها.

وللتخلص من هذه الاشكالية اقتصرنا على ذكر أهم الأحداث المفصلية من السيرة النبوية، ومن دون الدخول في التفاصيل والجزئيات التي يمكن الرجوع فيها إلى مطولات كتب السيرة والتاريخ.

كما أنّنا أهملنا ذكر بعض الأُمور والحوادث التي ذكرها بعض كتّاب السيرة النبوية، والتي هي من الأحداث والوقائع التي لا صلة لها بسيرتهﷺ لا من قريب ولا من بعيد، وإنما هي من الحشو الممل، أو من البحوث الجانبية التي لها مجالها الخاص من البحث، كالحديث عن بعض الأُمور الشخصية لبعض

الصحابة التي لا ربط لها بالأحداث، أو الحديث عن طباع الخيل بمناسبة الحديث عن ناقة رسول الله ﷺ ، أو الاستغراق في سرد مشاهدات رسول الله ﷺ عند الحديث عن الاسراء والمعراج، أو كحديث بعضهم عن طول وعرض وعمق الخندق الذي حفره المسلمون لحماية المدينة في غزوة الأحزاب. . بالاضافة إلى أُمور أُخرى كثيرة تحتاج إلى التأكد والتثبت منها قبل أن نتحدث عنها أو ننسبها إلى النبي ﷺ .

أما الصعوبات التي واجهتنا في تدوين دروس العهد المدني فهي كثيرة نشير إلى بعضها :

أولا: كثرة الأحداث وتتابعها وتنوعها:

فالفترة المكية من سيرته المباركة وإن كانت من الفترات والمراحل المهمة والحساسة والخطيرة في عمر الدعوة الإسلامية وهي مرحلة التأسيس العقائدي والفكري. . إلاّ أنّها - رغم طول زمانها - لم تقع فيها أحداث ووقائع كثيرة، فقد استوعبت المرحلة السرية وفترة الحصار في شعب أبي طالب نصف عمرها، مع قلة المعلومات المدوّنة عنها.

أما الفترة المدنية، فهي وإن كانت أقصر زمناً من الفترة المكية، إلاّ أنها حافلة بالأحداث والوقائع والحركة الدؤوبة والمستمرة منذ أن وطأ رسول الله ﷺ أرض المدينة إلى حين رحيله إلى ربه.

ولهذا عملنا على استقراء هذه الأحداث والوقائع وتبويبها ومنهجتها ضمن محاور وعناوين وبحسب تسلسلها الزمني، مع حذف الزوائد والجزئيات منها. ولم تكن عملية الاستقراء والتبويب والمنهجة سهلة يسيرة بعد تشابك الأحداث وارتباط بعضها بالبعض الآخر، واختلاف المؤرخين في تقديم أو تأخير بعض الأحداث والوقائع على بعضها.

ثانياً: كثرة وتنوع المصادر والمراجع:

قد تكون قلة المصادر والمراجع من المشاكل التي يواجهها الباحث في بعض البحوث والدراسات، إلاّ أنّ كثرة المصادر وتنوعها قد تشكل مشكلة أكثر تعقيداً من مشكلة قلة المصادر!

وهذا ما عانينا منه في كتابة دروس السيرة النبوية وخاصة في العهد المدني منها، فنجد الواقعة الواحدة يتحدث عنها أكثر من مصدر تاريخي، وأكثر من مؤرخ وكاتب. وعندما نجمع هذه النصوص التاريخية حول تلك الواقعة ونضم بعضها إلى البعض الآخر لاستخلاص ما هو أقرب إلى الواقع، وأنسب بتسلسل الأحداث والوقائع، نجد أنفسنا في بعض الأحيان أمام نصوص متهافتة يناقض بعضها البعض الآخر، كما هو في غزوة ذات السلاسل -، وقضية تعيين أُمراء غزوة مؤتة.. ولرفع هذا التهافت أو التناقض والتعارض بذلنا جهداً مضاعفاً في التدقيق والتأمل في النصوص والجمع بينها بحسب قواعد الجمع العرفي.. واختيار ما هو أقرب إلى الواقع منها.

ثالثاً: غياب الجانب التحليلي والتعليلي في النصوص التاريخية:

وهذه المشكلة قد واجهتنا في دروس العهد المكي، وأشرنا إليها في خاتمة البحث، إلاّ أنها قد واجهتنا في دروس العهد المدني بشكل أكبر، إذ نجد المؤرخ يسرد لنا الأحداث التاريخية ومن دون أن يتوقف عندها أو يتأمل فيها!

ولهذا كان علينا أن نسد هذا الفراغ فنتوقف عند الأحداث والوقائع ونتأمل فيها، ونبحث عن أسبابها ومسبباتها، ونستخلص منها المعطيات والدروس والعبر والفوائد.

والذي نعتقده أن هذا الجانب التحليلي من السيرة هو من أهم الجوانب التي

ينبغي التأكيد عليها في سيرته ﷺ ، لأنها تربط أحداث السيرة بأسبابها ومسبباتها وعللها، ومن ثمّ تربطها بواقع حياتنا العملية والإيمانية.

هذه أهم ما يمكن أن نشير إليه في هذه المقدمة المختصرة والتي تستكمل فصولها من خلال مقدمة الجزء الأول من الكتاب وخاتمته.

وختاماً:

ينبغي أن أُشير إلى أني لم أكتب هذه الدروس للترف الفكري، ولا لأُضيف عنواناً جديداً إلى قائمة المؤلفات، وإنما جاءت هذه الدروس نتيجة معاناة حقيقية عايشتها كأُستاذ، ومبلّغ، وداعية يتطلع إلى وجود منهج سليم لدراسة السيرة النبوية.

فكانت هذه المحاولة المتواضعة، والتي لا أدري كم كنت موفقاً فيها، إلاّ أن حسبي من الأمر أن بذلت جهدي وواصلت ليلي بنهاري لاتمامها.

والحمد لله رب العالمين

المؤلف

الدرس الأول
ملامح الدولة الإسلامية في المدينة
((القسم الأول))
أحوال مدينة يثرب

محاور البحث:

١ - التقسيم المرحلي للعهد المدني

٢ - مبدأ التاريخ الهجري

أحوال مدينة يثرب

٣ - الموقع الجغرافي لمدينة يثرب

٤ - التوزيع السكاني والقبليِّ لمدينة يثرب:

أ - الأنصار

ب - اليهود

ج - المهاجرون

• الأسئلة

ملامح الدولة الإسلامية في المدينة / ق ١
«أحوال مدينة يثرب»

١ – التقسيم المرحلي للعهد المدني

حاول بعض الكتّاب المُحدثين تصنيف الخطوات التي خطاها الرسولﷺ لإنشاء الدولة الإسلامية المباركة إلى مجموعة من المراحل؛ تقسّم بدورها على سنِّي حياته الشّريفة التي قضاها في هذا العهد المبارك.

وفيما يلي نماذج لهذه التقسيمات:

النموذج الأول:

التقسيم المرحلي الثلاثي للعهد المدني:

المرحلة الأُولى: مرحلة تثبيت قواعد الدولة: وهي مجموعة انجازاتهﷺ في السنة الأُولى من هجرته المباركة.

المرحلة الثانية: مرحلة البناء: وهي تستوعب خمس سنوات تقريباً، تضمنت أنواع التحدّيات إلى جانب النشاط المستمرّ للبناء، ضمن دورين متميزين وهما دور الدفاع ودور السلام المشروط.

المرحلة الثالثة: مرحلة الانتشار والتوسّع: وتبدأ من صلح الحديبية في السنة السادسة من هجرتهﷺ حيث انفتح الطريق أمام

مرحلة التوسّع والانتشار[١].

النموذج الثاني:

وهو أيضاً تقسيم مرحلي ثلاثي:

المرحلة الأُولى: مرحلة القلاقل والفتن؛ حيث واجهت الدولة الإسلامية فيها العراقيل من الداخل، وزحف فيها الأعداء إلى المدينة من الخارج، وهذه المرحلة تنتهي بصلح الحديبية.

المرحلة الثانية: مرحلة الهدنة مع الزعامة الوثنية؛ وتنتهي بفتح مكة في رمضان سنة ثمان من الهجرة، وهي مرحلة دعوة الملوك إلى الإسلام.

المرحلة الثالثة: مرحلة دخول الناس في دين الله أفواجاً؛ وهي مرحلة توافد القبائل والأقوام إلى المدينة، وهذه المرحلة تمتدُّ إلى انتهاء حياة الرسول ﷺ في ربيع الأول سنة (١١) من الهجرة[٢].

النموذج الثالث:

وهو التقسيم الذي سار عليه الدكتور البوطي في منهجية كتابه: «فقه السيرة» حيث قسَّم مراحل الدعوة الإسلامية في حياة النبي ﷺ إلى ستِّ مراحل جعل الثلاث الأُولى منها تختص بالعهد المكي، والثلاث التالية تختص بالعهد المدني وهي:

المرحلة الرابعة: مرحلة وضع أُسس المجتمع الجديد في المدينة وذلك في

---

(١) تاريخ الإسلام: ١ / ١٧٣ . إعداد لجنة تأليف الكتب الدراسية، المنظمة العالمية للحوزات والمدارس الإسلامية . قم .

(٢) المباركفوري: صفي الرحمن: الرحيق المختوم: ١٥٨، ط . دار الفكر - بيروت، الطبعة الأُولى (١٤٢٢ هـ - ١٩٩١ م) .

السنة الأُولى من هجرته.

المرحلة الخامسة: مرحلة الحرب الدفاعية وتشمل جملة من غزوات ومعارك الرسولﷺ إلى صلح الحديبية.

المرحلة السادسة: مرحلة الفتح، وهي مرحلة جديدة من الدّعوة تبدأ من صلح الحديبية وتنتهي برحيل الرسول الأكرمﷺ إلى ربّه(١).

هذه أهمُّ التقسيمات الحديثة في منهجية بعض مؤلفي السيرة النبوية المحدثين؛ إلاّ أننا اتبعنا المنهج الحولي في دراسة سيرتهﷺ في العهد المدني كما بيّنا في المقدّمة.

٢ – مبدأ التاريخ الهجري

لأهمية الهجرة النبوية، ولانطوائها على معاني إيمانية عميقة في نفوس المؤمنين، اتخذ المسلمون من الهجرة النبوية مبدءً لتاريخهم، وأخذوا يؤرخون لكل ما يقع من حوادث ووقائع بالعام الهجري، بعد أن كانَ العرب يؤرِّخون لوقائعهم الحياتية ببعض الحوادث مثل عام الفيل، والفجار، وبنيان الكعبة وغيرها من الحوادث.

ومن الواضح أنه لا تخلو أُمة من الأُمم من وقائع وحوادث، وتحتاج إلى ضبط تاريخها بدقة، ولا نقاش في ذلك لأنها من الضرورات البدهية، وقد سار على ذلك الأُمم والأقوام منذ فجر التاريخ وإلى يومنا هذا.

والأُمة الإسلامية التي لها مقوماتها العقائدية والإيمانية وأُصولها الثابتة، لابدَّ لها من أن تنطلق في تاريخها من أعظم حوادثها وتجعله مبدءً لتاريخها، «وليس

(١) البوطي، محمد سعيد رمضان: فقه السيرة: انظر فهرست الكتاب: ٥٦٧ وما بعدها.

لدينا في تاريخ البشرية شخصية أعلى شأناً من شخصية الرسول الخاتمﷺ ، كما لم يكن هنالك حادث أعظم وأنفع من حادثة الهجرة النبوية. من هنا اتخذ المسلمون هجرة الرسولﷺ مبدءً لتاريخهم. . .»[1] .

من الذي جعل الهجرة مبدءً للتاريخ الإسلامي؟

يروي المسعودي، في التنبيه: «وكان عمر شاور الناس في التأريخ لأُمور حدثت في أيامه، لم يعرف لها وقت تؤرخ به، فكثر منهم القول وطال الخطاب في تواريخ الأعاجم وغيرها، فأشار عليه (علي بن أبي طالب عليه السلام) أن يؤرخ بهجرة النبيﷺ ، وتركه أرض الشرك، فجعلوا التأريخ من المحرم، وذلك قبل مقدم النبيﷺ إلى المدينة بشهرين واثني عشر يوماً لأنهم أحبوا أن يبتدئوا بالتاريخ من أول السنة، وكان ذلك في سنة (١٧) أو (١٨) يتنازع الناس في ذلك»[2] .

وقد اشتهر بين المؤرخين من أنَّ أول من أَرَّخَ بالهجرة النبوية هو الخليفة الثاني عمربن الخطاب، وأنَّ الذي أشار عليه بذلك هو (علي بن أبي طالب) عليه السلام .

إلاّ أنَّ التمعُّن في مراسلات النبيﷺ ومكاتباته، يثبت أنَّ النبيﷺ هو نفسه أول من اعتمد تلك الحادثة الكبرى كمبدأ للتاريخ، وكان يؤرخ رسائله، وكتبه بالتاريخ الهجري[3] .

---

(١) سبحاني، جعفر: سيرة سيد المرسلين: ١ / ٦٠٧ وما بعدها، تعريب: جعفر الهادي، طبعة مؤسسة النشر الإسلامي - قم، الطبعة الأُولى، (١٤١٢ هـ) .

(٢) المسعودي - علي بن الحسين، التنبيه والاشراف: ٢٥ . مراجعة وتصحيح: عبد الله إسماعيل الصاوي، طبعة أفست عن طبعة دار الصاوي - القاهرة، (د - ت) .

(٣) سبحاني، سيرة سيد المرسلين: ١ / ٦٠٨ وما بعدها .

وهذه المكاتبات والرسائل قد حوتها أغلب كتب التاريخ والسيرة والحديث(١).

ومن نماذج ذلك:

ما جاء في ذيل وصية نبوية أملاها رسول الله وكتبها علي عليه السلام: «وكتب علي ابن أبي طالب عليه السلام بأمر رسول الله صلى الله عليه وآله في رجب سنة تسع من الهجرة»(٢).

وفي ذيل كتاب الصلح الذي كتبه الإمام علي عليه السلام بأمر رسول الله صلى الله عليه وآله لنصارى نجران: «وأمر علياً أن يكتب فيه أنه كتب لخمس من الهجرة»(٣).

وهنالك نصوص أُخرى كثيرة تؤكِّد أنَّ الرسول الأكرم هو الذي جعل التاريخ الهجري وأرَّخ به رسائله وكتبه وعهوده، ومواثيقه، وما حصل في زمن عمر هو فقط جعل مبدأ السنة شهر محرم بدلا من ربيع الأول(٤).

ولا يستبعد أن يكون التاريخ الهجري الذي وضعه النبي صلى الله عليه وآله وأرَّخ به أكثر من مرة، لم يكن قد اشتهر بين الناس بسبب قلة احتياجهم للتاريخ في تلك الفترة، فجمع عمر الصحابة ليتفقوا على تاريخ(٥).

---

(١) للتوسع: انظر: الاحمدي: مكاتيب الرسول، ومحمد حميد الله: مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة.

(٢) سبحاني، سيد المرسلين: ١ / ٦٠٩ نقلا عن اخبار اصفهان: ١ / ٥٢ - ٥٣.

(٣) المصدر نفسه: ١ / ٦١٠.

(٤) العاملي - جعفر مرتضى، الصحيح من سيرة النبي الأعظم: ٥ / ٣٦، طبعة مؤسسة دار الحديث - قم، الطبعة الأُولى، (١٤٢٦ هـ).

(٥) للتوسع: انظر: السبحاني سيرة سيد المرسلين: ١ / ٦٠٥ وما بعدها، والاطلاع على مزيد من الوثائق والرسائل النبوية المؤرخة لهجرته صلى الله عليه وآله انظر: محمد حميد الله: مجموعة الوثائق السياسية، و. الاحمدي: مكاتيب الرسول صلى الله عليه وآله.

● أحوال مدينة يثرب:

قبل الدخول في تفاصيل أحداث العهد المدني، وأُسس بناء الدولة الاسلامية والمجتمع الاسلامي الجديد، التي شيَّد كيانها الرسول الأكرمﷺ. من الضروري أن نأخذ فكرة موجزة وصورة اجمالية عن أحوال مدينة يثرب - التي اختارها الله سبحانه دار هجرة الرسولﷺ، ومنطلق الدعوة الاسلامية في العالم - من حيث موقعها الجغرافي، والتوزيع السكاني والقبلي فيها، والأوضاع الدينية والعقائدية التي كانت تعيش في أجواء هذه المدينة آنذاك، بالاضافة إلى بعض اللمحات الاجتماعية والثقافية والاقتصادية والسياسية.

٣ - الموقع الجغرافي لمدينة يثرب

يثرب، مدينة قديمة يرجع تأريخها إلى ما قبل الميلاد، وقد ورد ذكرها في الكتابات المعينية، وعرفت عند الإخباريين باسم (أثرب) و (يثرب)[١].

ويزعم بعض الاخباريين أنها سمّيت (يثرب) نسبة إلى (يثرب بن قانية... ابن نوح) وكان أول من نزلها عند تفرق ذرية نوح، فدعيت باسمه[٢].

وقالوا: بل قيل لها (يثرب) من التثريب.

وقالوا أشياء أُخرى من هذا القبيل لا تركن إليها النفس[٣].

---

(١) ابن النجار: محمد بن محمود: الدرة الثمينة في تاريخ المدينة، ط القاهرة (١٩٥٦ م) وانظر: وفاء الوفا: ١ / ٧، ومعجم البلدان للحموي: ٧ / ٢٢٧، والعباسي: احمد بن عبد الحميد: عمدة الاخبار في مدينة المختار: ٤١ وابن شبة: تاريخ المدينة المنورة، اوفسيت دار الفكر - قم، (١٤١٢ هـ).

(٢) المسعودي، مروج الذهب ومعادن الجوهر: ٢ / ١٢٧، تحقيق: يوسف أسعد داغر، طبعة دار الأندلس - بيروت، الطبعة الأُولى، (١٣٨٥ هـ - ١٩٦٥ م).

(٣) علي - د - جواد - المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام: ٤ / ١٢٨ وانظر: ابن خلدون: ٢ / ٢٨٦.

وذكر الاخباريون أن ليثرب أو المدينة (٢٩) اسماً، وأضاف إليها آخرون أسماء أُخرى حتى أوصلوها إلى (٩٤) اسماً[١].

وقد ورد اسم يثرب في القرآن الكريم عند تعرضه لما يقول المنافقون بقوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾ وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُوا۟ ۚ وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِىَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ ۖ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴿١٣﴾﴾[٢].

وتقع مدينة يثرب على بعد (٥٠٠ كم) تقريباً إلى الشمال من مكة، في بسيط من الأرض مكشوف من سائر الجهات، في صرة سبخة الأرض، كثيرة المياه والشجرات والدوحات، ونخيلها وزروعها تسقى من الآبار، وأقرب الجبال إليها هو جبل أُحد، ويقع شمال يثرب على بُعد فرسخين منها، في حين يقع جبل عَير في جنوبها الغربي، والى الشرق من يثرب يقع بقيع الغرقد، وإلى الجنوب قرية قباء التي تبعد عن يثرب بنحو ميلين مما يلي القبلة، وإلى الجنوب منها تقع قرية الفرع على الطريق المؤدية إلى مكة، ووادي العقيق فيما بينها وبين الفرع[٣].

وقد أصبحت (يثرب) بعد هجرة الرسول الأكرم ﷺ إليها معقل الإسلام، وملجأ جماعة المسلمين، ومركزاً للدعوة الاسلامية، وغدت تعرف باسم مدينة النبي، وتسمى اليوم المدينة، والمدينة المنورة، لوجود قبر الرسول ﷺ فيها[٤].

ولهذا المدينة قدسيّة ومكانة خاصة عند المسلمين من حيث إنّها ثانية المدن

---

(١) انظر: معجم البلدان: ٥ / ٤٣٠، ووفاء الوفاء: ١ / ١٩ .

(٢) الاحزاب: ١٢ - ١٣ .

(٣) الحموي - ياقوت، شهاب الدين أبي عبد الله، معجم البلدان: ٧ / ٢٢٧ وما بعدها، طبعة دار احياء التراث العربي - بيروت، (د - ت) .

(٤) ومما يذكر لهذه المدينة من أسماء: طيبة، وطابة، والمحببة، والمحبوبة، والمباركة . . . انظر المصدر السابق .

الاسلامية المقدسة، وعاصمة الدولة الاسلامية المباركة في عهد الرسولﷺ والخلفاء الثلاثة من بعده، وشطر من خلافة أمير المؤمنين علي بن أبي طالبعَلَيْهِ السَّلَامُ حيث انتقل عَلَيْهِ السَّلَامُ بعدها إلى الكوفة واتخذها عاصمة لخلافته لظروف ألمَّت بالاسلام والمسلمين آنذاك.

وقد توسّعت المدينة المنورة في عصرنا الحاضر كثيراً واتصل العمران فيها إلى تخوم جبل أحد، ووادي العقيق، وغيرها من المناطق التي كانت تُعدُّ من القرى والنواحي المجاورة لها.

ويربط المدينة المنورة بمكة طريق معبَّد سريع، كذلك يربطها بجدة طريق سريع معبَّد يبلغ قرابة (٤٢٥ كم)، ويتفرع منه عند بدر طريق إلى مينائها ينبع (٩٠ كم) وتقع المدينة على بُعد (١٧٥ كم) تقريباً من البحر الأحمر[١].

٤ - التوزيع السكاني والقبلي لمدينة يثرب

كانت مدينة (يثرب) عند مقدم النبيﷺ خليطاً من العناصر المتنافرة، ومن العقائد المختلفة، التي لا يربطها نظام ولا وحدة ولا وفاق، فعمل النبيﷺ جاهداً على أن ينظمها ويوحد بينها، من خلال وضع الدعائم والأُسس التي لابدّ منها لقيام بناء الإسلام الشامخ.

وقبل الدخول في تفاصيل الخطوات التي خطاها النبيﷺ في هذا الاتجاه لابدّ لنا من أن نستعرض التوزيع السكاني والقبلي وطبقات المجتمع البشري آنذاك.

وعندما نستقرئ الحالة الاجتماعية لمدينة يثرب عند مقدم النبيﷺ

(١) الموسوعة العربية الميسرة: ٢ / ١٦٧٤ باشراف: محمد شفيق غربال، ط / دار احياء التراث العربي بيروت (١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧ م).

والشرائح الاجتماعية التي كانت تسكن هذه المدينة آنذاك نجد أن هذه البقعة من الأرض كانت ملتقى لديانات، وثقافات، ومجتمعات مختلفة، بخلاف «مكة» المدينة الموحدة، ذات الطبيعة الواحدة، والطابع الموحد، والدين المشترك.

وهذه الشرائح الاجتماعية والأقوام المختلفة في ذلك الوقت كانت على ثلاثة أصناف من السكان، يختلف احوال كل واحدة منها عن الأُخرى اختلافاً بيناً، ومعها تختلف طريقة التعامل معها في المسائل التي تواجه الدعوة الاسلامية ودولتها الفتية.

وهذه الاصناف الثلاثة هي:

الأول: الأنصار، وهم الذين دخلوا الإسلام من سكان المدينة الأصليين، وهم قبيلتا (الأوس والخزرج)، وسموا بالأنصار لأنهم نصروا النبيﷺ على قريش.

الثاني: اليهود، وهم الذين استوطنوا يثرب من خلال موجات متعاقبة من الهجرة إلى هذه المدينة، وشكّلوا قوّة اقتصادية واجتماعية لها وزنها داخل المجتمع اليثربي.

الثالث: المهاجرون، وهم الذين هاجروا فراراً بدينهم من مكة إلى المدينة، وهم من قبائل مختلفة، جمع بينهم رابط العقيدة والهجرة، وتواجههم في المدينة ظروف جديدة.

وفيما يلي لمحات موجزة عن كل صنف من هذه الأصناف الثلاثة:

أ - الأنصار:

يتكون الأنصار من قبيلتي الأوس والخزرج، ويرجع نسب (الأوس) إلى جدّهم، وهو في عرف النَسّابين (أوس بن حارثة بن ثعلبة بن عمرو بن عامر بن

حارثة بن إمرىء القيس بن ثعلبة بن مازن بن عبد الله بن الأزد)، أما الخزرج فإنهم إخوة الأوس في عرف النسّابين، فالخزرج، وهو جدّ الخزرج، هو شقيق أوس، وهو (الخزرج بن حارثة. . .).

وقد جاء نسل الأوس والخزرج من اليمن بعد حادث سيل العرم، حيث عزم (عمرو بن عامر بن حارثة بن ثعلبة) على الخروج من بلاده وباع ماله بمأرب، وتفرق ولده، فنزلت الأوس والخزرج (يثرب) وارتحلت (غسّان) إلى الشام، وذهبت (الأزد) إلى عمان و (خزاعة) إلى تهامة(١).

ويلاحظ أنّ الأوس والخزرج لا يدعون أنفسهم بأبناء الحارث، وإنّما يدعون أنفسهم بـ (بني قِيلة) ويقصدون بها (قيلة بنت الأرقم بن عمر بن جفنة)، ويرجح الدكتور جواد علي أن يكون لهذه المرأة التي ينتسبون إليها شهرة في الجاهلية حملتهم على الانتساب إليها(٢).

وأقامت الأوس والخزرج بالمدينة، ووجدوا الأموال والآطام والنخل في أيدي اليهود، ووجدوا العدد والقوة معهم، فمكثوا معهم أمداً، وعقدوا معهم حلفاً، وجواراً يأمن به بعضهم بعضاً ويمتنعون به ممن سواهم، فلم يزالوا على ذلك زماناً طويلا، حتى نقضت اليهود عهد الحلف والجوار، فاستعان الأوس والخزرج بأقربائهم على اليهود، فغلبوهم، وصارت الغلبة للعرب على المدينة منذ ذلك العهد(٣).

وتنقسم قبيلة الأوس إلى بطون، منهم: عوف، وجشم، ومُرّة، وامرؤ

---

(١) علي - د . جواد، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام: ٤ / ١٢٩ وما بعدها، ط . اوفيست الشريف الرضي - قم .

(٢) المرجع نفسه: ٤ / ١٣٢ .

(٣) المرجع نفسه: ٤ / ١٢٩ - ١٣٠ .

القيس، . . . وانقسمت هذه البطون إلى أفخاذ عديدة، والخزرج أيضاً بطون، أشهرها: بنو النجار، والحارث، وكعب، وهي بدورها انقسمت إلى أفخاذ عديدة[١].

وبالرغم من صلة الرحم القريبة التي كانت بين الأوس والخزرج، فقد وقعت بينهما حروب هلك فيها من الطرفين خلق كثير، ومن أشهر هذه الحروب، حرب الفجار الأُولى، وحرب الفجار الثانية، ثم يوم بُعاث. . . «وكان يوم بُعاث آخر الحروب المشهورة بين الأوس والخزرج، ثم جاء الإسلام واتفقت الكلمة، واجتمعوا على نصر الإسلام وأهله وكفى اللهُ المؤمنين القتال»[٢].

ولا تسعفنا المصادر التاريخية بإحصاء دقيق عن عدد رجال قبيلتي الأوس والخزرج، إلاّ أنّ تتبع واستقراء بعض الحوادث قد تلقي لنا الضوء على أن لهاتين القبيلتين آنذاك قوة عسكرية ضخمة، استطاعت أن تخوض من خلالها تلك الحروب الدامية بينهما قبل الإسلام، ومن ثَمَّ تشكل قوة واحدة بعد الهجرة وتشترك في المعارك والفتوحات الاسلامية، «فقد بلغ عدد محاربيهم في يوم فتح مكة أربعة آلاف مقاتل»[٣]، وهو عدد كبير نسبة إلى عدد المشاركين وهم عشرة آلاف مقاتل ومن مختلف القبائل.

وترجع أسباب الحروب الدامية بين الأوس والخزرج إلى سببين رئيسين:

الأول: العصبية القبلية، التي كانت تدفع بأفراد إحدى القبيلتين - ولأسباب

---

(١) المرجع نفسه: ٤ / ١٣٦ - ١٣٧ بتلخيص.

(٢) المرجع نفسه: ٤ / ١٣٩ - ١٤٠ وانظر: الكامل في التاريخ: ١ / ٤٢٧ وما بعدها.

(٣) المقريزي تقي الدين - أحمد بن علي، إمتاع الاسماع بما للنبيّ من الأحوال والأموال والحفدة والمتاع: ١ / ٣٤، تحقيق: محمد عبد الحميد النيمسي، طبعة دار الكتب العلمية - بيروت، ط. الأولى، (١٤٢٠ هـ - ١٩٩٩ م).

تافهة - إلى الاعتداء على أفراد من القبيلة الأُخرى، فينادي قومه للأخذ بثأره، فتثور الحرب بين القبيلتين.

الثاني: إذكاء عوامل التفرقة بين القبيلتين بواسطة اليهود، حيث كانت اليهود ترى أن مصلحتها تقتضي بأن ينشغل الأوس والخزرج بالحرب بينهما، لإضعاف كلا القبيلتين معاً، وللسيطرة على السوق التجارية ومفاصل الحياة الاقتصادية، فعمل هؤلاء اليهود «على الدسِّ بين الأوس والخزرج وتشجيع عوامل الفرقة، وإذكاء روح التحاسد، حتى يشغلوهم بأنفسهم عنهم، وقد أدرك العرب منهم ذلك فلقبوهم بـ (الثعالب)»[١].

ب - اليهود:

من الثابت تاريخياً أن غالبية اليهود حَلُّوا بالجزيرة العربية بصفة عامة، ومدينة يثرب بصفة خاصة من خلال موجات بشرية متتابعة هاجرت إلى هذه البلاد، وبعض الروايات التاريخية ترجع تاريخ هجرة اليهود إلى يثرب إلى زمن العماليق وهم أبناء (عملاق بن أرفخشد بن سام بن نوح)[٢]، ويرى بعضُ الباحثين أنّ العمالقة نزلوا يثرب في العصور القديمة فيما يقرب من سنة (٢٦٠٠ ق. م)[٣].

واختلفت الروايات التاريخية في بيان أسباب ودوافع هذه الهجرة نذكر منها:

الرواية الأُولى: أنَّ موسى بن عمران عليه السلام بعث إلى الكنعانيّين حين أظهره

---

(١) الندوي - السيرة النبوية: ١٨١ - ١٨٢ (مرجع سابق). وانظر القصة التي رواها ابن هشام: ٢ / ٢٠٤.

(٢) المفصل: ٤ / ١٢٩، وما بعدها، و: ٦ / ٥١٧ وما بعدها.

(٣) مولاي - محمد علي: محمد رسول الله: ترجمة: مصطفى فهمي: القاهرة: ١٩٤٥ م.

الله تعالى على فرعون، فوطىء الشام وأهلك من كان بها منهم، ثم بعث بعثاً آخر إلى الحجاز إلى العماليق. . . فقدموا عليهم فقتلوهم وقتلوا ملكهم (الأرقم) وعند عودتهم مُنعوا من قِبل بني إسرائيل من دخول الشام فعادوا إليها فأقاموا بها، فهذا كان أول سُكنى اليهود بالحجاز والمدينة، ثم لحق بهم بعد ذلك بنو كاهن بن هارون عليه السلام[١].

ويستبعد الدكتور جواد علي في المفصل هذه الرواية، لافتقارها إلى سند أو دليل[٢]. ويعقب على هذه الروايات بقوله: هذا النوع الذي ألفنا قراءته في كتب أهل الأخبار، لا أستبعد أن يكون مصدره يهود تلك المنطقة أو من أسلم منهم لاثبات أنّهم ذوو نسب وحسب في هذه الأرضين قديم، وأنهم ذوو بأس شديد، وأنّ تاريخهم في هذه البقعة يمتد إلى أيام الأنبياء وابتداء إسرائيل، وإنهم لذلك الصفوة المختارة من العبرانيين[٣].

الرواية الثانية: وهي مروية عن بعض علماء الحجاز من اليهود، حيث تبين أن سبب نزولهم المدينة، أنّ ملك الروم حينما ظهر على بني اسرائيل ومَلِكَ الشام خَطبَ إلى بني هارون، وفي دينهم أن لا يزوّجوا النصارى فخافوه وانعموا له وسألوه أن يشرّفهم بإتيانه، فأتاهم ففتكوا به وبمن معه ثم هربوا حتى لحقوا بالحجاز وأقاموا بها[٤].

---

(١) الحموي - ياقوت: معجم البلدان: ٧ / ٢٢٩ وما بعدها . و - أبو الفداء - عماد الدين إسماعيل بن علي، تاريخ أبي الفداء المسمّى: المختصر في أخبار البشر: ١ / ١٥٣ - ١٥٤، تحقيق: محمود ديوّب، طبعة دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة الأولى، (١٤١٧هـ - ١٩٩٧م) .

(٢) جواد علي، المفصل: ٤ / ١٣٣ .

(٣) المرجع نفسه: ٦ / ٥١٧ .

(٤) معجم البلدان: ٧ / ٢٢٩ وما بعدها . والسمهودي - نور الدين علي بن أحمد، وفاء الوفا باخبار دار المصطفى: ١ / ١٦٠، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، طبعة دار احياء التراث العربي - بيروت، (د - ت) .

الرواية الثالثة: إنّ علماء اليهود كانوا يجدون في التوراة صفة النبيﷺ وإنه يهاجر إلى بلد فيه نخيل بين حرّتين، فأقبلوا من الشام يطلبون الصفة؛ حرصاً منهم على اتباعه، فلما رأوا تيماء وفيها النخل عرفوا صفته، وقالوا: هو البلد الذي نريده، فنزلوا وكانوا أهله حتى أتاهم تُبّع فأنزل معهم بني عمرو بن عوف...[(١)].

هذه الروايات التاريخية تعكس لنا أهداف ودوافع الهجرة الجماعية للقبائل اليهودية إلى الحجاز، ونزولهم إلى مدينة يثرب إلاّ أنها مجرّد روايات تاريخية تفتقر إلى سند صحيح ومصلحة الوضع فيها واضحة.

والذي يبدو من خلال بحوث ودراسات بعض الباحثين أن سيل الهجرة إلى يثرب من قبل اليهود لم تنقطع، فكانت هنالك هجرة ثانية نتيجة الاضطهاد الديني الذي تعرضوا له في بلدانهم الأصلية حيث «أدّت الثورات التي قام بها اليهود في أورشليم على الرومان، إلى قيام هؤلاء بتشتيتهم وطردهم من فلسطين، وتهديم معبدهم على يد الامبراطور الروماني (طيطس) في سنة (٧٠ م)، وفرَّت جموع كثيرة من اليهود على إثر ذلك إلى الجزيرة العربية، فاستوطن بعضهم أخصب بقاع الحجاز في يثرب وفدك وخيبر ووادي القرى وتيماء، كما نزل بعضهم اليمن وتمكنوا من تهويد جماعة من أهلها. وكان يعيش في يثرب عند هجرة اليهود إليها جماعات يهودية قديمة كانت قد نزحت إليها في عهود قديمة وتغلبت عليها من اصحابها العماليق».

فمجتمع يثرب سنة (٧٠ م) كان يتألف من اليهود القدامى الذين تغلبوا على عماليق يثرب، ومن اليهود الجدد الذين اتخذوا من بلاد العرب دار هجرة أمام اضطهاد الرومان لهم[(٢)].

---

(١) المصدر نفسه: ٧ / ٢٢٩ . والسمهودي، المصدر نفسه: ١ / ١٦٠ .

(٢) المحجوب: محمد يوسف وزميله: (محمد واليهود)، سلسلة (مع العرب) عدد ٤ / ١٩، وانظر: محمد جمال الدين سرور: قيام الدولة العربية الاسلامية: ٤٣ .

يقول أحد المتخصصين بتاريخ اليهود: «بعد حرب اليهود والرومان سنة (٧٠ م) التي انتهت بخراب بلاد فلسطين، وتدمير هيكل بيت المقدس، وتشتّت اليهود في أصقاع العالم، قصدت جموع كثيرة من اليهود بلاد العرب، كما حدثنا عن ذلك المؤرخ اليهودي «يوسف» الذي شهد تلك الحروب، وكان قائداً لبعض وحداتها»[١].

قبائل اليهود في المدينة:

وتنقسم يهود المدينة إلى ثلاث قبائل كبيرة رئيسية، وهي: «قينقاع» و «النضير» و «قريظة» وهي القبائل اليهودية الأم، ولهذه القبائل بطون وفروع وتوابع يلتحقون بها، وينسبون إليها كَ «بني هدل» و «بني زنباع» و «بني عوف» و «بني جفنة» و «بني الحارث» وغيرها، حتى أن السمهودي يقول: «إنّ يهود كانوا نيفاً وعشرين قبيلة»[٢].

وكانت العلاقة بين هذه القبائل الثلاث مضطربة متوترة، وقد يكون بعضها حرباً على بعض، يقول الدكتور إسرائيل ولفنسون: «قد كانت هنالك عداوة بين بني قينقاع وبقيّة اليهود، سببها أن بني قينقاع كانوا قد اشتركوا مع بني الخزرج في يوم «بعاث» وقد اثخن بنو النضير وبنو قريظة في بني قينقاع، ومزّقوهم شرَّ ممزَّق. . . وقد استمرت هذه العداوة بين البطون اليهوديّة بعد يوم «بعاث» حتى وقعت الحرب بين الأنصار وبين بني قينقاع، فلم ينهض معهم أحد من اليهود في محاربة الأنصار»[٣].

---

(١) والفنسون: د - اسرائيل: تاريخ اليهود في بلاد العرب في الجاهلية وصدر الإسلام: ٧٨، قدم له الدكتور: طه حسين، ط . دار مكتبة بيبلسون، جبيل - لبنان، (٢٠٠٦ م) .

(٢) وفاء الوفا: ١ / ١٦٥ . (مصدر سابق).

(٣) تاريخ اليهود في بلاد العرب: ٢٥٠ (مرجع سابق) .

وقد اشار القرآن الكريم إلى عداوة اليهود فيما بينهم بقوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَآءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٨٤﴾ ثُمَّ أَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَٰرِهِمْ تَظَٰهَرُونَ عَلَيْهِم بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَٰرَىٰ تُفَٰدُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ﴾[1].

وهؤلاء اليهود على عادتهم كانوا يعيشون حياتهم الخاصة في عزلة نسبية عن المجتمع، فكانوا يعيشون في أحياء وقرى مختلفة خاصة بهم، فكانت بنو قينقاع يسكنون داخل المدينة في محلَّة خاصة بهم، وكانت مساكن بني النضير في العالية بوادي «بطحان» على بعد ميلين من المدينة، وكانت بنو قريظة يسكنون في منطقة مهزور، التي تقع على بعد بضعة أميال من جنوب المدينة.

والمعروف تاريخياً أن هؤلاء اليهود قد اختاروا من جزيرة العرب أخصب مواضعها مثل وادى القرى، وهو وادي خصب غزير المياه، ووادي بطحان وهو أيضاً من الوديان العامرة بالنخيل، والزروع، ومثل واحة خيبر وهي حرة خصبة ذات مياه وغيرها[2].

وفي يثرب أقام اليهود لهم حصوناً وآطاماً[3] يعيشون فيها متكتلين، ويلجأون إليها في أوقات الغارات، ويتحصَّنُ فيها النساء والأطفال والشيوخ عندما يخرج رجالهم إلى القتال، كما حدث عند حصار الرسول ليهود بني النضير في

---

(١) البقرة: ٨٤ - ٨٥.

(٢) ولفسون، د. اسرائيل: تاريخ اليهود في بلاد العرب: ٨٤.

(٣) أطم وآطام: حصن بُني بحجارة، أو كل بيت مربع مسطح، وورد أنّ (الأطوم): القصور وحصون لأهل المدينة، أو هي الأبنية المرتفعة كالحصون. انظر: تاج العروس: ٨ / ١٨٧، واللسان: ١٢ / ١٩، مادة: (أطم).

العام الرابع للهجرة، فتحصنوا منه في الحصون[١].

وقد أشار القرآن الكريم إلى ما أصاب اليهود من نقمته في قوله تعالى:

﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن دِيَٰرِهِمْ لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ ۚ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا۟ ۖ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا۟ ۖ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ ۚ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِى ٱلْمُؤْمِنِينَ فَٱعْتَبِرُوا۟ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ﴾[٢].

وقوله تعالى ﴿لَا يُقَٰتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِى قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَآءِ جُدُرٍۭ ۚ بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ ۚ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴿١٤﴾ كَمَثَلِ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ۖ ذَاقُوا۟ وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٥﴾﴾[٣].

هذا مجمل أوضاع الجالية اليهودية في يثرب عند هجرة الرسول ﷺ إليها، وسوف نتعرض إلى الجوانب السياسية، والدينية، لهذه الجالية في أبحاث قادمة إن شاء الله.

ج - المهاجرون:

كانت الهجرة الأولى التي هاجرها المسلمون الأوائل هي الهجرة من مكة إلى بلاد الحبشة، بعد أن أصابهم من عتاة قريش ما أصابهم من ألوان الأذى والتعذيب، فخرجوا مخافة الفتنة، وفراراً إلى الله بدينهم، فكانت أوّل هجرة في الإسلام[٤]. حيث بلغ عدد المهاجرين من المسلمين ثلاثة وثمانين رجلا، قَدِمَ بعضهم إلى مكة قبل هجرة النبي ﷺ إلى يثرب، فأقام بها حتى هاجر إلى

---

(١) ابن هشام، السيرة النبوية: ٣/ ٢٠٠، تحقيق: ابراهيم الآيباري وآخرون، طبعة مطبعة مصطفى البابي، القاهرة، (١٣٥٥هـ - ١٩٣٦م).

(٢) الحشر: ٢.

(٣) الحشر: ١٤ - ١٥.

(٤) انظر: ابن هشام، السيرة النبوية: ١ / ٣٤٤ (مصدر سابق).

المدينة، ومنهم من لم يوفق للهجرة، ومنهم من مات بمكة.

وينص ابن هشام على أن «جميع مَن قَدم عليهﷺ مكة من الصحابة من أرض الحبشة ثلاثة وثلاثون رجلا»[١].

وأقام هؤلاء المهاجرون في عزّة ومنعة بأرض الحبشة إلى حين فتح خيبر في شهر محرم من السنة السابعة من الهجرة حيث قدم عليهﷺ جعفر بن أبي طالب مع أصحابه، وفرح عندها رسول اللهﷺ وقال: «ما أدري بأ يّهما أنا أسرُّ: بفتح خَيبر، أم بقدوم جعفر»[٢].

أما الهجرة الثانية فكانت إلى يثرب وهي الهجرة الأوسع والأشمل، وقد مرَّ بنا سابقاً أن رسول اللهﷺ أمر الصحابة بعد العقبة الثانية بالخروج إلى المدينة والهجرة إليها، واللحوق باخوانهم الأنصار، وقالﷺ : «إنّ الله عزوجلّ قد جعل لكم إخواناً وداراً تأمنون بها»، فخرجوا أرسالا[٣]. أي جماعة في إثر جماعة.

وشكَّل هؤلاء المهاجرون طبقة اجتماعية كبيرة، لها تطلعاتها وأهدافها وخصائصها، ولها في نفس الوقت مشاكلها الاقتصادية والنفسية والاجتماعية التي أفرزتها الهجرة.

فهؤلاء المهاجرون قد هاجروا من مكة إلى المدينة فراراً بدينهم، تاركين الوطن، والأهل، والولد، والدور والمال، مجرَّدين من كلِّ شيء إلاّ من الايمان الراسخ، وقليل من هؤلاء ممن تمكن من اصطحاب زوجه وولده.

وقد عانى المهاجرون في مبدأ قدومهم شدة ومرضاً وغربةً ووحشة،

---

(١) المصدر نفسه: ٢ / ٨ .

(٢) المصدر نفسه: ٣ / ٣٥٩ .

(٣) المصدر نفسه: ٢ / ١١١ .

ولكنهم لم يلبثوا - بفضل اخوانهم الأنصار - أن تعوَّدوا على جو المدينة، وأن يندمجوا في المجتمع الجديد، وصارت المدينة وطناً لهم، وأبدلهم الله بالأهل أهلا، وبالمال مالا.

وكان لتدبير النبيﷺ وحكمته من خلال عملية المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار، ومن خلال وثيقة العهد - التي سوف نتحدث عنهما لاحقاً - الأثر الكبير في هذا الاندماج بالاضافة إلى عامل المواساة التي بلغ ذكرها في نفوس الأنصار، بالاضافة إلى صفات الصبر والثبات والتفاني التي وسمت شخصية المهاجرين.

وقد نزل هؤلاء المهاجرون ضيوفاً على اخوانهم الأنصار في دورهم ومنازلهم، معززين مكرمين، حيث نزل أصحاب العوائل على أصحاب العوائل ونزل الأعزاب على سعد بن خيثمة، وذلك أنه كان عازباً لا أهل له، وكان منزله منزل الأعزاب من أصحاب رسول اللهﷺ من المهاجرين «وكان يقال بيت سعد ابن خيثمة بيت الأعزاب»[1] فالأنصار أكرموا المهاجرين اكراماً عظيماً ليدفعوا عنهم غوائل الحاجة، فكانوا يحرمون أنفسهم لمساعدة إخوانهم في الإسلام حتى صاروا يضرب بهم المثل الأعلى في التعاون وحس الخلق.

وقد حفظ القرآن الكريم هذه الخصلة العظيمة للأنصار في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾﴾[2].

وفي المقابل قابل المهاجرون كرم الأنصار بالتعفف وعزّة النفس شاكرين

(١) المصدر نفسه: ٢ / ١٢٨ .

(٢) الحشر: ٩ .

لهم مواساتهم، وساعين إلى العمل بما يقدرون عليه، ورفضوا أن يكونوا عالة على اخوانهم الأنصار.

روى البخاري ومسلم:

«قدم عبد الرحمن بن عوف، فآخى النبيﷺ بينه وبين سعد بن الربيع الأنصاري، فعرض عليه أن يناصفه أهله وماله، فقال عبد الرحمن: بارك الله لك في أهلك ومالك، دلني على السوق...»(١).

وهكذا بعد فترة زمنية قليلة تحسنت أوضاع هؤلاء المهاجرين المعاشية والسكنية، إلاّ ثُلة قليلة منهم، لم يكن لهم دار ولا مأوى، أنزلهم رسول اللهﷺ المسجد، وسماهم أصحاب (الصُّفَّة)، وكانﷺ يجالسهم ويأنس بهم(٢).

قال الحافظ ابن حجر: «الصُّفَّة مكان فى مؤخر المسجد النبوي مظَلّل أُعد لنزول الغرباء فيه ممن لا مأوى له ولا أهل، وكانوا يكثرون فيه ويقلون بحسب من يتزوج منهم أو يموت أو يسافر، وقد سرد أسماءهم أبو نعيم فى الحلية فزادوا على المائة»(٣).

---

(١) البخاري: المجلد الثاني الجزء الرابع: ٢٦٨ كتاب مناقب الأنصار، حديث ٣٧٨١ .

(٢) وفاء الوفا: ٢ / ٤٥٤ .

(٣) المصدر نفسه: ٢ / ٤٥٣ .

الأسئلة:

١ - ما هي أهم مناهج كتّاب السيرة النبوية في تقسيم العهد النبوي؟

٢ - لماذا اتخذ المسلمون من هجرة النبي ﷺ مبدأً لتاريخهم؟ وما هي الأدلة التي تثبت لنا أنَّ النبي ﷺ هو الذي وضع التاريخ الهجري؟

٣ - ما هي المكانة التي تتبوأها مدينة يثرب في نفوس المسلمين؟

٤ - ما هي الأصناف البشرية التي تتشكل منها مدينة يثرب في بداية العهد النبوي؟

٥ - ما هي أسباب الحروب الدامية بين قبيلتي الأوس والخزرج قبل الإسلام؟

الدرس الثاني
ملامح الدولة الإسلامية في المدينة

«القسم الثاني»
الأوضاع الدينية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية لمدينة يثرب

محاور البحث:

١ - ظهور حركة النفاق
٢ - الحالة الدينية والعقائدية
٣ - الخصائص الاجتماعية والاقتصادية
٤ - ملامح الحالة السياسية

- الأسئلة

ملامح الدولة الإسلامية في المدينة / ق ٢
«أوضاع مدينة يثرب»

١ - ظهور حركة النفاق

إلى جانب الشرائح الاجتماعية الثلاث (الأنصار - اليهود - المهاجرون) تشكَّلت كتلة وشريحة اجتماعية، وبرزت ظاهرة مرضية خطيرة، وهي ظاهرة (النفاق والمنافقون).

وشكَّل هؤلاء المنافقون في المدينة جبهة معادية للاسلام وللمسلمين، إلاّ أنّها متسربة في وسط المجتمع الاسلامي، وبذلك اصبح المسلمون في المدينة أمام قوى ثلاث تصارع الإسلام وتحاربه: قوّة المشركين، وقوّة المنافقين، وقوّة اليهود.

وقد حاول بعض المؤرخين والمفسرين، وبعض الكتاب القدماء والمحدثين، أن يرجع ظهور حركة النفاق إلى العهد المدني، ونفى أن يكون في مكة وجود للنفاق والمنافقين، بل قالوا إنَّ المنافقين «هم من أهل المدينة من غير المسلمين!! وإنّهم خليط من عرب المدينة ويهودها»(١).

وقد ذكروا جملة من المبررات والترجيحات لنفي وجود (النفاق) في مكة، منها:

«لم يكن في مكة منافقون لأنَّ طبيعة العرب الخُلَّص تأبى النفاق، فإما إيمان

---

(١) انظر: الندوي - السيرة النبوية: ٢٠٢ (مرجع سابق)، وسيد قطب، في ظلال القرآن: ١ / ٤٤ وما بعدها، طبعة دار احياء التراث العربي - بيروت، الطبعة الخامسة، (١٣٨٦ هـ - ١٩٦٧ م).

صادق، وإمّا كفر ظاهر، وإنّما نجم النفاق في المدينة، فقد كان يساكن العرب فيها اليهود، وهم قومٌ مخادعون منافقون بطبيعتهم، وعنهم أخذ عرب المدينة الذين لم يسلموا مِن هذا الخُلُق الرذيل»[١].

والذي نلاحظه في هذا الوجه هو إرجاع ظاهرة النفاق إلى كونها ظاهرة سلوكية أخذها عرب المدينة من خلال معاشرتهم لليهود، مع أنّ النفاق - كما يُفهم من النصوص الدينية - ظاهرة عقائدية وتعني (اظهار الإسلام وابطان الكفر) وتترجم من خلال سلوك مزدوج في القول والفعل.

ثم إنْ صحَّت نظرية التأثر باليهود وأخذ النفاق منهم، فلماذا يقتصر هذا التأثير على عرب المدينة فقط؟ ولماذا لا يشمل عرب مكة من المهاجرين إلى المدينة، الذين طالت معاشرتهم ومصاحبتهم لليهود؟

وهنالك وجه آخر ذهب إليه أغلب من نفى وجود حركة النفاق في مكة، واقتصرها على العهد المدني، وهو: «وجود المصالح المادية والدنيوية» الداعية لهذا الأمر في تشكّل المجتمع المدني.

يقول أحد الكتّاب المحدثين: «لم يكن في مكة نفاق، لأنّ الإسلام كان هناك مغلوباً على أمره، وكان كلُّ من يدخل فيه يعرِّض نفسه للخطر والضرر، فلا يقبل عليه إلاّ من صدق عزمه، وقوى إيمانه، وجازف بحياته ومستقبله، ولم تكن هنالك قوتان متماثلتان، إنما كان المشركون الأقوياء القاهرون، والمؤمنون المضطهدون المستضعفون، وقد صوره القرآن بقوله البليغ: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٢٦﴾﴾[٢] فلما انتقل الإسلام إلى المدينة واستقرّ

---

(١) جواد علي، المفصل في تاريخ العرب: ٦/ ٤٣٥ .

(٢) الانفال: ٢٦ .

رسول الله وأصحابه فيها، وبدأ الإسلام ينتشر... تغير الوضع ونجم النفاق ورفع رأسه، وكان ظاهرة طبيعية نفسيّة لابدَّ منها، فإنما تظهر بادرة «النفاق» في بيئة تجمع بين دعوتين متنافستين، وقيادتين متقابلتين، هناك يوجد عنصر مضطرب يتأرجح بين هاتين الدعوتين، ويتردد في إيثار إحداهما على الأُخرى. وقد ينحاز إلى دعوة فيكون في معسكرها، ويعطيها ولاءه وحبه العاطفي، إلاّ أنّ مصالحه المادية وانتشار الدعوة المقابلة، لا يسمح له بإعلان موقفه، والإنضواء الى الدعوة الأُولى... وقد صور القرآن هذا الموقف المضطرب تصويراً دقيقاً، فقال: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعۡبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرۡفٖۖ فَإِنۡ أَصَابَهُۥ خَيۡرٌ ٱطۡمَأَنَّ بِهِۦۖ وَإِنۡ أَصَابَتۡهُ فِتۡنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجۡهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةَۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡخُسۡرَانُ ٱلۡمُبِينُ ۝١١﴾[1].

وهم الذين وصفهم بقوله: ﴿مُّذَبۡذَبِينَ بَيۡنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِۚ﴾[2].

وذكر بعضهم أن حركة النفاق بدأت بدخول الإسلام المدينة واستمرت إلى قرب وفاة النبي ﷺ حيث انقطع النفاق بعد رحلة النبي ﷺ[3].

هكذا استدل هؤلاء لاثبات عدم وجود منافقين بين المسلمين الأولين في مكة.

إلاّ أننا عندما نتأمل في أصل الدعوى وما ذكر لها من مبررات وحجج وعلل نجدها قابلة للمناقشة من جهات متعددة، والتدبر في وقائع أحداث السيرة النبوية في عهديها المكي والمدني يبطل هذه الدعوى من الأساس. فلا يوجد دليل مقنع على عدم تسرب النفاق في متبعي النبي ﷺ بمكة قبل الهجرة.

---

(١) الحج: ١١ .

(٢) النساء: ١٤٣ .

(٣) الندوي: السيرة النبوية: ٢٠٢ - ٢٠٣ بتلخيص . (مرجع سابق) .

وما ذكر من مبررات وعلل فهي غير تامة، فإنّ علل النفاق لا تنحصر في المخافة والاتقاء أو الاستدرار من خير معجَّل، حتى يحكم بانتفاء النفاق بانتفائها، فمن علل النفاق «الطمع» ولو في نفع مؤجَّل، ومنها (العصبية) و(الحمية) ومنها استقرار العادة ومنها غير ذلك، ولا دليل على انتفاء جميع هذه العلل عن جميع مَن آمن بالنبيﷺ بمكة قبل الهجرة، وقد نقل عن بعض أنّه آمن ثم رجع، أو آمن عن ريب ثم صلح ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ . . . ﴾[1].

أ مّا ما استدلَّ به من آيات قرآنية، فهنالك آيات قرآنية في مقابلها تدلُّ على وجود النفاق في مكة، كقوله تعالى: ﴿وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْكَٰفِرُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا﴾[2] فهذه الآية الكريمة قد وردت في سورة المدثر، وهي مكية.

وكقوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ وَلَئِن جَآءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِى صُدُورِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠﴾ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ ﴿١١﴾﴾[3].

والآيتان في سورة مكية، وهي سورة العنكبوت، وهما ناطقتان بوجود النفاق فيها. ومع الغض عن كون السورة مكية فاشتمال الآية على حديث الإيذاء في الله والفتنة أصدق شاهد على نزول الآيتين بمكة، فلم يكن بالمدينة إيذاء في الله وفتنة، واشتمال الآية على قول: ﴿وَلَئِن جَآءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ﴾ لا يدل على النزول بالمدينة فللنصر مصاديق أُخرى غير الفتح المعجَّل.

واحتمال أن يكون المراد بالفتنة ما وقعت بمكة بعد الهجرة غير ضائر فإنَّ هؤلاء المفتونين بمكة بعد الهجرة إنما كانوا من الذين آمنوا بالنبيﷺ قبل الهجرة

---

(١) المنافقون: ٣ .

(٢) المدثر: ٣١ .

(٣) العنكبوت: ١٠ - ١١ .

وان أوذوا بعدها.

وعلى مثل ذلك ينبغي أن يحمل قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعۡبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرۡفٖۖ فَإِنۡ أَصَابَهُۥ خَيۡرٌ ٱطۡمَأَنَّ بِهِۦۖ وَإِنۡ أَصَابَتۡهُ فِتۡنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجۡهِهِۦ﴾(١) إن كان المراد بالفتنة العذاب، وان كانت السورة مدنية(٢).

أما دعوى انقطاع النفاق بعد رحلة النبي ﷺ، فهي دعوى لا تستند إلى دليل، نعم انقطع عنا الوحي برحلة الرسول الأكرم ﷺ ومعها انقطع عنا أخبار المنافقين، ولم نعد نسمع عن دسائسهم، ومكرهم، ومكايدهم للإسلام والمسلمين شيئاً.

فهل كان ذلك لأنّ المنافقين وفقوا للاسلام وأخلصوا الايمان عن آخرهم برحلة النبي ﷺ، وتأثرت قلوبهم بموته ما لم تتأثّر بحياته؟

أو أنهم صالحوا أولياء الحكومة الإسلامية على ترك المزاحمة بأن يسمح لهم ما فيه أمنيتهم مصالحة سرّية بعد الرحلة أو قبلها؟

أو أنه وقع تصالح اتفاقي بينهم وبين المسلمين فوردوا جميعاً في مشرعة سواء فارتفع التصادم؟

لعلَّ التدبر الكافي في حوادث آخر عهد النبي ﷺ والفتن الواقعة بعد رحلته يهدي إلى الحصول على جواب شاف لهذه الأسئلة(٣).

ومهما يكن من أمر فقد شكل هؤلاء المنافقون مع اليهود الذين حقدوا على

---

(١) الحج: ١١.

(٢) الطباطبائي - محمد حسين، الميزان في تفسير القرآن: ٢٠ / ٩٠ - ٩١ و ١٩ / ٢٨٧ وما بعدها، طبعة مؤسسة الأعلمي - بيروت، الطبعة الثانية، (١٩٧٤ م).

(٣) المصدر نفسه: ١٩ / ٢٩٠.

رسول الله ﷺ وعلى الإسلام والمسلمين، كتلة اجتماعية في المدينة، وتآمروا على الشر والعداوة للإسلام.

وتزعَّم هؤلاء المنافقين رجل من بني عوف يدعى (عبد الله بن أُبي بن سلول العوفي) كان قومه قد نظموا له الخرز ليتوجوه ثم يملكوه عليهم، فلما انصرفوا عنه إلى الإسلام ضَغن، وحقد، ورأى أن رسول الله ﷺ قد استلبهُ ملكاً، فلما رأى قومَهُ قد أبوا إلاّ الإسلام دخل فيه كارهاً مصرّاً على نفاق وضغن.

«عن ابن هشام وكان عبد الله بن أُبي بن سَلول، رأس المنافقين، وإليه يجتمعون، وهو الذي قال: «لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل» في غزوة بني المصطلق، وفي قوله ذلك نزلت سورة المنافقين بأسرها»[١].

ومن المفارقات العجيبة أن عبد الله هذا رأس المنافقين، كان له ابن من خيار المسلمين وأصدقهم إيماناً حتى أنّه عرض على النبي ﷺ أن يقتل أباه، فأبى النبي ﷺ وقال: «بل نَترفَّق به ونُحسن صحبته ما بقي معنا»[٢].

وقد فضح الله سبحانه هؤلاء المنافقين بآيات قرآنية كثيرة، وسوف يأتينا بعض أخبارهم في ثنايا بعض الدروس القادمة إن شاء الله.

٢ - الحالة الدينية والعقائدية

• عبادة الأوثان:

كانت العبادة الوثنية هي العبادة السائدة في الجزيرة العربية، وكان العرب - منهم أهل يثرب - تابعين لقريش وأهل مكة في عبادتهم وأوثانهم، ينظرون إلى

---

(١) ابن هشام: ٢ / ٢٣٤ .

(٢) المصدر نفسه: ٣ / ٢٩٣ .

قريش كسدنة للبيت وقدوة في الاعتقاد والعبادة.

وكان لهؤلاء العرب الجاهليين أصنام معروفة يعبدونها قبل الإسلام، إلاّ أنَّ علاقتهم ببعض الأصنام كانت أقوى من علاقتهم ببعضها الآخر.

ومن أشهر هذه الأصنام هي الأصنام الأناث - بزعمهم - وهي (اللات، والعزى، ومناة)[١] واختصت الثالثة بأهل المدينة، ويُعَدُّ هذا الصنم من أقدم الأصنام عند الاخباريين، والرأى الغالب بين أهل الأخبار أنه كان على ساحل البحر من ناحية المُشَلَّل بقديد على بعد سبعة أميال من المدينة[٢].

ويظهر من ابن الكلبي أنّ هذا الصنم كان معظماً، وخاصة عند الأوس والخزرج «فكانوا يحجّون ويقفون مع الناس المواقف كلها ولا يحلقون رؤوسهم فاذا نفروا أتوا مناة وحلقوا رؤوسهم عنده وأقاموا عنده لا يرون لحجهم تماماً إلاّ بذلك» وكان لهذا الصنم (سدنة) وتلبية خاصة: «يهلون منها للحج إلى الكعبة»[٣].

وكانت هذه القبائل تنظر إلى (مناة) على أنه إلها كريماً يسعد عباده ويساعدهم في المكاره والملمات ويعطيهم ما يحتاجون اليه، وكانوا يسمون به فيقال: (عبد مناة) و (زيد مناة) و (عوذ مناة)[٤].

وبعد أن دخل الإسلام إلى يثرب وانتشر بين أهلها انقطعت صلة الأوس والخزرج من سكان المدينة بهذه الأصنام عامة وبصنم مناة خاصة، إلاّ ثلة قليلة

---

(١) انظر سورة النجم: ٢٠ .

(٢) جواد علي، المفصل: ٦ / ٢٤٦ .

(٣) الكلبي - هشام بن محمد بن السائب، كتاب الاصنام: ١٤، تحقيق أحمد زكي باشا، طبعة القاهرة، (د - ت) .

(٤) المصدر نفسه: ١٣ .

من المنافقين أو ممن بقي على شركه.

وقد بقي سدنة هذا الصنم يرتزقون باسمه، إلى أن كان عام الفتح، فانقطع رزقهم بهدمه وبانقطاع سدانته، فلما سار رسول الله في سنة ثمان للهجرة - وهي عام الفتح - أربع أو خمس ليال من المدينة، بعث (علياً عليه السلام) إليه، فهدمه وأخذ ما كان له، فأقبل به إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم فكان فيما أخذ سيفين كان الحارث بن أبي شُمر الغساني ملك غسان أهداهما له، أحدهما: يسمى مخذماً، والآخر: رسوباً، فوهبهما النبي لعلي عليه السلام فيقال: إنّ ذالفَقار، سيف علي أحدهما[1].

● **الديانة اليهودية:**

انتشرت الديانة اليهودية في بلاد اليمن خاصة عن طريق اتصال ملوك حمير وغيرهم باليهود وتهودهم، ثم هاجرت مجاميع منهم إلى بلاد العرب الشمالية والحجاز، واستقرت جماعات منهم في يثرب وخيبر ووادي القرى وتيماء، واختلطوا بالعرب وتعايشوا معهم، واحتكروا بعض الحِرَف والصناعات.

وتحدّثنا الروايات التاريخية بأنّ الديانة اليهودية كانت قد وجدت لها سبيلا بين العرب، وأنّ بعض القبائل العربية دخلوا فيها.

وذكر (اليعقوبي) أنّ من تهوَّد من العرب «اليمن بأسرها، كان تُبَّع حمل حبرين من أحبار يهود إلى اليمن فأبطل الأوثان، وتهوَّد مَن باليمن، وتهوَّد قوم من الأوس والخزرج بعد خروجهم من اليمن لمجاورتهم يهود خيبر وقريظة والنضير، وتهوَّد قوم من بني الحارث بن كعب، وقوم من غسان وقوم من جذام»[2].

---

(١) جواد علي، المفصل: ٦ / ٢٤٨ - ٢٤٩ وما بعدها.

(٢) اليعقوبي - أحمد بن أبي يعقوب، تاريخ اليعقوبي: ١ / ٢٢٦ وما بعدها، طبعة دار صادر - بيروت، (د - ت).

وذكر بعض المفسرين في تفسيرهم لقوله تعالى: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ﴾[١] أنّها نزلت في الأنصار، حيث كانت المرأة المِقلات[٢] في الجاهلية تنذر إن عاش لها ولد أن تهوده، فهود قوم منهم. . .[٣].

هكذا تسربت الديانة اليهودية إلى جزيرة العرب، وإلى يثرب خاصّة، وإنّ قوماً من أهلها دخلوا في دين اليهود.

إلاّ أنّ تأثير الديانة اليهودية كان محدوداً، ولم تنتشر اليهودية بين العرب بشكل واسع، يقول الدكتور جواد علي: «نستطيع أن نقول: إنّ اليهودية كانت من ناحية التبشير عند ظهور الإسلام جامدة خامدة، لا يهمها نشر الدين بقدر ما تهمها المحافظة على الحياة وعلى المركز الذي توصلت إليه وعلى تجارتها التي تعود عليها بمال غزير، فكانت لهذا لا تهتم بحركة إلاّ إذا وجدت فيها فائدة لها، ومنفعة ترجى منها، ولا تحارب رأياً إلاّ وجدت أنه سيكون خطراً عليها»[٤].

ولعلّ هنالك أسباباً أُخرى أدت إلى عدم انتشار اليهودية في الجزيرة العربية ويثرب، والتي منها عدم اهتمام اليهود أنفسهم بالتبشير بدينهم اعتقاداً منهم بأنهم شعب الله المختار وأن سواهم من الشعوب غير جدير بذلك، ومنها احتقار العرب لهم، لما عرفوا به من صفات ذميمة كالتهافت على جمع المال ونقض العهود، ومنها أنّ شعائر اليهود المعقدة نفرت من التقيد بها[٥].

• الديانة النصرانية:

ولم تكن اليهودية، الديانة السماوية الوحيدة التي وجدت لها سبيلا إلى

---

(١) البقرة: ٢٥٦ .

(٢) المِقلات: المرأة التي لا يعيش لها ولد .

(٣) للتوسع: انظر: تفسير الطبري: ٣ / ١٠ وما بعدها، وتفسير القرطبي: ٣ / ٢٨٠ وما بعدها .

(٤) جواد علي، المفصل: ٦ / ٥٤٩ وبعدها .

(٥) المصدر نفسه: ٤٣٥ .

جزيرة العرب، بل وجدت ديانة سماوية أُخرى طريقاً لها إلى جزيرة العرب، هي الديانة النصرانية.

والديانة النصرانية أحدثُ عهداً من الديانة اليهودية، لأنها قامت بعدها، ونشأت على أسسها ومبادئها، ولكنها كانت أوسع أُفقاً وتفكيراً من الأُولى.

فبينما حَبَست اليهودية نفسها في بني إسرائيل، وجعلت إلهها إله بني إسرائيل، وسَمَّت نفسها بشعب الله المختار، جعلت النصرانية ديانتها ديانة عالمية جاءت لجميع البشر، وبينما قيّدت اليهودية أبناءها بقيود تكاد تضبط حركاتهم وسكناتهم، وفرضت عليهم فروضاً ثقيلة، نجد النصرانية أكثر تساهلا وتسامحاً. وقد قام رجال الدين النصارى منذ أول نشأتها بالتبشير بها، وبنشرها بين الشعوب، وبذلك تميزت عن اليهودية التي جمدت، واقتصرت على بني إسرائيل(١).

ولا تعيِّن لنا النصوص التاريخية بدقة الزمن الذي دخلت فيه الديانة النصرانية إلى جزيرة العرب، وإنْ حاولت مؤلفات بعض رجال الكنيسة ردّ ذلك التاريخ إلى الأيام الأولى من التأريخ النصراني(٢).

لكنَّ الدكتور جواد علي يشكِّك في ذلك باعتبار أنّ حججهم غير كافية للإقناع(٣).

إلاّ أنّ النصوص التاريخية تدلُّ على دخول بعض سادات القبائل مع قبائلهم في النصرانية، بفضل جهود المبشرين الذين كانت لهم بعض المعرفة بالطب والمنطق، ولما يتمتَّعون به من وسائل الاقناع وكيفية التأثير في النفوس، كذلك

---

(١) المفصل: ٦ / ٥٨٢.

(٢) انظر: لويس شيخو، النصرانية وآدابها، القسم الأول، بيروت (١٩١٢م).

(٣) انظر: المفصل: ٦ / ٥٨٦ وما بعدها.

دخل أُناس من العرب في النصرانية باتصالهم بالتجار النصارى وبمجالستهم لهم، كذلك دخلت النصرانية جزيرة العرب مع بضاعة مستوردة من الخارج - بحسب تعبير الدكتور جواد علي - وهي تجارة الرقيق من الجنسين، وهي تجارة رابحة من جهة، ولها تأثيرها الاجتماعي والديني من جهة أُخرى حيث كان أكثر هؤلاء الرقيق ولا سيما قبل ظهور الإسلام على النصرانية، وكان الكثير منهم يقرأ ويكتب ويفسر للناس ما جاء في التوراة والإنجيل، ويحدثهم عن النصرانية، ومن الروميّات، والصقليات، والجرمنيات، ممن صرن أُمهات أولاد.

هذا بالاضافة إلى وجود الأديرة النصرانية التي كان لها دور مهم وتأثير واسع في تعريف التجار العرب والوافدين إليها لأغراض مختلفة، بالنصرانية.

وإذا طالعنا ما كتب عن هذه الأديرة وما سجّله أهل الأخبار، أو مؤرخو الكنائس عند أسمائها نعجب من هذا النشاط الذي عرف به الرهبان في نشر الدعوة وفي اقامة الأديرة[١].

«يقول الدكتور جواد علي: . . . ولولا ظهور الإسلام، ونزول الوحي على الرسول، لكان وجه العالم العربي ولا شك غير ما نراه الآن، ولكان العرب على دين النصرانية وتحت مؤثرات ثقافية أجنبية، هي الثقافة التي اتسمت بها هذه الشيع النصرانية المعروفة هذا اليوم»[٢].

وقد وجدت النصرانية لها سبيلا بين عرب بلاد الشام وعرب بادية الشام والعراق أكثر منه في أي مكان آخر، فقد كانت بلاد الشام تحت حكم البيزنطينيين، وديانتهم الرسمية، هي الديانة النصرانية، وكانوا يعملون على نشرها وترويجها بين شعوب امبراطوريتهم، وبين الشعوب الأُخرى.

---

(١) انظر: الشابشتي، كتاب الديارات. تحقيق: كوركيس عواد.

(٢) المفصل: ٦ / ٥٩٠، وما بعدها .

أما عن وجود النصرانية في يثرب عند هجرة النبيﷺ إليها، فلم تذكر لنا الأخبار شيئاً يستحقُّ الذكر عن ذلك، كما أنّ أهل السير لم يشيروا إلى تصادم وقع بين النصارى والمسلمين، ولا إلى مقاومة نصارى يثرب للرسول كالذي وقع بين يهود يثرب والرسول، مما يدلُّ على أنّ النصرانية لم تكن قوية في المدينة، وأنّ جاليتها لم تكن كثيرة العدد فيها. غير أنّ هذا لا يعني عدم وجود النصارى في هذا الموضع الزراعي المهم، فقد كان في المدينة نفر منهم يقومون بمختلف الأعمال التي يعهد إليهم القيام بها.

ويفهم من أحد الأبيات الشعرية للشاعر حسان بن ثابت في قصيدة يرثي بها النبيﷺ حيث يقول:

فرحت نصارى يثرب ويهودُها   لمّا تَوارى في الضريح المُلْحَدِ[١]

إنه كان في يثرب نفر من النصارى كما كان بها قوم من اليهود، ويذكر المؤرخون أنّ النصارى كانوا يسكنون في يثرب في موضع يقال له: سوق النبط[٢].

ويذكر لنا علماء السيرة والتفسير قصة (أبي عامر) بن صيفي، المعروف بالراهب، والذي سمّاه الرسولﷺ بالفاسق، الذي خرج إلى مكة مباعداً لرسول الله، ومعه خمسون غلاماً من الأوس، وهو الذي خرج لحرب رسول الله في أحد، وحزَّبَ الأحزاب لقتال الرسول، وهو الذي أمر المنافقين باتخاذ مسجد ضرار، ويوم فتحت مكة هرب إلى بلاد الروم ومات فيها، وكان له ولد اسمه (حنظلة) أسلم، وهو من شهداء معركة أُحد، وعُرف بـ (غسيل الملائكة)[٣].

---

(١) حسان بن ثابت، الديوان: ٥٩ ، تحقيق: المستشرق هرشفلد.

(٢) المفصل: ٦ / ٦٠١ وما بعدها.

(٣) المفصل: ٦ / ٤٥٩ .

● **أديان أُخرى:**

على رغم انتشار بعض الأديان الأُخرى كالمجوسية والمزدكية والصابئة في أنحاءَ من جزيرة العرب، ودخول بعض القبائل فيها[١] إلاّ أننا لا نجد من المؤرخين من يذكر وجوداً لهذه الديانات في مدينة يثرب، أو أنّ أحداً من سكانها قد اعتنق هذه الديانات.

هذه هي أهم ملامح الحالة الدينية لمدينة (يثرب) عند هجرة الرسول ﷺ إليها.

٣ - الخصائص الاجتماعية والاقتصادية

عرف عن سكان المدينة من الأوس والخزرج أنهم أصحاب نخوة وفروسية وقوة وشكيمة، ألفوا الحرية، ولم يخضعوا لأحد، ولم يدفعوا إلى قبيلة أو حكومة إتاوة أو جباية، وقد جاء ذلك صريحاً في الكلمة التي قالها سعد بن مُعاذ - سيد الأوس - لرسول الله ﷺ في حادثة (الأحزاب) المعروفة، قال: «قد كنّا نحن وهؤلاء القوم على الشّرك بالله وعبادة الأوثان لا نعبد الله ولا نعرفه، وهم لا يَطمَعُون أن يأكلوا منها تمرةً إلّا قرى أو بيعاً»[٢].

وجاءت شهادة المؤرخين لتؤكد هذا المعنى:

يقول ابن خلدون: «ولم يزل هذان الحيان (الأوس والخزرج) قد غلبوا اليهود على يثرب، وكان الاعتزاز والمنعة تعرف لهم في ذلك»[٣].

وجاء في العقد الفريد: «ومن الأزد الأنصار، وهم الأوس والخزرج...

---

(١) المرجع نفسه: ٦ / ٦٩٣.

(٢) ابن هشام، السيرة النبوية: ٣ / ٢٢٣.

(٣) ابن خلدون - عبد الرحمن بن محمد، تاريخ ابن خلدون: ٢ / ٢٨٩.

وهم أعزُّ أنفساً، وأشرفهم همماً، ولم يؤدوا إتاوة قط إلى أحد الملوك»[١].

وكانت قريش - مع مكانتها بين القبائل - تعترف بشرف الأوس والخزرج، وكانوا يصاهرونهم ويتزوجون منهم، في الوقت الذي كانت الأرحام والأنساب يحسب لها حساب كبير في حياة العرب الاجتماعية، وقد تزوج هشام بن عبد مناف (جد النبي) وهو سيد قريش من بني النجار، تزوج (سلمى بنت عمرو بن زيد) من بني عدي بن النجار وهم من الخزرج.

إلاّ أن قريشاً - كعادتها - كانوا يرون لأنفهسم فضلا على بقية القبائل ومنها الأوس والخزرج.

وقد قال: عتبة وشيبة ابنا ربيعة، والوليد بن عتبة، الذين دعوا إلى المبارزة يوم بدر، فخرج إليهم فتية من الأنصار، فقالوا: مَن أنتم؟ قالوا: رهط من الأنصار، قالوا: ما لنا بكم من حاجة، ثم نادى مناديهم: يا محمد! أخرج إلينا أكفاءنا من قومنا فقال رسول الله ﷺ : قم يا عبيدة بن الحارث، وقم يا حمزة، وقم يا علي، فلما قاموا ودنوا منهم، وسموا أنفسهم، قالوا: نعم أكفاء كرام[٢].

وكانوا ينظرون إلى الفلاحة التي كان يمارسها أهل المدينة بحكم طبيعة أرضهم ولاعتمادهم عليها في معاشهم نظرة فيها شيء من الاحتقار، وقد تجلّت هذه النظرة في الكلمة التي قالها (أبو جهل) وهو صريع في أرض المعركة، قد صرعه (ابنا عفراء) وهما من الأنصار، وقد أدركه عبد الله بن مسعود وبه رمق، قال: «لو غير أكّار قتلني»[٣] أي المزارع والفلاح، وهو يُعرِّض بأنّ ابني عفراء من

---

(١) الأندلسي: ابي عمر احمد بن محمد بن عبد ربه / العقد الفريد: ٣ / ٣٣٤ ط (لجنة تأليف والترجمة والنشر، القاهرة).

(٢) ابن هشام، السيرة النبوية: ٢ / ٢٧٧ .

(٣) رواه الشيخان، وانظر: مجمع بحار الانوار: ١ / ٦٨ للعلامة: محمد طاهر الفتني .

الزرّاع، فلو غيرهما قتلني لم يكن علي نقص!!

ومن طريف ما ينقل في هذا المجال، ما رواه العسقلاني في ارشاد الساري قال: إنّ رسول الله ﷺ كان يحدِّث جمعاً من الصحابة عن الجنة، وعن رجل زرع في الجنة فاستوى نباته، فكان إلى جنب الرسول ﷺ رجل من أهل البادية، فلما انتهى الرسول من كلامه قال الأعرابي: والله لا تجده إلاّ أنصارياً، فإنّهم أصحاب زرع، وأما نحن، فلسنا بأصحاب زرع[١].

أما الملامح الاقتصادية ليثرب، والأوضاع المعاشية لسكانها من الأوس والخزرج وغيرهم، فإنّ أرض يثرب وما تبعها من أطراف، هي من الأراضي الخصبة، وقد حَفر أصحابها آباراً بها، وسقوها منها، وغرسوا فيها النخيل وزرعوا بها، واتخذوا لهم بها (الحوائط) و (البساتين)، ويظهر أنّ بعضها كانت واسعة تسقى بآبار غنية بالماء لها جملة نواضح، وهذا يعني أنّ أهل المدينة كانوا مزارعين، وأنّ مزارعهم كانت تأتي عليهم بمال طيِّب، جعل بعضهم من الأثرياء... إلاّ أنّ الوضع السيء الذي كان فيما بين الأوس والخزرج وتقاتل بعضهم مع بعض، أَثَّرَ كلُ ذلك على الزراعة في يثرب وما حولها.

ولما نعمت يثرب بالهدوء والاستقرار النسبي في عهد الرسول ﷺ أقبل بعض المهاجرين على الزراعة فيها، فحفروا الآبار وزرعوا عليها وحوّطوها، وجنوا منها ثمراً طيباً، ولولا الفتوحات الاسلامية التي اجتلبت للمهاجرين والأنصار على السواء، الخيرات الكثيرة التي كانت في الارض المفتوحة لتحوّلت يثرب إلى بساتين ومزارع منتجة تُموِّن الأماكن البعيدة عنها بالتمور والفواكه والخضر[٢].

---

(١) ابن حجر العسقلاني، ارشاد الساري في شرح صحيح البخاري: ٤ / ١٩٠ .

(٢) المفصل: ٧ / ٤١ - ٤٢ . (بتلخيص)

وهذا لا ينفي وجود حركة تجارية في المدينة، ولكنها لم تكن في القوة والانتشار بمكانة الحركة التجارية في مكة، كذلك لا ينفي وجود بعض الصناعات التي كان يمارس أكثرها اليهود الذين كانوا حاذقين في صياغة الذهب والحلي.

٤ - ملامح الحالة السياسية

لم تشهد يثرب وعلى مدى تاريخها الطويل أي حالة من حالات الإستقرار السياسي إلاّ بعد هجرة النبيﷺ إليها، وتأسيس الدولة الاسلامية شأنها في ذلك شأن الجزيرة العربية، ومثلُ سكانها من حيث نظامهم السياسي، مثلُ القبائل العربية الأُخرى، لا تختلف عنهم في شيء من ذلك.

فسكانها من قبيلتي الأوس والخزرج قد طحنتهما الحروب الدامية الطويلة بينهما، وشتت شملهم، وزرعت بينهم البغضاء، وكان آخرها حرب (بعاث) التي انهزم فيها الخزرج، وهي آخر حروبهم، وفي نصِّ الحوار الذي يرويه ابن هشام والذي دار بين رهط من الخزرج، والرسول الأكرمﷺ عند العقبة، ما يسلِّط لنا الضوء على سوء الأوضاع التي وصلوا إليها، فبعد أن كلَّمهم الرسولﷺ وعرض عليهم الإسلام، أجابوه فيما دعاهم إليه... وقالوا له: «إنّا تركنا قومنا، ولا قوم بينهم من العداوة والشرّ ما بينهم، فعسى أن يجمعهم الله بك، فسنقدم عليهم، فندعوهم إلى أمرك ونعرض عليهم الذي أجبناك إليه من هذا الدّين، فإن يجمعهم الله عليه فلا رجل أعزّ منك»[1].

وكانت الأوس والخزرج قبل لقاء العقبة قد اجتمع رأيهم على (عبد الله بن أُبي) وقد نظموا له الخرز ليتوّجوه ثم يملّكوه عليهم، فجاءهم الله تعالى برسولهﷺ وهم على ذلك، فلما انصرف قومُهُ عنه إلى الإسلام ضغنَ، ورأى أنّ

---

(١) ابن هشام: ٢ / ٧٠ - ٧١.

رسول الله ﷺ قد استلبه ملكاً[١].

أمّا سكان يثرب من اليهود، فإنّهم كانوا يعيشون فيها متكتلين مستقلين، لم يتمكنوا من إنشاء حكومات يحكمونها بأنفسهم، بل كانوا مستقلين في حماية سادات القبائل ورؤسائها، يؤدون لهم إتاوة في كل عام، مقابل حمايتهم، ودفاعهم عنهم، ومنع الأعراب من التعدّي عليهم، وقد لجأوا إلى عقد المحالفات معهم، وكان لكلِّ زعيم يهودي حليف من الأعراب ومن رؤساء العرب[٢].

وبعد أن دخل الإسلام إلى يثرب وهاجر إليها الرسول ﷺ وأصحابه، كان هؤلاء اليهود يترقبون الوضع السياسي والاجتماعي والدين الجديد وبحذر شديد، وكان موقفهم من الوضع الجديد في بداية الأمر موقفاً محايداً، ولكنَّ ذلك لم يدم طويلا، إذ سرعان ما تحوَّل موقفهم هذا إلى موقف العداء للإسلام والمسلمين، وتكتلوا مع المنافقين من أهل المدينة، ومع الوثنيين من قريش في عداء سافر أدى إلى الدخول في صراع حربي معهم كما سوف يأتينا لاحقاً.

ولو أنّ هؤلاء اليهود آمنوا وشايعوا الإسلام الذي جاء مصدقاً لكتابهم، والنبي ﷺ الذي دعا إلى الايمان بأنبياء بني إسرائيل، وأعلن القرآن على لسان المؤمنين فقال: ﴿كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ﴾[٣] أو أنهم لزموا جانب الحياد، لكان للتاريخ البشري - فضلا عن التاريخ الاسلامي - اتجاه آخر، ولكفيت الدعوة الاسلامية الشيء الكثير من المشاكل والقضايا التي أثارها الصراع بين الإسلام واليهودية.

---

(١) المصدر نفسه: ٢ / ٢٣٤ - ٢٣٥ .

(٢) الندوي: السيرة النبوية: ١٧٣ .

(٣) البقرة: ٢٨٥ .

لقد وصل بهم الحقد والعداء للاسلام إلى حدٍّ تفضيل عبادة أوثان المشركين، على المسلمين الذين يلتقون معهم على عبادة الإله الواحد! فقد روي أنّ قريشاً قالت لعلماء اليهود الذين زاروهم في مكة، محرِّضين لهم على قتال الرسول: «يا معشر اليهود! إنكم أهل الكتاب الأول، والعلم بما أصبحنا نختلف فيه نحن ومحمد، أفديننا خير أم دينه؟! قالوا: بل دينكم خير من دينه، وأنتم أولى بالحق!!»[١].

وكان من أشد هؤلاء اليهود عداوة لرسول الله ﷺ (حييّ بن أخطب) وأخوه (أبو ياسر بن أخطب) وكانا جاهدين في ردّ الناس عن الإسلام بما استطاعا[٢].

يروى عن (صفيّة بنت حييّ بن أخطب) زوج النبي فيما بعد أنها قالت: كنتُ أَحَبَّ ولدِ أبي إليه وإلى عمّي أبي ياسر، لم ألقهما قط مع ولد لهما إلاّ أخذاني دونه، قالت: فلما قدم رسول الله ﷺ المدينة، ونزل قباء، غدا عليه أبي وعمي، مغلّسين، قالت: فلم يرجعا حتى كانا مع غروب الشمس، قالت: فأتيا كالّين كسلانين ساقطين يمشيان الهوينى، قالت: فهششتُ إليهما كما كنت أصنع، فو الله ما التفت إليّ واحد منهما، مع ما بهما من غَمٍّ، قالت: وسمعتُ عمي، أبا ياسر، وهو يقول لأبي حيي بن أخطب: أهو هو؟ قال: نعم والله، قال: أتعرفه وتثبته؟ قال: نعم، قال: فما في نفسك منه؟ قال: عداوته والله ما بَقيتُ[٣]!

هكذا كان موقف اليهود السياسي والديني من دعوة الرسول ﷺ وهو موقف العداء.

---

(١) ابن هشام: ٣ / ٢١٤ .

(٢) المصدر نفسه: ٢ / ١٩٧ .

(٣) ابن هشام، السيرة النبوية: ٢ / ١٦٥ - ١٦٦ .

ولهذا العداء أسبابه ودوافعه، مما سوف نتعرض إلى تحليلها في مواضعها المناسبة مما سيأتي من بحوث هذا الكتاب.

والخلاصة، لم تكن في يثرب قبل الإسلام حكومة مركزية بالمعنى المفهوم المعروف من الحكومة، ولم يتحدَّث أهل الأخبار عن وجود حاكم أو رئيس يحكمها وينظم لها حياتها السياسية والمدنية، أو له سلطة قانونية عليها وعلى أهلها.

وإنما كانت يثرب عبارة عن مجموعة من القرى والشعاب، وكلُّ قرية وشعب لعشيرة، وأمر كلِّ قرية لرئيس قبيلتها وهو وحده صاحب الحلِّ والعقد والنهي والتأديب.

هذه كانت أهم الملامح لموطن هجرة النبي ﷺ يثرب، والتي سمّاها ﷺ بـ (طيبة) و (طابة)، وعُرِفَت عند المسلمين جميعاً بـ (المدينة) أو (مدينة الرسول).

والذي نلاحظه مما تقدم أن مظاهر الحياة في المدينة قد تختلف في بعض أوجهها عن مظاهر الحياة في مكة، إلاّ أنّ المشاكل التي سوف تواجهها دعوته ﷺ في المدينة أكثر تنوعاً، وأكثر تعقيداً مما كان تواجهه ﷺ في مكة، وأنَّ الحلول لهذه المشاكل والتعقيدات لابدَّ أنْ تكون حكيمة وسريعة وحاسمة، وهذا ما قام به النبي ﷺ كما سوف يأتينا إن شاء الله.

الأسئلة:

١ - من هم المنافقون؟ وكيف كان موقفهم من رسول الله ﷺ ودعوته؟

٢ - كيف نناقش الرأي القائل بأنّ حركة النفاق لم يكن لها وجود في مكة، وأنّها وليدة العهد المدني، وأنّها انتهت بوفاة الرسول ﷺ ؟

٣ - ما هي أهمُّ معالم الحالة الدينية والعقائدية لمدينة يثرب قبل هجرة الرسول ﷺ إليها؟

٤ - هل وقع تصادم بين النصارى والمسلمين في يثرب؟ ولماذا؟

٥ - مَن هو أبو عامر بن صيفي الراهب؟ اذكر قصته باختصار؟

٦ - ما هي أهم معالم الحالة الاجتماعية والاقتصادية لمدينة يثرب؟

٧ - كيف كانت الحالة السياسية في المدينة قبل هجرة الرسول ﷺ إليها؟

٨ - ما هو موقف اليهود من الإسلام؟ وضّح ذلك باختصار؟

الدرس الثالث
ملامح الدولة الإسلامية في المدينة

«القسم الثالث»
أُسُسُ بناءِ المُجتمع الإسلامي الجديد

محاور البحث:

١ - الأساس الأول: بناء المسجد
٢ - الأساس الثاني: المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار
٣ - الأساس الثالث: كتابة وثيقة العهد
٤ - الأساس الرابع: إعداد القوّة
٥ - سرايا وغزوات السنَّة الأُولى من الهجرة
٦ - التشريعات الأُولى في المدينة

● الأسئلة

ملامح الدولة الإسلامية في المدينة / ق ٣
«أُسس بناء المجتمع الإسلامي الجديد»

أُسس المجتمع الإسلامي الجديد في المدينة

لم تكن هجرة الرسولﷺ والذين آمنوا به من مكة إلى المدينة، هجرة مكانيِّة الغرض منها ايجاد موطن للراحة أو اللذة أو الثروة، فتكون بذلك قد أراحت واستراحت، كلا لم تكن كذلك وإنما كانت هجرة إلى الله، وابتغاءً لمرضاته وسعياً لتطبيق حاكمية الله في أرضه، وإيذاناً بظهور الدولة الاسلامية بقيادة وتدبير وحكمة الرسول الأكرم ﷺ[١].

وعلى هذا الأساس أخذ رسول اللهﷺ - ومن حين وصوله إلى المدينة - يخطِّط ويعمل من أجل بناء المجتمع الاسلامي الجديد، وتشييد دعائمه وأركانه على أُسس محورية وضمن استراتيجية دقيقة، تنظم الصلات التي تحيط بالانسان المسلم العقائدي من جميع نواحيه، وهي صلة الانسان المسلم بالله، وصلة المسلم بأخيه المسلم، وصلة المسلم بغير المسلم.

وكانت هذه الأُسس تتمثل في الأعمال التالية:

أولا: بناء المسجد.

---

(١) روي عن النبيﷺ: انما الاعمالُ بالنياتِ، وانّما لكلّ امرىء ما نوى، فمن كانت هجرتهُ إلى الله ورسولهِ فهجرتهُ إلى الله ورسوله ومن كانت هجرته إلى دنياً يصيبها، أو إلى إمراة ينكحها، فهجرته إلى ما هاجر اليه رواه البخاري - برواية الحميدي، ورواه مسلم، وأبو داود، والترمذي، والمنذري في الترغيب والترهيب ١ / ٥٦، والمتقي الهندي في الكنز: ٨٢٦٣ .

ثانياً: المؤاخاة بين المسلمين عامة والمهاجرين والأنصار خاصة.

ثالثاً: كتابة وثيقة العهد بين أهل المدينة.

رابعاً: إعداد القوة.

وسوف نتحدث عن هذه الأُسس الأربعة، وما كان يهدف إليه رسول الله ﷺ من خلالها.

١ - الأساس الأوّل: بناء المسجد

ما أن وصل رسول الله ﷺ إلى ضواحي المدينة مهاجراً، حتى كان أول

ما اهتم به بناء المسجد، ومن أجل ذلك بنى المسجد المعروف في قُبا قبل أن يدخل المدينة، ولم يكن مكثُهُ بقباء غير بضعة أيام، فلما دخل المدينة كان أول ما فكر فيه أن يبني مسجده.

روى ابن هشام:

«بركت ناقة رسول الله ﷺ، عند موضع مسجده ﷺ وهو يومئذ مِربَداً[١] لغلامين يتيمين من بني النجار... (سهلٌ وسهيلٌ) ابني عمرو. فلما بركت... نزل عنها رسول الله ﷺ... وسأل عن المِربَد لمن هو؟ فقال له معاذ بن عفراء: هو يا رسول الله لسهل وسهيل ابني عمرو، وهما يتيمان لي، وسأرضيهما منه، فاتخذه مسجداً»[٢].

وفي رواية ابن سعد: فدعا رسول الله ﷺ بالغلامين فساومهما بالمِربَد ليتخذهُ مسجداً، فقالا: بَل نهبهُ لك يا رسول الله، فأبى رسول الله ﷺ حتى ابتاعهُ

---

(١) المربَد: الموضع الذي يجفف فيه التمر.

(٢) ابن هشام، السيرة النبوية: ٢ / ١٤٠ - ١٤١ وما بعدها.

منهما، وعن الزهري: «فابتاعه منهما بعشرة دنانير».

ثم يصف ابن سعد هذه البقعة من الأرض بقوله: «وكان جداراً مجدّراً ليس عليه سقف، وقبلتهُ إلى بيت المقدس، وكان أسعد بن زرارة بناه فكان يصلّي بأصحابه فيه ويجمّع بهم فيه الجمعة قبل مقدم رسول الله ﷺ، فأمر رسول الله ﷺ بالنخل الذي في الحديقة وبالغرقد الذي فيه أن يقطع، وأمر باللّبن فضرب، وكان في المربد قبور جاهلية فأمر بها رسول الله ﷺ فنبشت وأمر بالعظام أن تغيّب... وبنى رسول الله وأصحابه وجعل ينقل معهم الحجارة بنفسه، ليرِّغب المسلمين في العمل فيه، فعمل فيه المهاجرون والأنصار، ودأبوا فيه، فقال قائل من المسلمين:

لئن قعدنا والنبيُّ يعملُ لذاك منّا العملُ المضلّلُ

وارتجز المسلمون وهم يبنونه يقولون:

اللهمَّ لا عيش إلاّ عيش الآخره اللهم ارحم الأنصار والمهاجره

وفي رواية: أن النبي ﷺ جعل ينقل معهم الحجارة بنفسه ويقول:

اللهمَّ لا عيش إلاّ عيش الآخره فاغفر للأنصار والمهاجره

وجعل يقول:

هذا الجمالُ لا جمالَ خيبر هذا أبرُّ، ربّنا، وأطهر»[1]

ومما يتصل بموضوع بناء المسجد يروي ابن هشام قصة إخبار رسول الله لعمار بن ياسر بقتل الفئة الباغية له. قال: «فدخل عمّار بن ياسر، وقد اثقلوه باللّبن فقال: يا رسول الله، قتلوني، يحملون عليّ ما لا يحملون، قالت أُم سلمة زوج النبي ﷺ: فرأيت رسول الله ﷺ ينفض وفرتهُ بيده، وهو يقول: ويحَ ابن

---

(١) ابن سعد، الطبقات الكبرى: ١ / ١١٥، طبعة دار احياء التراث العربي - بيروت، الطبعة الأولى، (١٤١٧ هـ - ١٩٩٦ م).

سمية! ليسوا بالذين يقتلونك، إنّما تقتلك الفئة الباغية»[١].

وارتجز عليّ بن أبي طالب عليه السلام يومئذ:

لا يستوي من يعمر المساجدا يدأبُ فيه قائماً وقاعدا
ومن يُرى عن الغبار حائداً

فأخذها عمّار بن ياسر فجعل يرتجز بها.

قال ابن هشام: «فلما أكثر، ظنّ رجل من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنه إنما يعرِّض به. . . - وقد سمّى ابن إسحاق الرجل[٢] - فقال: «قد سمعت ما تقول منذ اليوم يابن سميّة، والله إني لأراني سأعرض هذه العصا لأنفك، قال: وفي يده عصاً، فغضب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ثم قال: «ما لهم ولعمّار! يدعوهم إلى الجنة، ويدعونه إلى النار، إن عمّاراً جِلدة ما بين عينيّ وأنفي، فإذا بُلغ ذلك من الرجل فلم يُستبق فاجتنبوه»[٣].

قال ابن إسحاق:

«فأقام رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في بيت أبي أيوب حتى بُني له مسجده ومساكنه، ثم انتقل إلى مساكنه من بيت أبي أيوب، رحمة الله عليه ورضوانه»[٤].

وفي وفاء الوفا: «وبناهُ النبي صلى الله عليه وآله وسلم مرتين؛ بناه حين قدِم. . .، فلما فتح الله

---

(١) ابن هشام: ٢ / ١٤٢ .

(٢) قال السهيلي: «وقد سمى ابن إسحاق الرجل، وكره ابن هشام أن يسميه كي لا يذكر أحداً من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بمكروه، فلا ينبغي إذاً البحث عن اسمه!!» الروض الأنف: ٢/٢٤٧، وقال محقق كتاب السيرة النبوية: «وقد سمى ابن إسحاق الرجل فقال: إن هذا هو عثمان بن عفان» . انظر: سيرة بن هشام: ٢ / ١٤٢ . (الهامش) .

(٣) ابن هشام، السيرة النبوية: ٢ / ١٤٣ .

(٤) المصدر نفسه: ٢ / ١٤٢ - ١٤٣ .

عليه في خيبر بناه وزاد عليه مثله»[١].

والذي يبدو أن قصة ذلك الصحابي وعمار قد وقعت حين البناء الثاني للمسجد، كما استقرب ذلك السمهودي في الوفا، ويستفاد ذلك من الرواية نفسها حيث تنص على أنه ﷺ كان يستظلُّ ببيت أُم سلمة، ومن الواضح أنه لم يكن في البناء الأول للمسجد بيتٌ لأُم سلمة، ولم يكن قد تزوجها النبي ﷺ[٢].

● الدلائل المستفادة:

الذي نلاحظه في قصة بناء المسجد، أنّ النبي ﷺ ، وهو يضع أُسس دولة الإسلام، والمجتمع الإسلامي الجديد، يبدأ أولا ببناء المسجد قبل أي عمل آخر في المدينة. وهذا إن دلَّ على شيء، فهو يدلُّ على أن إقامة المسجد، من أهم الأُسس والركائز في بناء المجتمع الاسلامي، وأن للمسجد الأثر الكبير في حياة الدعوة الاسلامية، وله الأثر الأكبر في ايجاد الجماعة الصالحة الفاعلة التي تأخذ على عاتقها حمل رسالة الله إلى خلق الله كافة.

وتكمن أهمية المسجد في المجتمع الاسلامي والدولة الاسلامية فيما يلي:

أولا: إنه يمثل المدرسة التربوية والروحية الأُولى للمسلمين:

لقد اتخذ الرسول الأكرم من مسجده مدرسة للمسلمين، يتلقون فيه كافة مجالات المعرفة الاسلامية، في العقيدة، والشريعة، والأخلاق، وغيرها من الأُمور التربوية.

بالاضافة إلى كونه مركزاً روحياً لممارسة الشعائر الدينية وأداء العبادات.

ثانياً: إنه يمثل المؤسسة الاجتماعية:

كان المسجد - ولا زال - يمثل الخلية الأُولى للبناء الاجتماعي بوصفه أداة

---

(١) انظر: وفاء الوفا: ١ / ٣٣٠.

(٢) المصدر نفسه: ١ / ٣٣٢.

لصهر المؤمنين بالاسلام في بودقة واحدة، حيث يتعلم المسلمون فيها النظام والمساواة، ويمارسون التوحد والاخاء والانضباط، وتشيع بينهم آصرة الاخوة والمحبة والتآلف، من خلال لقائهم اليومي في بيت من بيوت الله، وقد تساقطت فيما بينهم فوارق الجاه والمال والاعتبار، ووقفوا على صعيد مشترك من العبودية له تبارك وتعالى.

ثالثاً: إنه يمثل مركز القيادة الاسلامية:

لقد اتخذ رسول الله ﷺ من مسجده مركزاً ومقرّاً سياسياً وعسكرياً لتوجيه علاقات الدولة في الداخل والخارج، فإن نقص أموال الدولة الاسلامية في سنينها الأُولى، وانشغالها الدائم في الداخل والخارج لم يمكّنها من بناء وإنشاء مزيد من المؤسسات المتخصصة لكي تمارس كل منها المهمة التي عهدت إليها، الأمر الذي جعل المسجد يزدحم بالوظائف والمهام، ويغدو - على بساطته - مجمعاً تلتقي وتصدر عنه كافة عمليات الحكومة، وجزءاً مهماً من نشاطات الجماعة الاسلامية في علاقتها الداخلية والخارجية على السواء[١].

فلم يكن المسجد معبداً ومقراً للعبادة والصلاة وحدها - مع ما للعبادة والصلاة من أهمية في الإسلام - بل كان شأنه شأن الإسلام نفسه شاملا لمختلف نواحي الحياة.

٢ - الأساس الثاني: المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار

والأساس الثاني الذي اعتمده رسول الله ﷺ في سبيل بناء المجتمع الاسلامي ودولة الإسلام، هو أساس صلة الأُمة الاسلامية بعضها مع البعض

---

(١) خليل؛ الدكتور عماد الدين: دراسة في السيرة: ١٤٩، ط مؤسسة الرسالة، بيروت: (١٤٠٩ هـ - ١٩٨٩ م) الطبعة الحادية عشر .

الآخر، من خلال عملية المؤاخاة بين أصحابه من المهاجرين والأنصار، حيث آخى بينهم على الحق والمواساة، وعلى أن يتوارثوا بينهم بعد الممات، بحيث يكون أثر الأُخوة الاسلامية في ذلك أقوى من أثر القرابة[١].

روى ابن هشام عن ابن إسحاق، قال:

«وآخى رسول الله ﷺ بين أصحابه من المهاجرين والأنصار، فقال: «تآخوا في الله أخوين أخوين، ثم أخذ بيد عليّ بن أبي طالب، فقال هذا أخي فكان رسول الله ﷺ سيّد المرسلين، وإمام المتقين، ورسول ربّ العالمين، الذي ليس له خطير ولا نظير من العباد، وعليّ بن أبي طالب رضي الله عنه، أخوين، وكان حمزةُ بن عبد المطلب أسد الله وأسد رسوله ﷺ، وعمُّ رسول الله ﷺ، وزيد بن حارثة، مولى رسول الله ﷺ، أخوين، وإليه اوصى حمزةُ يوم أُحد حين حضره القتال إن حدث به حادث الموت، وجعفر بن ابي طالب ذو الجناحين، الطيّار في الجنة، ومعاذ بن جبل، أخو بني سلمة، أخوين، قال ابن هشام: وكان جعفر بن أبي طالب يومئذ غائباً بأرض الحبشة»[٢].

ثم أورد ابن هشام أسماء الذين تآخوا من المهاجرين والأنصار وعقَّب ذلك بقوله: «فهؤلاء من سمّي ممّن كان رسول الله ﷺ آخى بينهم من أصحابه»[٣].

وفي رواية أحمد بن حنبل: «إنّ النبيّ ﷺ آخى بين الناس، وترك علياً حتى بقي آخرهم، لا يرى له أخاً، فقال: يا رسول الله، آخيت بين أصحابك وتركتني؟!

فقال ﷺ: «إنما تركتك لنفسي، انت أخي، وأنا أخوك، فإن ذكرك أحد،

---

(١) البوطي: فقه السيرة: ٢١٧ .

(٢) ابن هشام، السيرة النبوية: ٢ / ١٥٠ - ١٥١ وما بعدها .

(٣) المصدر نفسه: ٢ / ١٥٣ .

فقل: أنا عبد الله وأخو رسوله، لا يدعيها بعدك إلاّ كذاب. والذي بعثني بالحق، ما أخرتك إلاّ لنفسي، وأنت منّي بمنزلة هارون من موسى، إلاّ أنّه لا نبيّ بعدي، وأنت أخي ووارثي»[١].

والذي يبدو من خلال بعض الروايات أنّ هذه المؤاخاة التي عقدها رسول الله بين المهاجرين والأنصار كانت مسبوقة بمؤآخاة أُخرى أقامها النبيﷺ بين المهاجرين في مكة، قال ابن عبد البر: «آخر رسول اللهﷺ بين المهاجرين بمكة، ثمّ آخى بين المهاجرين والأنصار بالمدينة، وقال في كل واحدة منهما لعلي: «أنت أخي في الدنيا والآخرة» وآخى بينه وبين نفسه»[٢].

● الدلائل والعبر:

الذي نستفيده من دلائل وعبر من هذا الأساس الثاني الذي اعتمده الرّسول القائدﷺ يمكن أن نجمله في الجوانب التالية:

أولا: الأُخوة أساسُ وحدة الأمّة:

إنّ قيام أي دولة لا يمكن أن يتم إلاّ على أساس وحدة الأُمة، ولا يمكن لهذه الوحدة أن تتم إلاّ بوجود مقدماتها الأساسية والتي من أهمها عامل الأُخوة والمحبَّة المتبادلة، والتي أكدها القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ. . . ﴾[٣] وطبقها الرسول الأكرم بين المؤمنين في مكة، وبين المؤمنين من المهاجرين والأنصار في المدينة من خلال عملية المؤآخاة بينهم، التي ذابت معها عصبيات الجاهلية

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في المسند كما في ينابيع المودة للقندوزي: ١ / ١٧٧، وللتوسع انظر: دلائل الصدق للشيخ محمد حسن المظفر: ٦ / ١٢٢، ولاحظ مصادر الحديث في الهامش.

(٢) ابن عبد البر - يوسف، الاستيعاب في معرفة أسماء الأصحاب: ٢ / ٤٧، طبعة دار الفكر - بيورت، الطبعة الأُولى، (١٤٢٣ هـ - ٢٠٠٢ م).

(٣) الحجرات: ١٠.

وفوارق النسب واللون والوطن، وحلَّ محلَّها التعاون والتناصر والمؤانسة.

ثانياً: الأُخوة أساس التكافل الاجتماعي:

مما لا شك فيه أن عملية الهجرة إلى المدينة قد سببت لأكثر المهاجرين أزمة معاشية ومالية، فأراد النبي ﷺ من خلال عملية المؤآخاة، أن يحل هذه الأزمة التي حلّت بالمهاجرين، وينظم علاقاتهم الاجتماعية والاقتصادية على أساس من التوازن والعدل ريثما يستعيد هؤلاء المهاجرون مقدرتهم المالية ويتمكنون من بلوغ مستوى الكفاية الاجتماعية.

ثالثاً: التسامي النفسي في عملية الإخاء: في قصة الإخاء هذه، وما ينقله المؤرخون من صور نبيلة من عواطف الإيثار والمواساة والمؤانسة التي اتصف بها الأنصار، والتي اثنى عليها القرآن الكريم أجلَّ ثناء[1]، وفي صور عِفَّة النفس والنبل وعلو الهمة التي قابلهم بها المهاجرون، تتجلى لنا اسمى صور التسامي النفسي لأصحاب رسول الله ﷺ في ذلك الوقت وتخلصهم من نوازع الأثرة والشح والضّعة.

رابعاً: المدلول العقائدي لعملية المؤاخاة: ولئن كان لعملية المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار مداليلها السياسية والاجتماعية والتربوية، فإنّ لمؤاخاة الإمام علي عليه السلام مع الرسول ﷺ مدلولا عقائدياً خاصّاً، وهو انزال الإمام علي منزلة نفس النبي ﷺ.

وهذه من الحقائق التي أكدها القرآن الكريم في آية المباهلة في قوله تعالى: ﴿فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾[2].

(١) انظر: الآية: ٩ من سورة الحشر.

(٢) آل عمران: ٦١.

فالغرض من مؤاخاة الرسولﷺ لعلي عليه السلام هو: «تعريف بمنزلته، وإظهار لفضله على غيره لأنهﷺ كان يوآخي بين الرجل ونظيره»[1] - كما صرح به المؤرخون - وكما يظهر من دراسة عملية المؤاخاة نفسها.

● وقفة قصيرة مع المنكرين والمشككين في حديث المؤاخاة بين الرسول والوصي عليهما الصلاة والسلام:

يعتبر حديث المؤاخاة من الأحاديث المتواترة والتي لا يمكن انكارها، وهو مروي عن عشرات من الصحابة والتابعين كما ورد في أُمهات المصادر الروائية والتاريخية.

إلاّ أن بعضهم حاول أن ينكر صحة سند الحديث، وخاصة في جزئه المتعلق بمؤاخاة النبيﷺ لعلي عليه السلام. ومن هؤلاء: ابن حزم الاندلسي، وابن كثير الدمشقي، وابن تيمية الحرّاني[2].

إلاّ أن هذا الإنكار لا معنى له بعد تواتر الحديث في كتب المسلمين ورواياته عن عشرات الصحابة والتابعين وخاصة ان كان هذا الانكار من هؤلاء الثلاثة، الذين لهم موقفهم المتعصب اتجاه فضائل علي وأهل بيته عليهم السلام.

وكما حاول بعضهم أن يشكك في مدلول حديث المؤاخاة بين النبيﷺ وعلي عليه السلام بعد أن عجز عن إنكار أصل الحديث لتواتره، وتداوله في عشرات المصادر الاسلامية.

جاء في كتاب فقه السيرة للشيخ محمد الغزالي، الذي خرّج أحاديثه الشيخ محمد ناصر الدين الالباني قال: «وروي في تفصيل هذا الإخاء أن النبيﷺ تآخى

(١) المظفر، دلائل الصدق: ٦ / ١٣١، والغدير: ٣ / ٢٤٦ وما بعدها.

(٢) انظر: الفِصَل في الملل والنحل: ٤ / ١٤٧ البداية والنهاية: ٧ / ٢٥٦ - ٣٧١، ومنهاج السنة: ٢ / ١١٩.

مع علي. . . ومن العلماء من يشك في أُخوة الرسول عليه الصلاة والسلام مع علي. ولكن ما صح أن رسول الله ﷺ جعل علياً منه بمنزلة هارون من موسى يؤيد هذه الرواية».

فالمرحوم الشيخ الغزالي، يثبت أولا تفاصيل تآخي النبي ﷺ مع علي عليه السلام، وينسب التشكيك إلى بعض العلماء، ويثبت ثانياً مدلول الحديث من خلال صحة حديث المنزلة التي يجعلها بمثابة المؤيد لرواية المؤآخاة.

إلاّ ان الشيخ الالباني ينكر هذه الدلالة والتأييد بشدة وانفعال فيقول في الهامش: «قلتُ: كلاّ، لا تأييد، فإنّ الأُخوة المذكورة أخص من تلك المنزلة، ولا يثبت الأخص بالأعم، فلابد من إثبات الأُخوة بنص خاص، وقد تتبعت الأحاديث الواردة فيها فوجدتها لا تخلو من كذّاب. . .»[1] ثمّ أخذ يناقش في سند الحديث برواية الترمذي، والحاكم، واتَّهم رواتها بالضعف والكذب لأنهم من الشيعة أو الرافضة بحسب تعبيره.

وليس لنا إلاّ أن نقول له: قاتل الله التعصب وأهله!! فكيف يمكن لمحدِّث أن يسقط حديث المؤاخاة، بعد تواتره، ومجيئه مثبتاً في الصحاح والمسانيد بعشرات الاسانيد الصحيحة؟

«يقول العلامة الأميني: هذه الأُخوة بالمعنى الخاص الثابتة لأمير المؤمنين ممّا يختص به عليه السلام ولا يدّعيها بعده إلاّ كذّاب، على ما ورد في الصحيح، وكانت مطرّدة بين الصحابة كلقب يعرف به، تداولته الأندية، وحوتهُ المحاورات، ووقع الحجاج به، وتضمّنه الشعر السائر، ولو ذهبنا إلى جمع

---

(١) الغزالي - محمد، فقه السيرة: ١٨٢ - وانظر الهامش رقم (٢) ص ١٨٢ - ١٨٣ من الصفحة نفسها. خرّج أحاديث الكتاب: الشيخ محمد ناصر الدين الألباني، طبعة دار القلم - دمشق، الطبعة الرابعة، (١٤٠٩ هـ - ١٩٨٩ هـ).

شوارد هذا الباب لجاء منه كتاب ضخم، غير أنا نختار منها نبذاً. . . »[١].

٣ - الأساس الثالث: كتابة وثيقة العهد

والأساس الثالث الذي اعتمده النبيﷺ لبناء دولة الإسلام، هو إصدار (وثيقة العهد) التي كانت بمثابة الدستور للدولة الجديدة، تنظم بموجبها العلاقات بين المجتمع المسلم الجديد نفسه، وبينه وبين الكتل البشرية التي تعايشت في المدينة وخاصة اليهود.

وقد ذكر ابن هشام عن ابن إسحاق هذه الوثيقة من دون اسناد، وذكره ابن خيثمة فأسنده[٢] وهو كتاب طويل سوف نجتزىء منه ببعض البنود الهامة بنصوصها الواردة في كتابهﷺ بحسب رواية ابن هشام في السيرة.

قال ابن إسحاق:

«وكتب رسول اللهﷺ كتاباً بين المهاجرين والأنصار، ودعا فيه يهود وعاهدهم، وأقرهم على دينهم وأموالهم، وشرط لهم، واشترط عليهم».

نص وثيقة العهد:

بسم الله الرحمن الرحيم

١ - هذا كتاب من محمد النبيﷺ، بين المؤمنين والمسلمين من قريش وأهل يثرب، ومن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم.

٢ - إنهم أُمة واحدة من دون الناس.

---

(١) الغدير: ٣ / ١٦٣ وما بعدها، حيث اختار الأميني «رحمه الله» من مصادر الحديث والتاريخ، خمسون حديثاً في المؤاخاة.

(٢) انظر سند الحديث برواية ابن خثيمة في كتاب: عيون الأثر لابن سيد الناس: ١ / ١٩٨.

٣ - «المهاجرون من قريش على رِبعَتهم(١) يتعاقلون بينهم(٢) وهم يفدون عانيهم(٣) بالمعروف والقسط بين المؤمنين».

ثم ذكر ﷺ هؤلاء المسلمين جميعاً على اختلاف قبائلهم بنفس الصيغة والسند القانوني السابق وهو: يتعاقلون بينهم، ويفدون عانيهم.

٤ - وإن المؤمنين لا يتركون مفرحاً(٤) بينهم أن يعطوه بالمعروف في فداء أو عقل(٥).

٥ - وأن لا يحالف مؤمن مولى مؤمن دونه.

٦ - وإن المؤمنين المتقين، على من بغى منهم، أو إبتغى دسيعة(٦) ظُلم، أو إثماً، أو عدواناً، أو فساداً بين المؤمنين، وإنّ أيديهم عليه جميعاً، ولو كان وِلدَ أحدهم.

٧ - ولا يقتل مؤمنٌ في كافر، ولا يُنصر كافر على مؤمن.

٨ - وإن ذمة الله واحدة، يجير عليهم أدناهم، وإن المؤمنين بعضهم موالي بعض دون الناس.

٩ - وإنه من تبعنا من يهود فإن له النصر والأُسوة غير مظلومين ولا متناصر عليهم.

١٠ - وإنه لا يحلّ لمؤمن أقرّ بما في هذه الصحيفة وآمن بالله واليوم

---

(١) الرِبْعة: الحال التي جاء الإسلام وهم عليها، أي على أمرهم الذي كانوا عليه.

(٢) العاقلة: عصبة القاتل التي تؤدي عنه دية القتل الخطأ.

(٣) العاني: الأسير.

(٤) المفرح: المثقل بالديون والكثير العيال.

(٥) العقل: الديات، واحدها: معقلة.

(٦) الدسيعة: العظيمة، وهي في الاصل ما يخرج من حلق البعير إذا رغا. وأراد بها هنا: ما ينال عنهم من ظلم.

الآخر، ان ينصر محدثاً أو يؤويه، وإن نصره، أو آواه، فإن عليه لعنة الله وغضبه يوم القيامة، ولا يؤخذ منهُ صرفٌ ولا عدل.

١١ - وإنكم مهما اختلفتم فيه من شيء، فإن مَرده إلى الله وإلى محمد ﷺ.

١٢ - وإن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محارَبِين.

١٣ - «وإن يهود بني عوف أمة مع المؤمنين، لليهود دينهم، وللمسلمين دينهم، مواليهم وأنفسهم، إلاّ من ظلم وإثم، فإنه لا يوتغ[١] إلاّ نفسهُ وأهل بيته».

ثم ذكر ﷺ ما لليهود وما عليهم من حقوق وواجبات ونفقات ونصر ونصيحة.

واختتم هذه الصحيفة بقوله ﷺ: «وان الله على أصدق ما في هذه الصحيفة وأبرهُ، وإنّ الله جارٌ لمن برَّ وأتقى، ومحمد رسول الله ﷺ»[٢].

● الدلائل والعبر المستفادة:

في هذه الوثيقة النبوية دلالات هامة تتعلَّق بمختلف الجوانب الاجتماعية والسياسية والإدارية والاقتصادية للمجتمع الاسلامي الجديد. ويمكن اجمال ذلك في النقاط التالية:

أولا: تعتبر هذه الوثيقة النبوية أقدم دستور مسجل في العالم، وأول دستور أعلنه الإسلام، وفيه الأسس المهمة في تنظيمات الرسول الادارية وهو يشيِّد

---

(١) يوتغ: يهلك.

(٢) انظر نص صحيفة العهد: ابن هشام: ٢ / ١٤٧ - ١٥٠، ومحمد حميد الله: مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي: ٥٧ - ٦٤.

صَرحَ دولة الإسلام في المدينة، وقد حظيت هذه الوثيقة باهتمام الباحثين والكتاب، وتناولها بالشرح والتفصيل والدراسة العميقة المتزنة علماء الحقوق الدولية في مختلف جامعات العالم وبمختلف لغات العالم الحية(١).

ثانياً: إن نصوص هذه الصحيفة، توافق المبادئ العامة التي أقرها القرآن الكريم، وذلك من خلال اعتبار المسلمين أُمة واحدة من دون الناس، ومن حيث التراحم والتعاون بينهم، ومن حيث مراعاة الحقوق والواجبات، ومن حيث تحديد المسؤولية الشخصية.

ثالثاً: لقد الغى النبيﷺ بهذه الوثيقة الحدود القبلية، أو على الأقل لم يجعل لها وجوداً رسمياً بالنسبة للدولة، وبتعبير آخر ترفَّع النبيﷺ عن المستوى القبلي المحدد، وبهذا أصبح الإسلام ديناً لمن دخل فيه، فدخلت بناءً على هذه القاعدة شعوب كثيرة في الإسلام دون أن يضع الرسول أمامها عقبات تحول بينها وبين الاشتراك في الحياة العامة للأُمة الإسلامية.

رابعاً: لقد أقرت الصحيفة مفهوم الحرية الدينية بأوسع معانيه، وضرب عرض الحائط مبدأ التعصب ومصادرة الآراء والمعتقدات، ولم تكن هذه الوثيقة تمثل سياسة آنية مرحلية اقتضتها الظروف، وإنما صدر هذا الموقف السمح المنفتح عن اعتقاد كامل بأن اليهود باعتبارهم أهل كتاب سيتجاوبون مع الدعوة الجديدة، أو أنهم - على أسوأ الاحتمالات - سيكفون عن إثارة المشاكل والعقبات ووضع العراقيل في طريق الدعوة.

---

(١) انظر: د - محمد حميد الله، «مجموعة الوثائق السياسية في العهد النبوي والخلافة الراشدة»: ٥٧ - ٥٩، «ومجموعة المباحث العلمية من المقالات السنية» ط - المعارف العثمانية: ١٣٥٨ هـ - ٩٨ - ١١٧. ومجلة المجمع العلمي العراقي، بغداد: ج/ ١٧ سنة ١٩٦٩ مقالة د - صالح احمد العلي.

خامساً: إنّ اصدار الوثيقة يمثل تطوراً كبيراً في مفاهيم الاجتماع السياسي، فهذه الجماعة تقوم لأول مرة في الجزيرة العربية على غير نظام القبيلة وعلى غير أساس رابطة الدم - التي كانت هي الرابطة السائدة بين القبائل العربية آنذاك - وانما على أساس حكم القانون، حيث ترد الأُمور إلى الدولة.

وبتعبير آخر أن رسول الله ﷺ قد سنَّ بهذه الوثيقة أساس المجتمع المدني الذي يكون فيه ولاء الفرد للدولة، وليس للقبيلة والعشيرة.

ومن خلال هذا التغيير الشامل والتحول السريع طوى - هذا الدستور - صفحة اجتماعية طابعها القبيلة، وفتح صفحة جديدة أكثر ايجابية وأقرب إلى الترابط والتكافل والوحدة الفكرية[١].

٤ - الأساس الرابع: إعداد القوة

لم يعلن النبي ﷺ الجهاد المسلَّح في الفترة المكية من حياة الدعوة الاسلامية، لأسباب موضوعية عديدة وواضحة، وإنما كان يطلب من المؤمنين الدعاء إلى الله، والصبر على الأذى، والصفح عن الجاهل... وهكذا واجه الرسول ﷺ والذين آمنوا معه اضطهاد قريش وتعذيبهم بروحية ايمانية عالية. حتى إذا ما انتهت الفترة المكِّية، واستقر الرسول والمهاجرون في المدينة، بدأ عهد جديد، يستلزم اشكالا أُخرى من المواجهة.

فالنبي ﷺ وهو يضع أُسس الدولة الاسلامية لم يغفل عن إعداد القوة، وترتيب الشؤون القتالية للمسلمين، وذلك للأسباب التالية:

أولا: إنّ الظروف الجديدة التي بدأ الإسلام يجتازها وتأسيس دولة الإسلام، سوف يؤدي إلى تصاعد الموقف الحربي بين الإسلام وبين الوثنية،

---

(١) عماد الدين خليل «دراسة في السيرة»: ١٥١ - ١٥٢ بتلخيص.

المتمثلة بقريش وحلفائها من القبائل الوثنية المتاخمة للمدينة.

ثانياً: وجود القبائل اليهودية داخل كيان الدولة الإسلامية، والتي كان من المتوقع أن تشكل جبهة معادية ضد الإسلام ودولته الفتية، وأن تقوم بدور تخريبي يمَّس كيان الدولة الاسلامية وأمنها - برغم العهود والمواثيق التي أخذت منهم - وهو ما حصل بعد ذلك حيث نقض اليهود وثيقة العهد، وشكلوا تحالفاً مع المنافقين والوثنيين ضد الإسلام والمسلمين، كما أشرنا إلى ذلك سابقاً، ويأتينا تفصيله لاحقاً.

ثالثاً: وجود عناصر داخل كيان دولة الإسلام، ممن اضطرت لإعلان إسلامها، ولم تستسلم بالكامل للدين الجديد، وتمثل هؤلاء في كتلة المنافقين الذين كان يتزعمهم عبد الله بن أُبي بن أبي سلول.

رابعاً: وجود أخطار خارجية تهدد كيان الدولة الاسلامية - ولو على المدى البعيد - وتتمثل في قوتين عظيمتين هما: الدولة البيزنطينية، والدولة الفارسية، المرابطتين على الحدود الشمالية والشرقية للجزيرة العربية، حيث كانت التطورات الدينية والسياسية الجديدة في الجزيرة العربية تستحوذ على اهتمام واسع وترقُّب حذر من قبل هاتين الدولتين.

٥ - سرايا وغزوات السنة الأُولى من الهجرة

لهذه الأسباب الموضوعية وغيرها، بدأ النبيﷺ فور تثبيت أُسس دولته المباركة في المدينة إعداد نواة قوات عسكرية أطلق عليها المؤرخون اسم (السرايا)[١].

(١) الفرقُ بين السرية والغزوة: الغزوة ما خرج فيها الرسولﷺ مع المقاتلين، والسرية أو البعث ما لم يخرج فيها بنفسه فقد يعقد اللواء لها على رجل من الصحابة.

وكان الهدف من هذه السرايا:

أولا: إرباك قريش وحلفائها واضعافهم وتحطيم معنوياتهم، وضرب نشاطهم التجاري الذي يمثل عصب حياتهم وشريان وجودهم.

ثانياً: الحصول على مورد للتموين والتسليح في أعقاب الأزمة المالية التي كان المسلمون يعانونها في مطلع عهدهم بالهجرة.

ثالثاً: إنذار أعداء الدولة الناشئة من غير قريش وحلفائها كاليهود والمنافقين في الداخل، وجماعات البدو والقبائل الوثنية في الخارج بأن المسلمين قادرون على الردِّ، ومستعدون للتصدي لأي عدوان يستهدف منجزاتهم التي حققوها.

رابعاً: تصعيد الروح الجهادية لدى المسلمين، إذ جاءت هذه السرايا والهجمات التي قامت بها اشبه بمناورات حية كان المقاتل المسلم يجس عن طريقها نبض اعدائه ويختبر امكاناتهم الحربية، ويمارس مزيداً من التدريب وتنمية قدرته وطاقته على الصمود[١].

خامساً: إيجاد هيبة للدولة الاسلامية تشعر أعداءها في الخارج وخاصة الدولة الرومانية والدولة الفارسية، بأنّ هذه الدولة قادرة على الردّ على أي عدوان يستهدفها، وأن المسلمين - على قلتهم - يتميزون على أعدائها - على كثرتهم - بعقيدتهم الراسخة وإيمانهم العميق بأهدافهم، وبذلهم عن طيبة خاطر كل ما يملكون في سبيل تحقيق الأهداف[٢].

وكانت المجموعة الأُولى من هذه السرايا قد انطلقت منذ منتصف السنة الأُولى للهجرة والى نهايتها.

---

(١) عماد الدين خليل: دراسة في السيرة: ١٧١ (بتصرف وتخليص).

(٢) خطّاب - محمود شيث، الرسول القائد: ٧٨، ط. دار الفكر - بيروت، الطبعة الخامسة، (١٤٠٩ هـ).

وفيما يلي نبذة مختصرة عن هذه السرايا[١]:

• سريّة حمزة بن عبد المطلب:

يقول الواقدي: «وكانت سرية حمزة بن عبد المطلب في رمضان، على رأس سبعة أشهر من مهاجرة النبيﷺ.

قالوا: أوّلُ لواء عقده رسول اللهﷺ بعد أن قدم المدينة لحمزة بن عبد المطلب بعثه في ثلاثين راكباً شطرين، خمسة عشر من المهاجرين وخمسة عشر من الأنصار، فبلغوا سيف البحر واعترضوا عير قريش التي جاءت من الشام تُريد مكة، وفيها أبو جهل بن هشام في ثلاثمائة راكب من أهل مكة، فالتقوا حتى اصطفوا للقتال، فمشى بينهم (مجدي بن عمرو الجهني) فلم يزل يمشي إلى هؤلاء وإلى هؤلاء حتى انصرف القوم وانصرف حمزة راجعاً إلى المدينة في أصحابه، فلم يكن بينهم قتال»[٢].

إلاّ أن خروج الأنصار في هذه السرية محل تردد وشك عند الواقدي حيث يروي عن ابن عيّاش عمن روى عنه قوله: لم يبعث رسول اللهﷺ أحداً من الأنصار مبعثاً حتى غزا بنفسه إلى بدر، وذلك أنه ظنّ أنهم لا ينصرونه إلاّ في الدار[٣].

• سريّة عبيدة بن الحارث:

وكانت ثاني سريّة بقيادة عبيدة بن الحارث بن عبد المطلب[٤] وذلك في

---

(١) للتوسع انظر: الواقدي، المغازي: ١ / ٩ - ١٠ . وذكرنا هذه السرايا هنا باعتبارها من حوادث السنة الأُولى من الهجرة .

(٢) المصدر نفسه: ١ / ١٠ .

(٣) المصدر نفسه: ١ / ١٠ .

(٤) عم النبيﷺ جرح يوم بدر ومات شهيداً، انظر ترجمته في طبقات ابن سعد: ٣ / ٥٠ وأُسد الغابة: ٣ / ٣٨٣ والإصابة: ٤ / ٣٩، والإستيعاب: ٣ / ١٠٣٠ .

شوال على رأس ثمانية أشهر من هجرتهﷺ وكان الهدف منها الوصول إلى وادي رابغ، لتهديد تجارة قريش التي يقودها أبو سفيان ومعه أكثر من مائتي رجل.

وصل المسلمون إلى وادي رابغ، وكان بينهم وبين المشركين مناوشة لكنّ أبا سفيان ومن معه فرّوا مرعوبين بعد أن رماهم سعد بن أبي وقاص بسهامه حتى نفدت(١).

سرية سعد بن أبي وقاص:

وفي ذي القعدة، على رأس تسعة أشهر من الهجرة، عقد رسول اللهﷺ لواءً لسعد بن أبي وقاص، فخرج سعد في عشرين رجلا قاصدين إلى الخرّار بالقرب من خُم، لقطع الطريق على قافلة تجارية لقريش، إلاّ أن عير قريش قد فاتتهم فرجعوا إلى المدينة من دون أي قتال(٢).

غزوة الأبواء:

يقول الواقدي: ثم غزا رسول اللهﷺ، في صفر على رأس أحد عشر شهراً، حتى بلغ الأبواء يعترض عِير قريش، فلم يلقَ كيداً، وفي هذه الغزاة وادع بني ضمرة من كنانة على أن لا يكثروا، ولا يعينوا عليه أحداً، ثم كتب بينهم كتاباً، ثم رجع، وكانت غيبته خمس عشرة ليلة(٣)(٤).

---

(١) الواقدي، المغازي: ١ / ١٠ .

(٢) المصدر نفسه: ١ / ١١ .

(٣) المصدر نفسه: ١ / ١٢ .

(٤) اختلفت الروايات التاريخية في أول غزوة وتاريخها، كذلك في ترتيب السرايا التي سبقت بدراً؛ حيث يرى ابن هشام في ترتيب هذه السرايا والغزوات (٢ / ٢٤١ وما بعدها) غير ما يراه الواقدي (١ / ٩ وما بعدها) وهي تختلف في ترتيبها عند الطبري (٤ / ٢٥٩) .

٦ - التشريعات الأُولى في المدينة

• تشريع الأذان:

يعتبر الأذان من أهمِّ شعائر الإسلام والمسلمين، وبه يعرفون عن غيرهم، ويشتمل على أذكار مخصوصة تشير إلى الإعلام بدخول وقت الصلاة.

وألفاظ الأذان على قلتها تشتمل على أهم مسائل العقيدة الاسلامية، حيث تدل ألفاظه - الوجيزة - على وجود الله وكماله وتوحيده ونفي الشريك عنه، ثم الاقرار للنبيﷺ بالرسالة، ثم الدعوة إلى الصلاة التي هي عمود الدين، وتختم بالدعوة إلى الهداية والفلاح والأعمال الخيرة يتأكّد كلُّ ذلك من خلال تكرار هذه الالفاظ المباركة.

وينصُّ المؤرخون على أن الأذان قد شُرِّع في السنة الأولى من هجرة الرسولﷺ وجاء في سبب تشريعه طريقان:

أحدهما: ما تحكيه الرواية التاريخية التي رواها ابن إسحاق في السيرة[١]، وغيره من المؤرخين واتخذها فقهاء علماء السنة كمستند ودليل لبيان سبب تشريع الأذان[٢].

يروي ابن هشام عن ابن إسحاق:

«... وقد كان رسول اللهﷺ حيث قدمها - المدينة - إنما يجتمع الناسُ إليه للصلاة لحين مواقيتها، بغير دعوة، فهمّ رسول اللهﷺ حين قدمها أن يجعل بوقاً كبوق اليهود الذين يدعون به لصلاتهم، ثم كرههُ، ثم أمر بالناقوس، ليضرب به للمسلمين للصلاة، فبينما هم على ذلك، إذ رأى (عبد الله بن زيد) النداء،

---

(١) السيرة النبوية: ٢ / ١٥٤ - ١٥٦ .

(٢) انظر: فتح الباري بشرح البخاري، لابن حجر العسقلاني: ٢ / ٢١٨، ط / ١٩٥٩ .

فأتى رسول الله فقال له: يا رسول الله، انه طاف بي في هذه الليلة طائف:

مرّ بي رجلٌ عليه ثوبان اخضران، يحمل ناقوساً في يده، فقلت له: يا عبد الله، أتبيع هذا الناقوس؟ قال: وما تصنع به؟ قال: قلت: ندعو به إلى الصلاة؟

قال: أفلا ادلّك على خير من ذلك؟ قال، قلت: وما هو؟ قال: تقول: الله اكبر، الله اكبر... الخ».

فلما أخبر بها رسول الله ﷺ، قال: «إنها لرؤيا حق، إن شاء الله، فقم مع بلال فألقها عليه، فليؤذن بها».

ويروى أن عمر أتى النبي ﷺ وقال: لقد رأيت مثل الذي رأى.

كان هذا أحد نصوص رواية كيفية تشريع الأذان، وللرواية نصوص كثيرة ومختلفة جداً[١].

هكذا يروي لنا المؤرخون قصة تشريع الأذان، وقد أطبق علماء السنة على ذلك، واسندوا تشريعه إلى رؤيا (عبد الله بن زيد) في منامه[٢].

الطريق الثاني: وهي النظرية الشيعية لقضية تشريع الأذان، والتي تستند إلى روايات كثيرة مروية عن أهل البيت عليهم السلام، والتي تنص على أن الله سبحانه قد أوحى بصورة الأذان وفصوله إلى نبيه ﷺ بواسطة جبرئيل عليه السلام، تماماً كما أوحى إليه بصورة الصلاة وغيرها من العبادات والأحكام.

وقضية أخذ الأذان من رؤيا (عبد الله بن زيد) فيه من الإشكالات الكثيرة التي لا يمكن الاجابة عنها وان حاول بعضهم ذلك[٣].

---

(١) للتوسع: انظر: الصحيح من سيرة النبي: ٣ / ٨٠ وما بعدها وهامش الصفحة: ٨١.

(٢) انظر: سنن البيهقي: ١ / ٣٩٠، والمغني لابن قدامة: ١ / ٤٤٩.

(٣) انظر: فتح الباري: ٢ / ٦٢، والروض الأنف: ٢ / ٢٨٥.

وهو قول باطل جزماً، لأن الأُمور الشرعية - ومنها الأذان - مستفادة من الوحي الإلهي.

ولهذا استنكر الأئمة عليهم السلام هذا القول أشد استنكار، بل في بعض الروايات انهم عليهم السلام لعنوا القائلين به.

قال ابن أبي عقيل العماني - من أعلام فقهاء الشيعة في القرن الرابع الهجري -: «أجمعت الشيعة على أن الصادق عليه السلام لعن قوماً زعموا أن النبي صلى الله عليه وآله أخذ الأذان من عبد الله بن زيد، فقال: «ينزلُ الوحي على نبيكم فتزعمون أنه أخذ الأذان من عبد الله بن زيد»[١].

والصحيح في قضية تشريع الأذان، ما رواه الشيخ الكليني بسنده عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «لما هبط جبرئيل عليه السلام بالأذان على رسول الله صلى الله عليه وآله كان رأسه في حجر علي عليه السلام، فأذن جبرئيل عليه السلام، وأقام، فلما انتبه رسول الله صلى الله عليه وآله قال: يا عليّ سمعت؟ قال: نعم، قال: حفظت؟ قال: نعم، قال: ادع بلالا فعلّمه، فدعا عليّ عليه السلام بلالا فعلّمه»[٢].

وهنالك روايات تنص على أن تشريع الأذان كان حين أسري برسول الله صلى الله عليه وآله إلى السماء وبلغ البيت المعمور، وحضرت الصلاة فأذن جبرئيل وأقام[٣].

• تشريع صلاة الجنائز:

وفي الأشهر الأُولى من هجرته صلى الله عليه وآله إلى المدينة توفي أبو أمامة، أسعد بن

(١) نقله عنه الشهيد في الذكرى: ١٦٨، وانظر: وسائل الشيعة: ٤ / ٦١٢ أبواب الأذان والاقامة.

(٢) الكافي: ٣ / ٣٠١ والوسائل: ٤ / ٦١٢. وللتوسع: انظر: النص والاجتهاد للسيد عبد الحسين شرف الدين.

(٣) الكليني، الكافي: ٣ / ٣٠١ والوسائل: ٤ / ٦١٢. وللتوسع: انظر: النص والاجتهاد للسيد عبد الحسين شرف الدين.

زرارة، حيث كان النبيﷺ في غمرة الإنهماك ببناء المسجد النبوي، وهو أوّل انصاري يموت بعد قدوم رسول اللهﷺ إلى يثرب. وصلّى عليه الرسول صلاة الجنائز، ولم يكن قبل ذلك صلاة على الجنائز، ودفن في البقيع.

يروي ابن هشام: «لما مات أبو أمامة، أسعدُ بن زرارة، اجتمعت بنو النجّار إلى رسول اللهﷺ وكان أبو أمامة نقيبهم، فقالوا له: يا رسول الله، إن هذا كان منّا حيث علمت، فاجعل منّا رجلا مكانهُ يُقيم أمرنا ما كان يقيم، فقال رسول اللهﷺ : أنتم أخوالي، وأنا بما فيكم، وأنا نقيبكم فذهبت لهم فخراً أنّ رسول اللهﷺ نقيبهم»[١].

• الخاتمة:

بهذه الاجراءات والترتيبات الإدارية وضع الرسول الأكرمﷺ القواعد والأُسس للدولة الاسلامية في المدينة، ولم تنتهِ السنة الأُولى من الهجرة إلاّ والدولة الإسلامية قد اكتسبت ملامحها الأساسية، وغدا المسلمون أفراداً وجماعات على استعداد تام لتقبل ما سيجيء من تشريعات وما سيفرض من تنظيمات، ويوضع من حدود، بعد أن هيأهم النضج العقيدي لتقبل ذلك.

كذلك بدأ الاستعداد لمرحلة جديدة من المواجهة لردع أي عدوان داخلي وخارجي يستهدف الإسلام ودولته، حيث تشكلت نواة قوة عسكرية دفاعية من المهاجرين والأنصار، وأخذت سرايا الجهاد تتحرك وبدأت المناورات العسكرية ضد قريش من هذا العام كما سوف يأتينا تفصيله لاحقاً.

(١) ابن هشام، السيرة النبوية: ١ / ١٥٣ - ١٥٤ .

الأسئلة:

١ - ما هي أهم الأُسس التي ابتني عليها تأسيس الدولة الإسلامية في المدينة؟

٢ - ما أهم المداليل التربوية المستفادة من عمل النبي صلى الله عليه وآله وسلم بنفسه ونقله للأحجار في عملية بناء المسجد النبوي؟

٣ - ما هي أهمية المسجد في الإسلام وحياة المسلمين المعنوية والسياسية والاجتماعية؟

٤ - ما هي العبر والدلائل المستفادة من عملية التآخي التي اعتمدها النبي صلى الله عليه وآله وسلم كأساس للتعامل بين المهاجرين والأنصار؟

٥ - كيف نناقش شبهات النافين والمشككين في حديث المؤاخاة بين النبي صلى الله عليه وآله وسلم والإمام علي عليه السلام ؟

٦ - ما هي الجوانب الانسانية والتربوية التي تعكسها وثيقة العهد التي وضعها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كأساس للتعامل بين المسلمين وغيرهم؟

٧ - ما هي الأسباب التي دعت النبي صلى الله عليه وآله وسلم لتشكيل القوة العسكرية وتسيير سرايا الجهاد؟

٨ - ما هي قصة تشريع الأذان؟ وما مدى صحة ما يروى من أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قد أخذ ذلك من رؤيا (عبد الله بن زيد)؟ وما هو الصحيح في ذلك بحسب روايات أهل البيت عليهم السلام ؟

الدرس الرابع
حوادث السنة الثانية للهجرة

«ما قبل واقعة بدر»

محاور البحث:

١ - غزوات وسرايا سبقت معركة بدر

أ - غزوة بواط

ب - غزوة ذوالعُشيرة

ج - غزوة بدر الأولى

د - سرية عبد الله بن جحش

٢ - الدروس والعبر

٣ - أبرز أحداث السنة الثانية للهجرة

وفيات

تشريعات

• الأسئلة

ما قبل واقعة بدر

مضت السنة الأُولى من الهجرة النبوية المباركة بعد أن وضع النبيﷺ أُسس دولة الإسلام، وأخذ يبعث دوريات عسكرية صغيرة اصطلح عليها المؤرخون بـ (السرايا) وذلك لأغراض متعددة قد أشرنا إلى بعضها في الدرس الماضي.

والسنة الثانية من الهجرة تتضمن حوادث هامة في حياة الدعوة الإسلامية، ومن أهمها وأبرزها معركة (بدر الكبرى).

وسوف نتحدث في هذا الدرس عن أهم الأحداث السابقة لواقعة بدر الكبرى تاركين الحديث عن هذه الواقعة والدروس والعبر المستفادة منها إلى الدرس القادم.

١ - غزوات وسرايا سبقت واقعة بدر

أ - غزوة بواط:

في ربيع الأوّل على رأس ثلاثة عشر شهراً من هجرته، خرجت دورية قتال من مائتي راكب وراجل بقيادة الرسولﷺ ، قاصدين الوصول إلى (بُواط) من ناحية جبل (رَضوى) على بعد (٩٠) كيلومتراً من المدينة تقريباً.

وكان الهدف من ذلك اعتراض قافلة تجارية كبيرة لقريش تتكون من ألفين وخمسمائة بعير، وبحماية مائة راكب وراجل، يقودهم أُمية بن خَلف الجمحي.

وصلت قوات المسلمين بقيادة الرسولﷺ إلى (بُواط)، ولكنّ عيون قريش علمت بخروج تلك القوات، فأسرعت قافلتهم بحركتها، وسلكت طريقاً غير طريق القوافل المعبّدة، ففاتت القافلة على المسلمين، «فرجع الرسولﷺ ولم يلق كيداً. وقد بقي المسلمون في (بُواط) ما يقارب الشهر الواحد»(١).

ب - غزوة ذو العُشيرة(٢):

في جمادى الآخرة على رأس ستة عشر شهراً من هجرته، خرجت دورية قتالية قوامها حوالي مائتي راكب وراجل بقيادة الرسولﷺ ، وكانت وجهتها بني (مدلجّ) وأحلافهم من بني ضمرة، وقافلة تجارية لقريش بقيادة أبي سفيان بن حرب، وصل المسلمون إلى موضع (العُشيرة) وأقاموا شهراً فيها، فوادعوا بها بني مدلج وحلفاءهم من بني ضمرة، اما قافلة قريش فقد تملصّت من المرور بالعُشيرة، فلم يظفر بها المسلمون(٣).

ج - غزوة بدر الأُولى:

بعد عودة رسول اللهﷺ من غزوة ذي العُشيرة، أغارت قوات من المشركين بقيادة (كُرز بن جابر الفهري) على مراعي في ضواحي المدينة واستاقت قسماً من إبل وأغنام المسلمين، فخرج رسول اللهﷺ على أثرهم بدورية قتالية قوامها مائتا راكب وراجل من المسلمين، لاستعادة الغنم والإبل المنتهبة من المسلمين.

---

(١) انظر: الواقدي: ١ / ١٢، والرسول القائد: ٨٩ - ٩٠، وسيد المرسلين: ٢ / ٣٦ - ٣٧.

(٢) ذو العُشيرة: موضع من ناحية ينبع بين مكة والمدينة، وهو حصن صغير بين ينبع وذي المرة، انظر التفاصيل في معجم البلدان: ٦ / ١٨١.

(٣) المصادر السابقة، وانظر: ابن هشام: ٢ / ٢٤٨ - ٢٥٠، و - محمد حميد الله، مجموعة الوثائق السياسية: ٢٦٦ - ٢٦٧.

وصلت قوات المسلمين إلى (وادي سَفوان) قريباً من (بدر) فلم تدرك قوات المشركين، فعادت ادراجها بدون قتال[١]. وقد عرفت هذه الغزوة بغزوة (سفوان) أو غزوة بدر الأُولى.

وهذه الغزوة وإن كانت بمثابة ردة فعل، إلاّ أنّها أفهمت أعداء الدولة الإسلامية أن هذه الدولة الفتية لا تقبل أن تستباح حرمتها دون أن تثأر لكرامتها وترد بالقوة اعتبارها.

د - سرية عبد الله بن جحش الأسدي:

تعرف هذه السرية بـ (سريّة نخلة) وكان أميرها عبد الله بن جحش الأسدي، وزمن خروجها في شهر رجب على رأس سبعة عشر شهراً من هجرته ﷺ.

يروى عن عبد الله بن جحش أنه قال: «دعاني رسول الله ﷺ حين صلّى العشاء، فقال: وافِ مع الصُّبح، معك سلاحك، ابعثكَ وجهاً. قال: فوافيت الصُّبح وعليّ سيفي وقوسي وجعبتي ومعي درقتي، فصلّى النبي ﷺ بالناس الصبح ثم انصرف، ثم دعاني فأعطاني صحيفة فقال: قد استعملتك على هؤلاء النَّفر، فامض حتى إذا سرت ليلتين فأنشر كتابي، ثم امض لما فيه».

فانطَلق - عبد الله - حتى إذا كان ببئر ابن ضميرة، نشر الكتاب فقرأه فإذا فيه: «سر حتى تأتي بطن نخلة على اسم اللهِ وبركاته، ولا تكرهنّ أحداً من أصحابك على المسير معك، وامض لأمري فيمن تبعك حتى تأتي بطن نخلة فترصد بها عير قريش»[٢].

فالهدف من هذه السرية هو الوصول إلى بطن (نخلة) واستطلاع أخبار

---

(١) انظر: ابن هشام: ٢ / ٢٥١ . والواقدي: ١ / ١٢، و - الرسول القائد: ٩١ .

(٢) الواقدي: ١ / ١٣ - ١٤ .

قريش والحصول على المعلومات عنها، كما نصّ على ذلك كتاب رسول الله ﷺ ولم يكن الهدف قتال قريش[١].

وفعلا مضى عبد الله بقوته التي كانت من ثمانية رجال، وعلى رواية ثلاثة عشر رجلا حتى نزل أرض (نخلة) فمرت قافلة قريش، فهاجمها المسلمون، فَقُتِلَ في هذه المعركة من المشركين (عمرو بن الحضرمي) وأسر المسلمون رجلين من قريش وفرّ الرابع.

أدى اندفاع بعض المسلمين في هذه السرية إلى وقوع القتال والقَتل في بداية الشهر الحرام وهو شهر رجب، مما يخالف ما كان متعارفاً من تقاليد العرب حينذاك في احترام الأشهر الحرم، وانتهزت قريش الفرصة للتشهير والطعن برسول الله ﷺ وقالوا: «قد استحلَّ محمّدٌ الشهر الحرام فقد أصاب الدم والمال» في الوقت الذي استنكر رسول الله ﷺ على عبد الله ومن معه هذا الاندفاع وقال لهم: «ما أمرتكم بالقتال في الشهر الحرام»[٢].

والذي أفرزته هذه السرية كنتيجة هو وقوع أول اشتباك مسلح بين المسلمين والمشركين، ووقع أول قتيل من المشركين، وأول غنيمة وأول اسيرين، وقد فادى رسول الله ﷺ هذين الاسيرين فأسلم أحدهما وعاد الثاني ادراجه إلى مكة[٣].

ويروى أنّه بعد أن أكثرت قريش في التشنيع على المسلمين قتالهم في الشهر الحرام أنزل الله على رسول الله ﷺ: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ۖ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرٌۢ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ

---

(١) الرسول القائد: ٩٢.

(٢) الواقدي: ١ / ١٦.

(٣) الرسول القائد: ٩٣.

ٱللَّهِۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِۗ وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُوا۟ۚ وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢١٧﴾﴾[١].

وقيل: نزلت الآية حينما جاء مشركو مكة، وسألوا النبي ﷺ عن ذلك على جهة العيب والانتقاص، ففرج الله بذلك عن المسلمين، وبعثت قريش بفداء الأسيرين، فافداهما ﷺ[٢].

٢ - الدروس والعبر

كانت هذه أهم السرايا والغزوات التي سبقت واقعة بدر الكبرى[٣]، والتي كانت بمثابة التمهيد اللازم لتلك الواقعة، وقد حققت هذه السرايا جملة من الفوائد العسكرية التي لا يمكن الاستغناء عنها في أي حملة عسكرية.

ويمكن اجمال أهم هذه الفوائد والدروس والعبر المستفادة منها في النقاط التالية:

١ - الاستطلاع:

استطاع المسلمون التعرف على الطرق المحيطة بالمدينة، والمؤدية إلى مكة، وخاصة الطرق التجارية الحيوية لقريش بين مكة والشام، كما استطاعوا التعرف على قبائل المنطقة وموادعة بعضها.

---

(١) البقرة: ٢١٧ .

(٢) الصحيح من سيرة النبي: ٣ / ١٤٠ .

(٣) وهنالك مجموعة من السرايا والغزوات الصغيرة وقعت بعد معركة بدر سوف لا نتعرض لها ونقتصر الحديث عن أهم الغزوات والمعارك اللاحقة لبدر مع ذكر ما يستفاد منها من دروس وعبر.

٢ - القتال:

أثبت المسلمون - من خلال هذه السرايا والغزوات الصغيرة - أنهم أقوياء يستطيعون الدفاع عن أنفسهم تجاه المشركين من قريش والقبائل المجاورة، وبامكانهم الدفاع عن عقيدتهم ودولتهم عند الحاجة والضرورة.

٣ - الكتمان:

ابتكر الرسولﷺ اسلوب (الرسائل المكتومة) للمحافظة على الكتمان والسرية، وحرمان العدو من الحصول على المعلومات التي تفيده عن تحركات المسلمين العسكرية.

والكتمان أهم عامل من عوامل مبدأ (المباغتة) وهي أهم مبدأ من مبادي الحرب، وقد سبق المسلمون غيرهم في ابتكار هذا الأُسلوب الدقيق[١].

٤ - الحصار الاقتصادي:

هدّد المسلمون أهم الطرق التجارية بين مكة والشام، فأصبحت قوافل قريش التجارية غير آمنة حين تسلك هذه الطرق، مما أثر أسوأ الأثر على تجارة قريش التي تعيش عليها[٢]، وهدّد مكة بالحصار الاقتصادي بمحاولة حرمانها من سلوك طريق مكة، الشام بأمان.

٣ - أبرز أحداث السنة الثانية للهجرة

- **وفيات:**

- **وفاة عثمان بن مظعون:**

روي أنه في السنة الثانية توفي الصحابي الجليل عثمان بن مظعون، فدفنه

---

(١) و (٢) الرسول القائد: ٩٣ - ٩٤ (بتصرف وتلخيص).

رسول الله ﷺ بالبقيع . . .[١].

وفي تاريخ المدينة لابن شبة قال: كان عثمان بن مظعون من أول من مات من المهاجرين، فقالوا: يا رسول الله أين ندفنه؟ قال ﷺ : بالبقيع، ولحدَ له رسول الله، وفضل حجر من حجارة لحده فحمله رسول الله فوضعه عند رجليه[٢].

• وفاة رقية بنت رسول الله:

وفي ذي الحجة من السنة الثانية للهجرة توفيت بنت رسول الله ﷺ رقية، وعن سبب وفاتها روى النميري عن الزهري قال: «أصابتها الحصبة»[٣].

روى الكليني في فروع الكافي قال: «لما ماتت رقية ابنة رسول الله قال رسول الله ﷺ : الحقي بسلفنا الصالح (عثمان بن مظعون) وأصحابه، وكانت فاطمة عليها السلام على شفير القبر تنحدر دموعها، ورسول الله قائم يتلقاها بثوبه ويدعو لرقية ثم قال ﷺ : «سألت الله عز وجل أن يجيرها من ضمّة القبر»[٤].

• تشريعات:

وفي هذه السنة من هجرته المباركة نزلت جملة من التشريعات الالهية المهمة، والتي منها:

• تحويل القبلة:

ففي السنة الثانية من الهجرة المباركة، أمر الله تعالى نبيه ﷺ بأن يتحول إلى

---

(١) الطبري: ٢ / ٤٨٥ .

(٢) النميري: عمر بن زيد النميري البصري: تاريخ المدينة المنورة ١ / ١٠١ - ١٠٢ .

(٣) المصدر نفسه: ١ / ١٠٤ .

(٤) الكليني، فروع الكافي: ٨ / ٦٤ .

الكعبة ويتخذها قبلة له وللمسلمين.

وقد اختلفت روايات المؤرخين في الشهر الذي وقع فيه تحويل القبلة، ففي رواية ابن هشام: إن القبلة صُرفت من الشام إلى الكعبة في شعبان على رأس سبعة عشر شهراً من مقدم رسول الله ﷺ المدينة[١].

ويرى ابن الأثير أن ذلك حدث في منتصف شهر شعبان[٢].

إلاّ أن ابن سعد في الطبقات يرى أن ذلك حدث في يوم الاثنين للنصف من رجب على رأس سبعة عشر شهراً من هجرته ﷺ وذلك قبل بدر بشهرين[٣].

وفي رواية الوسائل أن تحويل القبلة كان بعد رجوعه من بدر وذلك في الشهر التاسع عشر بعد الهجرة[٤].

وهنالك روايات أُخرى في تحديد زمن تحول القبلة تراجع في مضانها[٥].

● ردود الفعل:

ومهما يكن من أمر تاريخ تحويل القبلة، فإنّ النصوص التاريخية تعكس لنا بعض صور حالات ردود الفعل الذي رافقت هذا التحول، سواء من اليهود أو من المنافقين أو المشركين أو من بعض المسلمين ممن لم يستوعب حكمة هذا التشريع الإلهي، ففي رواية السمهودي باسناده عن ابن عباس قال: «فبينما رسول الله ﷺ يصلّي، فأشار له جبريل: يا محمد صلِّ إلى البيت، وصلّى جبريل عليه

(١) ابن هشام، السيرة النبوية: ٢ / ٢٥٧ .

(٢) ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٢ / ٨٠ .

(٣) ابن سعد، الطبقات الكبرى: ١ / ١١٧ .

(٤) الحر العاملي، وسائل الشيعة: ٤ / ٢٩٨ ط مؤسسة آل البيت .

(٥) انظر: وفاء الوفا للسمهودي: ١ / ٣٦٥ .

السلام إلى البيت، قال: فدار النبيﷺ إلى البيت، قال: فأنزل الله تعالى: ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٤٤﴾﴾[(١)].

فقال المنافقون، حنَّ محمد إلى أرضه وقومه.

وقال المشركون: أراد محمد أن يجعلَنَّ له قبلة، وأن يجعلنا له وسيلة وعرف أن ديننا أهدى من دينه.

وقالت اليهود للمؤمنين: ما صرفكُم إلى مكة وتركتم قبلة موسى ويعقوب والأنبياء؟ والله ما أنتم إلاّ تعبثون.

وقال المؤمنون: لقد ذهب منا قوم ماتوا ما ندري أكنا نحن وهم على قبلة أم لا؟

فأنزل الله تعالى في ذلك: ﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا قُل لِّلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٤٢﴾ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٣﴾﴾[(٢)]»[(٣)].

• قبلة المسلمين قبل تحويل القبلة:

والمشهور الذي عليه أكثر المفسرين والمحدثين هو أنهﷺ كان يصلي

---

(١) البقرة: ١٤٤ .

(٢) البقرة: ١٤٢ - ١٤٣ .

(٣) السمهودي، وفاء الوفا: ١ / ٢٦٠ .

المدة التي قضاها في مكة نبياً إلى بيت المقدس، ولكنه في مكة كان يجعل الكعبة بينه وبين بيت المقدس، فلا يجعل الكعبة خلف ظهره، فكان يبدو إنه يصلي إلى الكعبة.

وأما ما شذ من الروايات والتي تقول انهﷺ كان خلال اقامته في مكة يصلي إلى الكعبة، فلما هاجر إلى المدينة توجه بصلاته إلى بيت المقدس «استمالة لقلوب اليهود أن يصلي إلى قبلتهم ربما يرغبون في دينه، ثم إنهﷺ كره موافقتهم في أمر القبلة لما قالوا: لولا أن ديننا حق لما صلى إلى قبلتنا، ولما استنّ بسنتنا»[١].

فهي من الروايات الشاذة التي لا يمكن التعويل عليها، ولازمها أنهﷺ يستوحي من ظروفه لا من الله سبحانه، وحيث إنهﷺ لم يستطع استجلاب اليهود بهذه المحاباة ترك قبلتهم ورجع إلى الكعبة[٢]. وهذا مما لا يمكن الإلتزام به، لانه يتنافى مع عقيدتنا في النبيﷺ وفي عصمته وخاصة في أمر التبليغ.

● الدلائل المستفادة:

والذي نستفيده من حادث تحويل القبلة ما يلي:

أولا: إن أمر التشريع بيد الله تعالى فهو الذي فرض على نبيهﷺ أولا أن يتوجه إلى بيت المقدس لأمر اقتضاه علمه سبحانه وهو العليم الخبير، وهو سبحانه يأمر نبيه ثانياً أن يتوجه إلى الكعبة، وليس على النبيﷺ إلاّ أن ينفذ أمر ربه، ويبلغ ذلك المؤمنين.

ثانياً: إن التشريع الثاني للقبلة قد نسخ التشريع الأول، ولابد أن يكون لكلا

---

(١) المصدر نفسه: ١ / ٣٦٢ - ٣٦٣ .

(٢) الحسني - هاشم معروف، سيرة المصطفى: ٢٨٦، أُفست المكتبة الحيدرية - قم .

التشريعين من مصلحة يعلمها المشرع، وكلُّ ما في الأمر يكون التشريع الثاني كاشفاً عن أن مصلحة التشريع الأول محدودة بزمان التشريع الثاني الناسخ له.

ثالثاً: كما إننا نستفيد من ردود الفعل المختلفة التي واجهت هذا التشريع الإلهي، أن اليهود والمشركين والمنافقين كانوا يترصدون النبيﷺ والمسلمين ودولتهم وما يأتيهم من تشريعات من ربهم، وليس من المعقول أن يسكت هؤلاء عن هذا التشريع، وقد وجدوا فيه مجالا للدس ومحاولة ناجحة لتشكيك المغفلين والمرتابين، وقد أوضحت لنا هذه الحادثة وجودهم بين المسلمين، حيث تراجع جماعة منهم عن الإسلام بسبب تلاعب المنافقين والمشركين بعقولهم بعد هذا الحادث كما جاء في بعض الروايات(١).

• تشريع الصيام:

وفي هذه السنة الثانية من هجرتهﷺ فُرض صيام شَهرِ رمضان، وذلك في شهر شعبان كما نص على ذلك بعض المؤرخين(٢)، وينص المؤرخون على أن رسول اللهﷺ كان قبل فرض رمضان يصوم هو وأصحابه ثلاثة أيام وهي الأيام البيض من كل شهر(٣) وقد توفي رسول اللهﷺ وقد صام تسع رمضانات(٤).

وأنزل الله تعالى في هذه الفريضة آيات قرآنية منها قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾(٥).

---

(١) للتوسع انظر: سيرة المصطفى: ٢٨٥ .

(٢) انظر: الطبري: ٣ / ٤١٧، والمسعودي في: التنبيه والإشراف: ٢٠٣ .

(٣) الحلبي - نور الدين علي بن إبراهيم، السيرة الحلبية: ٢ / ١٣٢ .

(٤) ابن قيم الجوزية - شمس الدين محمد بن أبي بكر، زاد المعاد في هدي خير العباد: ١ / ٢٣٠، طبعة دار احياء التراث العربي - بيروت، الطبعة الأولى، (١٤٢١ هـ - ٢٠٠١ م).

(٥) البقرة: ١٨٣ .

وقوله تعالى: ﴿شَهۡرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلۡقُرۡءَانُ هُدٗى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٖ مِّنَ ٱلۡهُدَىٰ وَٱلۡفُرۡقَانِۚ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهۡرَ فَلۡيَصُمۡهُۖ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٖ فَعِدَّةٞ مِّنۡ أَيَّامٍ أُخَرَۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلۡيُسۡرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلۡعُسۡرَ وَلِتُكۡمِلُواْ ٱلۡعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمۡ وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ١٨٥﴾[١].

والذي نلاحظه هنا، تأخر تشريع فريضة الصيام إلى هذه السنة مع الأهمية الكبيرة لهذه الفريضة في بناء الشخصية الإسلامية! إلاّ أنه بعد التأمل في أبعاد هذه الفريضة الإلهية، وما تحتاج إليه من ترسيخ للعقيدة في القلوب، وتصعيد روحي ومعنوي ونفسي لتقبلها، نحصل على القناعة الكافية بأن هذا التشريع - كغيره من التشريعات الإلهية - كان بحاجة إلى مثل هذا التأخير لكي يتلقاه المسلمون وهم على استعداد روحي كافي لقبوله، ولعل التأمل في آيات تشريع الصيام وما تضمنته من تمهيد ومقدمة ما يرشد إلى هذا المعنى.

ولهذا نجد الرسول الأكرمﷺ يحث المسلمين ويرغبهم في هذه الفريضة، ويبين لهم الآثار المعنوية والاجتماعية والنفسية للصيام. وفضل شهر رمضان على غيره من الشهور، وذلك من خلال خطبته الغراء التي خطبها في آخر جمعة من شعبان، والتي يرويها الشيخ الصدوق بسنده عن الإمام الرضا عن آبائه عن جده أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام[٢].

• صلاة العيد:

وفي هذه السنة من هجرته صلّى رسول اللهﷺ صلاة عيد الفطر المبارك، وقد روى ابن شبة عن الواقدي قوله: «أول عيد صلاّه رسول اللهﷺ بالمصلى

---

(١) البقرة: ١٨٥ .

(٢) انظر: نص الخطبة في كتاب عيون اخبار الرضا للشيخ الصدوق: ١ / ٢٦٥ ط - الشريف الرضي.

سنة ثنتين من مقدمه المدينة من مكة»[١].

وذكر مؤرخو السيرة النبوية أنّهﷺ كان يصلي العيدين في المصلّى، وهو المصلّى الذي على باب المدينة الشرقي، ولم يصلّ العيد بمسجده إلاّ مرة واحدة أصابهم مطر، فصلّى بهم العيد في المسجد[٢].

وقد روت لنا كتب الحديث والسنن النبوية وبدقة وتفصيل مجموعة كبيرة من الاحاديث الحاكية عن سنتهﷺ إذا خرج إلى صلاة العيد والجمعة، من ملبسه وثيابه وحلّته، إلى طعامه قبل خروجه، وكيفية خروجه وما كان يفعله إذا وصل إلى المصلّى[٣].

● **فرض الزكاة:**

وفي بعض الروايات التاريخية أن فرض الزكاة كان بعد بدر من السنة الثانية للهجرة.

روى السمهودي في وفاء الوفاء: «ثم خطب رسول الله قبل الفطر بيومين يعلّم الناس زكاة الفطر، وقيل: في أول شوال، وصلّى صلاة الفطر، وفيها فرضت زكاة الأموال أيضاً، وقيل: في الثالثة، وقيل: في الرابعة، وقيل قبل الهجرة وثبتت بعدها»[٤].

إلاّ أن هنالك جملة من الآيات القرآنية المكية، تأمر بإيتاء الزكاة[٥]، بالاضافة إلى بعض الروايات التي قد تدل بظاهرها على أن هذه الفريضة الإلهية

---

(١) ابن شبة - تاريخ المدينة المنورة: ١ / ١٢٤ (مصدر سابق).

(٢) ابن قيم، زاد المعاد: ١ / ١٨١.

(٣) المصدر نفسه: ١ / ١٨١ - ١٨٤ والسيد الطباطبائي، سنن النبيﷺ

(٤) وفاء الوفا: ١ / ٢٧٧.

(٥) انظر الآيات: الأعراف: ١٥٦، المؤمنون: ٤، لقمان: ٤ وغيرها.

قد فرضت في مكة[١].

وهذا ما حمل بعض كتاب السيرة إلى القول بأن فرض الزكاة كان في مكة[٢] وقد دعم قوله هذا بقول السمهودي في الوفاء الذي رواه بلفظ: «وقيل، قبل الهجرة وثبتت بعدها»[٣].

إلاّ أن ما ذهب إليه هذا البعض في قوله - والصحيح - ليس بصحيح، وذلك:

أولا: معارضة ما ذكر من روايات، بروايات أُخرى أصح سنداً ودلالة تنص على أن فرض الزكاة كان في المدينة، والتي تؤيدها الروايات التاريخية التي تنص على أن هذه الفريضة قد فرضت في السنة الثانية من الهجرة.

ومن هذه الروايات ما رواه الحر العاملي في الوسائل عن الحسن بن محبوب عن عبد الله بن سنان، قال: «قال أبو عبد الله (عليه السلام): أنزلت آية الزكاة ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٣﴾﴾[٤] في شهر رمضان فأمر رسول الله ﷺ مناديه فنادى في الناس: إن الله تبارك وتعالى قد فرض عليكم الزكاة كما فرض عليكم الصلاة... ثم لم يعرض لشيء من أموالهم حتى حال عليهم الحول من قابل، فصاموا وأفطروا، فأمر مناديه فنادى في المسلمين: أيها المسلمون، زكّوا أموالكم تقبل صلواتكم، قال: ثم وجّه عمّال الصدقة وعمال الطسوق[٥].

---

(١) انظر: البحار ٣٥ / ١٥١، والوسائل: ٩ / ١٦ وفروع الكافي: ٣ / ٤٩٨.

(٢) الصحيح من سيرة النبي ﷺ: ٣ / ١٠٠.

(٣) وفاء الوفا: ١ / ٢٧٧.

(٤) التوبة: ١٠٣.

(٥) وسائل الشيعة: ٩ / ٩ و ٩ / ٥٣، والكافي ٣ / ٤٩٧. والطسوق: جمع طسق، وهي ضريبة توضع على الخراج.

وهي رواية صحيحة السند وواضحة الدلالة، وسورة التوبة مدنية كما هو واضح.

والعجيب أن هذا البعض ذكر هذه الرواية ووصفها بأنها صحيحة السند إلاّ أنه استبعدها لأنها لا تتفق مع ما ذهب إليه أولا، من أن الزكاة فرضت في مكة داعماً قوله بما رواه السمهودي في الوفا بلفظ وقيل، وهي تدل بعرف المحققين والفقهاء على التضعيف! ومتى كان قول السمهودي حجةً مقابل الرواية الصحيحة؟

ثانياً: إن الآيات القرآنية المكية والتي ورد فيها لفظ الزكاة لا تنافي بظاهرها هذه الرواية حيث يمكن حملها على الزكاة المستحبة، أو الزكاة الواجبة مع امكانية افتراض ان النبيﷺ لم يأخذ شيئاً من أموالهم ولم يوجه إليهم عمال الصدقة إلاّ بعد نزول آية سورة التوبة، وبعد أن تهيئت نفوس المسلمين لتقبل الفرائض المالية.

كما تشير إلى ذلك الرواية، وكما نقل ذلك السمهودي نفسه في قوله: «وقيل قبل الهجرة وثبتت بعدها».

ثالثاً: ان الظروف المعيشية الصعبة والحصار الاقتصادي التي كان يتعرض لها المسلمون في الفترة المكية، وكذلك ظروف الهجرة وأوضاع المهاجرين في السنة الأُولى للهجرة، لم تكن لتسمح للتشريعات المالية أن تأخذ طريقها إلى التنفيذ والتطبيق العملي، بالاضافة إلى ذلك أن رسول اللهﷺ لم يكن مبسوط اليد في مكة إذ لم تكن للإسلام دولة ونفوذ حتى يمكن تعيين جباة الصدقة، وخاصة إذا أخذنا بالمبدأ القائل بأن جمع الزكاة وتوزيعه على مصالح المسلمين من وظيفة الحاكم الاسلامي وولي أمر المسلمين.

● **فرض الخمس:**

لم يرد لتشريع فريضة الخمس ذكر في كتب السيرة إلاّ في ضمن حوادث السنة الثانية، وتحديداً عند الحديث عن سرية عبد الله بن جحش وما رافقها من أحداث وملابسات، فقد ذكر الواقدي بسنده المتصل إلى عبد الله بن جحش عن بعض أحفاده قال: كان في الجاهلية المرباع[١] فلمّا رجع عبد الله بن جحش من نخلة خمَّس ما غنم، وقسم بين أصحابه سائر الغنائم، فكان أول خمس في الإسلام حتى نزل بعدُ ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمۡتُم مِّن شَيۡءٖ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ إِن كُنتُمۡ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَىٰ عَبۡدِنَا يَوۡمَ ٱلۡفُرۡقَانِ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ﴾[٢].

وذكر الواقدي أيضاً: «أن النبيﷺ وقّف غنائم أهل نخلة، ومضى إلى بدر حتى رجع من بدر فقسمها مع غنائم أهل بدر، وأعطى كلّ قوم حقهم»[٣].

فهذا النص التاريخي نستفيد منه أن تشريع الخمس قد تأخر إلى السنة الثانية من الهجرة، وإلى ما بعد غزوة بدر الكبرى، كذلك نستفيد من هذا النص التاريخي ومن غيره من النصوص أن النبيﷺ لم يأخذ الخمس من الغنائم مطلقاً، بل كان يردّه على أصحابه[٤].

وهنالك خلاف فقهي بين اتباع المدرستين السنية، والشيعية الاثني عشرية حول فريضة الخمس، وهذا الخلاف الفقهي لا يعود إلى أصل التشريع، فتشريع الخمس ثابت بالنص القرآني، وإنما الخلاف في سعة الموارد التي يتعلق بها

---

(١) المرباع: ربع الغنيمة الذي كان يأخذه الرئيس في الجاهلية (القاموس المحيط: ٣ / ٢٥).

(٢) الانفال: ٤١ .

(٣) المغازي: ١ / ١٧ - ١٨، وابن هشام: ٢ / ٢٥٤ - ٢٥٦ .

(٤) انظر نماذج لهذه النصوص في الصحيح في سيرة النبي: ٦ / ١٣٩ وما بعدها .

الخمس وضيقها؛ وتحديداً وقع الخلاف بينهم في كلمة «الغنيمة» الواردة في آية الخمس، من حيث الاطلاق والتقييد، حيث يرى علماء بعض فرق المسلمين: أن الغنيمة هي المال المأخوذ من الكفار في ميدان الحرب والقتال، واتفقوا على هذا التخصيص رغم اعترافهم بان اللغة لا تقتضي تخصيص الآية بغنائم الحرب[١]، بينما يرى فقهاء الشيعة - تبعاً لأئمتهم -، أن الغنيمة هي مطلق المال المأخوذ بلا بدل، ومطلق ما يحصل عليه الانسان ويظفر به ولو لم يكن من ميدان الحرب مع الكفار[٢].

وقد امتد هذا الخلاف الفقهي حول ما يتعلق به الخمس ليشمل موضوع مستحقي الخمس أيضاً[٣].

والبحث حول هذه الفريضة من البحوث الحساسّة والدَّقيقة والموسَّعة وقد استوعبتها كتب التفسير والحديث والفقه بالتفصيل فلتراجع في مضانها.

---

(١) القرطبي - محمد بن أحمد الأنصاري، تفسير القرطبي الشهير بالجامع لأحكام القرآن: ٨ / ٣، طبعة دار الكتب العلمية - بيروت، (١٤١٣ هـ - ١٩٩٣ م).

(٢) للتوسع: انظر بحث الشيخ الاحمدي الذي ينقله العاملي في الصحيح من سيرة النبي: ٣ / ٣٠٦

(٣) للتوسع انظر: ابن رشد الاندلسي، بداية المجتهد ونهاية المقتصد: ١ / ٤٠١ وقارن ذلك بما كتبه السيد العسكري في: مقدمة مرآة العقول، ومعالم المدرستين.

الأسئلة:

١ - ما هي أهم الفوائد العسكرية التي استفادها المسلمون من السرايا والغزوات التي سبقت معركة بدر؟

٢ - ما هي ردود الأفعال التي رافقت قضية تحويل القبلة؟ وممن صدرت؟ وما هي أهدافها؟

٣ - ما هي أهم الدلائل المستفادة من حادث تحويل القبلة؟

٤ - متى شرع صوم شهر رمضان؟ وما هي الأسباب الظاهرية لتأخير التشريع إلى هذا الوقت؟

٥ - متى شرعت الفرائض المالية الواجبة (الزكاة والخمس)؟ وما هي أهم الاشكالات الواردة على القول بتشريع الزكاة في مكة؟

الدرس الخامس
حوادث السنة الثانية من الهجرة

(معركة بدر الكبرى)
«القسم الأول»

محاور البحث:

١ - أهمية معركة بدر
٢ - الموقع الجغرافي لأرض المعركة
٣ - سبب المعركة
٤ - خروج النبي والمسلمين لمصادرة قافلة قريش التجارية
٥ - نجاة قافلة قريش التجارية
٦ - تحرك جحافل قريش نحو بدر
٧ - طغيان قريش
٨ - النبي يستشير أصحابه
مواقف الصحابة من خوض المعركة

● الأسئلة

معركة بدر الكبرى / ق ١

١ - أهمية معركة بدر

من أهم أحداث السنة الثانية من الهجرة، بلى وعلى رأس أحداثها المهمة، (معركة بدر الكبرى) التي دارت رحاها من خلال معركة طاحنة بين فئتين غير متكافئتين، فئة قليلة مؤمنة، وفئة كثيرة كافرة، فانتصرت الفئة القليلة على الفئة الكثيرة بإذن الله: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ﴾[١] وهي «أوّل غزوة أعزّ الله فيها الإسلام، وأذلّ فيها أهل الشرك»[٢].

ولسنا نعرف معركة حاسمة من معارك العهد النبوي، ولا واقعة من وقائع المسلمين كيوم بدر، حيث انتصرت العقيدة السليمة على العقيدة الفاسدة، فكانت العقيدة وحدها هي السلاح الأول والأخير للمنتصرين.

ولأهمية هذه الواقعة، وللدروس والعبر المستفادة منها، فقد أولاها المؤرخون والكتّاب أهمية خاصة، وأفردوا لها فصولا مطولة في كتبهم، بل إن بعضهم قد أفرد لها مؤلفاً خاصاً جمع فيه كل شاردة وواردة من جزئيات وقائع هذه المعركة.

وسوف نفرد هذا الدرس وما بعده لهذه الواقعة، مستلهمين أهم الدروس والعبر منها، وذلك ضمن فصول متسلسلة، مختصرة.

---

(١) آل عمران: ١٢٣ .

(٢) الواقدي، المغازي: ١ / ٢١ .

٢ - الموقع الجغرافي

بَدْر - بفتح أوله وسكون ثانيه - اسم بئر حفرها رجل من غفار اسمه (بدر بن قريش)، وبه سميت بدر التي كانت بها الواقعة المباركة.

وتقع بدر جنوب غرب المدينة والمسافة بينها وبين المدينة - بطرق القوافل القديمة التي سلكها المشركون - حوالي (١٦٠) ميلا، وهي تقع إلى شمال مكة بحوالي (٢٥٠) ميلا، أما المسافة في زمننا هذا بين مكة وبدر فهي (٣٤٣ كم)، وبينها وبين المدينة (١٥٣ كم)، وتفصلها عن سواحل البحر الأحمر الواقع غربها حوالي (٣٠ كم)[(١)].

٣ - سبب المعركة

مرَّ بنا سابقاً أنّ الرسول الأكرم تلقى نبأ خروج تجارة كبيرة لقريش يقودها أبو سفيان بن حرب متجه إلى الشام، فخرج رسول الله ﷺ من المدينة في مائتي مقاتل لاعتراضها وذلك في غزوة (العُشيرة)، ولكن هذه القافلة تمكنت من الإفلات إلى الشام، فبقي المسلمون يترقبون عودتها من الشام، بعد أن عادوا إلى المدينة.

روى الواقدي: «تحيّن رسول الله ﷺ انصراف العير من الشام، وبعث (طلحة ابن عبيد الله)، و (سعيد بن زيد)، يتحسَّسان خبر العير، حتى نزلا على (كشد الجهني) بالنخار من الحوراء، فلم يزالا مقيمين عنده حتى مرّت العير، فرفع طلحة وسعيد على نشز من الأرض، فنظروا إلى القوم وإلى ما تحمل العير، ثم قدما المدينة وأخبرا رسول الله بذلك»[(٢)].

---

(١) انظر: هامش سيرة ابن هشام: ٢ / ٥٢٧، والحموي: معجم البلدان، والسهيلي: الروض الأُنُف.

(٢) الواقدي، المغازي: ١ / ٢١.

ولما سمع رسول اللهﷺ بذلك، ندب المسلمين إليها، وقال: هذه عير قريش، فيها أموالهم، فاخرجوا إليها لعل الله ينفلكموها، فانتدب الناس، فخفَّ بعضهم وثقل بعضهم، وذلك أنهم لم يظنوا أن رسول اللهﷺ يلقى حرباً»[١].

فالهدف الأساسي الذي من أجله خرج الرسولﷺ ومن معه من المسلمين هو الاستيلاء على القافلة التجارية لقريش بقيادة أبي سفيان بن حرب، والتي كان يحميها حرس ما بين ثلاثين أو اربعين رجلا.

والاستيلاء على أموال قريش وتجارتها حق مشروع للنبيﷺ وليس في ذلك أي حرج، فقريش ورجالاتها هم الذين أعلنوا الحرب بغياً وعدواناً على الإسلام والمسلمين، وهم الذين صادروا أموال المهاجرين واستولوا على ممتلكاتهم في مكة، لا لشيء إلاّ لأنّهم آمنوا بالله ورسوله والدين الذي جاء به من ربه، ومن حق من أُعلنت عليه الحرب وصُودرت أمواله أن يقاتل من أعلنها عليه، ويستولي على كل ما تصل إليه يده من ممتلكاته.

هذه هي قاعدة الحرب وقانونها في عرف جميع البشر، وهو ما يقرّه القانون الدولي العام من خلال بيان ومسائل العنف الموجهة ضد الأموال، حيث يبيح هذا القانون للدولة الُمحَارَبَة الالتجاء إلى انواع معينة من وسائل العنف ضد الأموال، ويجيز لها في حدود معينة إتلاف أموال الأعداء ومصادرتها[٢].

فلا غرابة إذاً في أن يعقد الرسول العزم على التصدي لقافلة قريش ويصمم على الاستيلاء عليها كجزء من مال العدو الُمحَارِب.

يقول المستشرق الفرنسي إميل درمنغم: «إن المهاجرين الذين أُخرجوا من ديارهم وصودرت أموالهم وبيعت بيوتهم بإغراء من أبي سفيان رأوا مقابلة

---

(١) ابن هشام: ١ / ٢٥٨ .

(٢) الرسول القائد: ١٠١ (الهامش) .

العدوان بالمثل».

وفي موضع آخر من كتابه يقول: «وأخذ الغنائم نتيجة كلّ حرب، وأباح محمد أخذ الغنائم لأصحابه لما فيهم من ضعف، ولكن نظّم شؤونها بدقة فجعل الكثير منها لبيت المال وتجهيز الجيش»[١].

إلاّ أن هذه النظرة المنصفة من هذا المستشرق، يقابلها بالتأكيد وجهات نظر أُخرى معاكسة لها وليس لها مصدر سوى الحقد الأسود الذي يعمي عن الحقائق، ويتيح للهوى أن يتكلم ويصدر حكمه كما يشاء، فنجدهم ينظرون إلى معركة بدر، وكأنها ضرب من قطع الطريق وإعمال السلب والنهب المجردة.

وهو منطق غريب، إذ كيف يوصف باللصوصية وقطع الطريق من حمل السلاح في وجه من أعلن عليه الحرب وقرر الفتك به، وصمم على القضاء عليه ومحوه من الوجود وصادر كل ما وصلت إليه يده من أمواله وممتلكاته[٢].

٤ - خروج النبي والمسلمين لمصادرة قافلة قريش التجارية روى ابن إسحاق واصفاً خروج النبيﷺ:

«وخرج رسول اللهﷺ في ليال مضت من شهر رمضان في أصحابه، واستعمل عمرو بن أم مكتوم على الصلاة بالناس، ثم ردّ أبا لبابة من الرّوحاء واستعمله على المدينة، ودفع اللواء إلى مصعب بن عمير وكان - اللواء - ابيض، وكان أمام رسول اللهﷺ رايتان سوداوان إحداهما مع علي بن أبي

(١) درمنغم - اميل، حياة محمد: ١٩٧ - ١٩٩ . ترجمة عادل زعيتر، ط . المؤسسة العربية للدراسات والنشر - بيروت، ط . الثانية، (١٩٨٨ م) .

(٢) باشميل - محمد أحمد، معارك الإسلام الفاصلة (معركة بدر الكبرى): ١٢٠ قدم له: محمود شيث خطاب، طبعة دار الفكر - بيروت، الطبعة السادسة، (١٩٧٤ م)، وانظر: محمد حسين هيكل، حياة محمد: ٢٧٣، (عنوان: جدل المستشرقين . صفحة: ١٠ وما بعدها من مقدمة الكتاب) .

طالب عليه السلام يقال لها: العُقاب، والأُخرى مع بعض الأنصار. وكانت راية الأنصار مع سعد بن معاذ.

وكانت إبل أصحاب رسول الله ﷺ يومئذ سبعين بعيراً فاعتقبوها، فكان رسول الله ﷺ وعلي بن أبي طالب، ومرثد بن أبي مرثد يعتقبون بعيراً، وكان حمزة بن عبد المطلب، وزيد بن حارثة وأبو كبشة، يعتقبون بعيراً، وكان أبو بكر، وعمر، وعبد الرحمن بن عوف يعتقبون بعيراً»[(١)].

وروى الواقدي:

«وكانت الخيلُ فرسين، فرس للمقداد بن عمرو، وفرس لمرثد بن أبي مرثد. وكان عدد المسلمين الذين خرجوا مع رسول الله ﷺ ثلثمائة وخمسة، وثمانية تخلفوا عنه لِعلَّة - فضرب لهم بسهامهم وأُجورهم» - وكان المهاجرون منهم اربعة وسبعين رجلا، وسائرهم من الأنصار»[(٢)].

«وقدّم رسول الله ﷺ أمامه عينين له إلى المشركين باتيانه بخبر عدوه، فانتهيا إلى ماء بدر فعلما الخبر ورجعا إلى رسول الله ﷺ»[(٣)].

٥ - نجاة قافلة قريش التجارية

روى ابن سعد: «وكان بلغ المشركين بالشام أن رسول الله ﷺ، يرصد انصرافهم فبعثوا (ضمضم بن عمرو) حين فصلوا من الشام إلى قريش بمكة يخبرونهم بما بلغهم عن رسول الله ﷺ، ويأمرونهم أن يخرجوا فيمنعوا

---

(١) ابن هشام، السيرة النبوية: ٣ / ٢٦٣ - ٢٦٤ .

(٢) الواقدي، المغازي: ١ / ٢٣، وابن سعد، الطبقات: ٢ / ٢٥٤ مع اختلاف في عددهم في المصادر الأُخرى . انظر: جوامع السيرة لابن حزم: ١١٤ وابن هشام: ٢ / ٣٦٤ .

(٣) ابن سعد، الطبقات: ٢ / ٢٥٥ .

عيرهم. . . وأقبل أبو سفيان بن حرب بالعير، وقد خافوا خوفاً شديداً حين دنوا من المدينة، واستبطأوا ضمضماً والنفير حتى وردوا بدراً، وهو خائف من الرصد، فقال - أبو سفيان - لمجدي بن عمرو: هل أحسست أحداً من عيون محمّد؟

فقال مجدي: والله ما رأيت أحداً أنكره إلاّ راكبين أتيا إلى هذا المكان، وأشار له إلى مناخ راكبهما، فجاء أبو سفيان فأخذ أبعاراً من بعيريهما ففته، فإذا فيه نوى، فقال: علائف يثرب هذه عيون محمد، فضرب وجوه العير فساحل بها «أي أخذ طريق ساحل البحر - وترك بدراً يساراً وانطلق سريعاً. . .»[١].

٦ - تحرك جحافل قريش نحو بدر

استيقظت قريش وأهل مكة من سباتها على إثر صوت صراخ ضمضم بن عمرو وهو ينادي: «يا معشر قريش، يا آل لويّ بن غالب، اللّطيمة[٢]، اللطيمة، قد عرض لها محمد في أصحابه! الغوث، الغوث، والله، ما أرى أن تدركوها، وكان ضمضم قد جدع[٣] أُذني بعيره، وشق قميصه قبلا ودبراً، وحوّل رحله»[٤].

وما كانت قريش بحاجة إلى إستغاثة «ضمضم» فقد كان يكفيها أن تسمع خبر ذلك حتى تعلن الاستنفار العام، فلقد كانت قافلة قريش الشتوية الكبرى الذاهبة إلى الشام وكان ما تشتمل عليه هذه القافلة من الأموال عظيماً، بل كانت هذه القافلة من أهم ما أوفدته قريش حتى ذلك الحين منذ زمن طويل، حيث

(١) المصدر نفسه: ٢ / ٢٥٥ .

(٢) اللطيمة: القافلة التجارية التي تحمل الطيب، أو ما حملت الإبل للتجارة .

(٣) جدع: قطع اذنه .

(٤) الواقدي، المغازي: ١ / ٣١ .

يصف لنا الواقدي هذه القافلة فيقول:

«وكانت العير ألف بعير، وكانت فيها أموال عظام، ولم يبقَ بمكة قرشي ولا قرشية له مثقال فصاعداً، إلاّ بعث به في العير، حتى أنَّ المرأة لتبعث بالشيء التافه، فكان يقال إن فيها لخمسين ألف دينار، وقالوا أقل، وإن كان ليقال إن أكثر ما فيها من المال لآل سعيد بن العاص، وإما مال لهم، أو مال مع قوم قراض على النصف، فكانت عامة العير لهم، ويقال كان لبني مخزوم فيها مائتا بعير وخمسة آلاف مثقال ذهب، وكان يقال للحارث بن عامر بن نوفل فيها ألف مثقال، وكان لأُمية بن خلف ألفا مثقال»[١].

ولهذا هبت قريش لنجدة تجارتها، وتجهّز الناس، وشغل بعضهم عن بعض، وكان الناس بين رجلين، إمّا خارج، وإما باعث مكانه رجلا، فأقامت ثلاثة تتجهّز، وأخرجت قريش أسلحتها واشتروا سلاحاً، وأعان قويّهم ضعيفهم...[٢].

وأخذ أكابر رجالات قريش يحثون رجال قريش على الخروج، ويبذلون الأموال الكبيرة لتجهيز المقاتلين، وكانوا ينعتون الذي يتخلف بأشد النعوت وأقساها.

ينقل الواقدي: «أن أُمية بن خلف أَبى - أول الأمر - أن يخرج مع القوم إلى بدر، فأتاه عقبة بن أبي معيط، وأبو جهل، ومع عقبة مجمرة فيها بخور، ومع أبي جهل مكحلة ومرود، فأدخلها عقبة تحته وقال: تبخر، فإنما أنت امرأة! وقال أبو جهل: إكتحل، فإنما أنت إمرأة...»[٣].

(١) المصدر نفسه: ١ / ٢٨ .

(٢) المصدر نفسه: ١ / ٣١ .

(٣) المصدر نفسه: ١ / ٣١ .

وهكذا أخذت قريش تتجهز للحرب وتتهم كل من يعوقها عن المسير، ولم تستمع إلى أهل الرأي منهم ممن كره المسير والخروج إلى الحرب ووسمتهم بالجبن. وجهزت جيشاً كبيراً يتألف من تسعمائة وخمسين مقاتلا، وقادوا مائة فرس، وكانت الخيل لأهل القوة منهم، وكانت الإبل سبعمائة بعير، وكان أهل الخيل كلهم دارع، وكانوا مائة، وكان في الرجّالة دروع سوى ذلك وأخرجوا معهم القيان والدفوف»[١].

٧ - طغيان قريش

بعد أن نجح أبو سفيان في الفرار، وأصبح في مأمن ومنأى عن جيش المسلمين أرسل إلى قريش: «إنكم إنما خرجتم لتمنعوا عيركم ورجالكم وأموالكم، فقد نجت فارجعوا»[٢].

فقال أبو جهل: «لا والله، لا نرجع حتى نرد بدراً - وكان بدر موسماً من مواسم الجاهلية يجتمع بها العرب ولها بها سوق - فنقيم عليه ثلاثاً، فننحر الجزور، ونطعم الطعام، ونسقي الخمر، وتعزف علينا القيان، وتسمع بنا العرب وبمسيرنا وجمعنا، فلا يزالون يهابوننا أبداً بعدها فامضوا»[٣].

وهكذا دارت الحميّة - حمية الجاهلية - في رأس أبي جهل ومن معه من رجالات قريش وفتيانها، ولم تنفع معهم محاولات بعض من أبدى رأياً بالرجوع إلى مكة بعد أن انتفى السبب الذي خرجوا من أجله، ونجت قافلتهم التجارية من أيدي المسلمين.

---

(١) المصدر نفسه: ١ / ٣٩ . القيان: جمع قينة وهي الأَمة المغنية .

(٢) ابن هشام: ٢ / ٢٧٠ .

(٣) الواقدي: ١ / ٤٤، وابن هشام: ٢ / ٢٧٠ .

واستمر طغيان قريش من خلال مواقف أبي جهل المتعصبة، إلى ما قبل وقوع المعركة، وأفسد محاولة حكيم بن حرام الذي أتى عتبة بن ربيعة، وحثه على الرجوع بالناس، وأن يتحمل دم حليفه ابن الحضرمي الذي قتل أخوه ببطن نخلة من قبل المسلمين، حيث قبل عتبة بن ربيعة بذلك.

روى ابن هشام قال: «قام عقبة بن ربيعة خطيباً، فقال: «يا معشر قريش، إنكم والله ما تصنعون بأن تلقوا محمداً وأصحابه شيئاً، والله لئن اصبتموه لا يزال الرجل ينظر في وجه رجل يكره النظر إليه، قتل ابن عمّه، أو ابن خاله، أو رجلا من عشيرته، فارجعوا وخلّوا بين محمد وبين سائر العرب فإن أصابوه فذاك الذي أردتم، وإن كان غير ذلك ألفاكم ولم تعرّضوا منه ما تريدون»[١].

لم يَرِقْ هذا القول الرزين أبا جهل الذي كان قد نَثَلَ دِرْعاً له من جرابها،

وكان يهيؤها للقتال، فقال: «انتفخ والله سحّرهُ[٢] حين رأى محمداً وأصحابه، كلا والله لا نرجع حتى يحكم الله بيننا وبين محمد، وما بعتبة ما قال، ولكنّه قد رأى ان محمداً وأصحابه أكلة جزور، وفيهم ابنه، فقد تخوفكم عليه»[٣].

ولم يكتفِ أبو جهل بهذه المقالة الخبيثة وانما قام بعمل تحريضي آخر ليسدّ بذلك الطريق على من يفكر أو يدعو إلى الرجوع إلى مكة.

يقول ابن هشام: «ثم بعث - أبو جهل - إلى عامر بن الحضرمي - الذي قتل اخوه في نخلة في الشهر الحرام - فقال له: هذا حليفك - أي عتبة بن ربيعة - يريد أن يرجع بالناس، وقد رأيت ثأرك بعينك، فقم فانشد خفرتك[٤] ومقتل

---

(١) ابن هشام: ٢ / ٢٧٥ . والمغازي: ١ / ٦٣ - ٦٤ .

(٢) السحّر: الرئة وانتفخ سحرهُ مثل يضرب وهو كناية عن الجبن .

(٣) ابن هشام: ٢ / ٢٧٥ . والمغازي: ١ / ٦٤ .

(٤) خفرتك: أي عهد قريش .

أخيك، فقام عامر بن الحضرمي، فاكتشف ثم صرخ: وا عمراه! وا عمراه! فحميت الحرب، وحقب امر الناس، واستسقوا على ما هم عليه من الشر، وافسد على الناس الرأي الذي دعاهم إليه عتبة»[(١)].

٨ - النبي يستشير أصحابه

• مواقف الصحابة من خوض المعركة:

يروي ابن هشام: «وأتاه (يعني النبيﷺ) الخبر عن قريش بمسيرهم ليمنعوا عيرهم، فاستشار الناس، وأخبرهم عن قريش، فقام أبو بكر الصديق، فقال وأحسن، ثم قام عمر بن الخطاب، فقال وأحسن»[(٢)].

ولم يذكر لنا ابن هشام ما قاله أبو بكر وصاحبه حتى يتبين لنا وجه الحسن في كلامهما!! والملاحظ أن أكثر المؤرخين قد ساروا على نفس المنهج الذي سار عليه ابن هشام حيث حذفوا كلام أبي بكر وعمر هنا، واكتفوا بقولهم: قام أبو بكر فقال واحسن، ثم قام عمر فقال واحسن[(٣)].

إلاّ أن الذي قد أعرض عن ذكره ابن هشام وغيره - ممن سار على منهجه في إخفاء بعض الحقائق التي لها مساس ببعض الأُمور الحساسة - قد ذكره غيره من المؤرخين كالواقدي في المغازي، وزيني دحلان في السيرة، وابن سيد الناس الشافعي في عيون الأثر، وصاحب السيرة الحلبية[(٤)] وغيرهم.

(١) ابن هشام: ٢ / ٢٧٥ . والمغازي: ١ / ٦٤ .

(٢) السيرة النبوية: ٢ / ٢٢٦ .

(٣) انظر: البداية والنهاية: ٣ / ٣٣٠، وتاريخ الإسلام للذهبي - مجلد المغازي: ٥١ .

(٤) المغازي: ١ / ٤٨، السيرة النبوية: ١ / ٣١٢، عيون الأثر: ١ / ٢٨٨، السيرة الحلبية: ٢ / ١٦٠ .

قال الواقدي: «ثم قال عمر: «يا رسول الله، إنها قريش وعزّها، والله ما ذلّت منذ عزّت، والله ما آمنت منذ كفرت، والله لا تسلم عزّها أبداً، ولتقاتلنَّك فاتّهبّ لذلك أهبتهُ وأعدّ لذلك عدّته»[١].

ونسب بعض كتّاب السيرة هذه المقولة لأبي بكر، حيث جاءت مقولة عمر بن الخطاب تكراراً لما قاله الأول[٢].

ولهذا نجد النبيﷺ في هذا الموقف الدقيق، واللحظات الحاسمة يبحث عمن يتدارك هذا الموقف حيث أعرض عن مقولة الرجلين بعد انزعاجه الشديد لمقولتهما، حتى بان الانزعاج والغضب على قسمات وملامح وجهه!!

ففي صحيح مسلم، ومسند أحمد: فتكلم أبو بكر فأعرض عنه، ثمّ تكلم عمر فأعرض عنه. وفي رواية الطبري عن ابن مسعود: «.. وكان رسول اللهﷺ إذا غضب احمارّت وجنتاه، فأتاه المقداد على تلك الحال، فقال: أبشر يا رسول الله، فوالله لا نقول كما قالت بنو إسرائيل لموسى..»[٣].

وفي رواية الواقدي: فَأتاه «المِقْداد بن عمرو» وهوﷺ على تلك الحال فقال: يا رسول الله امضِ لأمر الله فنحن معك، فو الله لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لنبيها: ﴿فَٱذۡهَبۡ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَـٰتِلَآ إِنَّا هَـٰهُنَا قَـٰعِدُونَ﴾[٤] ولكن إذهب أنت وربّك فقاتلا، وإنا معكما مقاتلون، والذي بعثك بالحقّ لو سرت إلى برك الغماد[٥] لسرنا معك[٦].

---

(١) الواقدي: ١ / ٤٨ .

(٢) انظر: سيد المرسلين: ٢ / ٦٠ والصحيح من سيرة النبي: ٣ / ١٧٣ - ١٧٤ .

(٣) صحيح مسلم: ٥ / ١٧٠ (غزوة بدر) ومسند أحمد: ٣ / ٢١٩، والطبري: ١ / ٤٣٤ .

(٤) المائدة: ٢٤ .

(٥) موضع من ناحية اليمن والحبشة، أو انه أقصى معمور في الأرض، على اختلاف في تفسيرها .

(٦) المغازي: ١ / ٤٨ .

وفي رواية: ولكننا نقاتل عن يمينك وعن شمالك وبين يديك وخلفك، فو الذي بعثك بالحق لو سرت بنا برك الغماد لجالدنا معك من دونه حتى تبلغه[١] ولو أمرتنا أن نخوض جمر الغضا، وشوك الهراس لخضناه معك[٢].

فقال لهﷺ خيراً ودعا له بخير.

وفي رواية ابن مسعود في آخر قصة المقداد: فرأيتُ النبيﷺ اشرق وجهه وسره قوله. وفي رواية عن أبي أيوب الأنصاري: «فتمنينا معشر الأنصار لو أنّا قلنا كما قال المِقْداد»[٣].

وقد أشار القرآن الكريم إلى تخوف بعض المسلمين من مواجهة العدو في هذه الواقعة إذ يقول سبحانه:

﴿كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيْتِكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ ۝٥ يُجَٰدِلُونَكَ فِى ٱلْحَقِّ بَعْدَمَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ ۝٦﴾[٤].

ولم يكتفِ النبيﷺ برأي الأنصار الذي جسده «المقداد بن عمرو» في مقولته الشجاعة، وإنما أعادﷺ قوله: أشيروا عليّ أيها الناس وكانﷺ يريد بذلك أن يستخلص رأي الأنصار، لأنّ الأنصار يمثلون أغلبية الجيش، وسوف تدور ثقل المعركة على كواهلهم، ولأن نصوص بيعة العقبة لا تلزمهم صراحة بالقتال خارج ديارهم، حيث جاء في أحد بنودها:

«إنهم - أي الأنصار - برآء من ذمامه حتى يصل إلى ديارهم، فإذا وصل

---

(١) دحلان - أحمد بن زيني، السيرة النبوية: ١ / ٣١٢. تحقيق: ناجي السويد، طبعة دار احياء التراث العربي، طبعة جديدة محققة، (د - ت).

(٢) سيرة سيد المرسلين: ٢ / ٦٠.

(٣) دحلان - أحمد بن زيني، السيرة النبوية: ١ / ٣١٢.

(٤) الأنفال: ٥ - ٦.

إليهم فانه في ذمتهم يمنعونه مما يمنعون منه أبناءهم ونساءهم».

فكانﷺ لذلك، يخشى ألاّ تكون الأنصار ترى نصره إلاّ ضد من يهاجمه بالمدينة.

ولهذا أحبَّ أن يرى - بصفة خاصة - حقيقة موقف الأنصار من خوض المعركة، ولهذا أعاد قوله: «أشيروا عليَّ أيها الناس».

وهنا نهض سعد بن معاذ الأنصاري، سيد الأنصار، وصاحب لواء كتيبتهم وقال: أنا أُجيب عن الأنصار، كأ نّك يا رسول الله تريدنا؟

قال: أجل.

قال: «. . . إنّا قد آمنا بك وصدقناك، وشهدنا أنّ كلّ ما جئت به حقّ، وأعطيناك مواثيقنا وعهودنا على السّمع والطاعة، فامض يا نبيّ الله، فالذي بعثك بالحق لو استعرضت هذا البحر فخضتهُ لخضناه معك، ما بقي منا من رجل، وصل من شئت، واقطع من شئت، وخذ من أموالنا ما شئت، وما أخذت من أموالنا أحبّ إلينا مما تركت، والذي نفسي بيده، ما سلكت هذا الطريق قطّ، ومالي بها من علم وما نكره أن يلقانا عدوّنا غداً، إنّا لَصُبَّرٌ عند الحرب، صدق عند اللقاء، لعلّ الله يريك منّا ما تقرّ به عينك، فسر بنا على بركة الله».

وفي رواية: «قال سعد: يا رسول الله، إنّا قد خلّفنا من قومنا قوماً ما نحن بأشد حبّاً لك منهم، ولا أطوع لك منهم، لهم رغبة في الجهاد ونيّة، ولو ظنّوا يا رسول الله أنك ملاق عدوّاً ما تخلفوا، ولكن إنما ظنوا أنّها العير. . .»(١).

فقال له النبيﷺ خيراً.

وهنا سُرّ رسول اللهﷺ بعد أن عرف نية القوم ورغبتهم في ملاقاة جيش

(١) المغازي: ١ / ٤٩، والطبري: ٢ / ٤٣٥.

المشركين.

وفوراً أمر أصحابه بالتحرك نحو بدر وقال:

«سيروا على بركة الله، وأبشروا، فإن الله قد وَعَدني إحدى الطائفتين، والله، لكأنّي الآن انظر إلى مصارع القوم»[١].

قال الراوي: «وأرانا رسول الله ﷺ مصارعهم يومئذ، هذا مصرع فلان، وهذا مصرع فلان، فما عدا كلّ رجل مصرعه، فعلم القوم أنّهم يلاقون القتال، وأنّ العير تفلت، ورجوا النّصر لقول النبي ﷺ»[٢].

(١) المصدر نفسه. والطبري: ٢ / ٤٣٥.

(٢) انظر: السيرة الحلبية: ٢ / ٢٠٧.

الأسئلة:

١ - أين تكمن أهمية واقعة بدر بالنسبة للإسلام والمسلمين؟

٢ - ما هي الوجوه العقلائية والقانونية التي يمكن أن يستدل بها لتبرير استيلاء الرسول ﷺ والمسلمين على أموال قريش وتجارتها؟

٣ - كيف نجت قافلة قريش التجارية؟ وما هو موقف قريش بعد ذلك؟

٤ - ما هي مواقف وآراء بعض المهاجرين والأنصار بعد أن استشارهم الرسول ﷺ ؟

٥ - ما هي الأسباب التي دعت النبي ﷺ إلى التأكُد من معرفة رأي الأنصار في الاشتراك في الحرب؟

الدرس السادس
حوادث السنة الثانية من الهجرة

(معركة بدر الكبرى)
«القسم الثاني»

محاور البحث:

١ - استعداد الفريقين للمعركة:

أولا: استعداد المسلمين للمعركة

ثانياً: استعداد المشركين للمعركة

٢ - بدايات المعركة:

اعتداءات جانبية ومبارزات فردية

التحام الفريقين

صور من المعركة

دفن قتلى المشركين

- الأسئلة

معركة بدر الكبرى / ق ٢

١ - استعداد الفريقين للمعركة

أولا: استعداد المسلمين للمعركة:

بعد أن انتهى رسول الله من مجلسه العسكري الاستشاري الذي اطّلع فيه على حقيقة آراء المهاجرين والأنصار في ذلك الظرف الدقيق والحساس، تحرك نحو بدر بعد أن أظهر السلاح وسلّم الألوية، فسلك طرقاً متعددة حتى وصل أدنى بدر عشاء ليلة الجمعة لسبع عشرة مضت من رمضان[١].

النبيﷺ يستعمل الطرق العسكرية في الاستكشاف:

ومن أروع الأمثلة التي ضربها النبيﷺ كقائد رباني أنه عندما نزل بأصحابه بالقرب من بدر - حيث يربض جيش مكة الضخم - قام بنفسه ومع بعض أصحابه بعملية الاستكشاف لمعرفة حقيقة قوة هذا الجيش وعددهم ومكانهم.

يروي ابن هشام والواقدي وغيرهما: «أنَّ رسول اللهﷺ وقف على شيخ من العرب، يدعى سفيان الضَّمري، فسأله عن قريش، وعن محمد وأصحابه، وما بلغه عنهم، فقال الشيخ: لا أُخبركما حتى تخبراني ممن أنتما؟ فقال رسول اللهﷺ : إذا أخبرتنا أخبرناك، قال الشيخ: فإنه بلغني أنَّ محمداً وأصحابه

---

(١) الواقدي، المغازي: ١ / ٥٠ - ٥١ وفي المصدر تفصيل للطرق والمسالك التي سلكها رسول اللهﷺ للوصول إلى بدر .

خرجوا يوم كذا وكذا، فإن كان صدق الذي أخبرني، فهم اليوم بمكان كذا وكذا للمكان الذي به رسول الله ﷺ، وبلغني أن قريشاً خرجوا يوم كذا وكذا، فإن كان الذي أخبرني صدقني فهم اليوم بمكان كذا وكذا، للمكان الذي فيه قريش، فلما فرغ من خبره، قال: فمن أنتما: فقال رسول الله ﷺ: نحن من ماء، ثم انصرف عنه، قال الشيخ: ما من ماء! أمن ماء العراق؟!»[١].

وهكذا عرف رسول الله ﷺ بالتحديد مكان جيش العدو دون أن يُعرِّف الشيخ بهويته حتى لا تعلم قريش بمواضع المسلمين، مستخدماً بذلك أُسلوب التمويه والتعمية؛ حيث إنَّ ذلك مشروع في الحروب.

ومن جهة أُخرى خطى رسول الله خطوة ثانية لمعرفة عدد جيش قريش، فأرسل دورية استطلاع مؤلفة من علي بن أبي طالب عليه السلام والزبير بن العوام، وسعد ابن أبي وقاص إلى ماء بدر، يلتمسون الخبر له، فأصابوا غلامين لقريش يستسقيان، فأتوا بهما فسألاهما، فقالا: نحن سقاة قريش، بعثونا نسقيهم من الماء، وكان رسول الله ﷺ قائماً يصلي وبعد أن انتهى من صلاته سألهما عن قريش، فقالا: هم والله وراء هذا الكثيب الذي ترى بالعدوة القصوى. فقال لهما رسول الله ﷺ: «كم القوم؟ قالا كثير، فقال: ما عدّتهم: قالا: لا ندري، قال: كَم ينحرون كلّ يوم؟ قالا: يوماً تسعاً، ويوماً عشراً، فقال ﷺ: القوم فيما بين التسعمائة والألف.

ثم قال لهما: فمن فيهم من أشراف قريش؟ قالا: عتبة بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة، وفلان... وفلان... فأقبل رسول الله ﷺ على الناس فقال: هذه مكة قد ألقت إليكم أفلاذ كبدها»[٢].

---

(١) ابن هشام، السيرة النبوية: ٢ / ٢٦٨ .

(٢) المصدر نفسه: ٢ / ٢٦٨ - ٢٦٩ . والأفلاذ: القطع، الواحدة: فلذة .

نموذج من الشورى الصحيحة:

يروي ابن إسحاق: ومضت قريش حتى نزلوا بالعدوة القصوى من الوادي، وخرج رسول الله يبادرهم إلى الماء، حتى إذا جاء أدنى ماء من بدر نزل به[١].

وعن الواقدي وابن هشام: «أن رسول الله ﷺ قال لأصحابه: أشيروا عليّ في المنزل؟

فقال: الحباب بن المنذر: يا رسول الله، أرأيت هذا المنزل، أمنزل أنزلكه الله فليس لنا أن نتقدّمه ولا نتأخّر عنه؟ أم هو الرأي والحرب والمكيدة؟

قال ﷺ: بل هو الرأي والحرب والمكيدة.

قال الحباب: يا رسول الله، فإنّ هذا ليس بمنزل، فانهض بالناس، حتى نأتي أدنى ماء من القوم، فننزله، ثم نغوّر[٢] ما وراءه من القلب، ثم نبني عليه حوضاً فنملؤهُ ماء، ثم نقاتل القوم، فنشرب ولا يشربون.

روى الواقدي عن ابن عباس: نزل جبريل على رسول الله ﷺ، فقال: الرأي ما أشار به الحباب.

فقال رسول الله ﷺ: يا حباب. أشرت بالرأي.

فنهض رسول الله ﷺ ومن معه من الناس، فسار حتى إذا أتى أدنى ماء من القوم نزل عليه، ثم أمر بالقُلب فغوّرت، وبنى حوضاً على القليب الذي نزل عليه، فملؤه ماءً»[٣].

---

(١) المصدر نفسه: ٢ / ٢٧٢ .

(٢) التغوير: الدفن والطمس أو الإفساد .

(٣) الواقدي: ١ / ٥٣ - ٥٤، وابن هشام: ٢ / ٢٧٢ .

مقر قيادة الرسول:

بعد أن تمركز رسول الله ﷺ ومن معه من أصحابه في المكان الذي أشار به الحباب بن المنذر، اقترح حامل لواء الأنصار - سعد بن معاذ - على النبي ﷺ

أن يبني المسلمون مقراً لقيادته واقترح القائد الأنصاري - استعداداً للطوارىء وتقديراً للهزيمة قبل النصر - أن يكون مقر هذه القيادة بمثابة خط رجعة يستطيع الرسول الانسحاب منه واللحاق بالمدينة بسلام، إذا ما قدر لجيش الإسلام أن ينهزم.

روى ابن إسحاق: «أن سعد بن معاذ قال: يا نبي الله، ألا نبني لك عريشاً[١] تكون فيه، وتُعِدُّ عندك ركائبك، ثم نلقى عدوّنا، فإن أعزّنا الله وأظهرنا على عدوّنا، كان ذلك ما أحببنا وإن كانت الأُخرى، جلست على ركائبك، فلحقت بمن وراءنا من قومنا، فقد تخلّف عنك اقوام، يا نبي الله، ما نحن بأشدّ لك حباً منهم، ولو ظنّوا أنك تلقى حرباً ما تخلفوا عنك، يمنعك الله بهم، يناصحونك ويجاهدون معك، فأثنى عليه رسول الله ﷺ خيراً، ودعا له بخير.

ثم بني لرسول الله ﷺ عريش فكان فيه»[٢].

أساليب تعبوية عسكرية يتخذها النبي ﷺ:

وتحدثنا كتب السيرة النبوية عن أساليب عسكرية تعبوية أُخرى اتخذها النبي ﷺ قبل بدء المعركة وذلك من خلال اتخاذ القتال بأُسلوب (الصفوف) بدل أُسلوب (الكر والفر) الذي تقاتل به العرب آنذاك، واتخذها المشركون أُسلوباً لقتالهم في هذه المعركة، وهنالك فرق كبير بين الأُسلوبين، وفي رأي بعض

---

(١) العريش: شبه الخيمة يستظل به.

(٢) ابن هشام: ٢ / ٢٧٢ - ٢٧٣.

الخبراء في الشؤون العسكرية أن هذا الأُسلوب الذي اتخذه النبيﷺ في ترتيب المقاتلين من أصحابه من أهم عوامل انتصار المسلمين في هذه المعركة[(١)].

ثمّ إنَّ رسول اللهﷺ أمر أصحابه أن يصدّوا هجمات المشركين وهم مرابطون في مواقعهم وقال لهم: «إذا التقاكم القوم، فانضحوهم بالنبل، ولا تحملوا عليهم حتى تؤذنوا. . .»[(٢)].

وهكذا استعد المسلمون للمعركة، بمكان استراتيجي، ومقر قيادة، وسيطرة لقائد واحد، واسلوب جديد في القتال لم تعرفه العرب من قبل، وأوامر تعبوية محددة من القائد.

ثانياً: استعداد المشركين للمعركة:

قررت قريش الخروج إلى الحرب خاضعة لدعاة الحرب وعلى رأسهم أبو جهل، أشد الناس عداوة للمسلمين، وعامر بن الحضرمي أخو عمرو بن الحضرمي الذي قتله المسلمون في (نخلة)، والذي يحرص على الأخذ بثأره.

ولم يتخلَّف من أشراف قريش غير أبي لهب الذي أرسل مكانه رجلا آخر، كما حشد هؤلاء كل القادرين على حمل السلاح من قريش وحلفائهم.

استطلاع قريش لقوة المسلمين:

بعد أن اطمأنت قريش في معسكرها بالعدوة القصوى من الوادي، بثت سلاح استكشافها حول جيش المسلمين، للتعرف على حقيقته ومدى قوته فأرسلت عُمَير بن وهب الجمحي ليستطلع لهم قوة المسلمين، «فاستجال بفرسه حول العسكر ثم رجع إليهم، فقال: ثلاثمائة رجل، يزيدون قليلا أو ينقصون،

---

(١) للتوسع: انظر: الرسول القائد: ١١٦ وما بعدها.

(٢) ابن هشام: ٢ / ٢٧٨.

ولكن أمهلوني حتى انظر أللقوم كمينٌ أو مدد؟ قال - الراوي - فضرب في الوادي حتى أبعد، فلم ير شيئاً، فرجع إليهم فقال: ما وجدت شيئاً، ولكنّي قد رأيت، يا معشر قريش، البلايا تحمل المنايا[١]، نواضِحَ[٢] يثرب تحمل الموت الناقع[٣]. قوم ليس معهم مَنَعة ولا ملجأ إلاّ سيوفهم، والله ما أرى أن يُقْتَل رجل منهم، حتى يَقْتُل رجلا منكم، فإذا أصابوا منكم أعدادهم فما خير العيش بعد ذلك؟ فروا رأيكم»[٤].

الانشقاق في صفوف المشركين:

لم يكن جيش المشركين عند خروجه منسجماً أو موحَّداً تحت قيادة واحدة، وانما كانت تتنازعهم الاهواء، بالاضافة إلى طغيان الأثرة الفردية والمصالح الشخصية على الكثير منهم، وكانوا أقرب إلى العداوة منهم إلى الإخاء.

ولهذا كله كان من السهل جداً حصول الاختلاف تلو الاختلاف، والانشقاق تلو الانشقاق بين أفراد وقيادات هذا الجيش، وهذا ما حصل فعلا أثناء مسيرهم إلى بدر كما مر بنا سابقاً، وأثناء استقرارهم في بدر واستعدادهم للمعركة حصل انشقاق آخر ومعارضة أكبر من ذي قبل.

فبعد معارضة قادها الأخنس بن شريق ضد أبي جهل، ورجع على أثرها إلى مكة بقبيلة بني زهرة قبل الوصول إلى بدر، رجع طالب بن أبي طالب إلى مكة وقد استكره على الخروج من مكة، وذلك بعد محاورة بينه وبين بعض

---

(١) البلايا: جمع بلية، وهي الناقة أو الدابة تربط على قبر الميت، فلا تعلف ولا تسقى حتى تموت.

(٢) النواضح: الإبل التي يستقى عليها الماء.

(٣) الناقع: الثابت البالغ في الإفناء.

(٤) ابن هشام: ٢ / ٢٧٤.

رجالات قريش حيث قالوا له: والله لقد عرفنا يا بني هاشم، وإن خرجتم معنا، أنَّ هواكم لمع محمد[١].

بعد هذا حصل انشقاق أكبر وأخطر من التي قبلها، حيث قاد هذا الانشقاق والمعارضة عتبة بن ربيعة سيد بني عبد شمس، يسانده حكيم بن حزام، فقد كان رأي هذه المعارضة التي ظهرت قبل نشوب المعركة بيوم أو بعض يوم، تحاشي الاصطدام مع جيش المدينة، والرجوع إلى مكة دونما قتال.

«فلما سمع حكيم بن حزام ذلك (أي مقولة عمير بن وهب الجمحي) مشى في الناس، فأتى عتبة بن ربيعة، فقال: يا أبا الوليد، إنك كبير قريش وسيّدهما، والمطاع فيها، هل لك إلى أن لا تزال تذكر فيها بخير إلى آخر الدهر؟».

فقال: وماذا يا حكيم؟ قال: ترجع بالناس، وتحمل أمر حليفك عمرو بن الحضرمي فقال: قد فعلت، أنت علي بذلك، إنما هو حليفي، فعليّ عقله وما أُصيب من ماله.

ثم قام عتبة بن ربيعة خطيباً، فقال: يا معشر قريش، إنكم والله ما تصنعون بأن تلقوا محمداً وأصحابه شيئاً، والله لئن أصبتموه لا يزال الرجل ينظر في وجه رجل يكره النظر إليه، قتل ابن عمه، أو ابن خاله، أو رجلا من عشيرته، فارجعوا وخلّوا بين محمد وبين سائر العرب، فإن أصابوا فذاك الذي أردتم، وإن كان غير ذلك ألفاكم ولم تعرضوا ما تريدون[٢].

وقد جاءت محاولة عتبة بن ربيعة السلمية هذه مصداقاً لقول النبيﷺ الذي قال: - عندما رأى جيش مكة، وقد رأى عتبة بن ربيعة في القوم على جمل له

---

(١) ابن هشام: ٢ / ٢٧٠ - ٢٧١ .

(٢) المصدر نفسه: ٢ / ٢٧٥ - والواقدي: ١ / ٣٦٣ مع اختلاف يسير بين المصدرين .

أحمر - إن يكن في أحد من القوم خير فعند صاحب الجمل الأحمر، إن يطيعوه يرشدوا[١].

ولكنَّ أبا جهل لم يكد يعلم بدعوة عتبة بن ربيعة السلمية حتى استشاط غضباً، ثم اتهم عتبة بالجبن والخوف على ابنه من القتل.

فقال لحكيم بن حزام الذي كان رسول عتبة إليه... انتفخ والله سحره[٢] حين رأى محمداً وأصحابه، كلاّ والله لا نرجع حتى يحكم الله بيننا وبين محمد، وما بعتبة ما قال، ولكنّه قد رأى أن محمداً وأصحابه أكلة جزور، وفيهم ابنه، فقد تخوفكم عليه[٣].

وهكذا - ولأمر يريده الله - تغلَّب الطيش على الحكمة والروية، فهُزِمَت معارضة صاحب الجمل الأحمر، وتغلب طيش أبي جهل، فحمل جيش مكة على الاصطدام بجيش المسلمين.

يقول ابن هشام:

«فحميت الحرب، وحقب أمر الناس، واستوسقوا على ما هم عليه من الشرّ، وأفسد على الناس الرأي الذي دعاهم إليه عتبة»[٤].

٢ - بدايات المعركة

اعتداءات جانبية ومبارزات فردية:

بدأ المشركون الهجوم أولا، إذ خرج الأسود بن عبد الأسد المخزومي،

---

(١) ابن هشام: ٢ / ٢٧٣.

(٢) انتفاخ السحر: كناية عن الجبن.

(٣) ابن هشام: ٢ / ٢٧٥.

(٤) المصدر نفسه: وحقب: اشتد، واستوسقوا: اجتمعوا.

وكان رجلا شرساً، سيءَ الخُلق، فقال: «أُعاهد الله لأشربن من حوضهم، أو لأهدمنّه، أو لأموتنّ دونه، فلما خرج، خرج إليه حمزة بن عبد المطلب، فلما التقيا ضربه حمزة فأطنّ قدمه بنصف ساقه، وهو دون الحوض، فوقع على ظهره تشخب رجله دماً، ثم حبا إلى الحوض حتى اقتحم فيه، وأتبعه حمزة فضربه حتى قتله في الحوض»[١].

فكان هذا المخزومي أول قتيل في المعركة وكان قتله بمثابة الفتيل الذي أشعل نار المعركة، فقد خرج بعد ذلك من صفوف المشركين ثلاثة من فرسان قريش وخيرة محاربيهم، ومن عائلة واحدة، وهم شيبة بن ربيعة، وعتبة بن ربيعة، وابنه الوليد بن عتبة.

وبعد أن تمركز هؤلاء الأمويون الثلاثة بين الصفَّين دعوا المسلمين إلى المبارزة «فخرج إليهم فتية من الأنصار ثلاثة، وهم عوف، ومعوّذ ابنا الحارث، وعبد الله بن رواحه، فقالوا: من أنتم؟ فقالوا: رهطٌ من الأنصار، قالوا: ما لنا بكم حاجة.

ثم نادى مناديهم: يا محمد، أَخْرِج إلينا أكفاءَنا مِنْ قَوْمِنا، فقال رسول الله ﷺ: قُم يا عبيدة بن الحارث، وقم يا حمزة، وقم يا علي، فلما قاموا ودنوا منهم، قالوا: من أنتم: قال عبيدة: عبيدة وقال حمزة: حمزة، وقال علي: علي، قالوا: نعم، أكفاءٌ كرام.

فبارزَ عُبيدة - وكان أسنَّ القوم - عتبةَ بن ربيعة، وبارز حمزة شيبة بن ربيعة، وبارز علي الوليد بن عتبة، فأما حمزة فلم يمهل شيبة أن قتله، وأما علي فلم يمهل الوليد أن قتله، واختلف عبيدة وعتبة بينهما ضربتين، كلاهما أثبت صاحبه[٢] وكرّ حمزة وعليّ بأسيافهما على عتبة فقتلاه واحتملا صاحبهما فحازاه

(١) المصدر نفسه: ٢ / ٢٧٧ .

(٢) اي جرحه جراحة لم يقم معها .

إلى أصحابه[١] وفي رواية الواقدي إن الذي بارز عبيدة هو شيبة وليس عتبة»[٢].

رواية أُخرى للمبارزة:

وقد رويت هذه المبارزة في المصادر الشيعية بشكل يختلف في بعض تفاصيله عن رواية ابن هشام:

فقد روي: «أن النبي ﷺ قد أرجع الفتية من الأنصار بعد أن رفض عتبة وشيبة والوليد مبارزتهم وطالبوا بالأكفاء من قريش، بدأ بأهل بيته، لأنه كره أن تكون البدأة بالأنصار[٣]، وندب عبيدة بن الحارث، وحمزة، وعلياً، قائلا: «قم يا عبيدة، قم يا عم، قم يا علي، فاطلبوا بحقكم الذي جعله الله لكم» فسأل عتبة عنهم، فأخبروه عن أنفسهم، وسأل شيبة عن حمزة فقال له: أنا حمزة بن عبد المطلب، أسد الله وأسد رسوله، فقال شيبة: لقد لقيت أسد الحلفاء، فانظر كيف تكون صولتك يا أسد الله... فقتل علي ﷺ الوليد، وجاء فوجد حمزة معتنقاً شيبة، بعد أن تثلمت في أيديهما السيوف، فقال: يا عم طأطىء رأسك - وكان حمزة طويلا - فأدخل رأسه في صدر شيبة، فاعترضه علي بالسيف فطير نصف رأسه، وكان عتبة قد قطع رجل عبيدة، وفلق عبيدة هامته، فجاء علي فأجهز على عتبة أيضاً، فيكون أمير المؤمنين - عليه السلام - قد شرك في قتل الثلاثة»[٤].

ومما يؤيد ذلك ما روي في نهج البلاغة من كتاب لعلي عليه السلام أرسله إلى معاوية يقول فيه:

---

(١) ابن هشام: ٢ / ٢٧٧.

(٢) المغازي: ١ / ٦٩.

(٣) انظر: البحار: ١٩ / ٣١٣ و ٢٥٣، وتفسير القمي: ١/ ٢٦٤.

(٤) ابن شهر آشوب - المناقب: ٣ / ١١٩. وانظر: الصحيح من سيرة النبي: ٣ / ١٩١ - ١٩٢.

«وعندي السيف الذي أعضضته بجدّك وخالك وأخيك في مقام واحد»[١].

وفي رواية الفتوح لابن أعثم:

«فأنا أبو الحسن حقاً! قاتل جدك عتبة، وعمك شيبة، وخالك الوليد، وأخيك حنظلة، الذين سفك الله دماءهم على يدي في يوم بدر، وذلك السيف معي، وبذلك القلب ألقى عدوي»[٢].

ومهما يكن من أمر - فقد عاد علي وحمزة يحملان معهما عبيدة بن الحارث، وأتيا به إلى رسول الله ﷺ فاستعبر، وقال: يا رسول الله، ألست شهيداً؟ قال ﷺ: بلى، أنت أول شهيد من أهل بيتي»[٣].

هذا وقد مات عبيدة بن الحارث شهيداً متأثراً بجرحه في وادي الصفراء، أثناء عودة النبي ﷺ ومن معه إلى المدينة.

التحام الفريقين:

كانت نهاية هذه المبارزة بداية سيئة للمشركين، حيث فقدوا فيها ثلاثة من قادتهم وخيرة فرسانهم، ومن قبلهم قُتِلَ المخزومي عند حوض الماء، فقد كان مصرع هؤلاء بمثابة ضربة موجعة لهم.

لذلك استشاط المشركون غضباً، وشدوا على المسلمين شدة رجل واحد، وبهذا اندلعت نيران المعركة.

---

(١) نهج البلاغة: قسم الكتب، كتاب رقم: ٦٤ .

(٢) ابن أعثم الكوفي - محمد بن أحمد، الفتوح: ٢ / ٥٣٦ . تحقيق: علي شيري، طبعة دار الأضواء - بيروت، الطبعة الأولى، (١٤١١ هـ - ١٩٩١ م) .

(٣) علي بن إبراهيم القمي، تفسير القمي: ١ / ٢٦٥ . تحقيق: محمد الصالحي، طبعة مكتبة ذوي القربى - قم، (١٤٢٨ هـ) .

روى ابن إسحاق:

«ثم تزاحف الناس ودنا بعضهم من بعض، فكانت وقعة بدر يوم الجمعة صبيحة سبع عشرة من شهر رمضان...

وكان رسول الله ﷺ قد عدّل صفوف أصحابه يوم بدر، وأمرهم أن لا يحملوا حتى يأمرهم....

وروي: أن رسول الله ﷺ خرج إلى الناس فحرّضهم على القتال، وقال: «والّذي نفس محمد بيده، لا يقاتلهم اليوم رجل فيقتل صابراً محتسباً، مقبلا غير مدبر، إلاّ أدخله الله الجنّة».

فقال عمير بن الحمام، أخو بني سلمة، وفي يده تمرات يأكلهنّ: بخ بخ[1]، أفما بيني وبين أن أدخل الجنّة إلاّ أن يقتلني هؤلاء، ثم قذف الّتمرات من يده وأخذه سيفه فقاتل القوم حتى قتل»[2].

وفي رواية أنّه قال: لئن أنا حييت حتى آكل تمراتي هذه، إنها لحياة طويلة فرمى بما بقي منها ثم قاتل وهو يقول:

ركضا إلى الله بغير زاد إلى التقى وعمل المعادِ
والصبرُ في الله على الجهاد وكلُّ زاد عرضة النفاد
غير التقى والبدر والرشاد

دعاء النبي ﷺ:

ثم إن النبي ﷺ بعد أن عدّل الصفوف وحرَّضَ أصحابه على القتال توجّه إلى ربه بقلب مفعم بالايمان، يناشده ما وعده من النصر، قائلا في مناجاته:

---

(١) بكسر الخاء واسكانها، كلمة تقال في موضع الإعجاب.

(٢) ابن هشام: ٢ / ٢٧٨ - ٢٧٩، وابن حجر، الإصابة: ٣ / ٣١.

«اللهم إن تهلك هذه العصابة اليوم لا تعبد»[١] أو (فلن تعبد في الأرض أبداً)[٢] ثم بشر رسول الله ﷺ بعض أصحابه بقوله: «أتاكم نصر الله، هذا جبريل آخذ بعنان فرس يقوده، على ثناياه النقع»[٣].

وقد اشتركت الملائكة في معركة بدر، والذي يرويه ابن هشام عن ابن إسحاق أنهم قاتلوا مع المسلمين وقتلوا من المشركين «ولم تقاتل الملائكة في يوم «سوى بدر» من الأيام، وكانوا فيما سواه من الأيام عدداً ومدداً لا يضربون»[٤].

والذي يظهر من قوله تعالى: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ (٩) وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ ۚ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (١٠)﴾[٥].

ان الملائكة لم يقاتلوا مع المسلمين أعداءهم وإنما جاؤوا لتقوية الروح المعنوية في نفوس المسلمين، وهذا ما يفهم من قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ﴾[٦] وآيات قرآنية أخرى[٧].

شاهت الوجوه:

في مقابل دعاء الطهر والقداسة الذي ترنم به النبي ﷺ مع ربه العزيز

---

(١) ابن هشام: ٢ / ٢٧٩ .

(٢) الطبري: ٢ / ١٤٩ .

(٣) ابن هشام: ٢ / ٢٧٩ والنقع: الغبار .

(٤) ابن هشام: ٢ / ٢٨٦ .

(٥) الانفال: ٩ - ١٠ .

(٦) انظر: الطباطبائي، تفسير الميزان: ٩ / ٢١ .

(٧) انظر الآيات: آل عمران: ١٢٦، والانفال: ١٢ .

القدير، والذي استجيب من فوره، ووعد رسوله بالنصر.

هنالك دعاء آخر اطلقه فرعون هذه الأُمة أبو جهل بن هشام، حيث قال: «اللهم، أَقطَعنا للرحم، وأتانا بما لا يُعرف، فأَحْنِه - أي أهلكه - الغداة»[١] فكان هو الحاكم على نفسه بهذا الدعاء.

ثم إنَّ رسول اللهﷺ أخذ حفنة من الحصباء، فاستقبل قريشاً بها، ثم قال: «شاهت الوجوه، ثم نَفَحهم بها، وأسرَّ أصحابه فقال: شدّوا، فكانت الهزيمة، فقتل الله تعالى من قتل من صناديد قريش، وأُسِر من أسر من أشرافهم»[٢].

وروي عن ابن عباس - في قوله تعالى: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾[٣] «إن النبيﷺ - بعد أن أمره جبرئيل - قال لعلي: «ناولني كفاً من حصباء، فناوله كفاً من حصباء (وفي رواية: عليه تراب) فرمى به في وجوه القوم، فما بقي أحد إلاّ امتلأت عينه من الحصباء، وفي رواية: وأفواههم، ومناخرهم، ثم ردفهم المؤمنون يقتلونهم، ويأسرونهم»[٤].

النبي في المعركة:

وعندما استعر لهيب المعركة اقتحمها النبيﷺ بنفسه، وراع المشركين أن رأوا النبي القائد يخوض غمار المعركة بنفسه، ومعه أصحابه يندفعون نحو عدوهم كالسيل، يدمرون كل قوة تقف في طريقهم، والنبي في مقدمتهم، يثب في درعه وهو يقول: ﴿سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ﴿٤٥﴾ بَلِ ٱلسَّاعَةُ

(١) ابن هشام: ٢ / ٢٨٠ .

(٢) المصدر نفسه: ٢ / ٢٨٠ .

(٣) الانفال: ١٧ .

(٤) الصحيح في السيرة: ٣ / ١٩٦ عن البحار: ١٩ / ٢٢٩ .

﴿مَوۡعِدُهُمۡ وَٱلسَّاعَةُ أَدۡهَىٰ وَأَمَرُّ﴾[(١)(٢)].

وصفة الشجاعة والاقدام والثبات عند القتال من الصفات البارزة في الانبياء عامة وفي النبي الأكرمﷺ بصورة جليّة، كما يصفها أول تلامذة مدرسته النبوية، وأقرب صحابته اليه، الإمام أمير المؤمنين عليه السلام إذ يقول: «كنّا إذا احمرّ البأس اتّقينا برسول اللهﷺ فلم يكن منّا أقرب إلى العدو منه»[(٣)].

صور من المعركة:

بعد قتال مرير ودام ظهرت علامات الاضطراب في صفوف المشركين، وأخذت جحافلهم تنهار أمام حملات المسلمين العنيفة، حتى اقتربت المعركة من نهايتها، فدب الهلع في نفوس قريش، ثم أخذت جموعها في الفرار فعمَّت الهزيمة، وأخذ المسلمون يطاردون فلول المشركين يأسرون ويقتلون «فكانت الهزيمة، فقتل الله تعالى من قتل من صناديد قريش، وأسر من أسر من أشرافهم»[(٤)].

وقد سجل مؤرخو السيرة النبوية تفاصيل معركة بدر بدقة وتفصيل ننقل بعض الصور منها:

مصرع أبي جهل:

وأبو جهل هو (عمرو بن هشام بن المغيرة بن عبد الله بن عمرو بن مخزوم القريشي) وكان رأس الكفر وحامل لواء العداوة للنبيﷺ، وقد فرض نفسه قائداً عاماً لجيش الشرك يوم بدر.

---

(١) القمر: ٤٥ - ٤٦.

(٢) باشميل: محمد احمد / معارك الإسلام - غزوة بدر: ١٦٤.

(٣) نهج البلاغة: الكلمات القصار.

(٤) ابن هشام: ٢ / ٢٨٠.

لقد حاول أبو جهل - بعد أن بدأ التصدع في صفوف جيشه - أن يصمد في وجه سيل الهزيمة النازل لجيش المشركين فأخذ يصرخ بجيشه - بعناد وشراسة ومكابرة - «خذوهم أخذاً، وأيم الله لا نرجع حتى نفرق محمداً وأصحابه في الجبال»[١].

ولكن أنى لصيحات الطيش والغرور والمكابرة هذه أن تفيد، وقد عمَّت الهزيمة وحال وقعها بين صوت أبي جهل وبين جنده المنهزم.

لقد أثبت أبو جهل - يوم بدر - انه مثال ناطق للعناد والمكابرة، فبالرغم من نزول الهزيمة الساحقة بجيشه ظل يقاتل بشراسة وعناد وهو يرتجز ويقول:

ما تنقم الحربُ العوانُ منّي بازل عامين حديثٌ سنّي

لمثل هذا ولدتني أُمي

وثبت معه جماعة فيهم ابنه عكرمة، وأخذوا يذبون عنه وضربوا حوله سياجاً من سيوفهم، وأقاموا حواليه غابات من رماحهم يصدون بها كل من حاول الوصول إليه.

يروي ابن هشام:

«قال معاذ بن عمرو بن الجموح، أخو بني سلمة: سمعتُ القوم - وأبو جهل في مثل الحرجة[٢] وهم يقولون: أبو الحكم لا يخلص إليه، قال: فلما سمعتها جعلته من شأني، فصمدت[٣] نحوه، فلما أمكنني حملتُ عليه فضربته ضربة اطنّت قدمه بنصف ساقه. قال: وضربني ابنه عكرمة على عاتقي فطرح يدي، فتعلقت بجلدة من جنبي، وأجهضني القتال عنه، فلقد قَاتلتُ عَامّةَ يومي،

---

(١) المغازي: ١ / ٧١ .

(٢) الحرجة: الشجر الملتف .

(٣) صمدت: قصدت .

واني لأسحبها خلفي، فلما آذتني وضعت عليها قدمي، ثم تمطيت بها عليها حتى طرحتها.

ثمّ مرَّ بأبي جهل وهو عقيرٌ، معوّذ بن عفراء، فضربه حتى اثبته، فتركه وبه رمق[١].

وهكذا ترك - أبو جهل - صريعاً بالعراء وهو يجود بنفسه، وتفرق عنه صناديد مكة من المشركين منهزمين في فجاج الصحراء فراراً بأرواحهم.

ولمّا وضعت الحرب أوزارها، أمر رسول اللهﷺ أن يلتمس أبو جهل في القتلى، قال ابن مسعود: «فوجدته بآخر رمق فعرفته، فوضعت رجلي على عنقه، فقلت: الحمد لله الذي أخزاك، فقال: إنما أخزى الله عبد ابن أُم عبد، لقد ارتقيت مُرتقى صعباً يا رويعي الغنم، لمن الدائرة اليوم؟ قلت: لله ولرسوله».

قال ابن مسعود: فاقتلع بيضته من قفاه، فقلت: إني قاتلك يا أبا جهل! قال: لست بأوّل عبد قتل سيّده، أما إنّ أشدّ ما لقيته اليوم في نفسي لقتلك إيّاي، ألا يكون ولي قتلي رجل من الأحلاف أو من المطيبين، فضربه عبد الله ضربة، ووقع رأسه بين يديه، ثم سلبه... وأقبل بسلاحه، ودرعه، وبيضته، فوضعها بين يدي رسول اللهﷺ فقال: أبشر، يا نبي الله بقتل عدوّ الله أبي جهل، فقال رسول الله: أحقاً يا عبد الله؟ فو الذي نفسي بيده، لهو أحبّ إليّ من حمر النعم...»[٢].

وفي رواية: إن رسول الله فرح بقتل أبي جهل، وقال: «اللهمّ قد أنجزت ما وعدتني، فتمّم عليّ نعمتك، قالوا: ووقف رسول اللهﷺ على مصرع ابني عفراء

---

(١) ابن هشام: ٢ / ٢٨٨ .

(٢) المغازي: ١ / ٨٩ - ٩٠، وابن هشام: ٢ / ٢٨٨ - ٢٨٩ .

فقال: يرحم الله ابني عفراء، فإنّهما قد شركا في قتل فرعون هذه الأُمّة، ورأس أئمة الكفر»[١].

وهكذا جنى أبو جهل ثمن مكابرته وعناده، وجنت معه قريش ثمار هزيمتها، حيث هزمت هزيمة لم تعرف مثلها في تاريخها الطويل.

مقتل أُمية بن خلف:

روى ابن هشام عن ابن إسحاق في السيرة، والواقدي في المغازي، عن عبد الرحمن بن عوف قال: «إني لأجمع أدرعاً لي يوم بدر بعد أن ولّى الناس،

فإذا أُمية بن خلف وكان لي صديقاً في الجاهلية، ومعه ابنه عليّ، آخذ بيده، فلما رآني قال لي: يا عبد عمرو[٢]، فلم أُجبه، فقال: يا عبد الإله؟ فقلت: نعم، قال: هل لك فيّ، فأنا خيرٌ لك من هذه الأدراع التي معك؟ قلت: نعم، فطرحت الأدراع من يدي، وأخذت بيده ويد ابنه، وهو يقول: ما رأيت كاليوم قطّ، أمالكم حاجة في اللبن؟

قال عبد الرحمن: فو الله إني لأقودهما إذ رآه بلال معي - وكان - أُمية بن خلف - وهو الذي يعذّب بلالا بمكة على ترك الإسلام، فيخرجه إلى رمضاء مكة إذا حميت، فيضجعه على ظهره، ثم يأمر بالصخرة العظيمة فتوضع على صدرِهِ، ثم يقول: لا تزال هكذا أو تفارق دين محمد، فيقول بلال: أحدٌ أحد - قال: فلما رآه: قال: رأس الكفر أُمية بن خلف، لا نجوت إن نجا، قال: قلت: أي بلال، أَسيريَّ! قال: لا نجوت ان نجا... قال: ثم صرخ بلال بأعلى صوته: يا أنصار الله، رأس الكفر أُمية بن خلف، لا نجوت ان نجا.

---

(١) المغازي: ١ / ٩١.

(٢) وهو اسم عبد الرحمن بن عوف قبل ان يسلم.

قال عبد الرحمن: فأحاطوا بنا في مثل المسكة[١]، وانا أذبُّ عنه، قال: فأخلف رجل السيف، فضرب رجل ابنه فَوَقَع، وصاح أُمية صيحة ما سمعت مثلها قط، قال - عبد الرحمن - فقلت: أنج بنفسك ولا نجاء بك، فو الله ما أُغني عنك شيئاً، قال: فهبروهما بأسيافهم، حتى فرغوا منهما.

فكان عبد الرحمن يقول: يرحم الله بلالا، ذهبت أَدراعي وفجعني بأسيري»[٢].

مقتل نوفل بن خويلد:

نوفل بن خويلد ابن أسد، وهو ابن العدويّة، عديّ خزاعة، وكان من شياطين قريش، وقد روي أن رسول الله ﷺ قال: «اللهمّ، إكفني نوفل بن خويلد»[٣]!

بعد انكسار جيش المشركين، أقبل «نوفل» يومئذ وهو مرعوب، قد رأى قتل أصحابه، وكان في أوّل ما التقوا هم والمسلمون، يصيح بصوت له زجل، رافعاً صوته: يا معشر قريش، إن هذا اليوم يوم العلا والرّفعة! فلما رأى قريشاً قد انكسرت جعل يصيح بالأنصار:

ما حاجتكم إلى دمائنا؟ أما ترون ما تقتلون؟ فأسره «جبّار بن صخر» فهو يسوقه أمامه، فجعل نوفل يقول لجبار - ورأى عليّاً مقبلا نحوه - قال: يا أخا الأنصار، من هذا؟ واللات والعزّى، إني لأرى رجلا، إنه ليريدني! قال: هذا عليّ بن أبي طالب، قال: ما رأيت كاليوم رجلا أسرع في قومه منه.

---

(١) أي جعلونا في حلقة كالسوار وأحدقوا بنا.

(٢) ابن هشام: ٢ / ٢٨٤ - ٢٨٥، والواقدي: ١ / ٨٢ - ٨٣.

(٣) الواقدي، المغازي: ٢/ ٣٦٧.

فصمد له علي عليه السلام، فضربه، فنشب سيف عليّ في حجفته ساعة، ثم نزعه فضرب ساقيه، ودرعه مشمّرة، فقطعها، ثم أجهز عليه فقتله.

قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «من له علم بنوفل بن خويلد؟ فقال عليٌّ: أنا قتلته، قال - الراوي - فكبّر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وقال: الحمد لله الذي أجاب دعوتي فيه»[١].

رعاية الحقوق:

لقد كان لابدّ من رعاية الحقوق بالنسبة إلى طائفيتن في معسكر المشركين:
الأُولى: أُولئك الذين أحسنوا إلى المسلمين في مكة، كأبي البختري بن هشام.

الثانية: أُولئك الذين أُكرهوا على الخروج من رجالات بني هاشم كالعباس ابن عبد المطلب، عم النبي صلى الله عليه وآله وسلم[٢].

وكان النبي قد أصدر أمره، قبل نشوب المعركة، بأن لا يقتل جنده أحداً من بني هاشم، ممن خرجوا مع قريش.

وقدجاء في أمره صلى الله عليه وآله وسلم هذا قوله: «إني قد عرفت أن رجلا من بني هاشم وغيرهم قد أُخرجوا كرهاً، لا حاجة لهم بقتالنا، فمن لقي منكم أحداً من بني هاشم فلا يقتله، ومن لقي أبا البختريّ بن هاشم بن الحارث بن أسد فلا يقتله، ومن لقي العبّاس بن عبد المطلب، عمّ رسول الله فلا يقتله، فإنه إنما أُخرج مستكرها»[٣].

وقد نفذت تعليمات الرسول صلى الله عليه وآله وسلم فلم يقتل أحد من بني هاشم في جيش

---

(١) الواقدي: ١ / ٩١ - ٩٢.

(٢) سبحاني، سيرة سيد المرسلين: ٢ / ٨٠.

(٣) ابن هشام: ٢ / ٢٨١.

المشركين، ولكن الرسول إذا كان قد أمر بعدم قتلهم، فانه لم يمنع المسلمين من أسرهم، فقد أسروا جميعهم وسيقوا في القيود مع الأسرى إلى المدينة.

مقتل أبي البختري:

أما أبو البختري (العاص بن هاشم بن الحارث بن أسد)، فقد نهى الرسول عن قتله، إعترافاً بفضله وتقديراً لمواقفه المشرفة، التي وقفها أيام محنة الإسلام في مكة، قبل الهجرة، حيث لم يصدر منه أي إيذاء للرسولﷺ بل كان على رأس النفر من عقلاء المشركين الذين عملوا على تحطيم الحصار الاقتصادي الذي ضربته قريش على بني هاشم وبني عبد المطلب في شعب أبي طالب.

يقول ابن إسحاق: «وإنما نهى رسول اللهﷺ عن قتل أبي البختري لأنه كان أَكفَّ القوم عن رسول اللهﷺ وهو بمكة، وكان لا يؤذيه، ولا يبلغه عنه شيء يكرهه، وكان ممّن قام في نقض الصحيفة التي كتبتها قريش على بني هاشم وبني المطلب»[١].

ولكن أبا البختري هذا لم يَسْلَم من القتل في المعركة بالرغم من الأوامر النبوية الصادرة بعدم قتله، وذلك ان المجذّر بن زياد البلوي قد لقيه في المعركة فقال له: « إن رسول اللهﷺ قد نهانا عن قتلك - وكان مع أبي البختري زميل له، قد خرج معه من مكة - قال: وزميلي؟ فقال له المجذّر: لا والله، ما نحن بتاركي زميلك، ما أمرنا رسول اللهﷺ إلاّ بك وحدك، فقال: لا والله، إذن لأموتن أنا وهو جميعاً، لا تتحدث عني نساء مكة أني تركت زميلي حرصاً على الحياة، ثم اندفع يقاتل وهو يرتجز ويقول:

لن يُسْلِمَ ابنُ حُرّة زميلَه حتى يموتَ أو يرى سَبِيلَه

(١) المصدر نفسه: ٢ / ٢٨٢ .

فاقتتلا، فقتله المجذّر بن زياد.

ثم إن المجذّر أتى رسول الله ﷺ، فقال: والذي بعثك بالحق لقد جهدت عليه أن يستأسر فآتيك به، فأبى إلاّ أن يقاتلني، فقاتلته فقتلته»[١].

قوة في العقيدة، وثبات في المبدأ:

ومن الصور الرائعة لمعركة بدر الكبرى التي سجلتها أقلام كتاب السيرة تلك المواقف البطولية التي وقفها حملة العقيدة والمبدأ من الأنصار والمهاجرين، فقد قاتل الإبن أباه، والأخ أخاه، وكان من هؤلاء (أبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة).

وأبو حذيفة هذا - واسمه هشيم أو هاشم - كان من السابقين إلى الإسلام، وقد هاجر مع من هاجر من المسلمين وقد سجل لنا تاريخ هذا الرجل انه ختم حياته بالشهادة في سبيل الله عند محاربته للمرتدين في اليمامة.

ويسجل لنا ابن هشام في سيرته موقفين لهذا المجاهد:

الموقف الأول: عندما أصدر النبي ﷺ أوامره بأن لا يقتل أحد من بني هاشم وأن لا يقتل العباس عمّ النبي. لأنهم قد أُخرجوا كرهاً، هنا استشاط أبو حذيفة غضباً وصدرت منه كلمات ما كان ينبغي أن تصدر منه. وقد ندم عليها، أشد الندم، ومن جملة ما قال: «أنقتلُ آباءنا وأبناءنا وإخوتنا وعشيرتنا، ونترك العباس! والله لئن لقيتهُ لأُلحمنه بالسيف! فبلغت هذه المقولة رسول الله ﷺ فتألم من كلامه، ويروى عنه أنه قال: أيضرب وجه عمّ رسول الله ﷺ بالسيف؟

يروي ابن هشام: فكان أبو حذيفة يقول: «ما أنا بآمن من تلك الكلمة التي قلت يومئذ ولا أزال منها خائفاً، إلاّ أن تكفّرها عني الشهادة، فقتل يوم

---

(١) ابن هشام: ٢ / ٢٨٢ - ٢٨٣.

اليمامة[١].

هذا هو الموقف الأول والذي قد يبدو أنه موقف سلبي انطلق فيه هذا المجاهد من حالة غضب وضعف بشري، وقد استوعب رسول الله ﷺ كعادته هذا الموقف بحلمه الكبير ولم يرتب عليه أثراً.

الموقف الثاني: لما أمر رسول الله ﷺ بدفن قتلى المشركين وأن يطرحوا في القليب[٢]. وكان جمهور جند الإسلام حاضراً يشهد سحب الجثث وألقاءها في القليب، وكان أحد هؤلاء أبا حذيفة بن عتبة بن ربيعة واقفاً مع رسول الله ﷺ يشهد هذا المنظر، وقد تغير وجهه وعلته سحابة من الكآبة والحزن عندما رأى جثة أبيه (عتبة بن ربيعة) تسحب بين الجثث لإلقائها في القليب، وقد لاحظ رسول الله ﷺ ذلك في وجهه.

فقال له ﷺ: «يا أبا حذيفة، لعلّك قد دخلك من شأن أبيك شيء؟

فقال: - وقد اجتاح الأسى كل جوانب قلبه - لا، والله يا رسول الله، ما شككت في أبي ولا في مصرعه، ولكنّي كنت أعرف من أبي رأياً وحلماً وفضلا، فكنت أرجو أن يهديه ذلك إلى الإسلام، فلما رأيت ما أصابه، وذكرت ما مات عليه من الكفر، بعد الذي كنت ارجوه له، أحزنني ذلك.

فدعا له رسول الله ﷺ بخير، وقال له خيراً»[٣].

لقد كان أبو حذيفة صادقاً في تشخيصه لواقع أبيه، فقد كان أبوه عتبة، هو الذي قال فيه الرسول - كما تقدم - وقد رآه قبل المعركة راكباً جمله الأحمر. . . «إن يكن في أحد من القوم خير، ففي راكب الجمل الأحمر، إن يطيعوه

(١) المصدر نفسه: ٢ / ٢٨١ .

(٢) القليب: البئر .

(٣) ابن هشام: ٢ / ٢٩٤ .

يرشدوا»، كما أن عتبة هذا هو الذي حمل لواء المعارضة في جيش مكة في بدر ودعا إلى موادعة النبي والعودة إلى مكة بالجيش دونما قتال، ولكن أبا جهل جعله أمام الأمر الواقع[١]: فحصل الذي حصل.

دفن قتلى المشركين:

وبعد أن انتهت المعركة أمر رسول الله ﷺ بجمع الغنائم والأسلحة التي غنمها المسلمون، كما أمر بالأسرى فوضعوا في القيود، كذلك أمر ﷺ بنقل جثث قتلى البغي والعدوان وطرحها في قليب مهجور بالقرب من ساحة المعركة.

روى ابن هشام: «لما أمر رسول الله ﷺ بالقتلى أن يطرحوا في القليب، طُرِحُوا فيه إلاّ ما كان من أُمية بن خلف، فإنه انتفخ في درعه فملأها، فذهبوا ليحرّكوه، فتزايل لحمه، فأقرّوه، وألقوا عليه ما غيّبه من التراب والحجارة.

وبعد الانتهاء من دفنهم وقف عليهم رسول الله ﷺ فقال:

«يا أهل القليب، بئس عشيرة النبي كنتم لنبيّكم! كذّبتموني وصدّقني الناس، وأخرجتموني وآواني الناس، وقاتلتموني ونصرني الناس.

ثمّ قال ﷺ: يا أهل القليب، هل وجدتم ما وعدكم ربّكم حقّاً؟ فإني وجدت ما وعدني ربي حقاً!

فقال له أصحابه: يا رسول الله، اتكلّم قوماً موتى؟

فقال لهم: لقد علموا أن ما وعدهم ربّهم حق».

وفي رواية ابن إسحاق عن أنس بن مالك قال:

سمع أصحاب رسول الله ﷺ رسول الله ﷺ من جوف الليل وهو يقول:

---

(١) باشميل: معارك الإسلام الفاصلة: ١٧٤ - ١٧٥ .

«يا أهل القليب، يا عتبة بن ربيعة، ويا شيبة بن ربيعة، ويا أُمية بن خلف ويا أبا جهل بن هشام، فعدّد من كان منهم في القليب، هل وجدتم ما وعد ربّكم حقّاً فإني قد وجدت ما وعدني ربي حقاً؟

فقال المسلمون: يا رسول الله، أتنادي قوماً قد جَيَّفُوا؟

قال ﷺ: ما أنتم بَأسْمَع لما أقول مِنهم، ولكنهم لا يستطيعون أن يجيبوني»[١].

إنَّ تكلم رسول الله ﷺ مع رؤوس الشرك الموتى الذين أُلقيت أجسادهم في البئر من مسلَّمات التاريخ والحديث وقد أشار إليها كبار المحدثين والمؤرخين في كتبهم، فلا يحق لأي مسلم مؤمن «بالرسالة والرَّسول أن يسارع إلى انكار هذه القضية التاريخية الإسلامية المسلَّمة»[٢].

ورحم الله حسان بن ثابت الذي خلد واقعة بدر في شعره الذي جاء في بعض أبياتها إشارة إلى قصة القليب وقتلى المشركين إذ يقول:

يناديهم رسول الله لمّا قذفناهم كباكب في القليب
ألم تجدوا كلامي كان حقّاً وأمر الله يأخذ بالقلوب
فما نطقوا ولو نطقوا لقالوا: صدقت وكنت ذا رأي مصيب[٣]

---

(١) ابن هشام: ٢ / ٢٩٢، والواقدي: ١ / ١١٢ .

(٢) سبحاني، سيرة سيد المرسلين: ٢/ ٨٤ (الهامش)، وانظر مصادره الروائية والتاريخية.

(٣) ابن هشام: ٢ / ٢٩٤ .

الأسئلة:

١ - ما هي الخطط العسكرية التي اتخذها النبيﷺ قبل معركة بدر؟ وما هي أهميتها؟

٢ - كيف تعامل النبيﷺ مع بعض أصحابه الذين أشاروا عليه بتغيير مكان جيش المسلمين، أو اتخاذ مقرٍّ لقيادته؟

٣ - ما هي أسباب عدم وجود الانسجام في صفوف جيش المشركين؟ وما هي أسباب الإنشقاقات المتكررة في وسط قيادتها؟

٤ - ما هو الدور السلبي الذي اتخذه أبو جهل في مقابل الأصوات الداعية لعودة قريش إلى مكة من دون قتال؟

٥ - ما هي أهم تعليمات النبيﷺ لجيش المسلمين قبل المعركة؟

٦ - ما هي أهم الصور التي سجلها مؤرخو السيرة عن واقعة بدر؟

٧ - من هُم الذين أمر الرسولﷺ بعدم قتلهم في المعركة؟ وما هو سبب ذلك؟

٨ - ما هي الكلمات التي قالها النبي عند دفن قتلى قريش في القليب؟ وبماذا توحي لنا تلك الكلمات؟

الدرس السابع
حوادث السنة الثانية من الهجرة
(معركة بدر الكبرى)
«القسم الثالث»

محاور البحث:

١ - نتائج معركة بدر، ودور الإمام علي عليه السلام فيها

٢ - غنائم المعركة:

أولا: الأنفال

ثانياً: الأسرى

٣ - مع أسرى بدر في بعض قصصهم

٤ - ردود الأفعال حول نتائج معركة بدر:

أولا: ردود الأفعال في مكة

ثانياً: ردود الأفعال في المدينة

٥ - الرسول القائد يدخل المدينة

٦ - أثر معركة بدر على الجزيرة العربية

٧ - مؤامرة قريش لاغتيال النبي صلى الله عليه وآله وسلم

٨ - الدروس والعبر المستفادة من واقعة بدر

• الأسئلة

معركة بدر الكبرى / ق ٣

١ - نتائج المعركة

انتهت معركة بدر بنصر عظيم للمسلمين، وهزيمة ساحقة لأعداء دين الله من المشركين والوثنيين، الذين خسروا في هذه المعركة سبعون قتيلا بينهم أكثر من عشرين من قادتهم وزعمائهم، كما وقع في أسر المسلمين أيضاً سبعون محارباً بينهم من الزعماء والقادة.

قال ابن هشام: «إنّ قتلى بدر من المشركين كانوا سبعين، والأسرى كذلك»[(١)] «واستشهد - من المسلمين - أربعة عشر مسلماً: ستة من المهاجرين، وثمانية من الأنصار»[(٢)] ولم يؤسر من المسلمين أحد، «وغنموا من المشركين مائة وخمسين بعيراً، وعشرة أفراس، وقيل: ثلاثين فرساً، ومتاعاً، وسلاحاً، وغيرها»[(٣)].

دور الإمام علي عليه السلام في المعركة:

وقد سجلت لنا معركة بدر صفحة بطولية علوية مشرقة، لأمير المؤمنين علي ابن أبي طالب عليه السلام.

---

(١) ابن هشام: ٢ / ٣٧٢.

(٢) الواقدي: ٢ / ١٠٢ وابن هشام: ٢ / ٣٦٤ وانظر: الرسول القائد: ١١٣.

(٣) انظر: الواقدي: ١ / ١٠٢ وما بعدها، والكامل لابن الاثير: ٢ / ١١٨، والسيرة الحلبية: ٢ / ١٨٣.

فقد نص المؤرخون على أن أكثر قتلى المشركين كان على أيدي المهاجرين، بل أنَّ أكثرهم قد قتل على أيدي أهل البيت وبالذات على يد علي عليه السلام.

«فقد سماه الكفار يوم بدر بـ (الموت الأحمر) لعظم بلائه»[١].

وقد اختلفت الروايات في عدد الذين قتلهم علي عليه السلام من المشركين، أو الذين شارك في قتلهم مع غيره، ففي رواية الشيخ المفيد في الارشاد: «ولم يزل عليه السلام يقتل واحداً منهم بعد واحد، حتى أتى على شطر المقتولين منهم، وكانوا سبعين قتيلا، تولّى كافّة من حضر بدراً من المؤمنين مع ثلاثة آلاف من الملائكة المسوّمين قتل الشطر منهم، وتولّى أمير المؤمنين قتل الشطر الآخر وحده، بمعونة الله له وتوفيقه وتأييده ونصره، وكان الفتح له بذلك وعلى يديه... وقد أثبت رواة العامة والخاصّة معاً أسماء الذين تولّى أمير المؤمنين عليه السلام قتلهم ببدر من المشركين على اتفاق فيما نقلوه من ذلك واصطلاح... ثم ذكر من سمّوه منهم... ثم قال: فذلك خمسة وثلاثون رجلا، سوى من اختلف فيه، أو شَرِكَ أمير المؤمنين عليه السلام فيه غيره، وهم أكثر من شطر المقتولين ببدر»[٢].

وفي رواية الطبرسي في إعلام الورى: «وقتل علي عليه السلام من المشركين... ستة وثلاثين رجلا»[٣].

---

(١) ابن شهر آشوب - رشيد الدين محمد بن علي السروي المازندراني، مناقب آل أبي طالب: ٢ / ٦٨، تحقيق: هاشم الرسولي المحلاتي، طبعة مؤسسة انتشارات علامة - قم، (د - ت).

(٢) الشيخ المفيد - محمد بن محمد بن النعمان، الإرشاد في معرفة حجج الله على العباد: ١ / ٦٩ وما بعدها، تحقق: مؤسسة آل البيت - قم، الطبعة الثانية، دار المفيد - بيروت، (١٤١٤ هـ - ١٩٩٤م).

(٣) الطبرسي - الفضل بن الحسن، إعلام الورى بأعلام الهدى: ١ / ١٧٠، تحقيق وطباعة: مؤسسة آل البيت - قم، الطبعة الأُولى، (١٤١٧ هـ).

وقد اختلفت كلمات بعض المؤرخين في عدد الذين قتلهم علي عليه السلام ، فالواقدي عدهم باثنين وعشرين رجلا ، والشبلنجي عدهم بواحد وعشرين[١] .

ومهما يكن عدد الذين قتلهم الإمام علي عليه السلام ، فان الاختلاف في ذلك ليس ذا أهمية ، بالقياس إلى مواصفات من قتل منهم ، فهم بين الشجاع الجريء الفتاك الوقح ، الذي تهابه الرجال ، وبين من هو من رؤوس الضلال ، وبين من هو أشد المشركين عداوةً لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم .

٢ – غنائم المعركة

أولا: الأنفال:

لقد غَنِمَ المسلمون من معركة بدر غنائم كثيرةً ، فيها من الإبل ، والخيل ، والاسلحة والمتاع الكثير . وقد أمر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بعض المجاهدين بجمع الغنائم من أيدي الناس .

وهنا واجه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أوّل اختلاف بين أصحابه في تقسيم هذه الغنائم ، فقد توزعت المهام في أرض المعركة ، ما بين رامي بسهم ، وبين مطارد للعدو ، وبين من ثبت يحرس النبي صلى الله عليه وآله وسلم وكان كل فريق منهم قد أدى دوره على أحسن وجه ، ولهذا كان كل فريق يرى نفسه أولى من غيره بها .

يروي ابن هشام : «ثم إنّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أمر بما في العسكر ، مما جمع الناس ، فجُمع ، فاختلف المسلمون فيه ، فقال من جمعه : هو لنا ، وقال الذين كانوا يقاتلون العدو ويطلبونه : والله لولا نحن ما أصبتموه ، لنحن شغلنا عنكم القوم حتى أصبتم ما أصبتم ، وقال الذين كانوا يحرسون رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : والله ما أنتم بأحقّ به منا . . . »[٢] .

---

(١) انظر : الصحيح من سيرة النبي : ٣ / ٢٠٢ – ٢٠٣ .

(٢) ابن هشام : ٢ / ٢٩٥ .

وفي الدر المنثور للسيوطي: عن عبادة بن الصامت قال: «خرجنا مع رسول الله فشهدت معه بدراً ; فالتقى الناس فهزم الله العدو، فانطلقت طائفة في آثارهم منهزمين يقتلون واكبت طائفة على العسكر يحوونه ويجمعونه، وأحدقت طائفة برسول الله ﷺ لا يصيب العدو منه غرّة.

حتى إذا كان الليل وأفاء الناس بعضهم إلى بعض وقال الذين جمعوا الغنائم: نحن حويناها وجمعناها فليس لأحد فيها نصيب، وقال الذين خرجوا في طلب العدو: لستم بأحق بها منّا، نحن نفينا العدو وهزمناهم. . . .

فنزلت: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ ۖ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُوا۟ ذَاتَ بَيْنِكُمْ ۖ ﴾»[١].

وفي رواية ابن هشام: سألت عبادة بن الصامت عن الانفال، فقال: «فينا أصحاب بدر نزلت، حين اختلفنا في النّفل، وساءت فيه أخلاقنا، فنزعه الله من أيدينا، فجله إلى رسول الله، «فقسّمه رسول الله ﷺ بين المسلمين على السواء»[٢].

ولنشوب هذا الخلاف بين المسلمين حول الغنائم بادر رسول الله ﷺ من أجل القضاء على هذه المطامع المادية، إلى جمع هذه الغنائم وأوكل أمرها إلى (عبد الله بن كعب المازني) ولم يقسمها بينهم إلاّ وهو في طريقه إلى المدينة في منطقة «أثيل».

وكان المنطق والإنصاف يقتضي بأن يشترك الجميع في تلك الغنائم، لانهم

---

(١) الانفال: ١، وانظر: السيوطي - جلال الدين، الدر المنثور في التفسير بالمأثور: ٤ / ٧، تحقيق وتخريج: نجدت نجيب، طبعة دار احياء التراث العربي - بيروت، (١٤٢١ هـ - ٢٠٠١ م).

(٢) ابن هشام: ٢ / ٢٩٦.

جميعاً ساهموا في تلك المعركة، ومن هنا قسم رسول الله الغنائم بينهم بالسوية، «وفرز لذوي الشهداء أسهماً منها»[١].

ولقد أثارت طريقة النبيﷺ في التقسيم سخط (سعد بن أبي وقاص) فقال: «يا رسول الله أيعطى فارس القوم الذي يحميهم مثل ما يعطى الضعيف؟ فقال النبيﷺ : ثكلتك أُمّك، وهل تُنْصَرُون إلاّ بضعفائكم»[٢]؟

ويروى أن رسول اللهﷺ لم يأخذ الخمس من غنائم بدر.

ويمكن أن يكون السبب في ذلك هو عدم تشريع الخمس آنذاك، أو أن النبيﷺ آثر أن لا يأخذ الخمس لنفسه وقرباه تكثيراً لأسهم المجاهدين، وترغيباً لهم، وخاصة في هذه الواقعة المباركة، حيث إنّها أول مواجهة وحرب يخوضونها ضد المشركين[٣].

ثانياً: الأسرى:

أسفرت معركة بدر عن مقتل سبعين رجلا من المشركين، وأسر سبعين أيضا.

وكان من بين هؤلاء الأسرى كبار رجالات قريش وساداتها ومن المتمولين مالياً من أمثال: نوفل بن الحارث بن عبد المطلب، والعباس بن عبد المطلب، وعقيل بن أبي طالب، وأبي العاص بن الربيع، وعدي بن الخيار، وأبي عزيز بن عمير، والوليد بن المغيرة المخزومي، وعبد الله بن أبي بن خلف، وأبي عزّة عمرو ابن عبد الله الجمحي، ووهب بن عمير، وسهيل بن عمرو العامري...

---

(١) سيرة سيد المرسلين: ٢ / ٨٦.

(٢) الواقدي: ١ / ٩٩.

(٣) انظر: سيد المرسلين: ١ / ٨٦ والصحيح من سيرة النبي: ٣ / ٢٢٨ وما بعدها.

وغيرهم[١].

وكان رسول الله ﷺ قد قدم المدينة قبل مجيء الأسارى بيوم، وقد جيء بهم إلى المدينة ففرّقهم بين أصحابه، وقال: «استوصوا بالأسارى خيراً»[٢].

وقد نقل المؤرخون صوراً رائعة من المعاملة الحسنة لهؤلاء الأسرى من قبل المسلمين لوصية رسول الله ﷺ فيهم.

يروي الواقدي عن الزّهري قال: قال رسول الله: «استوصوا بالأسرى خيراً» فقال أبو العاص بن الرّبيع - وهو أحد الأسرى -: «كنت مع رهط من الأنصار جزاهم الله خيراً، كنّا إذا تعشّينا أو تغدّينا آثروني بالخبز وأكلوا التمر، والخبز معهم قليل والتمر زادهم، حتى إنّ الرجل لتقع في يده الكسرةُ فيدفعها إليّ، وكان الوليد بن المغيرة، يقول مثل ذلك ويزيد: وكانوا يحملوننا ويمشون»[٣].

النبي ﷺ يأمر بقتل أسيرين:

ولمّا خرج رسول الله من بدر قاصداً المدينة وصل إلى موضع يسمى الأُثيل، بين بدر والصّفراء، وفي هذا المكان عرض عليه الأسرى فنظر إلى (النّضر بن الحارث) فأبدَّهُ البصر[٤] - فاستشعر - النَّضر - الخوف من رسول الله ﷺ فقال لرجل إلى جنبه: محمد والله قاتلي، لقد نظر إليّ بعينين فيهما الموت. . . .

---

(١) للتوسع انظر: السيرة النبوية لابن هشام: ٣ / ٣ وما بعدها.

(٢) ابن هشام: ٢ / ٢٩٩.

(٣) المغازي: ١ / ١١٩.

(٤) أي: أطال النظر إليه.

وكان النّضر بن الحارث اسيراً عند المقداد بن عمرو، وعندما شعر المقداد أن رسول الله سوف يأمر بقتل أسيره قال: أسيري، «قال النبيﷺ : اضرب عنقه، اللهمّ أغنِ المقداد من فضلك، فقتله علي بن أبي طالب عليه السلام»[١].

ولما وصل رسول اللهﷺ إلى (عرق الظّبية) أمر بقتل عقبة بن أبي مُعَيط، وهو من بني أُمية، وكان أسيراً عند عبد الله بن سليمة العجلاني.

روى الواقدي: عندما أمر رسول الله بضرب عنق عقبة بن أبي معيط، جعل عقبة يقول: علامَ أُقتل يا معشر قريش من بين ما هاهنا؟ فقال رسول اللهﷺ : «لعداوتك لله ولرسوله».

ثم صاح: يا محمّد مَن للصبية؟ قال رسول اللهﷺ : «النار، قدّمه يا عاصم، فاضرب عنقه»، فقدمه عاصم فضرب عنقه. قال ابن هشام: ويقال: قتلهُ عليّ ابن أبي طالب.

فقال رسول اللهﷺ : «بئس الرجل كنت والله ما علمتُ، كافراً بالله وبرسوله وبكتابه، مؤذياً لنبيّه، فأحمد الله الذي هو قتلك وأقرّ عيني منك»[٢].

وهنا لابد من وقفة قصيرة عن الأسباب التي دعت رسول اللهﷺ للحكم في شأنِ هذين الأسيرين بالقتل، في الوقت الذي كان رسول اللهﷺ يوصي بالأسرى خيراً! ولماذا اتخذﷺ هذا القرار في حق هذين الأسيرين دون غيرهما من الأسرى؟

لقد كان هذان الرجلان من أشد المشركين كفراً وعناداً وبغياً على رسول الله والإسلام والمسلمين، وكانا من أكبر دعاة الحرب ومثيريها ضد الإسلام، ومن

---

(١) المغازي: ١ / ١٠٧ .

(٢) المغازي: ١ / ١١٤ وابن هشام: ٢ / ٢٩٨ .

المتربصين بالرسول الدوائر، وقد لاقى رسول الله ﷺ منهما في مكة أذى كثيراً وخاصة من عقبة بن أبي معيط، فقد كان من أشدَّ الناس عداوة للنبي ﷺ ومن المستهزئين به ﷺ[١].

فقتل هذين الاسيرين كان مما تقتضيه المصالح الإسلامية العامة، وإبقاؤهما على قيد الحياة مصدر خطر كبير على الإسلام، لا سيما في تلك الظروف الحرجة التي تجتازها دعوة النبي ﷺ.

فهما إذاً من مجرمي الحرب الذين لو أطلق سراحهما لما تورعا عن سلوك أي طريق لمحاربة الرسول ﷺ وأصحابه، ولا أدل على ذلك مما كانا يرتكبانه من إهانات وتنكيل في حق رسول الله ﷺ وهو أعزل في مكة.

فقتلهما - إذاً - لم يكن بدافع الانتقام وإنما ضرورة حتّمتها مصلحة الإسلام.

مصير باقي الأسرى:

لم يكن النبي ﷺ قد أوصى المسلمين من المهاجرين أو الأنصار بأخذ الأسرى في معركة بدر، ولم يرد في أي نص تاريخي يؤرخَ لهذه الواقعة أن النبي ﷺ كان حريصاً على أخذ أكبر عدد من الأسرى من مشركي قريش.

وإنما كان ذلك مما أقدمت عليه عامة المهاجرين والأنصار على قاعدتهم في الحروب، فيما إذا ظفروا بعدوهم أخذوا الأسرى للاسترقاق أو لتحصيل الفداء، ويعتبرونهم من غنائم الحرب.

وقد ورد في نصوص السيرة النبوية التي تؤرخ لواقعة بدر أن المسلمين بالغوا في الأسر، وكان الرجل يقي أسيره أن يناله الناس بسوء، إلاّ «علي عليه السلام»

---

(١) للتوسع: انظر: السيرة النبوية لأحمد بن زيني دحلان: ١ / ٣٣٩ - ٣٤٠ .

فقد أكثر من قتل الرجال ولم يأخذ أسيراً[١].

والذي يظهر من النصوص الروائية أن النبيﷺ كره أخذ الفداء من أسرى المشركين لإطلاق سراحهم، فقد روى الواقدي في المغازي «لمّا أُتي بالأسرى كره ذلك سعد بن معاذ، فقال رسول اللهﷺ : يا أبا عمرو، كأنّه شقّ عليك الأسرى أن يؤسروا قال: نعم يا رسول الله، كانت أوّل وقعة التقينا فيها والمشركون، فأحببت أن يذلّهم الله وأن يثخن فيهم القتل»[٢].

والنبيﷺ لم ينكر على سعد بن معاذ مقولته هذه، بل إن بعض الروايات تشير إلى أن سعد رأى كراهية أخذ الفداء في وجه رسول اللهﷺ فقال الذي قاله[٣].

والذي يبدو من النصوص التاريخية في قضية أسرى المشركين في واقعة بدر، أن غالبية الأنصار والمهاجرين كانوا يصرون على أخذ الفداء منهم واطلاق سراحهم، ولم يكونوا يحبُون قتلهم، إلاّ قليل من الفئتين.

روى القمي في تفسيره: «لما قتل رسول اللهﷺ النضر بن الحارث، وعقبة ابن أبي معيط، خافت الأنصار أن يقتل الأسرى، فقالوا: يا رسول الله قتلنا سبعين، وأسرنا سبعين، وهم قومك وأُسارك، ولكن هبهم لنا يا رسول الله، وخذ منهم الفداء وأطلقهم. أو قالوا: يا رسول الله لا تقتلهم وهبهم لنا حتى نفاديهم»[٤].

وكان أبو بكر - من المهاجرين - على رأي الأنصار في أخذ الفداء من

---

(١) انظر: الميزان: ٩ / ١٣٦ .

(٢) المغازي: ١ / ١٠٦ .

(٣) انظر: تفسير الميزان: ٩ / ١٣٩ البحث الروائي .

(٤) القمي، علي بن إبراهيم، تفسير علي بن ابراهيم : ١ / ١٢٦، ٢٦٩ - ٢٧٠ .

الأسرى وإطلاق سراحهم، وخالفه الرأي عمر بن الخطاب، فقد روي أنَّ أبا بكر قال: يا رسول الله، هؤلاء بنو العم والعشيرة والاخوان وقد أعطاك الله الظفر بهم ونصرك عليهم، أراك ان تستبقيهم وتأخذ الفداء منهم ليكون ما أخذنا منهم قوة لنا على الكفار، وعسى الله أن يهديهم بك فيكونون لنا عضداً، أما عمر فقال: يا رسول الله، قد كذّبوك وأخرجوك وقاتلوك ما أرى ما رأى أبو بكر، ولكنّي أرى أن تمكنني من فلان، فأضرب عنقه، وتمكن علياً من عقيل فيضرب عنقه، وتمكن حمزة من أخيه العباس فيضرب عنقه...[1].

تقول الرواية: وهم على هذه الحالة من الخلاف حول الأسرى: «أتى جبريل إلى النبيﷺ فخيّره في الأسرى أن يضرب أعناقهم، أو يأخذ منهم الفداء ويستشهد منكم في قابل عدّتهم، فدعا رسول اللهﷺ أصحابه فأخبرهم بما أخبره به جبرئيل... قالوا: بل نأخذ الفدية. ونستعين بها، ويستشهد منّا فندخل الجنّة، فقبل منهم الفداء وقتل منهم في قابل عدّتهم بأُحد[2]. وهكذا تقرر الأمر على الفداء بعد ما رأى النبيﷺ اصرار الأكثرية على ذلك.

ونزل في قضية الأسرى قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي ٱلْأَرْضِ ۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾ لَّوْلَا كِتَـٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦٨﴾﴾[3].

يقول السيّد الطباطبائي:

«والعتاب على ما يهدي إليه سياق الكلام في الآية الأُولى إنما هو على أخذهم الأسرى... ثم أباح لهم ما أخذوا الأسرى لأجله وهو الفداء لا لأن

---

(١) السيرة النبوية: لزيني دحلان: ١ / ٣٤٠ - ٣٤١ .

(٢) الواقدي: ١ / ١٠٧، والقمي: ١ / ٢٧٠ .

(٣) الأنفال: ٦٧ - ٦٨ .

النبيﷺ شاركهم في استباحة الفداء أو استشارهم في الفداء والقتل حتى يشاركهم في العتاب المتوجه إليهم»[١].

وقد اختلف المفسرون في تفسير هذه الآيات بعد اتفاقهم على أنها نزلت بعد واقعة بدر تعاتب أهل بدر وتستبيح لهم الغنائم، والسبب في هذا الاختلاف ما ورد في سبب نزولها ومعاني جملها من الأخبار المختلفة، فاختلفت التفاسير بحسب اختلافها[٢].

وقد ذهب بعض علماء الأُصول والمفسرون، والكتّاب... من أبناء السنة؛ إلى التمسك بهذه الآية كدليل على اجتهاد الرسول، وانه قد عوتب في هذه الآية لأنه خالف قول عمر بن الخطاب الذي كان رأيه هو الصواب ولم يأخذ رسول اللهﷺ برأيه[٣]!!

ولا مجال هنا لسرد هذه الآراء والرد عليها، وإنما نقول: إن سياق الآيات الكريمة تدل على أنّ العتاب لم يكن للنبيﷺ على ما ذكرناه من كلام صاحب الميزان، بالاضافة إلى أنّ عصمة النبيﷺ وارتباطه بوحي السماء، تنفي حاجته إلى الاجتهاد فهوﷺ كما وصفه القرآن الكريم:

﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ۝٤﴾[٤].

وقد بحثنا اجتهاد الرَّسولﷺ في غير هذا الكتاب[٥].

---

(١) للتوسع: انظر تفسير الميزان: ٩ / ١٣٤ وما بعدها.

(٢) المصدر نفسه.

(٣) انظر: كتاب: اجتهاد الرسول، للدكتور عبد الجليل أبو النصر. وكتاب، مناهج الاجتهاد، للدكتور: محمد سلام مدكور.

(٤) النجم: ٣ - ٤.

(٥) انظر: فصل: اجتهاد الرَّسول من كتابنا: حركة الاجتهاد عند الشيعة، طبعة دار الهادي - بيروت، ط. الأولى، (٢٠٠٤ م - ١٤٢٥ هـ).

القرار الأخير حول الأسرى:

لقد انتهى مصير الأسرى إلى الفداء، وفي رواية: جعل رسول الله ﷺ الفداء يوم بدر أربعة آلاف لكل رجل، وفي رواية الواقدي في المغازي... قال: «سألت نافع ابن جبير: كم كان الفداء؟

قال: أرفعهم أربعة آلاف، إلى ثلاثة آلاف، إلى ألفين، إلى ألف، إلى قوم لا مال لهم، منّ عليهم رسول الله ﷺ»[١].

وقد أعلن النبي ﷺ: «من علّم من الأسرى عشرة من صبيان الغلمان، والصبيان من أولاد الأنصار الكتابة والقراءة كان ذلك فداءه وخُلّيَ سبيله من غير أن يؤخذ منه مال»[٢].

وهكذا انتهت مشكلة الأسرى، وأبلغت المدينة مكة بقرار الفداء، وتم على أساسه فيما بعد اطلاق سراح الأسرى جميعاً إما بواسطة الفداء، أو المنِّ الذي تكرم به رسول الله ﷺ على فقرائهم، أو بواسطة ما يقومون به من تعليم أطفال المسلمين القراءة والكتابة.

٣ - مع أسرى بدر في بعض قصصهم

هنالك جملة من المواقف المعبّرة تتعلق ببعض أسرى المشركين في واقعة بدر، فيها من مواطن للعبرة، نذكر بعضاً منها:

مصعب بن عمير مع أخيه:

بعد انتهاء معركة بدر، مرَّ الصحابي الجليل مصعب بن عمير بأخ له من أُمه

(١) الواقدي: ١ / ١٢٩ .

(٢) السيرة الحلبية: ٢ / ١٩٣، والسيرة النبوية لدحلان: ١ / ٣٤٣ .

وأبيه يدعى: أبو عزيز بن عمير - الذي خاض المعركة ضد المسلمين - ورجل من الأنصار يضع قيود الأسر في يده، فقال مصعب للأنصاري: «شدّ يديك به فإن أُمّه ذات متاع، لعلّها تفديه منك! فقال له أبو عزيز: يا أخي، هذه وصاتك بي، فقال له مصعب: إنه أخي دونك»[١].

ففي هذه القصة تتجلى قوة العقيدة والايمان في شخصية هذا الصحابي الجليل، مصعب بن عمير، حيث جسد أُخوة الايمان، وقدمها على اخوة النسب، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾.

أبو عزّة الشاعر... ونقضهِ للعهد والميثاق:

ومن الأسرى يوم بدر أبو عزّة عمرو بن عبد الله الجمحي، وكان شاعراً، أقبل على رسول الله ﷺ وقال: لي خمسُ بنات ليس لهنّ شيء، فتصدّق بي عليهن يا محمد. فأعتقه رسول الله ﷺ.

وقال أبو عزّة: «أعطيك موثقاً لا أُقاتلك ولا أكثر عليك أبداً».

فلمّا خرجت قريش إلى أُحد جاءه صفوان بن أُمية فقال: اخرج معنا!

فقال: إني قد أَعطيت محمّداً موثقاً ألاّ أُقاتله ولا أُكثر عليه أبداً، فضمن صفوان أن يجعل بناته مع بناته إن قُتل، وإن عاش أعطاهُ مالا كثيراً.

فخرج أبو عزّة يدعو العرب ويحشِّدها، ثم خرج مع قريش يوم أُحد، فأُسر ولم يؤسر غيره من قريش، فجيء به إلى رسول الله ﷺ وهو في قيود الأسر.

فقال يا محمد إنما أُخرجت مكرهاً!! ولي بنات فامننْ عليّ!!

فقال رسول الله ﷺ: أين ما أعطيتني من العهد والميثاق؟ لا والله، لا

---

(١) ابن هشام: ٢ / ٣٠٠.

تمسح عارضيك بمكّة تقول: «سخرت بمحمد مرتين».

وفي رواية أن النبيﷺ قال له: «إن المؤمن لا يلدغ من جحر مرتين».

يا عاصم بن ثابت، قدّمه فاضرب عنقه، فقدمه عاصم فضرب عنقه[١].

قلادة خديجة:

روى الواقدي... عن عائشة: قالت: «لمّا بعث أهل مكّة في فداء أسراهم بعثت زينب بنت رسول اللهﷺ في فداء زوجها (أبي العاص بن الرَّبيع). وبعثت فيه بقلادة لها كانت لخديجة (رض)، يقال: إنها من جزع ظفار[٢]، كانت خديجة بنت خويلد أدخلتها بها على أبي العاص حين بنى بها.

فلما رأى رسول اللهﷺ القلادة عرفها ورقّ لها، وذكر خديجة وترحّم عليها، وقال: «إن رأيتم أن تطلقوا لها أسيرها، وتردّوا إليها متاعها فعلتم».

فقالوا: نعم يا رسول الله. فأطلقوا أباالعاص بن الرّبيع وردّوا على زينب متاعها.

وأخذ النبيﷺ - العهد - على أبي العاص أن يخليَ سبيلها، فوعده ذلك»[٣].

ولم يكن رسول الله في موقفه هذا، مراعياً لجانب أقاربه أكثر من الآخرين، كما قد يفهم البعض، وانما أراد النبيﷺ أن يؤكد على أن الإسلام يحترم ويقدر مواقف الآخرين وخدماتهم وخاصة ما قدمته خديجة بنت خويلد للاسلام والمسلمين.

---

(١) المغازي: ١ / ١١٠ - ١١١ .

(٢) قال الفيروزآبادي: ظفار باليمن قرب صنعاء، إليه ينسب الجزع . (القاموس المحيط: ٢/ ٨١).

(٣) المغازي: ١ / ١٣٠ - ١٣١ وانظر بقية قصة هجرة زينب وما جرى لها، البداية والنهاية: ٣ / ٣٣١ . والسيرة النبوية، لزيني دحلان: ١ / ٣٤٢، والسيرة النبوية لابن هشام: ٢ / ٣٠٨ وما بعدها .

ثم إن النبيﷺ لم يطلق أبا العاص قبل وصول الفداء له من زوجته، مع إنه مَنّ على بعضهم وأطلقهم من دون فداء، كما أمر النبيﷺ بعدم قتل أبي البختري، لأنه قد قدم بعض الخدمات للمسلمين في مكة، كما مر بنا سابقاً.

مع العباس بن عبد المطلب في أسره:

كان من جملة من وقع في الأسر نفر من بني هاشم أخرجوا إلى المعركة مكرهين، وكان من بينهم العباس بن عبد المطلب، عمُّ النبيﷺ بالاضافة إلى عقيل بن أبي طالب.

وفي ليلة من الليالي التي أعقبت بدراً حيث كان الأسرى لا زالوا في المدينة، سهر النبيﷺ ولم يغمض له جفن، فقال له بعض أصحابه، ما يسهرك يا نبي الله؟

فقالﷺ : أنين العباس بن عبد المطلب.

فقام رجل من القوم، فأرخى من وثاقه، فانقطع أنين العباس.

فقال رسول الله، ما بالي لا أسمع أنين العباس؟ فقال رجل من القوم: إني أرخيت من وثاقه شيئاً.

فقالﷺ : فافعل ذلك بالأسرى كلِّهم(١).

وفي رواية: إنّ أنصارياً قال لهﷺ : أفلا أذهب فأرخي عنه شيئاً؟

قالﷺ : إن شئت فعلت ذلك من قبل نفسك.

فانطلق الأنصاري، فأرخى عنه وثاقه، فسكنﷺ ونام...(٢).

والظاهر: أن مكان سكن العباس في الأسر كان قريباً من النبيﷺ فمنعه

---

(١) تاريخ الخميس: ١ / ٣٩٠، وصفوة الصفوة: ١ / ٥١٠ .

(٢) المصنف - لعبد الرزاق الصنعاني: ٥ / ٢٥٣ .

أنينه من الراحة، لا أن النبيﷺ كان يعطف عليه خاصة دون غيره من الأسرى.

ويمكن أن يقال: إن علم النبيﷺ بأن العباس قد خرج مكرهاً إلى المعركة، فكان ذنبه أخف من ذنب غيره، ممّا يبرِّر أن يتصرف تجاهه بهذه النحو[1]. وخاصة أن النبيﷺ قد أمر بعدم قتل هؤلاء المكرهين من بني هاشم في المعركة.

فدية العباس:

وكان المسلمون قد غنموا من العباس عشرين أو أربعين أوقية ذهباً - والأوقية أربعون مثقالا - فطلب أن تحسب من فدائه.

فقالﷺ: «فأما بشيء خرجت تستعين به علينا، فلا نتركه لك»[2].

ومن طريق مايروى في قصة فدية العباس أن النبيﷺ أمر العباس بمفاداة نفسه وعقيلا، ونوفلا، أبني أخيه - لأنه كان متمولا - فأنكر العباس أن يكون له مال!

فقالﷺ: إعط ما خلفته عند أُم الفضل، فقلت لها: إن أصابني شيء، فأنفقيه على نفسك وولدك، فسأله العباس: من أخبرك بهذا؟

فقالﷺ جبرئيل، قال: محلوفة، ما علم بهذا أحد إلاّ أنا وهي، أشهد أنك رسول الله.

فرجع الأُسارى كلُّهم مشركين، إلاّ العباس وعقيلا ونوفلا، وفيهم نزلت هذه الآية:

---

(١) الصحيح من سيرة النبي: ٣ / ٢٥٠ - ٢٥١ .

(٢) المصدر نفسه: ٣ / ٢٥٢ وانظر: أسباب النزول للواحدي: ١٣٨، والسيرة الحلبية: ٢ / ١٩٨ .

﴿قُل لِّمَن فِيٓ أَيۡدِيكُم مِّنَ ٱلۡأَسۡرَىٰٓ إِن يَعۡلَمِ ٱللَّهُ فِي قُلُوبِكُمۡ خَيۡرٗا يُؤۡتِكُمۡ خَيۡرٗا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمۡ﴾[١].

وقد اختلف كتّاب السيرة في إسلام العباس بن عبد المطلب هل شهد بدراً وهو مسلم يكتم إيمانه؟ أم أنه أسلم بعد بدر كما في رواية الفدية؟ أم أنه أسلم ولكن لم يُظهر إسلامه إلاّ عام الفتح؟ هذه جملة الآراء المطروحة في إسلام العباس[٢]. والله العالم بحقائق الأُمور.

٤ - ردود الأفعال

وهكذا انتهت معركة بدر بملابساتها ووقائعها، وكان لها انعكاسات وردود أفعال في الجزيرة العربية عامة، وفي مكة والمدينة خاصة.

وقد تحدثت النصوص التاريخية عن ردود الأفعال هذه من خلال انتشار أخبار نتائج المعركة في كلاً من مكة والمدينة.

أولا: ردود الأفعال في مكة:

فكيف تلقت مكة نبأ هزيمة جيشها؟

لقد انتهت معركة بدر بفرار ما يقارب ثمانمائة وخمسين مقاتلا من المشركين. متجهين صوب مكة، مذعورين مذهولين نتيجة الاندحار الكبير الذي أصابهم.

واستقبل أهل مكة بذهول أشد الأنباء الأولية عن هزيمتها، واستعصى على عقول أهلها تصديق تلك الأنباء إلى درجة أنهم اتهموا الناقل الأول لأنباء الهزيمة

---

(١) الانفال: ٧٠ .

(٢) للتوسع: انظر الصحيح من سيرة النبي: ٣ / ٢٥١ وما بعدها .

بالجنون.

وكان أول من صكَّ أسماع أهل مكة بهزيمة جندهم هو: «الحَيْسُمان بن عبد الله الخزاعي» الذي كان أحد الفارين وأول القادمين من ساحة المعركة.

تجمع حوله أهل مكة يسألونه عن نتيجة المعركة، فأخبرهم عن مقتل فلان وفلان... وأخذ يعدد لهم أسماء الصرعى من زعماء مكة وقادتها.

يروى أن صفوان بن أُمية بن خلف الذي قتل أبوه في المعركة، عندما استمع إلى حديث «الحَيْسُمان» عن الهزيمة أكد للحاضرين أنه مجنون، وقال لهم: لا يَعْقل هذا شيئاً مما يتكلم به، سلوه عني! فقالوا: صفوان بن أُمية، ألك به علم؟ قال: نعم، ذلك في الحجر، وقد رأيت أباه وأخاه مقتولين، ثم قال: ورأيت سهيل ابن عمرو أسر، والنّضر بن الحارث، قالوا: وما يدريك؟

قال: رأيتهما مقرونين في الحبال[1].

وبعد أن تأكدت قريش من نتيجة المعركة، وعرف كل بيت مصابه فيها، أقامت المآتم، وناحت على قتلاها فترة قصيرة من الزمن، بعدها أصدر قادة مكة أمراً بمنع النياحة على القتلى.

يروي الواقدي: «ولما رجعت قريش إلى مكّة قام فيهم أبو سفيان بن حرب فقال: يا معشر قريش، لا تبكوا على قتلاكم، ولا تنح عليهم نائحة، ولا يبكهم شاعر. وأَظْهِروا الجلد والعزاء، فإنكم إذا نحتم عليهم وبكيتموهم بالشعر أذهب ذلك غيظكم، فَأَكَلَّكم ذلك عن عداوة محمد وأصحابه، مع أنه إن بلغ محمّداً وأصحابه شمتوا بكم، فيكون أعظم المصيبتين شماتتهم، ولعلّكم تدركون ثأركم، والدّهنُ والنساء عليّ حرام حتى أَغزو محمّداً، فمكثت قريش أشهراً لا

(١) المغازي: ١ / ١٢٠، وابن هشام: ٢ / ٣٠٠ .

يبكيهم شاعر، ولا تنوح عليهم نائحة»[١].

لقد كانت فاجعة قريش في معركة بدر فاجعة مروعة حقا، ما منيت بمثلها في تاريخها الطويل، إذ لم يكد ينجو بيت فيها من مأتم على أب أو زوج أو أخ أو ابن، أو قريب.

هذه هي خلاصة أجواء الهزيمة والأجواء الحزينة في مكة، أما مدينة الرسول يثرب، فما هي ردود فعلها؟ وكيف تلقت المدينة أنباء النصر؟

ثانياً: ردود الأفعال في المدينة:

كانت التركيبة الاجتماعية لسكان المدينة في ذلك الوقت تتألف من عناصر ثلاثة: المسلمون، واليهود، والمنافقون، وقد كان اليهود والمنافقون يتمنون، بل يتوقعون الهزيمة للمسلمين، والنصر والغلبة للمشركين في هذه المعركة.

وقد أشاع هؤلاء جملة من الأراجيف والأكاذيب والاشاعات لبلبة الأفكار حيث أشاعوا فيها خبر قتل النبيﷺ وتمزيق جيش المسلمين في المعركة.

وبينما كان المسلمون يترقبون - وبتلهف - أنباء المعركة، وقد أحاطت بهم الإشاعات والأراجيف بهزيمة المسلمين بشكل كادت أن تذهب له عقول المسلمين خوفاً على نبيهم وجيشهم... وإذا بصوتي: (عبد الله بن رواحه، وزيد بن ثابت) يهزان أنحاء المدينة تهليلا وتكبيراً معلنين انتصار المسلمين، وهزيمة المشركين. ومقتل صناديد قريش ورؤوس الشرك ويخبرونهم أيضاً بقرب قدوم النبيﷺ وجيشه سالمين غانمين.

فعمَّت الفرحة والبهجة والسرور نفوس المسلمين، وزالت عنهم جميع

---

(١) المصدر نفسه: ١ / ١٢١، وابن هشام: ٢ / ٣٠٢ .

هواجس الخوف والوجل التي انتابتهم نتيجة الاشاعات الكاذبة التي اطلقها اليهود والمنافقون.

روى الواقدي وابن هشام: «وقدّم رسول اللهﷺ زيد بن الحارث، وعبدالله بن رواحة، من «الأُثيل»[١] فجاءا يوم الأحد شدّ الضّحى، فجعل عبدالله ينادي: يامعشر الأنصار، أبشروا بسلامة رسول اللهﷺ وقتل المشركين وأسرهم، قتل ابنا ربيعة، وقتل فلان... وأُسر سهيل بن عمر... في أَسرى كثيرة. وقدم زيد بن الحارث على ناقة النبيﷺ (القَصواء) يبشّر أهل المدينة، بما بشر به زيد بن الحارثة من قبل»[٢].

وبالرغم من وصول البشير بنصر المسلمين وهزيمة المشركين، حاول اليهود والمنافقون تكذيب انباء الانتصار أو التشكيك في ذلك، وكانوا يقولون: «ما جاء زيد إلاّ فَلا»[٣].

روى الواقدي: «فقال رجل من المنافقين لأُسامة بن زيد: قتل صاحبكم ومَن معه، وقال رجل من المنافقين لأبي لبابة بن عبد المنذر: قد تفرّق أصحابكم تفرقاً لا يجتمعون منه أبداً، وقد قتل عِلْيَّه أصحابه وقتل محمد، هذه ناقته نعرفها، وهذا زيد لا يدري ما يقول من الرعب.... فقال له أبو لبابة: يكذّب الله قولك، وقالت اليهود: ما جاء زيد إلاّ فلا...»[٤].

ولشدة الارجاف وقوة الاشاعة بقي كثير من المسلمين مترددين في تصديق خبر انتصار المسلمين.

---

(١) موضع بين بدر والمدينة.

(٢) الواقدي، المغازي: ١ / ١١٥.

(٣) الفل: القوم المنهزمون: أي جاء زيدٌ منهزماً مِنَ المعركة!

(٤) المغازي: ١ / ١١٥.

قال أُسامة بن زيد: «فجئت حتى خلوت بأبي، فقلت: يا أبة، أحقّ ما تقول؟ قال: إي والله حقّاً يا بني.

قال أُسامة: فقويت في نفسي، فرجعت إلى ذلك المنافق فقلت: انت المرجف برسول الله وبالمسلمين، ليقدّمنَّكَ رسول الله إذا قدم فليضربنّ عنقك!

فقال - المنافق متخاذلا - يا أبا محمد، إنما هو شيءٌ سمعت الناس يقولونه»[١].

٥ - الرسول القائد يدخل المدينة

وقبل وصول الأسرى مع طلائع جيش المسلمين إلى المدينة بيوم واحد، دخلها رسول الله ﷺ مع مجموعة من أصحابه، واستقبلته المدينة استقبالا رائعاً، «ولقيه المسلمون يهنئونه بما فتح اللهُ عليه، ومن معه من المسلمين»[٢].

ولقيه ﷺ أُسيد بن خضير فقال: «يا رسول الله، الحمد لله الذي ظفّرك وأقرّ عينك، والله يا رسول الله، ما كان تخلّفي عن بدر وأنا أظنُّ أنك تلقى عدوّاً، ولكني ظننت أنّها العير، ولو ظننت أنه العدوّ ما تخلّفت. فقال له رسول الله ﷺ: «صدقت».

ثم لقيه عبد الله بن أُنيس، فقال: «يا رسول الله، الحمد لله على سلامتك وما ظفّرك! كنت يا رسول الله ليالي خرجت موروداً[٣] فلم يفارقني حتى كان بالأمس فأُقبلت إليك. فقال له رسول الله ﷺ: آجرك الله»[٤].

(١) المصدر نفسه، وابن هشام: ٢ / ٢٩٧ .

(٢) ابن هشام: ٢ / ٢٩٧ .

(٣) قال الجوهري: الورد يعني «الحمى» تقول: وردته الحمى فهو مورود. (الصحاح: ٥٤٦).

(٤) المغازي: ١ / ١٧٧ .

وهكذا استقبلته ﷺ المدينة بهذه الروحية وبهذا الاستقبال الرائع.

وأما اليهود والمنافقون فقد اسودت وجوههم، واستبد بهم الغيظ والحقد فأفقدهم رشدهم وأذهب صوابهم.

وكانت الصدمة الشديدة عليهم عندما رأوا رسول الله ﷺ سالماً، ومن بعده رأوا طلائع جيش المسلمين المنتصر تزدحم بهم طرقات المدينة، وأمامها يساق أسرى البغي والعدوان مقرّنين في الأصفاد، تعلو وجوههم ذلة الهزيمة.

يقول الواقدي: «فلمّا قدم بالأسرى أذلّ الله بذلك رقاب المشركين والمنافقين واليهود، ولم يبق بالمدينة، يهوديّ ولا منافق إلاّ خضع عنقه لوقعة بدر... وفرق الله في صبحها بين الكفر والإيمان. وقالت اليهود فيما بينها: هو الذي نجده منعوتاً، والله لا ترفع له راية بعد اليوم إلاّ ظهرت»(١).

وقال كعب بن الأشرف: بطن الأرض اليوم خير من ظهرها، هؤلاء أشراف الناس وساداتهم، وملوك العرب، وأهل الحرم والأمن، قد أُصيبوا»(٢).

٦ - أثر معركة بدر على الجزيرة العربية

لقد كانت النهاية التي انتهت بها معركة بدر، بمثابة الزلزال الذي اهتزت له الجزيرة العربية من أقصاها إلى أقصاها، وتدهورت سمعة قريش العسكرية والسياسية، وفقدت هيبتها ومكانتها في بلاد العرب بعد أن كان لها المركز الأول بين جميع قبائل العرب.

وبالرغم من تباين المواقف الذي تلقت به أحزاب الكفر والنفاق والشرك نبأ انتصار المسلمين في هذه المعركة، فقد كان الاستيلاء عاماً بينهم، والإجماع

---

(١) المصدر نفسه: ١ / ١٢١ .

(٢) المغازي: ١ / ١٢١ .

منعقداً منهم على الوقوف في وجه المسلمين.

فقد صمّم الجميع على أن لا يمكنوا المسلمين مرة أُخرى من تحقيق أي نصر يزيد قوتهم ويقوي من شوكتهم، وذهب كل فريق يعمل في سبيل الايقاع بالمسلمين وتفريق جمعهم، بالطريقة التي يراها كفيلة ببلوغ غايته.

٧ – مؤامرة قريش لاغتيال النبي ﷺ

لقد بلغ الغيظ بمشركي مكة بعد واقعة بدر إلى أبعد حدوده، وصاروا من أشد سكان جزيرة العرب حرصاً على القضاء على محمدﷺ وقتله، ولهذا قررت اختصار الطريق للانتقام من النبيﷺ وذلك من خلال تدبير مؤامرة لاغتيالهﷺ بالمدينة.

وقد اختارت لتنفيذ هذه المؤامرة الخطيرة شيطاناً من شياطين قريش، وفارساً من فرسانها المشهورين بعدائهم الشديد وبغضهم العارم للنبيﷺ ولدينه، وهو: «عمير بن وهب الجمحي» الذي زاد كرهاً للنبيﷺ وحقداً عليه بعد أن أسر المسلمون ابنه «وهب» يوم بدر.

يروي ابن هشام والواقدي:

«جلس عمير بن وهب الجمحي مع صفوان بن أُمية بعد مصاب أهل بدر من قريش في الحجر بيسير، وكان عمير بن وهب شيطاناً من شياطين قريش، وممّن كان يؤذي رسول اللهﷺ وأصحابه، ويلقون منه عناء وهو بمكة، وكان ابنه وهب ابن عمير في أُسارى بدر.

فذكر أصحاب القليب ومصابهم فقال صفوان: قبح الله العيش بعد قتلى بدر.

فقال عمير بن وهب: أجل والله، ما في العيش بعدهم خير، ولولا دَيْن

عليّ لا أجد له قضاء، وعيال لا أدع لهم شيئاً، لرحلت إلى محمّد حتى أقتله ان ملأت عيني منه، فإنه بلغني أنه يطوف في الأسواق، فإنّ لي عندهم علة، أقول: قدمت على ابني هذا الأسير.

ففرح صفوان بقوله ذلك وقال: يا أبا أُمية، وهل نراك فاعلا؟ قال: أي ورب هذه البنيّة.

يقول ابن هشام: فاغتنمها صفوان وقال: عليَّ دينك، أنا أقضيه عنك، وعيالك مع عيالي أُواسيهم ما بقوا، لا يسعني شيء ويعجز عنهم»[١].

ثم أمر عمير بسيفه، فشحذ[٢] له وسمَّ، ثم انطلق حتى قدم المدينة.

فبينما عمر بن الخطاب في نفر من المسلمين... إذ نظر إلى عمير بن وهب، حين أناخ على باب المسجد متوشِّحاً السيف، فقال: «هذا عدو الله عمير بن وهب، والله ما جاء إلاّ لشر....

ثم دخل عمر بن الخطاب على رسول الله ﷺ فقال: يا نبي الله، هذا عدو الله عمير بن وهب قد جاء متوشحاً سيفه. قال ﷺ : فأدخله عليّ.

فأقبل عمر حتى أخذ بحمالة سيفه في عنقه فلّببه بها... ثم دخل به على رسول الله ﷺ.

فلما رآه رسول الله ﷺ... قال: أرسله يا عمر، أُدنُ يا عمير.

فدنا - عمير - من النبي ﷺ قال: أنعموا صباحاً! وكانت تحية أهل الجاهلية بينهم، فقال رسول الله ﷺ : قد أكرمنا الله بتحية خيراً من تحيتك يا عمير، بالسلام: تحية أهل الجنة.

---

(١) ابن هشام: ٢ / ٣١٦، والمغازي: ١ / ١٢٥ .

(٢) شحذ السيف: أحده . (القاموس) .

فقال عمير: أما والله يا محمد إن كنت بها لحديث العهد.

فقالﷺ: فما جاء بك يا عمير؟ قال: جئت لهذا الأسير الذي في أيديكم فأحسنوا فيه.

قالﷺ: فما بال السيف في عنقك؟ قال: قبحها الله مِن سيوف! وهل أغنت عنا شيئاً.

قالﷺ: أصدقني، ما الذي جئت له؟ قال: ما جئت إلاّ لذلك!!

قالﷺ: بل قصدت أنت وصفوان بن أُمية في الحجر، فذكرتما أصحاب القليب من قريش، ثم قلت: لولا دين عليَّ وعيال عندي لخرجت حتى أقتلَ محمداً، فتحمّل صفوان بِدَيْنِكَ وعيالك، على أن تقتلني له والله حائل بينك وبين ذلك!

قال عمير: أشهد أنك رسول الله، قد كنّا يا رسول الله نكذّبك بما كنت تأتينا به من خبر السماء، وما ينزل عليك من الوحي، وهذا أمر لم يحضره إلاّ أنا وصفوان، فو الله إني لا أعلم ما أتاك به إلاّ الله، فالحمد لله الذي هداني للإسلام، وساقني هذا المساق، ثم شهد شهادة الحق.

فقال رسول اللهﷺ: فقّهوا أخاكم في دينه، وأقرئوه القرآن، وأطلقوا له أسيره، ففعلوا.

ثم قال: يا رسول الله، إني كنت جاهداً على إطفاء نور الله، شديد الأذى لمن كان على دين الله عزّوجل، وأنا أحب أنت تأذن لي، فأقدم مكة، فأدعوهم إلى الله تعالى، وإلى رسولهﷺ وإلى الإسلام، لعلّ الله يهديهم، وإلاّ آذيتهم في دينهم كما كنت أُوذي أصحابك في دينهم.

فأذن له رسول اللهﷺ، فلحق بمكة.

وكان صفوان بن أُمية حين خرج عمير بن وهب، يقول: أبشروا بوقعة تأتيكم الآن في أيام، تنسيكم وقعة بدر، وكان صفوان يسأل عنه الرّكبان، حتى قدم راكب فأخبره عن اسلامه، فحلف أن لا يكلّمه أبداً، ولا ينفعه بنفع أبداً.

قال ابن إسحاق: «فلما قدم عمير مكة أقام بها يدعو إلى الإسلام، ويؤذي من خالفه أذى شديداً، فأسلم على يديه ناس كثير»[1].

وهكذا فشلت المؤامرة الخبيثة، وبدلا من أن يعود بطلها إلى مكة مبشراً رؤوس الكفر بقتل النبيﷺ عاد إليهم مسلماً، يتحدى مكة كلها باسلامه.

وهكذا انتهت معركة بدر، بهذه النهاية التي غيرت موازين القوى الروحية والسياسية والعسكرية والاجتماعية في الجزيرة العربية، وقفزت بسمعة المسلمين العسكرية إلى الذروة، وجعلتهم سادة الموقف.

٨ - الدروس والعبر المستفادة من واقعة بدر الكبرى

لقد انطوت وقائع معركة بدر الكبرى - بملابساتها وأحداثها وأشخاصها - على دروس وعبر وعظات جليلة وعظيمة، كما أنّها تضمنت معجزات خارقة تحدث عنها القرآن الكريم بإسهاب، وخصص سبحانه لهذه الواقعة سورة كاملة من سور القرآن الكريم وهي سورة الأنفال.

وقد أشرنا في ثنايا الدروس الثلاثة - التي تحدثنا فيها عن وقائع المعركة - إلى بعض هذه الدروس والعبر، والتي يمكننا تلخيصها فيما يلي:

أولا: طريق ذات الشوكة:

لقد وعد الله المسلمين قبل أن يخرجوا إلى (بدر) أحد الأمرين: إما الظفر

---

(١) ابن هشام: ٢ / ٣١٧ - ٣١٧ والمغازي: ١ / ١٢٥ وما بعدها، والبداية والنهاية: ٣ / ٣١٤ .

بتجارة قريش، واما النصر الذي يعز الله تعالى به الإسلام، إلاّ أن الثاني منهما يكلفهم الأموال والأنفس، ويثخنهم بالجراح، والأموال، والأول لا يكلفهم في أموالهم وأنفسهم شيئاً.

وقد كان المسلمون يومئذ يؤثرون الأول منهما على الثاني، ويودّون أن يرجعوا إلى بيوتهم في المدينة بتجارة قريش، وليس بفقد أبنائهم واخوانهم، وقد علم الله تعالى ذلك من نفوسهم ونياتهم (رحمهم الله).

يقول تعالى: ﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾[١].

والآية الكريمة تذكرهم وتذكرنا بأن الانسان لو تُرِكَ وشأنه لآثر العافية في الدنيا على الحياة ذات الشوكة، إلاّ أن الله تعالى يريد لهم غير ما يريدون لأنفسهم من العافية.

وشتّانَ بين ما يريده الله تعالى للمؤمنين من نصر وعزٍّ لا يتحقق إلاّ بذات الشوكة، وبين ما يريده الانسان لنفسه من عافية، لا يتحقق إلاّ بالهوان والذل[٢].

ثانياً: القيام بالحق والتحرر من الطاغوت:

عندما نتأمل الآية الكريمة من سورة الأنفال: ﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾[٣].

نجد أن هذه الآية الكريمة تقرر للمسلمين نتائج الحركة على طريق ذات

(١) الانفال: ٧.

(٢) الآصفي – محمد مهدي: الهجرة والولاء: ١٩ – ٢٠.

(٣) الانفال: ٧.

الشوكة في نقطتين:

الأُولى: ليحقَّ الحقَّ بكلماته.

الثانية: ويقطع دابر الكافرين.

وإن تثبيت كلمة التوحيد، وتحكيم حدود الله، وتقرير حاكمية الله تعالى، وتنفيذ أمره ونهيه، وتعبيد الانسان لله تعالى في كل شيء وفي كل شأن، هو النقطة الأُولى من هاتين الحقيقتين (ليحق الحق بكلماته).

وإزالة نفوذ الطاغوت وسلطانه، وقطع دابر الكافرين، وإنهاء حاكمية الطاغوت في حياة الإنسان هو النقطة الثانية من هاتين النقطتين.

والنقطة الثانية تحرر إرادة الإنسان من أسر الطاغوت، فيملك الانسان بذلك قرار نفسه، ويملك لنفسه حق الاختيار.

والنقطة الثانية تعرج بالانسان إلى الله، وتبوِّؤه في موضع خلافة الله تعالى في الأرض، وتجعل منه أداة لتنفيذ مشيئة الله، وتسمو به إلى الله تعالى.

ولولا ما يلقاه الانسان على طريق ذات الشوكة من عذاب وعناء ومحنة لا يتمكن من أن يتحرر من أسر الطاغوت ونفوذه وسلطانه، ولا يتمكن من أن يرتفع إلى موقع الخلافة والشهادة.

لقد كان المسلمون الأوائل «رحمهم الله» في بدر يطلبون بضاعة الشام المحتملة في عِير قريش، وكان الله تعالى يريد لهم السيادة على وجه الأرض، وأن يهدم بهم قلاع الكفر في فارس والروم، ويحرر الانسان بهم من الطاغوت[١].

(١) المصدر نفسه: ١٠٠ وما بعدها.

ثالثاً: التدين الحركي والتدين غير الحركي:

إنّ وقائع معركة بدر وما أفرزته من نتائج تؤدي بنا إلى تصنيف حالة (التديّن) إلى حالتين، حالة حركية، وحالة غير حركية. وكلاهما من التدين إلاّ أنهما لا يستويان عند الله، وكلا منهما يريده الله تعالى، ولكن بِقيمتين مختلفتين.

وفي كتاب الله نلتقي آيتين تفضلان العمل الحركي على العمل غير الحركي:

قال تعالى: ﴿فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ دَرَجَةً ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٩٥﴾ دَرَجَٰتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [1].

والتفضيل في الآية ليس للجهاد على القعود، وانما لحالة القيام والحركة، على حالة القعود، وهذا المعنى هو الذي يناسب قوله تعالى: (وَكُلاّ وَعَدَ اللهُ الْحُسْنَى).

والآية الثانية:

قوله تعالى: ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَجَٰهَدَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ لَا يَسْتَوُۥنَ عِندَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾ [2].

والأعمال الصالحة في حياة الناس لا تخلو من واحد من هذين النوعين.

نوع منها من قبيل الايمان بالله والهجرة والجهاد، والنوع الآخر من قبيل

---

(١) النساء: ٩٥ - ٩٦.

(٢) التوبة: ١٩ - ٢٠.

عمارة المسجد الحرام وسقاية الحاج.

إلاّ أن الفارق بينهما في (القيمة وفي الجهد).

فالنوع الأول منها أعمال صالحة حركيّة فيها نقضٌ وبناء، فهي أعمال تأسيسية في قاعدة البنية الاجتماعية.

بينما النوع الثاني، هي أيضاً أعمال صالحة إلاّ أنّها لا تحتلُّ الموقع الأساس من جسم المجتمع، مهما كانت صالحة ونافعة.

كذلك نجد النوع الأول من العمل (الصالح) الحركي يهدِّد الطاغوت ويرعبه ولهذا يواجه مقاومة شديدة من قبل المستفيدين من الحالة القائمة، بينما لا تواجه الأعمال (الصالحة) غير الحركية من النوع الثاني في هذه المواجهة.

وخلاصة القول إن التديُّن على نحوين:

تديُّن وديع وهادىء ومريح، لا يكلِّف الانسان في ماله وعافيته ونفسه واستقراره، وتديُّن شاقٌ وعسير، يكلِّف صاحبه نفسه وماله وأحباءه وأمنه واستقراره.

والأول لا يغير من واقع الحياة شيئاً، ولا يُحقُّ حقاً، ولا يبطل باطلا، فلا يشعر به أحد، ولا يمس مصالح أحد بسوء، ولا يتبنى الدفاع عن ظلامة المظلوم، ولا يرفع صرخة مضطهد معذَّب في الأرض، والثاني هو التديُّن الذي يغير وجه الحياة، ويفك الآصار والأغلال من الناس، ويقتحم ويخترق الحواجز والعوائق، ويحق الحق على وجه الأرض ويبطل الباطل، وان كره الظالمون[١].

والذي اختاره الله للمسلمين في بدر وفي غير بدر من مواقع ومواجهات

---

(١) الآصفي: الهجرة والولاء: ٢٠ - ٢٢ بتصرف .

الإسلام الخالدة، هو التدين الحركي الذي يقترن عادةً بالجهاد والهجرة ويرسخ بهما قواعد هذا الدين والتوحيد والحق على وجه الأرض. ولعل هذا المعنى مما نستوحيه من قوله تعالى: ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾[1].

رابعاً: الأسباب المعنوية والمادية للنصر:

لا شكَّ في أنَّ القوتين المتصادمتين في معركة بدر، قد كانتا غير متكافئتين من ناحية العدد والاستعداد والعدة.

إلاّ أننا نجد أن النصر كان حليف المسلمين في المعركة، وأن الهزيمة قد لحقت بالمشركين.

ولكل من النصر والهزيمة أسبابها المادية والمعنوية، وعندما نتأمل في وقائع هذه المعركة الكبرى تتجلى لنا هذه الأسباب، أسباب النصر الرئيسية من جانب المسلمين، وأسبابها الرئيسية من جانب المشركين، وفي كل منها مواطن للعِظَة والعبرة.

ويمكننا أن نجمل أهم الأسباب المعنوية فيما يلي:

الأول: الدعم الإلهي:

لم يكن الدافع الأصلي لخروج المسلمين مع رسول الله ﷺ في معركة بدر القتال والحرب من أول الأمر، وإنما كان بدافع الاستيلاء على قافلة قريش التجارية القادمة من الشام، كما أسلفنا سابقاً.

ولا أحد ينكر على المسلمين قصدهم المشروع هذا، لأنه من مبدأ المعاملة بالمثل، فبعد ان سلب هؤلاء المهاجرون الذين أخرجوا من ديارهم من

---

(١) العنكبوت: ٢ .

ممتلكاتهم وأموالهم واستولى عليها المشركون من بعدهم، فلهم العذر في أن يستولوا على ما وقع تحت أيديهم من أموال المشركين.

وكان يمكن أن تنتهي واقعة بدر عند هذا الحد، وبقصة «غنيمة» وقصة قوم أغاروا على قافلة تجارية في أيدي أعدائهم فغنموها وانتهى الأمر.

إلاّ أن الله تعالى أراد لعباده المؤمنين قصداً أرفع من ذلك وأليق بوظيفتهم التي خلقوا من أجلها، ألا وهي الدعوة إلى دين الله والجهاد في سبيل ذلك، والتضحية في سبيل اعلاء كلمة الله[(١)] ﴿وَيُرِيدُ اللهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ * لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ﴾.

ووعدهم سبحانه بالنصر على لسان نبيهﷺ : «سيروا وابشروا فإن الله قد وعدني إحدى الطائفتين. . . والله لكأني الآن انظر إلى مصارع القوم. . . » والله لا يخلف الميعاد.

وقد تجلت صور الدعم الإلهي للمسلمين في بدر كما رسمه لنا القرآن الكريم فيما يلي:

١ - الوعد بالنصر:

لقد وعدهم الله سبحانه بالنصر والله لا يخلف وعده، فقد حقق وعده، وأنجز عهده، قال تعالى: ﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾[(٢)].

---

(١) البوطي: فقه السيرة: ٢٣٧ .

(٢) الانفال: ٧ .

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾(١).

٢ - الامداد بالملائكة:

مما لا شك فيه أن الله سبحانه قد أمدَّ المسلمين بالملائكة المردفين يوم بدر. وهذا يشكل دعماً معنوياً هائلا لهم، حيث شهد هؤلاء الملائكة المعركة لتقوية روحية المسلمين المعنوية وتثبيتهم، وهذه من أعظم معجزات التأييد والنصر للمسلمين الصادقين.

قال تعالى: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴿٩﴾ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾﴾(٢).

٣ - طمأنينة القلب وعدم الخوف:

كان المسلمون - وهم يواجهون زحف قريش وقواتهم وعدتهم، وهم في أول مواجهة مسلحة لهم - يحتاجون إلى حالة الطمأنينة والثبات، وقد جهز الله سبحانه الجيش الإسلامي بذلك، فلقوا عدوهم بقلوب ثابتة، لم يجد الخوف سبيلا إليها، وألقى في قلوب أعداءهم الرعب والخوف والوجل.

قال تعالى: ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾(٣).

٤ - تقليل عدد المشركين في أعين المسلمين:

وهي حالة معنوية أُخرى منَّ بها سبحانه وتعالى على جيش الإسلام عند

---

(١) آل عمران: ١٢٣ .

(٢) الانفال: ٩ - ١٠ .

(٣) الانفال: ١٢ .

لقاء عدوهم، وهي حالة احتقار قوة العدو وعدم الخوف منها وإن كانت كثيرة، لئلاّ تهولهم كثرة العدو فيتخاذلوا. . . .

قال تعالى: ﴿إِذْ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ فِى مَنَامِكَ قَلِيلًا وَلَوْ أَرَىٰكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾[1].

وقال تعالى: ﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ ٱلْتَقَيْتُمْ فِىٓ أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِىٓ أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٤٤﴾﴾[2].

٥ - تسديد رميتهم ونسبتها إلى نفسه:

يقول تعالى: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ وَلِيُبْلِىَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَآءً حَسَنًا إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٧﴾ ذَٰلِكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٨﴾﴾[3].

ومن الثابت تاريخياً أن رسول الله ﷺ هو الذي رمى المشركين بالحصباء عند إصدار أوامره بالهجوم عليهم، إلاّ أن القرآن الكريم ينسب هذه الرمية إلى الله عزّوجل، مما يعطي للفعل قيمة مضاعفة، وقوة لا تضاهى، حتى أن الروايات تشير إلى أن رسول الله أخذ من الحصباء كفّاً، فرماهم بها، وقال: «شاهت الوجوه. . . وما بقي منهم أحد إلاّ امتلأ وجهه وعيناه، ما يدري أين يتوجّه. . .»[4].

كفٌّ من الحصباء، يرمي بها رسول الله ﷺ جيش المشركين وهم يقترب

(١) الانفال: ٤٣ .

(٢) الانفال: ٤٤ .

(٣) الانفال: ١٧ .

(٤) المغازي: ١ / ٨١ .

عددهم من الألف فتفعل بهم ما وصفته الرواية، أليست هذه معجزة إلهية وراءها قوة ربانية لا تقهر؟

وقد شاهد المسلمون في أرض المعركة مشاهد كثيرة لهذه المعجزة مما كانوا ينسبونه للملائكة.

يروي الواقدي عمن حدثه، عن حمزة، عن صهيب، عن أبيه. قال: «ما أدري كم من يد مقطوعة، وضربة جائفة[١] لم يَدْمَ كلمها يوم بدر قد رأيتها»[٢].

الثاني: الأسباب الظاهرية:

أما الاسباب الظاهرية لنصر المسلمين والحاق الهزيمة بالمشركين في بدر فهي كثيرة يمكن اجمالها فيما يلي:

١ - عدم وجود الحماسة الكافية للحرب في جيش المشركين:

فبالرغم من الحماس الكبير في صفوف المشركين وهم خارجون للدفاع عن قافلتهم التجارية. وحفاظاً على سمعة قريش، إلاّ أن هذا الجيش قد فتر حماسه للقتال عندما بلغته أنباء نجاة القافلة من قبضة المسلمين، وهذا يعني أن جيش المشركين قد خاض هذه المعركة على كره منه[٣].

أما في صفوف جيش المسلمين فنجد الأمر على عكس ذلك تماماً، فهم خرجوا للغنيمة وأرادوا ذلك، إلاّ أن قافلة قريش قد أفلتت منهم، وأصبحوا أمام جيش المشركين وجهاً لوجه فتحمسوا للقتال، بنيات صادقة وعزيمة راسخة فانتصروا.

---

(١) الجائفة: طعنة تبلغ الجوف.

(٢) المغازي: ١ / ٧٨.

(٣) باشميل: معارك الإسلام الفاصلة: ٢٦٥ - ٢٦٦.

٢ - البغي والعدوان من جانب المشركين:

لقد كان الباعث الأول لخوض معركة بدر من قبل المشركين هو البغي والعدوان والخيلاء والغطرسة، وخاصة من جانب قائدها «أبو جهل»، الذي أجهض كل محاولة من عقلائهم للعودة بالجيش من دون قتال، وأصرَّ على ان تخوض قريش هذه المعركة باغية، معتدية، متغطرسة، والباغي هو المصروع دائماً.

اما جيش الإسلام بقيادة رسول الله ﷺ فقد دخلوا معركة غير متكافئة إلاّ انهم كانوا على قناعة بضرورة خوض غمارها لصد البغي والعدوان.

٣ - عدم وجود العقيدة الصحيحة عند المشركين:

مما لا شك فيه ان من أهم بواعث الروح المعنوية التي يعتبرها العسكريون (في كل زمان ومكان) من أهم العناصر التي يجب أن تتوفر في كل جيش لضمان النصر في أية معركة يخوضها هو وجود العقيدة الصحيحة.

فالعقيدة الصحيحة الصادقة هي مصدر الزخم والقوة لكل أُمة دخلت التاريخ من باب المجد والعزة.

لو عدنا إلى ساحة المواجهة في معركة بدر وقارنا بين الفئتين المقاتلتين، لوجدناها كما وصفها سبحانه وتعالى:

﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِى فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَٰتِلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْىَ ٱلْعَيْنِ وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِۦ مَن يَشَآءُ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿١٣﴾﴾[1].

---

(١) آل عمران: ١٣ .

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ فَقَٰتِلُوٓا۟ أَوْلِيَآءَ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا ﴿٧٦﴾﴾[(١)].

والطاغوت: كل من يحكم بغير حكم الله في حياة الانسان، أو هو عبارة عن كل متعدّ، وكل معبود من دون الله[(٢)].

أما المشركون فانهم كانوا يقاتلون بطراً ورياء وسمعة وسفهاً كما وصفهم الحقُّ تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِم بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٤٧﴾﴾[(٣)].

وقد لخص الدوافع التي خرج من أجلها جيش قريش «أبو جهل» الذي امتنع عن العودة بجيشه معللا ذلك بقوله: «لا والله لا نرجع حتى نرد بدراً فنقيم عليها ثلاثاً، فننحر الجزور، ونطعم الطعام، ونسقي الخمر وتعزف علينا القيان، وتسمع بنا العرب...»[(٤)].

بهذه العقيدة الفاسدة دخل المشركون المعركة، ولا يمكن لها أن تكون باعثاً لشيء من الروح المعنوية الحقة التي هي العنصر الضروري الذي يجب توفره، للحصول على النصر في أية معركة حربية.

أما المسلمون فانهم قد خاضوا هذه المعركة بعقيدة راسخة، وهم على صلة وثيقة بالله سبحانه.

لقد خاضها كل واحد منهم وهو على يقين بأنه لا شك فائز باحدى

---

(١) النساء: ٧٦ .

(٢) الراغب الاصفهاني، مفردات القرآن: ٥٢٠ .

(٣) الانفال: ٤٧ .

(٤) المغازي: ١ / ٤٤ .

الحسنيين، إما الموت وهو الشهادة التي بها يدخل الجنة ويعيش فيها عيش السعداء، وإما النصر الذي به يعود مرفوع الرأس موفور الكرامة عزيز الجانب.

وقد عبر عن صدق هذه العقيدة وعمقها أصدق تعبير «عمير بن حمام» الذي مرت قصة استشهاده في ثنايا الدروس السابقة.

٤ - قيادة موحّدة واسلوب جديد في القتال:

لقد خاض المسلمون معركة بدر بأُسلوب جديد لم تألفه عرب الجزيرة في تاريخ حروبها.

وقد فاجأ النبيﷺ أعداءه في بدر بهذا الأسلوب أو الأساليب الجديدة في إدارة الحرب.

ويمكن تلخيص تلك الأساليب الجديدة المبتكرة بما يلي:

أولا: القيادة الموحَّدة:

كان النبيﷺ هو القائد الأعلى لجيش المسلمين، وكان المسلمون جميعاً يتحركون في ساحة المعركة تحت أوامر هذه القيادة الربانية، يوجههم في الوقت الملائم للقيام بمهامهم التي توكل إليهم.

أما المسلمون - جند الإسلام في بدر - فلقد كانوا على درجة كبيرة من الانضباط الحقيقي المتين. في تنفيذ الأوامر بحرص وأمانة وعن طيب خاطر.

كما أن وجود مقر لقيادة الرسول (العريش) على رابية تشرف على ساحة المعركة وترصد تحركات الجيشين، هو أيضاً أُسلوب جديد لم تألفه حروب الجزيرة العربية من قبل.

أما جيش المشركين، فلم تكن لهم أساليب جديدة يباغتون بها جيش

المسلمين، كذلك لم تكن لهم قيادة موحدة، حيث كان أكثر قادة مكة وشخصياتها المعروفة متواجدة مع جيش المشركين، إلاّ أن أبرز من ظهر على ساحة القيادة شخصان هما: أبو جهل، وعتبة بن ربيعة، إلاّ أن الاختلاف بينهما في وجهات النظر، والعداوة الكامنة التي كانت بينهما، شطرت جيش المشركين شطرين، ودخل جيشهم أرض المعركة ليقاتل قتالا فوضوياً دونما قيادة موجهة أو تنظيم مسبق.

ثانياً: تعبئة جديدة، وأساليب صحيحة في الحرب:

طبق رسول الله في مسير الاقتراب من المدينة إلى بدر، تشكيلا جديداً لا يختلف بتاتاً عن التعبئة الحديثة في حرب الصحراء.

فكان لجيشهﷺ ، على قلة عدده وعدته - مقدمة وقسم أكبر ومؤخرة، كما انهﷺ استفاد من دوريات الاستطلاع التي نفذها بنفسه تارة أو بواسطة بعض أفراد جيشه أُخرى، للحصول على المعلومات اللازمة عن قوة العدو وعددهم.

كما أن أُسلوب (الصفوف) الذي استخدمه المسلمون في قتالهم، كان من الأساليب المبتكرة في هذه الواقعة.

أما جيش المشركين، فلم تكن لهم هذه التعبئة ولا الأساليب الجديدة في خوض الحرب بالرغم من كثرة عددهم وعدتهم.

لقد أَلِفَ العرب في قتالهم أُسلوب (الكر والفر) وهو أُسلوب يستنزف قوتهم، حيث يعتمد على هجوم مكثف وبكل قوتهم وبكافة أسلحتهم على الطرف المقابل، فإذا صدّوا وأحسوا بالضعف نكصوا، وعادوا إلى مراكزهم لتنظيم صفوفهم ليهجموا مرة أُخرى وهكذا.

بينما كان جيش المسلمين يقاتل بأُسلوب (الصفوف) المبتكر حيث واجه

هجماتهم وهم في مواضعهم بسيطرة قائدهم، مع المحافظة على قوتهم.

إن تطبيق الرسول لأُسلوب الصفوف في معركة بدر، عامل مهم من عوامل انتصاره على المشركين في بدر.

وهكذا صار للخطة التي ابتدعها الرسول ﷺ في التعبئة، في حربه يوم بدر، وامتاز بها على المشركين، الذين لم يسبق لهم أن ساروا على مثلها في شيء من حروبهم، صار لها الأثر الكبير في انتصار المسلمين في هذه المعركة[١].

وفي الختام نقول:

إن معركة بدر قد مضت في التاريخ كله، قصة نصر حاسم، قصة فرقان بين الحق والباطل، قصة انتصار الحق على أعدائه المدججين بالسلاح . . . قصة انتصار القلوب حين تتصل بالله، وحين تتخلّص من ضعفها الذاتي، بل قصة انتصار حفنة من القلوب من حولها الكارهون للقتال، ولكنها بيقينها انتصرت على نفسها، وانتصرت على من حولها، وخاضت المعركة والكفة راجحة رجحاناً ظاهراً في جانب الباطل، فقلبت بيقينها الميزان، فإذا الحق راجح غالب.

إلاّ أن غزوة بدر بملابساتها هذه، لا تمضي مثلا في التاريخ، إلاّ وأنّها تقرر دستور النصر والهزيمة وتكشف عن أسباب النصر وأسباب الهزيمة، الأسباب الحقيقية، لا الأسباب الظاهرية المادية، ألا وانها لكتاب مفتوح تقرؤه الأجيال في كل زمان وفي كل مكان، لا تتبدل دلالتها ولا تتغير طبيعتها، فهي آية من آيات الله، وسنة من سننه الماضية في خلقه، ما دامت السماوات والأرض[٢].

---

(١) باشميل: حروب الإسلام الفاصلة: ٢٦٤ وما بعدها، وللتوسع: انظر: الرسول القائد.

(٢) سيِّد قطب: في ظلال القرآن: ٣ / ٨١٣.

وصدق الله العظيم حين يقول:

﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢٣﴾﴾[١].

وصدق سبحانه وتعالى: ﴿وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِى ٱلْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِۦ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾[٢].

---

(١) آل عمران: ١٢٣.

(٢) الانفال: ٢٦.

الأسئلة:

١ - ما هي أهم نتائج معركة بدر؟ وما هو دور الإمام علي عليه السلام فيها؟

٢ - ما هو سبب اختلاف المسلمين حول غنائم معركة بدر؟ وكيف تعامل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مع هذا الاختلاف؟

٣ - كيف تعامل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مع أسرى المشركين بعد واقعة بدر؟ وكيف كان تعامل المسلمين معهم؟

٤ - ما هي الأسباب التي دعت النبي صلى الله عليه وآله وسلم لئن يأمر بقتل أسيرين من المشركين؟

٥ - ما هي المواقف والآراء التي وقفها المسلمون حول مصير أسرى معركة بدر؟ وما هو موقف النبي صلى الله عليه وآله وسلم منها؟

٦ - ما هو القرار الأخير الذي اتخذ حول مصير الأسرى؟

٧ - ما هي أهم ردود الأفعال حول نتائج معركة بدر، في مكة والمدينة؟

٨ - ما هي آثار معركة بدر على المسلمين، وقريش، والجزيرة العربية؟

٩ - كيف خططت قريش لاغتيال النبي صلى الله عليه وآله وسلم ؟ وكيف كانت النتائج؟

١٠ - ما هي أهم الدروس والعبر التي نستفيدها من واقعة بدر الكبرى؟ اذكرها باختصار.

الدرس الثامن
أحداث السنة الثانية إلى الثالثة من الهجرة
«ما بين بدر وأُحد أحداث ووقائع»

محاور البحث:

١ - غزوات وسرايا بين المسلمين واليهود وأحلافهم:

أ - غزوة ماء الكُدر (بني سُليم)

ب - غزوة السَّويق

ج - غزوة ذي أمر (غطفان)

د - سرية زيد بن حارثة

هـ - غزوة يهود بني قَينقاع

٢ - تحالف المنافقين واليهود

٣ - تصفية المحرّضين على رسول الله ﷺ والدولة الإسلامية

أ - مقتل أبي عفك اليهودي

ب - مقتل عصماء بنت مروان

ج - مقتل كعب بن الأشرف

٤ - مناسبات اجتماعية

أ - زواج علي عليه السلام بفاطمة بنت رسول الله ﷺ

ب - ولادة الإمام الحسن بن علي عليه السلام

٥ - الدروس والعبر المستفادة

● الأسئلة

ما بين بدر وأُحد أحداث ووقائع

المدخل

بين بدر وأُحد فترة زمنية لا تتجاوز السنة، فقد انتهت معركة بدر في العشرة الأخيرة من شهر رمضان من السنة الثانية للهجرة، وكانت وقعة أُحد «في شوال على رأس اثنين وثلاثين شهراً من مهاجرِه»[1].

وما بين بدر وأُحد أحداث ووقائع مهمة، لابد من استعراضها والوقوف عندها بحسب تسلسلها الزمني؛ لأخذ الدروس والعبر منها.

فمما لا شك فيه أن معركة بدر الكبرى قد تركت آثاراً كبيرة في نفوس المسلمين؛ وفي نفوس أعدائهم من المشركين والمنافقين واليهود.

فأما المسلمون في المدينة فقد ارتفعت معنوياتهم وقويت شوكتهم، فأصبحوا لا يبالون بقوة عدوهم، ولا يخشون أحداً إلاّ الله سبحانه، لقد «كان المسلمون قبل (بدر) يخشون مواطنيهم غير المسلمين من أهل المدينة، فلا تبلغ بهم الجرأة إلى حد أخذ الحق ممن يعتدي على مسلم منهم، فلما عادوا من (بدر) منتصرين انقلب الموقف تماماً، فأصبح سلطانهم مهيباً في المدينة وما حولها»[2].

---

(١) انظر طبقات ابن سعد: ٢ / ٢٦٧، وسيرة ابن هشام: ٣ / ٦٠، ومغازي الواقدي: ١ / ١٩٩ .

(٢) خطاب، محمود شيت: الرسول القائد: ١٥١ طبعة دار الفكر - بيروت، ط . الخامسة، (١٩٨٩ م - ١٤٠٩ هـ) .

كذلك عادَ الأمل إلى المستضعفين من المسلمين في مكة ممن لم يتمكنوا من الهجرة والالتحاق برسول الله ﷺ بالمدينة. حتّى أن ابن هشام ينقل أبياتاً من الشعر لامرأة من المسلمين من بني مُريد تردّ على كعب بن الأشرف الذي كان ينشد الأشعار، ويبكي أصحاب القليب من قريش الذين أُصيبوا في بدر...[(١)].

أما المشركون من أهل المدينة فإنّهم رأوا أن المسلمين في المدينة قد أصبحوا قوة يحسب لها حسابها، فدخل بعضهم الإسلام صادقاً، وتظاهر بعضهم الآخر بالإسلام نفاقاً، فكانوا المصداق الواضح لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ ﴿١٤﴾﴾[(٢)].

فكان هؤلاء المنافقون:

«يتظاهرون بالإسلام مع المسلمين، ويبطنون الكفر مع الكافرين، وبذلك يمسكون العصا من الوسط، ويميلون مع الريح حيث تميل... وقد استطاعوا بذلك أن يقفوا على كثير من أسرار المسلمين، وأن يمالئوا بها أعداء الإسلام كلما وجدوا فرصة سانحة، وكان على رأس هذه الطائفة عبد الله بن أُبي»[(٣)].

وأما المشركون من أهل مكة فهؤلاء قد أذهلتهم نتائج معركة بدر، وأفقدتهم صوابهم، وأخذوا يعدون العدة للانتقام لقتلاهم، لإستعادة هيبتهم بين قبائل العرب، حتّى أن طاغيتهم أبا سفيان بن حرب «نَذَر ان لا يمسّ رأسه ماءً من جَنابة حتّى يغزو محمداً»[(٤)].

---

(١) انظر سيرة ابن هشام: ٣ / ٥٣ وما بعدها.

(٢) البقرة: ١٤.

(٣) دويدار، أمين - صور من حياة الرسول: ٣٣٤.

(٤) ابن هشام، السيرة النبوية: ٣ / ٤٤، وقال السهيلي في الروض الأنف: ٣ / ١٤٢: أن الغسل من الجنابة كان معمولا به في الجاهلية بقية من دين إبراهيم وإسماعيل، كما بقي فيهم الحج والنكاح، ولذلك سموها جنابة.

أمّا اليهود من أهل المدينة ومن حولها فقد أذهلهم انتصار المسلمين في بدر، بل إنهم كذبوا الخبر في بدايته حتّى شاهدوا الأسرى من المشركين، فأخذت نفوسهم تغلي بالعداوة والبغضاء للإسلام والمسلمين فقال قائلهم كعب بن الأشرف حين بلغه الخبر: «أحقٌّ هذا؟ أترون محمداً قتل هؤلاء؟ فهؤلاء أشراف العرب وملوك الناس، والله لئن كان محمّد أصاب هؤلاء القوم، لبطنُ الأرض خير من ظهرها»(١).

هكذا كانت آثار معركة بدر في المدينة ومكة، وكلّ الأحداث والوقائع السابقة لمعركة أُحد ما هي إلاّ افرازات لهذا الواقع الجديد الذي خلفته هذه المعركة العظيمة.

وفيما يلي سرد لهذه الوقائع والأحداث بحسب تسلسلها الزمني:

١ - الغزوات والسرايا

أ - غزوة بني سليم:

كانت هذه الغزوة بعد فراغ رسول الله ﷺ من بدر عقب شهر رمضان أو شوال من السنة الثانية للهجرة.

قال ابن إسحاق: «فلما قَدم رسول الله ﷺ لم يُقم بها إلاّ سَبع ليال حتّى غزا بنفسه، يريد بني سليم»(٢).

وكان الهدف من هذه الغزوة هو القضاء على مقاومة سُليم وغطفان في عُقر دارهم في (قَرقرة الكُدر) الواقعة على الطريق التجارية الحيوية بين مكة والشام، وهي موضع ماء لبني سليم.

«فقد بلغ المسلمين أن جمعاً من غطفان وبني سليم تعتزم الاعتداء عليهم،

---

(١) ابن هشام، السيرة النبوية: ٣ / ٥١ .

(٢) المصدر نفسه: ٣ / ٤٣ .

فخرج الرسولﷺ وبإمرته مائتا راكب وراجل من المسلمين إلى (قَرقَرة الكُدر) ليأخذ عليهم الطريق.

فلما وصل إلى ذلك المكان لم يجد أحداً، إذ فرّت جموع بني سليم وغطفان لما سمعت بقدوم المسلمين، فجمع المسلمون ما وجدوا من إبل، وقسَّمها الرسولﷺ عليهم بالتساوي، وبقي في منازل القوم ثلاثة أيام لاظهار قوة المسلمين وعدم اكتراثهم بعدوّهم، ثمّ عادوا أدراجهم إلى المدينة»[١].

وهذه الغزوة وإن لم يقع فيها قتال بين الطرفين، إلاّ أنّها حققت أهدافها وهي مباغتة العدو بهجوم سريع غير متوقّع، قبل أن يأخذ بزمام المبادرة، وهكذا كان حيث فرّ بنو سليم وغطفان تاركين وراءهم إبلهم.

ب - غزوة السَّويق:

كانت هذه الغزوة في السنة الثانية من الهجرة.

يقول ابن هشام: «ثمّ غزا أبو سفيان بن حرب غزوة السويق في ذي الحجة. . فكان أبو سفيان حين رجع إلى مكة. . نذر أن لا يمسّ رأسه ماءٌ من جنابة حتّى يغزو محمداًﷺ، فخرج في مئتي راكب من قريش، لتبرّ يمينه، فسلك النجدية. . حتّى أتى بني النَّضير تحت الليل، فأتى حُيي بن أخطب، فضرب عليه بابه، فأبى أن يفتح له بابه وخافه، فانصرف عنه إلى سلاّم بن مِشكم، وكان سيّد بني النّضير في زمانه ذلك، وصاحب كنزهم، فاستأذن عليه، فأذن له، فقرأه[٢] وسقاه، وبَطَنَ[٣] له من خبر الناس، ثمّ خرج في عقب ليلته حتّى أتى أصحابه فبعث رجالا من قريش إلى المدينة، فأتوا ناحية منها، يقال

---

(١) المصدر نفسه: ٣ / ٤٤، والرسول القائد: ١٥٦ .

(٢) قراه: أي صنع له القري، وهو طعام الضيف .

(٣) بَطن له: أي أعلمه من سرهم .

لها: العُريض، فحرقوا في أصوار[١] من نخل بها، ووجدوا بها رجلا من الأنصار وحليفاً له في حرث لهما، فقتلوهما، ثمّ انصرفوا راجعين... فخرج رسول اللهﷺ في طلبهم... حتّى بلغ قرقرة الكُدر، ثمّ انصرف راجعاً، وقد فاته أبو سفيان وأصحابه... وإنما سمّيت غزوة السَّويق.. إنّ أكثر ما طرح القوم من أزوادهم السَّويق[٢] فهجم المسلون على سويق كثير، فسمّيت غزوة السويق»[٣].

والذي نلاحظه من خلال السياق التاريخي لهذه الغزوة أن بوادر خطر اليهود وخيانتهم للمسلمين وعدم التزامهم بوثيقة العهد التي كتبها رسول اللهﷺ معهم، قد ظهر جلياً من خلال تجسسهم على المسلمين بالمدينة واستضافتهم لأعدائهم من شاكلة أبي سفيان ومن معه.

كما نلاحظ أن قريشاً قد استخدمت أُسلوب المباغتة وأخذ المسلمين في المدينة على غرة وغفلة لمعرفة مدى استعدادها ويقظتها، إلاّ أنّها انهزمت مخلفة متاعها من ورائها، بعد أن أحست أن المسلمين بقيادة رسول اللهﷺ قد أصبحوا قوة لا ينال منه أحد، وإنّهم على استعداد للدفاع عن مدينتهم.

قال العلاّمة السيّد هاشم معروف الحسني: «وانقلب فرار أبي سفيان عليه خزياً وعاراً، بعد أن كان يظن أن غزوته هذه ترفع من شأنه، وتعيد إلى قريش شيئاً من مكانتها»[٤].

ج – غزوة ذي أَمَرّ:

وقد وقعت هذه الغزوة بعد فترة قصيرة عن سابقتها غزوة السويق، فكانت

---

(١) أصوار: جمع صَور – بفتح الصاد – وهو جماعة النخل.

(٢) السويق: هو أن تحمص الحنطة أو الشعير ثمّ تطحن، وقد تمزج باللبن والعسل والسمن.

(٣) ابن هشام، السيرة النبوية: ٣ / ٤٤ – ٤٥، ومغازي الواقدي: ١ / ١٨٢.

(٤) الحسني، سيرة المصطفى: ٣٨٢.

في أواخر ذي الحجة من السنة الثانية للهجرة كما نص على ذلك ابن هشام في سيرته[(١)]، أو في ربيع الأول من السنة الثالثة للهجرة.

ولم يذكر لنا ابن هشام من تفاصيل هذه الغزوة شيئاً سوى تاريخها وجهتها، وهم قبيلة غطفان، إلاّ أن الواقدي قد ذكر هذه الغزوة بتفاصيلها وبعض جزئياتها، وفيما يلي ملخّص لما ذكره:

«قال: قالوا: بلغ رسول الله ﷺ أنّ جمعاً من (ثَعلبة ومُحارب) بذي أَمَرّ، قد تجمّعوا يريدون أن يصيبوا من أطراف رسول الله ﷺ جَمَّعَهُم رجلٌ منهم يقال له: «دُعثور بن الحارث»[(٢)] فندب رسول الله ﷺ المسلمين، فخرج في أربعمائة رجل وخمسين، ومعهم أفراس... فأصاب رجلا منهم.. فقالوا: هل مررت بجمع، أو بلغك خبر قومك؟ قال: لا، إلاّ أنّه قد بلغني أنّ دعثور بن الحارث في أُناس من قومه عُزل، فأدخلوه على رسول الله ﷺ فدعاه إلى الإسلام، فأسلم، وقال:

يا محمّد، إنّهم لن يلاقوك، إذ سمعوا بسيرك هربوا في رؤوس الجبال، وأنا سائر معك ودالُّك على عَورتهم، فخرج به النبي ﷺ فأخذ به طريقاً أهبطه عليهم من كثيب، وهربت منه الأعراب فوق الجبال، وقبل ذلك غيّبوا سَرحهُم في ذُرى الجبال وذراريهم، فلم يلاق رسول الله ﷺ أحداً، إلاّ أنّه ينظر إليهم في رؤوس الجبال، فنزل رسول الله ﷺ ذا أَمَرّ وعسكر معسكره»[(٣)].

ثمّ يذكر الواقدي قصّة طريفة تتعلّق بالنبي ﷺ وزعيم المشركين الغطفانيين، ومحصلها: أن النبي ﷺ أصابه مطر كثير، فنزع ثيابه ونشرها لتجفّ، واضطجع

---

(١) انظر سيرة ابن هشام: ٣ / ٤٦، ومغازي الواقدي: ١ / ١٩٣ .

(٢) وقيل اسمه: غورث بن الحارث .

(٣) الواقدي، المغازي: ١ / ١٩٤ - ١٩٥ .

تحتها وذلك بمرأى من المشركين، وغفلة عن أصحابه، فنزل إليه دعثور بن الحارث مشتملا على سيف له صارم حتّى قام على رأس النبيﷺ بالسيف مشهوراً، فقال: يا محمد، مَن يمنعك منّي اليوم؟ قال رسول اللهﷺ : الله، ودفع جبرئيل في صدره، ووقع السيف من يده، فأخذه رسول اللهﷺ وقام به على رأسه فقال: مَن يمنعك منّي اليوم؟ قال: لا أحد. فأنا أشهد أن لا إله إلاّ الله وأنّ محمداً رسول الله. والله - لا أكثر عليك جمعاً أبداً - فأعطاه رسول اللهﷺ سيفه وجعل يدعو قومه إلى الإسلام[١].

ونزلت هذه الآية فيه: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوٓا۟ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ﴾[٢].

فالغرض من هذه الغزوة صد عدوان محتمل على المدينة، وابراز قوة المسلمين أمام القبائل التي لم تدخل الإسلام بعد، والتي يمكن أن تُستغل من قبل قريش أو يهود المدينة.

وهنالك مجال للتأمل والتدبر في القصّة التي ذكرها الواقدي نقف عندها في نهاية الدرس إن شاء الله.

د - سريّة زيد بن حارثة:

وتسمى بـ (سريّة القَرَدة) نسبة إلى الموقع (قردة) وهي ماء بنجد بين الربذة والغمرة. وكان قائد هذه السرية زيد بن حارثة، وهي أوّل سريّة خرج فيها زيد أميراً.

وسببها إقتصادي إذ أن معركة بدر وما أسفر عنها قد فرضت على قريش

(١) المصدر نفسه: ١ / ١٩٥ - ١٩٦، ودلائل النبوة للبيهقي: ٣ / ١٦٨ - ١٦٩ .

(٢) المائدة: ١١ . وانظر أسباب النزول للواحدي: ١٢٨ .

حصاراً اقتصادياً في رحلتها التجارية الصيفية إلى الشام، فكانوا يبحثون عن طريق أكثر أمناً من طريق الساحل الذي يقرب من المدينة معقل المسلمين ومكمن خطرهم على قريش.

يقول الواقدي: «كانت قريش قد حذرت طريق الشام أن يسلكوها، وخافوا من رسول الله ﷺ وأصحابه، وكانوا قوماً تجّاراً، فقال صفوان بن أُمية: إنّ محمداً وأصحابه قد عوّروا علينا متجرنا، فما ندري كيف نصنع بأصحابه، لا يبرحون الساحل، وأهل الساحل قد وادعهم ودخل عامّتهم معه، فما ندري أين نسلك، وإن أقمنا نأكل رؤوس أموالنا ونحن في دارنا هذه، ما لنا بها نفاق[1]، إنما نزلناها على التجارة، إلى الشام في الصيف، وفي الشتاء إلى أرض الحبشة.

فقال له الأسود بن المطّلب: فنكِّب عن الساحل وخذ طريق العراق.

قال صفوان: لست بها عارفاً.

قال أبو زمعة: فأنا أدلّك على أخبر دليل بها، يسلكها وهو مغمض العين إن شاء الله.

قال: من هو؟ قال: فرات بن حيّان اليجلي، قد دوخها وسلكها.

فتجهَّز صفوان بن أُمية، وخرج... في رجال من قريش».

وصلت أخبار خروج صفوان بن أُمية إلى النبي ﷺ فأرسل زيد بن حارثة في مائة راكب، فاعترضوا لها فأصابوا العِير، وأفلت أعيان القوم وأسروا رجلاً أو رجلين، وقدموا بالعِير على النبي ﷺ فخمّسها، فكان الخمس يومئذ قيمة عشرين ألف درهم، وقسّم ما بقي على أهل السريّة[2].

---

(١) النفاق: جمع نفقة (القاموس المحيط).

(٢) المغازي: ١ / ١٩٨.

«وهكذا حُرم المشركون من طريق مكة - العراق، كما حرموا من قبل من طريق مكة - الشام، فأصبح الحصار الاقتصادي مطبقاً عليهم من الطرق المؤدية إلى الشام والعراق كافة»[١].

هـ - غزوة يهود بني قينقاع:

نص المؤرخون على أن غزوة بني قَينقاع وقعت في يوم السبت للنصف من شوّال، على رأس عشرين شهراً من الهجرة حيث حاصرهم النبيﷺ إلى هلال ذي القعدة[٢]، ثمّ اجلاهم عنها.

غدر اليهود:

مرّ سابقاً تفاصيل وثيقة العهد التي كتبها رسول اللهﷺ بين أهل المدينة من المسلمين واليهود والقبائل القاطنة هناك، وكان من بنود هذه الوثيقة «ان ألحقَ رسول اللهﷺ كلّ قوم من اليهود بحلفائهم، وجعل بينه وبينهم أماناً، وشرط عليهم شروطاً، فكان فيما شرط ألاّ يظاهروا عليه عدوّاً، فلمّا أصابَ رسول اللهﷺ أصحاب بدر وقدم المدينة، بَغَت يهود وقطعت ما كان بينها وبين رسول اللهﷺ من العَهد، فأرسل رسول اللهﷺ إليهم فجمعهم، ثمّ قال: «يا معشر يهود، أسلموا، فوالله إنكم لتعلمون أنّي رسول الله، قبل أن يوقع الله بكم مثل وقعة قريش، فقالوا: يا محمّد، لا يغرّنك مَن لقيت، إنّك قهرت قوماً أغماراً، وإنّا والله أصحاب الحرب، ولئن قاتلتنا لتعلمنّ أنّك لم تقاتل مثلنا»[٣].

قال ابن إسحاق: «إن بني قينقاع كانوا أوّل يهود نقضوا ما بينهم وبين رسول

---

(١) الرسول القائد: ١٦٢ .

(٢) الواقدي، المغازي: ١ / ١٧٦ .

(٣) المصدر نفسه: ١ / ١٧٦، وابن هشام: ٣ / ٤٧ .

اللهﷺ وحاربوا فيما بين بدر وأُحد»[١].

والذي نستفيده من خلال سياق رواية الواقدي وابن هشام أن سبب الحرب بين بني قينقاع وبين المسلمين هو نقض العهد والغدر والخيانة والحسد لرسول اللهﷺ والمسلمين، وهي من الصفات اللازمة لليهود على مرّ التاريخ، ويؤيد ذلك ما روي عن عُروة: أنّ رسول اللهﷺ لمّا رجع من بدر حسدوه - أي اليهود - وأظهروا الغِشَّ، فنزل عليه جبرئيل عليه السلام بهذه الآية: ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْم خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاء إِنَّ اللهَ لاَ يُحِبُّ الْخَائِنِينَ﴾ قال الراوي: فلمّا فرغ جبرئيل، قال له رسول اللهﷺ : فأنا أخافهم، فسار رسول اللهﷺ بهذه الآية، حتّى نزلوا على حكمه، ولرسول الله أموالهم، ولهم الذريّة والنساء»[٢].

وذكر الواقدي وابن هشام سبباً آخر لغزوة بني قينقاع وهي: قصّة المرأة الأنصارية التي اعتدى عليها أحد يهود بني قينقاع في سوق الصاغة، فقتله أحد المسلمين، ثمّ قتل بأيدي اليهود... ثمّ تحصنوا في حصونهم، فسار إليهم رسول اللهﷺ فحاصرهم..[٣].

والذي يبدو من سياق الأحداث انّها لم تكن السبب الرئيسي لهذه الغزوة، وإنّما سببها أو أسبابها ما ذكرناه من نقضهم للعهد، وخيانتهم، وغدرهم، وإن قصّة المرأة الأنصارية كانت بمثابة الشرارة التي فجَّرت الموقف بين الفريقين.

ومهما يكن من أمر، فإن يهود بني قينقاع قد تحصنوا في حصنهم بعد هذه الحادثة، «فسار إليهم رسول اللهﷺ فحصرهم في حصنهم خمس عشرة ليلة أشدّ الحصار حتّى قذف الله في قلوبهم الرعب.

---

(١) ابن هشام: ٣ / ٤٧ .

(٢) الواقدي: ١ / ١٧٧ و ١٨٠ .

(٣) الواقدي، المغازي: ١ / ١٧٦، وابن هشام: ٣ / ٤٨ .

قالوا: أفننزل وننطلق؟ فقال رسول الله ﷺ: لا، إلاّ على حكمي، فنزلوا على حُكم رسول الله ﷺ فأمر بهم فربطوا، قال الراوي: فكانوا يُكتّفون كتافاً، واستعمل رسول الله ﷺ على كتافهم المنذر بن قدامة السلمي»[١].

٢ - تحالف المنافقين واليهود

لقد كانت يهود بني قينقاع قد تحالفوا في عهود سابقة مع الخزرج قبيلة «ابن أُبي» رأس المنافقين في المدينة، وعندما دخل الإسلام المدينة وأسلمت الأوس والخزرج أصبح هذا الحلف بحكم الملغي، وحلَّ مَحَلَّه وثيقة العهد التي كتبها رسول الله ﷺ وعممها على أهل المدينة بكافة قبائلها وأديانها، ولهذا لم يلتزم عبادة بن الصامت بهذا الحلف، وقال لابن أُبي: «تغيّرت القلوب، ومحى الإسلام العهود أما والله إنك لمصمم بأمر سترى غِبَّه غداً»[٢].

إلاّ أن ابن أُبي، (رأس المنافقين) قد احتج بهذا الحلف مع اليهود لتخليصهم من القتل والاجلاء من المدينة، وكان بفعلته هذه قد أغضب رسول الله ﷺ أشد الغضب حتّى تغيّر وجهه.

يقول الواقدي: «فمرّ بهم ابن أُبي - أي يهود بني قينقاع وهم مكتفون - وقال: حلّوهم! فقال المنذر: أتحلّون قوماً ربطهم رسول الله ﷺ؟ والله لا يحلّهم رجل إلاّ ضربت عنقه. فوثب ابن أُبي إلى النبي ﷺ، فأدخل يده في جنب درع النبي ﷺ من خلفه فقال: يا محمد، أحْسِن في مواليّ! فأقبل عليه النبي ﷺ غضبان، متغيّر الوجه، فقال: ويلك، أرسلني! فقال: لا أرسلك حتّى تُحسن في مواليّ، أربعمائة دارع وثلاثمائة حاسر[٣]، منعوني يوم الحدائق ويوم

(١) الواقدي، المغازي: ١ / ١٧٧ - ١٧٩، وابن هشام: ٣ / ٤٨ - ٤٩.

(٢) انظر: كلا المصدرين.

(٣) الدارع: الذي عليه الدرع، والحاسر: الذي لا درع له.

بُعاث من الأحمر والأسود، تُريد أن تحصدهم في غداة واحدة؟ يا محمّد، إني امرؤٌ أخشى الدوائر!

قال رسول الله ﷺ : خلّوهم، لعنهم الله، ولعنه معهم!

فلمّا تكلّم ابن أُبيّ فيهم تركهم رسول الله ﷺ من القتل، وأمر بهم أن يُجلوا من المدينة»[١].

والذي يبدو من تكملة رواية الواقدي: ان ابن أُبي لم تتوقف مساعيه لتخليص يهود بني قينقاع عند هذا الحد، وإنما أخذ يسعى جاهداً لمنع جلائهم من المدينة، «فجاء ابن أُبي بحلفائه معه. . يريد أن يكلّم رسول الله ﷺ أن يقرهم في ديارهم. . . »[٢]، إلاّ أنه فشل هذه المرّة، وضربه أحد المسلمين فسال الدم من وجهه، فجعل يصيح، وهو يمسح الدم عن وجهه[٣]!

وكما أنّ لليهود سماتهم من الغدر والخيانة ونقض العهود، كذلك للمنافقين صفاتهم وسماتهم من التقلب والتلون والتخذيل. . ولهذا عندما رأى ابن أُبي أن قرار اخراجهم من المدينة من قبل النبي ﷺ قرار لا رجعة فيه، خذلهم ولم ينصرهم بشيء أبداً.

يقول الواقدي: «فجعل ابن أُبيّ يصيح عليهم، وهو يمسح الدم عن وجهه، ويحكم قرّوا. . وقد كان ابن أُبي أمرهم أن يتحصّنوا، وزعم أنّه سيدخل معهم، فخذلهم ولم يدخل معهم، ولزموا حصنهم فما رموا بسهم ولا قاتلوا حتّى نزلوا على صلح رسول الله ﷺ وحُكمه، وأموالهم لرسول الله ﷺ ، فلمّا نزلوا وفتحوا حصنهم، كان محمد بن مَسلمة هو الذي أجلاهم وقبض أموالهم. . . وخمّس

---

(١) المغازي: ١ / ١٧٨، وابن هشام: ٣ / ٤٨ .

(٢) المصدر نفسه: ١ / ١٧٨ .

(٣) المغازي: ١ / ١٧٨ .

رسول الله ﷺ ما أصاب منهم، وقسم ما بقي على أصحابه، وأمر رسول الله ﷺ عُبادة بن الصامت أن يجليهم... وأخذهم عبادة بالرحيل والإجلاء... ولحقوا باذرعات فكانوا بها، فما كان أقلّ بقاءهم»[١].

وهكذا انطوت صفحة بني قينقاع من يهود المدينة، وتخلص المسلمون من شرِّهم وعدوانهم وغدرهم ; إذ كانوا يمثلون الخطر المحدق بهم، والعدو الذي يعيش معهم، ويؤوي عدوهم، ويكشف أسرارهم وأخبارهم ومكامن الضعف والقوّة لاعدائهم من المشركين.

٣ - تصفية المحرّضين على رسول الله ﷺ والدولة الإسلامية

ذكر المؤرخون أن مجموعة من التصفيات الجسدية أو بتعبير آخر (الاغتيالات) وقعت في الفترة ما بين بدر وأُحد ولمجموعة من المحرّضين على رسول الله ﷺ، والمتآمرين على الدولة الإسلامية.

نذكرها بايجاز شديد، ونتوقف عند بعض الشبهات المثارة حولها من قبل المستشرقين أو من بعض الكتّاب المسلمين.

أ - مقتل أبي عَفَك اليهودي:

رُوِي: «أنّ شيخاً من بني عمرو بن عَوف يقال له أبو عَفَك، وكان شيخاً كبيراً، قد بلغ عشرين ومائة سنة حين قدم النبي ﷺ المدينة، كان يُحرّض على عداوة النبي ﷺ، ولم يدخل في الإسلام، فلمّا خرج رسول الله ﷺ إلى بدر، رجع وقد ظفَّره الله بما ظفَّره، فحسده وبغى، وقال أبياتاً من الشعر يذم بها أهل المدينة والنبي ﷺ، فقال سالم بن عُمير: عليَّ نذرٌ أن أقتل أبا عفك أو أموت

(١) المصدر نفسه: ١ / ١٧٩ - ١٨٠، واذرعات: بلد في أطراف الشام يجاور أرض البلقاء وعمان (معجم البلدان: ١ / ١٦٢).

دونه، فأمهل فطلب له غِرَّة، حتّى كانت ليلة صائفة، فنام أبو عفك بالفناء في الصيف.. فأقبل سالم بن عمير، فوضع السيف على كبده حتّى خشّ في الفراش...»[١].

ب - مقتل عصماء بنت مروان:

روى الواقدي: «أنّ عصماء بنت مروان من بني أُمية بن يزيد.. كانت تؤذي النبي ﷺ، وتعيب الإسلام، وتحرّض على النبي ﷺ وقالت شعراً.. قال عُمير بن عديّ.. حين بلغه قولها بتحريضها، اللهم، إنّ لك عليَّ نذراً لئن رددت رسول الله ﷺ إلى المدينة سالماً لأقتلنّها - ورسول الله يومئذ ببدر - فلمّا رجع رسول الله ﷺ من بدر جاءها عمير بن عديّ في جوف الليل حتّى دخل عليها في بيتها، وحولها نَفر من ولدها نيام، منهم من ترضعه في صدرها، فجسّها بيده، فوجد الصبيّ ترضعه فنحّاه عنها، ثمّ وضع سيفه على صدرها حتّى أنفذه من ظهرها، ثمّ خرج حتّى صلّى الصبح مع النبي بالمدينة، فلمّا انصرف النبي ﷺ نظر إلى عمير فقال: أقتلت بنت مروان؟ قال: نعم بأبي أنت يا رسول الله، هل عليَّ في ذلك شيء يا رسول الله؟ قال ﷺ: لا ينتطح فيها عنزان[٢]... فالتفت النبي ﷺ إلى من حوله فقال: إذا أحببتم أن تنظروا إلى رجل نصر الله ورسوله بالغيب، فانظروا إلى عمير بن عدي، فقال عمر بن الخطاب: انظروا إلى هذا الأعمى الذي تشدّد في طاعة الله! فقال ﷺ: لا تقُل الأعمى، ولكنّه البصير»[٣]!

ج - مقتل كعب بن الأشرف:

وقد ذكر المؤرخون حادثة قتل ابن الأشرف بشيء من الاسهاب والتفصيل،

(١) الواقدي: ١ / ١٧٤ - ١٧٥، وطبقات ابن سعد: ٢ / المجلد الأول ٢٦٣، والمغازي: ١٣٨.

(٢) لا ينتطح فيها عنزان: معناه إن شأن قتلها هين، لا يكون فيه طلب ثأر ولا اختلاف.

(٣) الواقدي: ١ / ١٧٣، وطبقات ابن سعد: ١ / ٢٦٣، وتاريخ الإسلام للذهبي: ١٣٦.

وقد جمع الواقدي رواية مقتله عن مجموعة من المحدثين وقال: فكلٌّ حدثني بطائفة، فكان الذي اجتمعوا لنا عليه قالوا: إنّ ابن الأشرف كان شاعراً وكان يهجو النبيّﷺ وأصحابه، ويحرّض عليهم كفّار قريش في شعره.

وذكر ابن هشام: أنّ كعب بن الأشرف، شبّب بنساء المسلمين حتّى آذاهم[1].

أمّا قصّة قتل ابن الأشرف:

فقد ذكرها الواقدي، وابن هشام وغيرهما بكل تفاصيلها وجزئياتها وملخصها:

قال الواقدي: فلمّا أبى ابن الأشرف أن ينزع عن أذى النبيﷺ وأذى المسلمين، وقد بلغ منهم، فلما قدم زيد بن حارثة بالبشارة من بدر بقتل المشركين وأسر من أُسر منهم، فرأى الأسرى مقرّنين، كبت وذلّ، ثمّ قال لقومه: ويلكم، والله لبطن الأرض خير لكم من ظهرها اليوم، هؤلاء سراة الناس قد قتلوا وأُسروا، فما عندكم؟ قالوا: عَداوته ما حيينا.

قال: وما أنتم وقد وطئ قومه وأصابهم؟ ولكني أخرج إلى قريش فأحضّهم وأبكي قتلاهم، فلعلّهم ينتدبون فأخرج معهم. فخرج حتّى قدم مكّة.. فجعل يرثي قريشاً.

ثمّ قدم المدينة، فلمّا بلغ النبيﷺ قدوم ابن الأشرف قال: اللهم، اكفني ابن الأشرف بما شئت في إعلانه الشرّ وقوله الأشعار، وقالﷺ : من لي بابن الأشرف فقد آذاني؟ فقال محمد بن مَسلمة: أنا به يا رسول الله، وأنا أقتله. قالﷺ : فافعل!.. وقال رسول اللهﷺ : شاور سعد بن معاذ في أمره، فاجتمع

(١) المصدر نفسه: ١ / ١٨٤، وابن هشام، السيرة النبوية: ٣ / ٥٤ .

محمّد بن مَسلمة ونفر من الأوس منهم عبّاد بن بشر، وأبو نائلة سلكان بن سلامة، والحارث بن أوس، وأبو عيسى بن جَبر، فقالوا: يا رسول الله نحن نقتله، فأذن لنا فلنقل، فإنه لابدّ لنا من أن نقول، قال: قولوا ما بدا لكم، فأنتم في حلٍّ من ذلك[١].

ثمّ تذكر الرواية كيفية استدراج ابن الأشرف إلى خارج حصنه، ثم الاجهاز عليه وقتله.

أما أثر مقتل ابن الأشرف في نفوس اليهود والمشركين، فكان عظيماً كما يحدثنا عن ذلك الواقدي بقوله: «فخافت اليهود، فلم يطلع عظيم من عظمائهم ولم ينطقوا، وخافوا أن يبيّتوا كما بيّت ابن الأشرف». وقال أيضاً: «ففزعت اليهود ومن معها من المشركين، فجاؤوا إلى النبيﷺ حين أصبحوا فقالوا: قد طرق صاحبنا الليلة وهو سيّد من ساداتنا قتل غيلة بلا جرم ولا حدث علمناه!

فقال رسول اللهﷺ : إنّه لو قرّ كما قرّ غيره ممّن هو على مثل رأيه ما اغتيل، ولكنّه نال منّا الأذى، وهجانا بالشعر، ولم يفعل هذا أحد منكم إلاّ كان له السيف.. فحذرت اليهود وخافت وذلّت من يوم قَتل ابن الأشرف»[٢].

هذا هو ملخص قتل ابن الأشرف ومن قبله أبي عفك، وعصماء بنت مروان.

وهنالك أسماء أُخرى لبعض المقتولين ذكرها مؤرخو السيرة لم نذكرها مخافة الاطالة، ولكونها مشابهة في أسبابها وطرق تنفيذها لما ذكروه في قتل ابن الأشرف ومن قبله[٣].

وسوف نتوقف ونتأمل ونناقش قصص تلك التصفيات والاغتيالات ومدى

---

(١) الواقدي، المغازي: ١ / ١٨٧، وابن هشام، السيرة: ٣ / ٥٥ .

(٢) المصدر نفسه: ١ / ١٩٢ .

(٣) انظر ابن هشام: ٣ / ٥٨، والصحيح من سيرة النبي: ٦ / ٤٠ - ٤٢ .

صحّة البعض منها، في نهاية الدرس.

٤ - مناسبات اجتماعية

هنالك جملة من المناسبات الاجتماعية ما بين بدر وأُحد نذكر بعضها باختصار وايجاز:

أ- زواج علي بن أبي طالب عليه السلام بفاطمة بنت محمد رسول الله صلى الله عليه وآله :

نصّ المؤرخون على أن زواج أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام بفاطمة الزهراء بنت رسول الله صلى الله عليه وآله قد تمّ في شهر رمضان من السنة الثانية من الهجرة، وبنى بها في ذي الحجة من نفس السنة(١).

وهنالك أقوال أُخرى في سنة وشهر ويوم زواجهما عليهما السلام ، وفي عمر فاطمة عليها السلام حين زواجها، وتبعاً لذلك اختلف المؤرخون في تاريخ ولادة ولديهما الحسن والحسين عليهما السلام(٢). إلاّ أن المشهور بين المؤرخين في تاريخ هذا الزواج المبارك هو السنة الثانية للهجرة.

وتدلنا النصوص التاريخية على تسابق صحابة رسول الله واشراف قريش لخطبة الزهراء عليها السلام من أبيها رسول الله صلى الله عليه وآله ، وكان رسول الله صلى الله عليه وآله يرد كل طلب بطريقة وبأُخرى.

وتصرح طائفة من الروايات(٣) أنّ بعض الصحابة قصدوا علياً عليه السلام وقالوا له: لمَ لا تخطب فاطمة؟ وذلك لمكانة علي عليه السلام ، وقربه من النبي صلى الله عليه وآله

(١) الديار بكري، تاريخ الخميس: ١ / ٤١١ .

(٢) انظر الطبري: ٢ / ٤٨٥ - ٤٨٦، والمجلسي في بحار الأنوار: ٤٣ / ٩٢، والاربلي في كشف الغمة: ١ / ٣٦٤ .

(٣) بحار الأنوار: ٤٣ / ٩٢، وانظر: ٥ / ٢٧١ «الهامش» من كتاب الصحيح من سيرة النبي صلى الله عليه وآله .

بالاضافة إلى كفاءته الشخصية لهذا الزواج.

وكان هذا الزواج المبارك بأمر من السماء كما صرحت بذلك المصادر الكثيرة، وقد أورد الحافظ الطبري في ذخائره: «يا محمّد إنّ الله تعالى يقرأ عليك السلام ويقول لك إنّي قد زوّجت فاطمة ابنتك من علي بن أبي طالب في الملأ الأعلى، فزوجها منه في الأرض»[١].

وعندما عُوتِب النبيﷺ من قبل بعض الصحابة على ردّهم وتزوج عليعليه السلام من فاطمة عليعليه السلام أجابهم النبيﷺ: «والله، ما أنا منعتكم وزوّجته، بل الله منعكم وزوّجه»[٢].

أما تفاصيل هذا الزواج، ومقدار المهر وجهاز العرس.. فقد حدثتنا عنها الروايات بالتفصيل والذي يستفاد منها: أنّ هذا الزواج تميّز بالبساطة واليسر، من غير تكلّف ولا عنت أو إحراج، أو تظاهر أو تباهي... حتّى جاء في بعض الروايات: «أنّ فراشهما كان إهاب كبش ينامان عليه ليلا، ويعلف عليه الناضح نهاراً»[٣].

وقد أراد رسول اللهﷺ أن تتجلى في هذا الزواج المبارك كل سننه القيِّمة في الزواج، من الرضا والقبول والمهر والخطبة، والزفاف والوليمة، والاشهاد والخطبة... وكل ذلك - كما أسلفنا - بغاية البساطة ومن دون تكلّف.

ميزّات هذا الزواج:

يقول أحد الباحثين وهو يتحدث عن ميزات هذا الزواج ما نصّه:

«وكانت أولى هذه الميزات: انه زواج في السماء، وبأمر من الله تعالى،

---

(١) الحافظ محب الدين الطبري: ذخائر العقبى في مناقب ذوي القربى: ٣٢.

(٢) الأربلي، كشف الغمة: ٢ / ٩٨.

(٣) ذخائر العقبى: ٣٠، ١٦٩، ٣٢٥.

قبل أن يكون نسباً ارضياً، ومجرد ارتباط عاطفي، ويكفينا في ذلك ما حدّثنا به الخليفة عمر بن الخطاب ; إذ قال: «نزل جبريل فقال: يا محمد، إن الله يأمرك أن تزوّج فاطمة ابنتك من علي».

وكان ثاني هذه الميزات: أن الله تعالى قد جعل الذرية النبوية الطاهرة محصورة بهذا الزواج المبارك، ومن طريق هذين الزوجين، وفي ذلك يقول الخليفة عمر بن الخطاب: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «كل نسب وسبب ينقطع يوم القيامة ما خلا سببي ونسبي، وكلّ بني أُنثى فعصبتهم لأبيهم، ما خلا وُلد فاطمة فإني أبوهم، وأنا عصبتهم».

ثمّ كان ثالث هذه الميزات: «أنّ الزهراء عليها السلام وحيدة محمد ﷺ، التي لم يكن لها أُخت في النسب النبوي، أما زينب ورقية وأُم كلثوم - وقد اشتهرن بكونهن بنات محمد - فهن بنات خديجة (رض) من زوجيها الأولين، ولم يؤيد التحقيق التاريخي المتعمق بنوتهن لمحمد ﷺ»[١].

فسلام على رسول الله ﷺ وهو يزف ابنته وحبيبته وبضعته وأحبّ الخلق إليه الزهراء البتول، إلى ابن عمه ووصيّه وأحب الخلق إليه علي بن أبي طالب عليه السلام، وهو يدعو لهما بقوله: «اللهمّ إنّهما أحبُّ خلقك إليَّ فأحبهما فبارك في ذرّيتهما، واجعل عليهما منك حافظاً، وإنّي أُعيذهما بك وذرّيتهما من الشيطان الرجيم»[٢].

ب - ولادة الإمام الحسن بن علي بن أبي طالب عليه السلام:

ذكر المؤرخون أن ولادة سبط رسول الله ﷺ الأكبر أبي محمد الحسن بن علي بن أبي طالب عليهما السلام كان في منتصف شهر رمضان من السنة الثالثة للهجرة،

---

(١) الصحيح من سيرة النبي ﷺ: ٥ / ٢٧٣ على رأي هذا الباحث في نفي نسب بنات النبي عنه ﷺ.

(٢) المجلسي، بحار الأنوار: ٤٣ / ١١٥ - ١١٧.

وهنالك روايات أُخرى في سنة وشهر مولده[١]، لكن الأصح والأقوى ما ذكرناه.

واستقبل رسول الله هذا الوليد المبارك بكلّ بهجة وسرور وغبطة، فحمله بين يديه، وقبّله وضمّه إلى صدره، ثم أذّن في أُذنه اليمنى، وأقام في اليسرى، ليكون صوت التوحيد ونداء الحق، أول صوت ونداء يطرقان سمعه ويمتزجان بكيانه الطاهر، ثمّ يختار له الاسم المبارك (حسناً) وهو الاسم الذي اختاره الله لهذا المولود وبلّغه جبريل الأمين لرسول الله ﷺ[٢].

وفي اليوم السابع من ولادة الحسن عليه السلام أجرى عليه رسول الله ﷺ بقية سنن ومراسم الولادة، فعق عنه كبشاً، وحلق رأسه، وتصدّق بزنة شعره فضة.. إلى غيرها من المراسيم التي أصبحت سنّة، استنّ بها المسلمون فيما بعد ولادة الحسن عليه السلام لكلّ مولد يولد لهم.

٥ - الدروس والعبر

في نهاية هذا الدرس من دروس السيرة النبوية، ومن مجمل ما تحدثنا عنه من أحداث ووقائع، نستخلص بعض الدروس والعبر المستفادة منها، والتي تمثل جملة من الأهداف توخاها النبي ﷺ من هذه الغزوات والسرايا التي أشرنا إلى بعضها والتي ويمكن إجمالها بما يلي:

أولا: جعل المدينة المنورة قاعدة آمنة للإسلام والمسلمين.

وذلك من خلال تطهيرها من الذين لا يحترمون العهود والمواثيق ويتلبّسون بجرم الغدر والخيانة والتجسس لصالح المشركين والوثنيين، وهم يهود المدينة

---

(١) انظر تاريخ خليفة بن خياط: ٣٨، وتاريخ الخميس للديار بكري: ١ / ٤١٧، وتاريخ الإسلام للذهبي: مجلد المغازي: ١٦٤ .

(٢) بحار الأنوار: ٤٣ / ٢٤١، وعلل الرائع: ١ / ١٣٧، وتاريخ الخميس: ١ / ٤١٨ .

وما جاورها عامة، ويهود بني قينقاع خاصة.

لقد حزّ في نفوس يهود المدينة عامة، أن ينتصر المسلمون وتقوى شوكتهم في المدينة، وأن يعزّ الإسلام ويظهر على دينهم، ويكون لرسوله ﷺ دونهم الخطوة والمكانة.. فظلت نفوسهم تغلي بالعداوة سرّاً حتّى رأوا أمر الإسلام يستعلي بعد غزوة بدر، فلم يطيقوا بعدها إسرار العداوة، فأخذوا يعلنون بها ويجاهرون.

«وكان بنو قينقاع أول من جاهر بالعداوة، إذ كانوا أشجع يهود، وأقربهم إلى المسلمين منازل، فقد كانوا يسكنون بين المسلمين في وسط المدينة، أما يهود بني النضير وبني قريظة فكانت مساكنهم في أطراف المدينة[١]... فكانوا أوّل يهود نقضوا ما بينهم وبين رسول الله ﷺ بحسب رواية ابن إسحاق»[٢].

وما كان حادث الاعتداء على المرأة المسلمة بكشف حجابها من قبل بعض يهود بني قينقاع، إلاّ بمثابة الشرارة التي اشعلت نار الحرب بينهم وبين المسلمين.

«ولو أنّ اليهود احترموا ما بينهم وبين المسلمين من عهود ومواثيق، لما وجدوا من المسلمين من يسيء إليهم بكلمة أو يزعجهم في مسكن أو مقام، ولكنّهم أبوا إلاّ شراً، فكان مردّ الشرّ على نفوسهم»[٣].

يقول أحد الباحثين في الجانب الأمني والعسكري من غزوات الرسول ﷺ حول حادثة غزوة يهود بني قينقاع واجلائهم من المدينة: «لقد كان بقاء يهود بالمدينة بعد انتصار المسلمين في (بدر) خطراً داهماً لابد من القضاء عليه، لتكون

---

(١) دويدار، أمين: صور من حياة الرسول: ٣٣٦.

(٢) السيرة النبوية: ٣ / ٤٧.

(٣) البوطي، فقه السيرة النبوية: ٢٥٢.

المدينة قاعدة أمينة حقاً للإسلام، ولترتكز عليها قواتهم للحركات المقبلة، ودعوتهم بالإسلام في حاضرهم ومستقبلهم.

لقد ضعفت شوكة اليهود بعد إجلاء بني قينقاع عنها، فقد كان أكثر اليهود المنتسبين إلى المدينة يقيمون بعيداً عنها (بخيبر) وبأُم القرى، وهكذا طهّر المسلمون داخل المدينة من أخطر أعدائهم، وأصبحت المدينة قاعدة أمينة للإسلام حقاً»[١].

والذي نعتقده أنّ جعل المدينة قاعدة أمينة داخلياً من أعدائها، من أهم الأهداف الاستراتيجية لغزو يهود بني قينقاع ومن ثمّ اجلائهم من المدينة.

أما الأهداف والنتائج الأُخرى لهذه الحرب والتي ذكرها بعض الباحثين في السيرة[٢]، فهي أهداف ونتائج جانبية ; بل إنها من ثمرات الهدف الاستراتيجي الأول الذي أشرنا إليه.

أما التصفيات الجسدية لبعض المحرضين على رسول الله ﷺ والمسلمين، فإنها تدخل في هذا الهدف الاستراتيجي، فهؤلاء الأشخاص - وعلى رأسهم «كعب بن الأشرف اليهودي» الذي روى قصّة مقتله ابن إسحاق باسهاب - قد نقضوا العهود، وظاهروا العدو، وأظهروا التحدي السافر للمسلمين، وتشبَّبوا بنساء المسلمين، وانتهكوا حرماتهم... فهؤلاء من الأعداء المحاربين، الذين تجيز الشرائع كلّها قتلهم[٣].

روى المقريزي في امتاع الاسماع: «أن اليهود لما جاؤوا إلى رسول الله يشكون مقتل كعب، قال لهم: إنّه لو قرَّ كما قرّ غيره ممن هو على مثل رأيه

---

(١) الرسول القائد: ١٦٣.

(٢) انظر سيرة المصطفى للحسني: ٣٧٩، والصحيح من سيرة النبي للعاملي: ٦ / ٦٤ - ٦٥.

(٣) صور من حياة الرسول ﷺ: ٣٤٣.

ما اغتيل، ولكنه نال منّا بالأذى وهجانا بالشعر. . . »(١) فهذا دليل على أنّه لم يقتل لأنه عدو، بل لأنه عدو غير مسالم، نقض العهد وظاهر الأعداء وأذى الأولياء، فقتله إذن جائز في كلِّ الشرائع وقوانين الحرب(٢).

إلاّ أنّ المستشرقين اتخذوا من قضية الاغتيالات، وحادثة قتل ابن الأشرف وسيلة للطعن والتشنيع على رسول الله ﷺ «وأكثر المستشرقين الذين كتبوا في سيرة الرسول يفسرون مقتل ابن الأشرف بأنّه: «اغتيال قام على الغدر»، ويتخذون من ذلك مطعناً على رسول الله ﷺ، فأما المغالون منهم فيطلقون في رسول الله أقلامهم بما شاء لهم التعصب الممقوت، وأما المعتدلون فيكتفون بالغمز قائلين: إنّ هذا الحادث كان نقطة سوداء شوهت تاريخه الأبيض الناصع»(٣).

يقول المستشرق الفرنسي إميل درمنغهم - وهو من المستشرقين المعتدلين - في كتابه «حياة محمد» بعد أن يذكر قصّة مقتل كعب بن الأشرف وغيره من المقتولين غيلة، يعقِّب على ذلك بقوله: «كنّا نودّ ألاّ نسجل مثل هذه الوقائع في تاريخ محمد الذي علمنا من نُبله وسموّ نفسه ما علمنا، ومحمّد هو الذي لم يصنع غير الدفاع عن النفس ببقائه ضمن مبادئ زمنه وبلده الحقوقية، وكنّا نودّ لو كان محمّد أصفى وأرحم، ولو كانت صفحته الشديدة النور خالية من ذلك، وهو رسول الله الذي بعث أُمته وأحياها.

وإذا كان محمّد قد قَسا على اليهود فإن من الانصاف أن يُعترف بأنهم خانوه. . . »(٤).

---

(١) المصدر نفسه: ٣٤٣ نقلاً عن إمتاع الاسماع للمقريزي.

(٢) صور من حياة الرسول ﷺ: ٣٤٣، وانظر المغازي للواقدي: ١ / ١٩٢.

(٣) المصدر نفسه: ٣٤٠.

(٤) درمنغام، اميل: حياة محمد: ٢٣٦ - ٢٣٧ (مرجع سابق).

وحاول بعض كتاب السيرة من المسلمين التشكيك في صحة روايات الاغتيالات هذه والتي ذكرها كتّاب السيرة النبوية من أمثال: ابن هشام، والواقدي، وابن سعد، وغيرهم، فكذَّب روايتهم حول هذه الاغتيالات، وانتهى إلى نفي فكرة الاغتيالات من أساسها، وادعى عدم علم النبي بالخطة التي دبرت لاغتيال ابن الأشرف(١).

ولا نريد الاسهاب بالردّ على المستشرقين، فبعضهم قد جندوا أنفسهم، ووظفوا أقلامهم لالتقاط كلّ شاردة وواردة من روايات السيرة النبوية لاتخاذها وسيلة للطعن والتشهير بالإسلام وبرسول اللهﷺ.

كذلك لا نرى سبباً وجيهاً لردّ كل روايات السيرة في خصوص قضية تصفية أعداء الإسلام من أمثال ابن الأشرف، وعصماء بنت مروان، وأبي عفك. . . وأمثالهم، فهذه الروايات قد دونتها عيون كتب السيرة النبوية، ولم يرد فيها تكذيب من المحققين فيها، ثمّ إن لهذه التصفيات مبرراتها الشرعية والقانونية، فكل قوانين الحرب تجيز لرسول اللهﷺ التخلّص من شرّ أعداء الرسالة، ويكفي أن المقتول كان عدواً محارباً خطراً، وما دامت الحرب خدعة فقد اختار المسلمون الطريقة التي يتخلصون بواسطتها من هؤلاء الأشرار، مهما سميت هذه الطريقة سواء كانت «اغتيالا» أو قتلا قائماً على «غدر»، أو «فتك» أو ما إلى ذلك.

ثانياً: إضعاف جبهة المنافقين في المدينة:

وجبهة المنافقين بقيادة ابن أُبي تمثل الخطر الثاني من داخل المدينة، بعد خطر يهود بني قينقاع الذين كانوا في داخل المدينة أيضاً، وتربطهم بقبيلة الخزرج

---

(١) للتوسع انظر كتاب «محمد رسول الله» تأليف الأمير محمد علي زعيم الطائفة الاسماعيلية بالهند، وكتاب صور من حياة الرسول لأمين دويدار: ٣٤٤ - ٣٤٦ .

نوع من التحالف والولاء، في الوقت الذي كان يهود بني قريظة وبني النضير حلفاء لقبيلة الأوس.

ولهذا السبب لم يفزع بنو النضير ولا بنو قريظة لنصرة يهود بني قينقاع، وهم يُحَاصرون في قلاعهم ثمّ يُعْرَضون على القتل، ثمّ يُخفَّف الأمر إلى الاجلاء من المدينة إلى الشام والذي أدى إلى إنهائهم في هذه المنطقة.

ولعلّ النص الذي يذكره ابن هشام في السيرة يسلِّط الأضواء على هذا التشابك الولائي والقبلي بين قبيلتي الأوس والخزرج من جهة، ويهود بني قينقاع وقريظة والنضير من جهة أُخرى.

يقول ابن هشام: «فكانوا - أي اليهود - فريقين، منهم بنو قينقاع... حلفاء الخزرج، والنضير وقريظة... حلفاء الأوس، فكانوا إذا كانت بين الأوس والخزرج حرب، خرجت بنو قينقاع مع الخزرج، وخرجت النضير وقريظة مع الأوس، يظاهر كلّ واحد من الفريقين حلفاءه على إخوانه، حتّى يتسافكوا دماءهم بينهم...»[١].

فلم يبق لبني قينقاع حليف يدافع عنهم سوى عبد الله بن أُبي الذي هو من الخزرج، «وكانت أغلب بطون الخزرج قد دخلت في الإسلام، ما عدا بطن عبد الله بن أُبي، فقد كان يظهر الإيمان ويبطن الكفر، وكانت بطون بني الخزرج توافق على مشروعات النبيّ بدون معارضة»[٢].

ولهذا كان ابن أُبي - وهو رئيس جبهة النفاق في المدينة - يدرك جيداً حجم المخاطر المحيطة به إن أُبيد بنو قينقاع عن آخرهم، ولهذا تدخل لإنقاذهم.

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام: ٢ / ١٨٨ - ١٨٩.

(٢) ولفنسون، تاريخ اليهود في بلاد العرب: ٢٥٠ - ٢٥١.

وبعد أن نجح ابن أُبي في رفع السيف والقتل عن بني قينقاع، حاول مرّة أُخرى «أن يكلّم رسول اللهﷺ أن يقرّهم في ديارهم»[١]، إلاّ أنه تعرّض للضرب من أحد المسلمين فسال الدم على وجهه، فأخذ يصيح ببني قينقاع - وقد أخذوا بالخروج - ويحكم قرّوا، فجعلوا يتصايحون: «لا نقيم أبداً بدار أصاب وجهك فيها هذا ولا نستطيع له غيراً»[٢].

وقد تكون استجابة النبيﷺ لابن أُبي في بني قينقاع، كانت تهدف إلى عدم الدخول في مواجهة مع الجبهتين - اليهود والمنافقين - في آن واحد، فيكفي القضاء على جبهة اليهود داخل المدينة، وبه يتم إضعاف جبهة المنافقين في المدينة؛ وهو ما حصل بعد إجلاء يهود بني قينقاع منها.

ثالثاً: فرض الحصار الاقتصادي على قريش:

وهذا هو الهدف الاستراتيجي الثالث الذي يمكن أن نستنتجه من هذه الغزوات والسرايا، وخاصة سرية زيد بن حارثة.

لقد كانت قريش تعتمد في حياتها على التجارة، ولم تكن ممن يمتهن الصناعة أو الزراعة، فكانت لها رحلة الشتاء والصيف التي يحدثنا عنها القرآن الكريم.

وطريق رحلة الصيف، من مكة إلى الشام من أهم الطرق التجارية لقريش، لأهمية تجارة الشام، ولأنّها طريق برية يسهل قطعها بواسطة الإبل، بخلاف رحلة الشتاء التي لم تكن بنفس الدرجة من الأهمية ولوعورة الطريق وتنوعه من مكة إلى اليمن والحبشة.

إلاّ أنّ طريق (مكة - الشام) البريّ يمرّ بالساحل ويقرب من معقل المسلمين

---

(١) و (٢) الواقدي، المغازي: ١ / ١٧٨ .

في المدينة، فكانت غزوة بدر الكبرى، وما قبلها من سرايا وغزوات قد قطعت هذا الطريق الحيوي والحياتي لقريش، فكان لذلك أَسوءَ الأثر على حياتهم الاقتصادية، ولذلك أخذوا يبحثون عن طريق آخر فاهتدوا إلى طريق (مكة - نجد - العراق - الشام) وهو طريق طويل وغير معروف لهم، إلاّ أنّهم كانوا مضطرين إليه، حتى لا تموت تجارتهم نهائياً.

إلاّ أن سرية زيد بن حارثة قد حرمتهم من هذا الطريق الجديد، فأطبق الحصار الاقتصادي عليهم من كل الطرق التجارية.

«إنّ الهدف الأول من الحصار الاقتصادي المضروب على قريش، هو التأثير المادي والمعنوي عليهم ليعيدوا النظر في موقفهم من المسلمين، وما غزوات الرسولﷺ القبائل في هذه الفترة إلاّ للتخلّص من تهديدها، ولتأمين هدف الرسولﷺ في ضرب الحصار الاقتصادي على قريش»[١].

رابعاً: ردع الأعراب والقبائل المجاورة للمدينة:

لقد كانت أسباب تحرشات بعض القبائل والأعراب المجاورة للمدينة أو المتاخمة للطريق التجاري الذي يربط مكة بالشام متعددة ومختلفة، فهي إما كانت بتحريض من قريش لتحالفها معها، وإما أنها كانت تعيش حياتها على السلب والنهب والاغارة، وقد سبق لهم أن أغاروا على أطراف المدينة وسرقة بعض الإبل والانعام، أو لأنهم كانوا ممن ذعروا لانتصار المسلمين في بدر، فأخذت جموعهم تحتشد لانتهاز فرصة الاغارة على المدينة.

لهذه الأسباب وغيرها احتشد بنو سليم وبنو ثعلبة ومحارب. . . وغيرهم من البدو والأعراب. . . كما أسلفنا سابقاً، فكان المسلمون بقيادة رسول اللهﷺ

---

(١) الرسول القائد: ١٦٥ .

يرصدون تحركات هؤلاء من خلال بثٍّ العيون والمخبرين فكانت أخبارهم تصل إلى المدينة أولا بأول، ولم تكن هنالك وسيلة أنجح من وسيلة غزوهم في عقر دارهم وتشتيت شملهم وسلب مصادر القوة منهم، وهي الوسيلة التي أتبعها رسول الله ﷺ معهم، لأنّ هؤلاء لا يرعون حرمة، ولا يخشون إلاّ القوة، فلابدَّ من التنكيل بهم وتفريق جمعهم، ليكونوا عبرة للآخرين، كي لا يحدِّثوا أنفسهم بغزو المدينة.

«إن هدف المسلمين من غزواتهم بعد (بدر) على بني سليم، وغطفان، وبني ثعلبة، ومحارب، وعلى قافلة قريش كان لحرمان هذه القبائل من التعرض بالمسلمين، وللسيطرة على طريق مكة والشام.. ولم يكن هدف المسلمين الحصول على الغنائم، لأن الذين يحاولون السلب يعودون بسرعة إلى قواعدهم خوفاً من استرداد ما غنموه، ولا يبقون أياماً بل شهوراً في ديار أعدائهم كما فعل المسلمون.. فهل يبقى كل هذه المدّة خائفاً من عدوه أو طالباً للسلب والنهب»[1]؟

---

١) المصدر نفسه: ١٦٤ .

الأسئلة:

١ - ما هي أهم الآثار التي تركتها واقعة بدر في مكة والمدينة؟

٢ - ما هي أسباب غزوة يهود بني قينقاع؟ وما هي نتائجها؟

٣ - لماذا تمَّ تصفية وقتل المحرضين على الدولة الإسلامية؟

٤ - كيف اتخذ بعض المستشرقين حادثة الاغتيالات وسيلة للطعن؟

٥ - ما هي أهم الأهداف الرئيسية من السرايا والغزوات التي وقعت خلال هذه الفترة؟

٦ - كيف تقيِّم مناسبة زواج الزهراء من علي عليه السلام في تفاصيلها التاريخية؟

٧ - ما هي معالم شخصية الإمام الحسن بن علي عليه السلام في دنيا الإسلام؟

الدرس التاسع
أحداث السنة الثالثة من الهجرة
(غزوة أُحد)
«القسم الأول»

محاور البحث:

١ - أُحد، تاريخ المعركة ، وجغرافية المكان
٢ - خلفيات المعركة
أ - استعدادات قريش للمعركة
ب - استعدادات المسلمين للمعركة
ج - اليهود والمنافقون ودورهم ما قبل المعركة
٣ - وقائع معركة أُحد في جولتها الأُولى
٤ - وقائع معركة أُحد في جولتها الثانية
٥ - الثبات والهزيمة في معركة أُحد
أ - نماذج من صور الاستقامة والثبات والتضحية
ب - نماذج من صور الهزيمة والخذلان والجبن
٦ - دور المرأة في معركة أُحد
٧ - نهاية معركة أُحد
٨ - دفن الشهداء
٩ - مكانة ومنزلة شهداء أُحد
١٠ - من كرامات شهداء أُحد
● الأسئلة

غزوة أُحد / ق ١

المدخل

تعتبر غزوة أُحد، ووقائعها، وفصولها الدامية بدم الشهادة والفداء، وما ترتّب عليها من آثار ونتائج؛ من أهم الأحداث المصيرية في تاريخ الإسلام، وتنطوي على دروس وعبر بالغة الأهمية، ليس فقط للمسلمين الذين دارت عليهم رحى هذه المعركة، بل لكل المسلمين وفي كل عصر ومكان!

وفيما يلي القسم الأول لوقائع هذه المعركة، وضمن فصول وعناوين، على أن نُتبعها بالقسم الثاني في الدرس القادم، مع الدروس والعبر المستفادة منها.

١ - أُحد، تاريخ المعركة، وجغرافية المكان

نصَّ المؤرخون على أنَّ غزوة أُحد وقعت في شوال سنة ثلاث[١]. وحدَّدها ابن سعد في طبقاته بـ «يوم السبت لسبع ليال خلون من شوال على رأس اثنين وثلاثين شهراً من مهاجره»[٢].

إلاّ أن المؤرخ خليفة بن الخياط يقول: «إن رسول الله ﷺ خرج عشية الجمعة لأربع عشرة ليلة خلت من شوال، وكانت الوقعة يوم السبت للنصف من

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام: ٣ / ٦٠، والمغازي للواقدي: ١ / ١٩٩، وتاريخ الإسلام للذهبي: مجلد المغازي: ١٦٥ .

(٢) طبقات ابن سعد: ٢ / ٢٦٧ .

شوال»[١]. ونصَّ على ذلك ابن إسحاق بقوله: «دخل رسول الله ﷺ بيته، فلبس لامته، وذلك يوم الجمعة حين فرغ من الصلاة، وقد مات في ذلك اليوم رجل من الأنصار. . . فصلّى عليه رسول الله ﷺ، ثمّ خرج عليهم»[٢].

أما مكان المعركة، فهو جبل أُحد الذي يقع على بُعد ميل من شمال المدينة[٣]، وقد روي عن رسول الله ﷺ أنّه قال: «هذا جبلٌ يُحبُّنا ونُحِبُّهُ»[٤].

٢ - خلفيات معركة أُحد

أ - استعدادات قريش للمعركة:

لقد أُصيبت قريش بنكبة كبرى في معركة بدر، ولهذا حرصت أشدَّ الحرص على الأخذ بثأرها من المسلمين، وصمّمت على الاستعداد عسكرياً لاستعادة كرامتها وشرفها ومكانتها بين القبائل.

ولم تغنها غزوة (السويق) شيئاً، بل زادها فرارها المشين أمام مطاردة المسلمين لها عاراً جديداً على عارها في (بدر). كما أثارت سرية زيد بن حارثة كوامن حقدها الدفين عندهم على المسلمين.

فهدف قريش من هذه المعركة يتلخّص في: «أخذ ثاراتهم من المسلمين في معركة بدر وسرية زيد بن حارثة، لاستعادة كرامتهم وشرفهم بين العرب»[٥].

وكان لابد لقريش أن تبذل كلّ ما في وسعها للاستعداد لهذه المعركة التي

---

(١) تاريخ خليفة بن الخياط: ٣٨ .

(٢) السيرة النبوية: ٣ / ٦٣ .

(٣) انظر معجم البلدان للحموي .

(٤) رواه البخاري في صحيحه: كتاب المغازي، باب أُحد جبل يحبنا ونحبه .

(٥) الرسول القائد: ١٧١ - ١٧٣ .

حدَّدت أهدافها، وذلك من خلال تهيئة مستلزماتها اللازمة من المال، والرجال، والزخم الاعلامي، فأخذت تعمل على الاستفادة من تحالفاتها مع القبائل الأُخرى لإشراكها معها في المعركة، كذلك تهيئة الأموال الكافية لتغطية نفقات الجيش الجرّار الذي تنوي تعبئته، بالاضافة إلى توظيف ألسِنة الشعراء والخطباء؛ لتأليب القبائل واثارة الروح القتالية فيها.

وفي النصوص التاريخية التي يذكرها كلٌّ من الواقدي، وابن هشام، وابن سعد... وغيرهم من مؤرخي السيرة النبوية ما يسلط الأضواء على حجم هذا الاستعداد في محاوره الثلاثة: المال، والرجال، والإعلام.

ففيما يتعلّق بالجانب المالي لتغطية نفقات هذه الحرب، يروي الواقدي:

«لمّا رجع من حضر بدراً من المشركين إلى مكة، والعير التي قدم بها أبو سفيان بن حرب موقوفة في دار الندوة... مشت أشراف قريش إلى أبي سفيان.. فقالوا: يا أبا سفيان، انظر إلى هذه العير التي قدمت فاحتبستها، فقد عرفت أنها أموال أهل مكة ولطيمة[١] قريش، وهم طيّبو الأنفس، يجهّزون بهذه العير جيشاً كثيفاً إلى محمد، وقد ترى مَن قُتل من آبائنا وأبنائنا، وعشائرنا، فقال أبو سفيان: أو قد طابت أنفس قريش بذلك؟ قالوا: نعم، قال: فأنا أوّل من أجاب إلى ذلك... فلم تزل العير موقوفة حتّى تجهّزوا للخروج إلى أُحد، فباعوها وصارت ذهباً عيناً.. وكانت العير ألف بعير، وكان المال خمسين ألف دينار، وكانوا يربحون في تجارتهم للدينار ديناراً...»[٢].

ويروى أن في قريش وفيما وضعوه من أموال هائلة لحرب رسول الله ﷺ والمسلمين نزلت الآية: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ

(١) اللطيمة: الإبل التي تحمل البر والطيب.

(٢) الواقدي، المغازي: ١ / ٢٠٠.

فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ ۗ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ﴾(١).

أما ما يتعلق بالجانب التعبوي من خلال إشراك القبائل المتحالفة معها، فقد أرسلوا من الشعراء والخطباء ممن له قدرة على تحشيد هذه القبائل وتأليبهم.

قال الواقدي: «فلمّا أجمعوا على المسير قالوا: نسير في العرب فنستنصرهم فإنّ عبد مناة غير متخلّفين عنّا، هم أوصل العرب لأرحامنا، ومن اتّبعنا من الأحابيش(٢). فاجتمعوا على أن يبعثوا أربعة من قريش يسيرون في العرب يدعونهم إلى نصرهم، فبعثوا عمرو بن العاص، وهبيرة بن أبي وهب، وابن الزّبعرى، وأبا عزّة الجمحي، فأطاع النفرُ، وأبى أبو عزّة أن يسير وقال: منَّ عليَّ محمد يوم بدر ولم يمنّ على غيري، وحلفتُ لا أُظاهر عليه عدوّاً أبداً، فمشى إليه صفوان بن أُمية فقال: اخرج، فأبى - وأعاد كلامه السابق -. فلما كان الغد جاءه صفوان وجبير بن مطعم. . فأقنعاه وتعهدا له بالمال فخرج في العرب يجمعها، وهو يقول:

إيه بني عبد مناة الرّزام(٣) أنتم حماةٌ وأَبوكُمْ حَام
لا تسلموني لا يَحِلُّ إسلام لا تَعِدوني نَصْرَكُمَ بَعدَ العَام

وخرج معه النّفر، فألّبوا العرب وجمعوها، وبلغوا ثقيفاً فأوعبوا»(٤).

---

(١) الأنفال: ٣٦. وانظر أسباب النزول للواحدي النيسابوري: ١٥٩.

(٢) وهم بنو الهون، وبنو الحارث بن كنانة، وبنو المصطلق من خزاعة، تحبّشوا: أي تجمّعوا، انظر تاج العروس للزبيدي مادة حبش. وفي شعر حسّان بن ثابت تعريض بالأحابيش بأنهم لا حسب لهم «جمعتموها أحابيشاً بلا حسب»، ابن هشام: ٣ / ٦١.

(٣) الرّزام: جمع رازم وهو الذي يثبت في مكانه ولا يبرحه، أي انهم يثبتون في الحرب ولا ينهزمون.

(٤) المغازي: ١ / ٢٠٠ - ٢٠١.

إلى هنا استكملت قريش استعداداتها العسكرية مالياً، وبشرياً، وإعلامياً، فلم يبقَ لها إلاّ أن تتحرك صوب هدفها المنشود.

إلاّ أنّ خلافاً بسيطاً نَشَب بين قادتها حول إخراج النساء معهم إلى هذه الحرب؛ ولكن سرعان ما انتهى هذا الخلاف بترجيح رأي من دعى إلى ذلك، فخرجت لفيف من النسوة مع أزواجهن أو أبنائهن أو آبائهن؛ وكان على رأس أُولئك النسوة هند بنت عتبة زوج أبي سفيان(١).

وكانت النتيجة النهائية لاستعدادات قريش للمعركة انّها «خرجت بثلاثة آلاف: وكان فيهم من ثقيف مائة رجل، وخرجوا بعدّة وسلاح كثير، وقادوا مائتي فرس، وكان فيهم سبعمائة دارع وثلاثة آلاف بعير»، وبحسب تعبير ابن هشام: «فخرجت قريش بحدّها وجدّها وجديدها وأحابيشها، ومن تبعها من بني كنانة، وأهل تهامة، وخرجوا معهم بالظعن التماس الحفيظة، والا يفروا»(٢).

ب - استعدادات المسلمين للمعركة:

ذكر المؤرخون وكتّاب السيرة أنه «لمّا أجمعت قريش المسير كتب العباس ابن عبد المطلب كتاباً وختمه، واستأجر رجلا من بني غفار واشترط عليه أن يسير ثلاثاً إلى رسول الله ﷺ يخبره أنّ قريشاً قد أجمعت المسير إليك، فما كنت صانعاً إذا حلّوا بك فاصنعه...»(٣).

قدم الغفاري بكتاب العباس إلى المدينة فلم يجد رسول الله ﷺ فيها،

---

(١) للاطلاع على عدد وأسماء أُولئك النسوة انظر: أنساب الأشراف: ١ / ٣١٢ - ٣١٣، وابن هشام: ٣ / ٦٣، ومغازي الواقدي: ١ / ٢٠٢ - ٢٠٣.

(٢) المغازي: ١ / ٢٠٣، والسيرة النبوية: ٣ / ٦٣.

(٣) المصدر نفسه: ١ / ٢٠٤، وطبقات ابن سعد: ٢ / ٢٦٨، وتاريخ الخميس للديار بكري: ١ / ٤٢٠.

فخرج إلى قباء فوجد رسول اللهﷺ في باب مسجد قباء.. فدفع إليه الكتاب، فقرأه عليه أُبيّ بن كعب واستكتم أُبيّاً ما فيه، ثمّ دخل منزل سعد بن الرّبيع.. فأخبره بكتاب العباس بن عبد المطلب... ثمّ انصرف رسول اللهﷺ إلى المدينة بعد أن استكتم سعداً الخبر[١].

لقد كان رسول اللهﷺ حريصاً على كتمان خبر تحرك قريش العسكري لكي يستعد للمواجهة بعيداً عن اللَّغط والاشاعات في أوساط أهل المدينة التي لا زالت جبهة المنافقين واليهود فيها قوية.

إلاّ أن هذا الكتمان لم يدم طويلا فقد شاع الخبر في الناس بمسير قريش، إذ كانت امرأة سعد بن الربيع تسترق السمع أثناء حوار رسول اللهﷺ مع سعد في بيته، فأشاعت الخبر بالاضافة إلى قدوم عمرو بن سالم الخزاعي في نفر من خزاعة، حيث ساروا من مكّة فوافوا قريشاً وقد عسكروا بذي طوى، فأخبروا رسول اللهﷺ الخبر[٢].

ومهما يكن من أمر فقد وصل خبر تحرك قريش العسكري إلى النبيﷺ من مصدرين: العباس بن عبد المطلب ووفد خزاعة، وشاع في المدينة سريعاً، فلم يبق مجال لكتمان الخبر، وعندها «أرجفت يهود المدينة والمنافقون، وقالوا: ما جاء محمّداً شيء يحبّه»[٣].

إلاّ أنّ رسول اللهﷺ أراد أن يتأكّد من عدد وعدّة قريش بعد أن وصلوا إلى ذي الحليفة ثمّ نزلوا عند سفوح جبل أُحد على مشارف المدينة.

«فبعث عينين له، أَنساً ومُؤنساً ابني فضالة... فأتيا رسول اللهﷺ

---

(١) المصدر نفسه: ١ / ٢٠٤ .

(٢) المصدر نفسه: ١ / ٢٠٥ .

(٣) المصدر نفسه: ١ / ٢٠٤، وتاريخ الخميس للديار بكري: ١ / ٤٢٠ .

فأخبراه. . . وبعث الحباب بن المنذر بن الجموح إلى القوم، فدخل فيهم وحَرز ونظر إلى جميع ما يريد. . . وكان رسول الله ﷺ قد بعثه سراً وقال له: لا تخبرني بين أحد من المسلمين. . . فرجع إليه ﷺ فأخبره خالياً، فقال له رسول الله ﷺ لا تذكر من شأنهم حرفاً، حسبنا الله ونعم الوكيل، اللهمّ بك أجول وبك أصول»[١].

لقد كان زمان نزول قريش في سفوح جبل أُحد يوم الخميس لخمس ليال خلون من شوّال وكانت الوقعة يوم السبت لسبع «خلون من شوال»[٢]. وتركت قريش ابلهم وخيلهم ليلة الجمعة ويومها ترعى في حقول المسلمين وزرعهم حتى تركوها وليس بها خضراء.

لقد أصبح المسلمون في المدينة أمام أمر واقع، وأصبح الخطر محدق بالمدينة بشكل جدي، إذ إن قريشاً قد أكملت استعداداتها بشكل لم يسبق له مثيل في تاريخ حروبها، ولهذا «باتت وجوه الأوس والخزرج ليلة الجمعة، عليهم السلاح في المسجد بباب النبي ﷺ خوفاً من بيات المشركين، وحُرست المدينة تلك الليلة حتى أصبحوا»[٣].

الرسول يستشير أصحابه:

لقد كان اليوم الذي سبق واقعة أُحد يوم جمعة، وكان من الطبيعي أن يجتمع المسلمون لخطبة الجمعة وصلاتها، فلمّا أصبح رسول الله ﷺ واجتمع المسلمون خطبهم، فحمد الله وأثنى عليه ثمّ قال: «أيها الناس، إني رأيت في منامي رؤيا، رأيتُ كأني في درع حصينة، ورأيت كأنّ سيفي ذا الفقار انقصم من عند ضبته[٤]، ورأيت بقراً تذبح، ورأيت كأ نّي مردف كبشاً».

---

(١) (٢) (٣) الواقدي: ١ / ٢٠٨ .

(٤) انقصم: أي انكسر، وضبة السيف: طرفه (انظر الصحاح ولسان العرب) .

فقال الناس: يا رسول الله، فما أوّلتها؟

قالﷺ: أما الدرع الحصينة فالمدينة، فامكثوا فيها، وأما انقصام سيفي، فقتل رجل من أهل بيتي، وأما البقر المذبّح، فقتلى في أصحابي، وأما مردف كبشاً، فكبش الكتيبة نقتله إن شاء الله، ثمّ قال: «أشيروا عليَّ»[١]، فإن رأيتم أن تقيموا بالمدينة وتدعوهم حيث نزلوا، فإن أقاموا أقاموا بشرّ مقام، وإن هم دَخلوا علينا قاتلناهم فيها، وكان رأي عبد الله بن أُبي مع رأي رسول اللهﷺ، يرى رأيه في ذلك، وألاّ يخرج إليهم، وكان رسول اللهﷺ يكره الخروج.

فقال رجل من المسلمين، ممّن أكرمه الله بالشّهادة يوم أُحد وغيره، ممن كان فاته بدر، يا رسول الله، أخرج بنا إلى أعدائنا، لا يرون أنا جَبنّا عنهم وضعفنا؟ فقال عبد الله بن أُبي بن سلول: يا رسول الله، أقم بالمدينة لا تخرج إليهم، فوالله ما خرجنا منها إلى عدوّ لنا قطّ إلاّ أصاب منّا، ولادخلها علينا إلاّ أصبنا منه، فدعهم يا رسول الله، فإن أقاموا أقاموا بشرّ محبس، وإن دخلوا قاتلهم الرجال في وجههم، ورماهم النّساء والصبيان بالحجارة من فوقهم، وإن رجعوا رجعوا خائبين، كما جاؤوا»[٢].

ويقص علينا الواقدي في مغازيه طرفاً ممتعاً من كلمات المهاجرين والأنصار والتي منها: «وقال رجال من أهل السنّ وأهل النيّة، منهم حمزة بن عبد المطلب، وسعد بن عبادة، والنعمان بن مالك، وغيرهم من الأوس والخزرج: إنّا نخشى يا رسول الله أن يظنّ عدوّنا إنا كرهنا الخروج إليهم جُبنّا عن لقائهم، فيكون هذا جرأة منهم علينا، وقد كنت يوم بدر في ثلاثمائة رجل فظفّرك الله عليهم، ونحن اليوم بشر كثير، وقد كنّا نتمنى هذا اليوم وندعو الله به، فقد ساقه

---

(١) مغازي الواقدي: ١ / ٢٠٨ - ٢٠٩ (بتصرف). وابن هشام: ٣ / ٦٢ - ٦٣.

(٢) السيرة النبوية لابن هشام: ٣ / ٦٣.

الله إلينا في ساحتنا. . . وقال مالك بن سنان، أبو أبي سعيد الخدريّ: يا رسول الله، نحن والله بين إحدى الحسنيين، إما يظفرنا الله بهم فهذا الذي نريد، فيذلّهم الله لنا فتكون هذه وقعة مع وقعة بدر، فلا يبقى منهم إلاّ الشريد، والأُخرى يا رسول الله، يرزقنا الله الشهادة، والله يا رسول الله ﷺ ما أُبالي أيهما كان، إنّ كلاّ لفيه خير.

وقال حمزة بن عبد المطلب: والذي أنزل عليك الكتاب، لا أطعمُ اليوم طعاماً حتّى أُجالدهم بسيفي خارجاً من المدينة، وكان يقال: كان حمزة يوم الجمعة صائماً، ويوم السبت صائماً، فلاقاهم وهو صائم»[١].

وهنالك كلمات أُخرى قالها رجال من المهاجرين والأنصار، وهي كلمات حماسية رائعة في معانيها، وتحمل في طياتها صدق نيات أصحابها الذين استشهد الكثير منهم في هذه المعركة.

ولم ينقل لنا المؤرخون أن رسول الله ﷺ قد ناقشهم أو ردّ عليهم ما قالوه، وإنّما جلّ ما نقلوه أن رسول الله ﷺ لما يرى من إلحاحهم كاره. . . فلم يبلغنا أنّ النبي ﷺ رجع إليه قولا، وآخر ما قاله رسول الله ﷺ: «إنّي أخاف عليكم الهزيمة»[٢].

وهكذا ترجحت كفّة الراغبين في الخروج إلى عدوهم، ورأى رسول الله أن الخروج هو الرغبة الغالبة، وإن كثرة الناس تدعو إليه، فنزل عند رأي أصحابه في الخروج وصمّم عليه.

يقول ابن إسحاق: «فلم يزل الناس برسول الله ﷺ، الذين كان من أمرهم

---

(١) الواقدي، المغازي: ١ / ٢١٠ - ٢١١.

(٢) المصدر نفسه: ١ / ٢١١ - ٢١٣.

حبّ لقاء القوم، حتّى دخل رسول الله ﷺ بيته، فَلبس لامته، وذلك يوم الجمعة حين فرغ من الصلاة، وقد قدم الناس، وقالوا: استكرهنا رسول الله ﷺ ولم يكن لنا ذلك، فلما خرج عليهم رسول الله ﷺ قالوا: يا رسول الله: استكرهناك ولم يكن ذلك لنا، فإن شئت فاقعد، فقال رسول الله ﷺ: «ما ينبغي لنبيّ إذا لبس لامته أن يضعها حتّى يقاتل»[١].

وفي رواية الواقدي: قال ﷺ: «قد دعوتكم إلى هذا الحديث فأبيتم، ولا ينبغي لنبيٍّ إذا لبس لامته أن يضعها حتّى يحكم الله بينه وبين أعدائه... انظروا ما أمرتكم به فاتّبعوه، امضوا على اسم الله فلكم النصر ما صبرتم»[٢]. وفي رواية أُخرى: «فلمّا أبوا إلاّ الخروج والجهاد، صلّى رسول الله ﷺ الجمعة بالناس، ثمّ وعظ الناس وأمرهم بالجدّ والجهاد، وأخبرهم أن لهم النصر ما صبروا»[٣].

ثمّ خرج رسول الله ﷺ في ألف من أصحابه، بعد أن عقد ثلاثة ألوية، فدفع لواء الأوس إلى أُسيد بن حضير، ودفع لواء الخزرج إلى الحباب بن المنذر - ويقال سعد بن عبادة - ودَفع لواء المهاجرين إلى عليّ بن أبي طالب عليه السلام واستعمل ابن أُم مكتوم على الصلاة بالناس[٤].

ج - اليهود والمنافقون ودورهم التخذيلي قبل المعركة:

خرج رسول الله ﷺ من المدينة وهو لابس لامة حربه، ومعه المسلمون متلبّسون السلاح وقد أظهروا الدرع، وفيهم مائة دارع، والناس عن يمينه وعن شماله حتّى سلك البدائع، ثمّ زقاق الحِسى، حتّى أتى إلى موضع يقال له

---

(١) ابن هشام، السيرة النبوية: ٣ / ٦٣ .

(٢) الواقدي، المغازي: ١ / ٢١٤ .

(٣) المصدر نفسه: ١ / ٢١٣ .

(٤) السيرة النبوية: ٣ / ٦٣، والمغازي: ١ / ٢١٥ .

الشيخين. حتّى انتهى إلى رأس الثنية[١].

وفي هذا الموضع - الثنية - التفت رسول الله ﷺ إلى أصوات غريبة من خلفه، «فنظر إلى كتيبة خشناء لها زَجل[٢]، خلفه، فقال ﷺ: ما هذه؟ قالوا: يا رسول الله، هؤلاء حلفاء ابن أبي من يهود، فقال رسول الله ﷺ: لا يستنصر بأهل الشرك على أهل الشرك».

وفي رواية ابن هشام: «إن الأنصار يوم أُحد، قالوا لرسول الله ﷺ: يا رسول الله ألا نستعين بحلفائنا من يهود؟ فقال: لا حاجة لنا فيهم»[٣].

عادت كتيبة اليهود إلى المدينة بعد أن رفض رسول الله ﷺ اشراكهم معه في المعركة، وعلل ذلك كونهم من المشركين، وهو ﷺ خارج لحرب المشركين فلا يستعين بهؤلاء على هؤلاء، وسوف نتوقف عند هذه القضية فيما يأتي من دروس وعبر من واقعة أُحد إن شاء الله.

أما المنافقون وعلى رأسهم عبد الله بن أُبي، فإن هؤلاء كان لهم دور التخذيل والشماتة وظهر نفاقهم بشكل واضح قبل هذه الواقعة وبعدها، وكلّ النصوص التاريخية تشير إلى أنّ ابن أُبي ومن معه من المنافقين - وكان عددهم ثلاثمائة رجل - لم يخرجو إلاّ للتخذيل والشماتة.

يقول الواقدي: «وأقبل ابن أُبي فنزل ناحية من العسكر، فجعل حلفاؤه ومن معه من المنافقين يقولون لابن أُبي: «أشرت عليه بالرأي ونصحته وأخبرته أنّ هذا رأي من مضى من آبائك وكان ذلك رأيه مع رأيك فأبى أن يقبله، وأطاع هؤلاء الغلمان الذين معه! فصادفوا من ابن أُبي نفاقاً وغِشاً، فبات رسول الله ﷺ

---

(١) انظر مغازي الواقدي: ١ / ٢١٥ (مع الهامش).

(٢) الزجل: الصوت الرفيع العالي (نهاية ابن الأثير: ٢ / ١٢٢).

(٣) الواقدي: ١ / ٢١٥ - ٢١٦، والسيرة النبوية لابن هشام: ٣ / ٦٤.

بالشيخين[١]، وبات ابن أُبي في أصحابه، وفرغ رسول الله ﷺ من عرض أصحابه، وغابت الشمس فأذّن بلال بالمغرب، فصلّى رسول الله ﷺ بأصحابه ثمّ أذّن للعشاء فصلّى رسول الله ﷺ بأصحابه»[٢].

والذي يستفاد من هذا النص أن ابن أُبي قد خرج وهدفه التخذيل، واستقطاب كل من في قلبه مرض من المنافقين، وتشكيل جبهة مضادة منهم، فانحاز إلى ناحية من العسكر، ولم يشترك مع النبي ﷺ والمؤمنين في صلاتهم، وأخذ يحرّض الناس على التراجع والتخاذل.

ويروي ابن هشام عن ابن إسحاق خبر المنافقين فيقول: «حتّى إذا كان بالشَّوط بين المدينة وأُحد، انخزل عنه عبد الله بن أُبيّ بن سلول بثلث الناس، وقال: أطاعهم وعصاني، ما ندري علامَ نَقتل أنفسنا هاهنا، أيها الناس، فرجع بمن اتّبعه من قومه من أهل النّفاق والرّيب، واتّبعهم عبد الله بن حرام، أخو بني سلمة، يقول: يا قوم، اذكركم الله ألاّ تخذلوا قومكم ونبيّكم عند من حضرَ من عدوّهم، فقالوا: لو نعلم أنكم تقاتلون لما أسلمناكم، ولكنّا لا نرى أنه يكون قتال!!

قال: فلما استعصوا عليه وأبوا إلاّ الإنصراف عنهم، قال: أبعدكم الله أعداء الله، فسيغني الله عنكم نبيّه»[٣].

وفي رواية الواقدي؛ أن ابن أُبي ومن معه من المنافقين قد انخذلوا وارتحلوا وطلب منهم - عبد الله بن حرام - العودة ونصرة النبي ﷺ فقال له ابن أُبي:

---

(١) موضع بين المدينة وأُحد .

(٢) الواقدي، المغازي: ١ / ٢١٦ - ٢١٧ .

(٣) ابن هشام، السيرة النبوية: ٣ / ٦٤ .

«ما أرى يكون بينهم قتال، ولئن اطعتني يا أبا جابر لترجعنّ، فإن أهل الرأي والحجى قد رجعوا..»(١).

أما شماتة المنافقين وسرورهم بعد المعركة، فهذا ما سوف نتوقف عنده لاحقاً، عند الحديث عن نتائج معركة أُحد وآثارها مفصلا وخلاصة الأمر أنه «لمّا أصيب أصحاب النبيﷺ سرّ ابن أُبي، وأظهر الشماتة، وقال: عصاني وأطاع مَن لا رأي له»(٢).

وهنالك دور آخر للمنافقين في أثناء معركة أُحد بقيادة شخص يعرف بأبي عامر، «وقد كان خرج إلى مكة مباعداً لرسول اللهﷺ ومعه خمسون غلاماً من الأوس... وكان يعد قريشاً أن لو قد لقي قومه لم يختلف عليه منهم رجلان، فلما التقى الناس كان أوّل من لقيهم أبو عامر في الأحابيش وعبدان أهل مكة، فنادى: يا معشر الأوس، أنا أبو عامر، قالوا: فلا أنعم الله بك عينا يا فاسق - وكان أبو عامر يسمى في الجاهلية: الراهب، فسماه رسول اللهﷺ الفاسق - فلما سمع ردّهم عليه قال: لقد أصاب قومي بعدي شرّ، ثمّ قاتلهم قتالا شديداً، ثمّ راضخهم بالحجارة»(٣).

وقائع المعركة:

أولا: تعبئة الصفوف:

لقد قاد رسول اللهﷺ هذه المعركة قيادة ميدانية عسكرية لم تعهدها معارك العرب من قبل، واتخذ كل الخطط العسكرية الكفيلة بنجاح المعركة لصالح المسلمين لو أنها طُبقت والتزم بها كما أوصى بهاﷺ، إلاّ أن هذا الذي أوصى

---

(١) المغازي: ١ / ٢١٩.

(٢) المصدر نفسه: ١ / ٢١٩.

(٣) ابن هشام، السيرة النبوية: ٣ / ٦٧، ومغازي الواقدي: ١ / ٢٢٣.

به النبيﷺ أصحابه، لم يراعَ من قبل بعضهم فحصل الذي حصل كما سوف يأتينا، ويصف لنا الواقدي - وبدقة - ما قام به النبيﷺ من تدابير عسكرية قبل المعركة فيقول: «وجعل رسول اللهﷺ يصفّ أصحابه، وجعل الرّماة خمسين رجلا على عينين[١]، عليهم عبد الله بن جبير، . . . وجعل أُحداً خلف ظهره، واستقبل المدينة، وجعل عينين عن يساره. . . ونهى أن يقاتل أحد حتّى يأمره، . . . وجعل رسول اللهﷺ يمشي على رجليه يسوّي تلك الصفوف، ويبوّئ أصحابه للقتال، يقول: تقدّم يا فلان! وتأخر يا فلان! حتّى إنه ليرى مَنكب الرجل خارجاً فيؤخره، فهو يقوّمهم كأنما يقوّم بهم القداح. . وتقدم رسول اللهﷺ إلى الرماة فقال: احموا لنا ظهورنا، فإنا نخاف أن نؤتى من ورائنا، والزموا مكانكم لا تبرحوا منه، وإن رأيتمونا نَهْزِمهم، حتّى ندخل عسكرهم، فلا تفارقوا مكانكم، وإن رأيتمونا نُقتل فلا تعينونا ولا تدفعوا عنّا، اللهمّ إنّي أُشهدك عليهم، وارشقوا خيلهم بالنَّبل، فإن الخيل لا تقدم على النَّبل. . .»[٢].

وكان مجموع الجيش الإسلامي الذي عبئه رسول الله في هذه الواقعة سبعمائة[٣] رجل، بما فيهم الرماة.

أما التعبئة المعنوية، فقد نقل الواقدي خطبة لرسول اللهﷺ يحثهم فيها على الجهاد والاستقامة[٤].

تعبئة جيش المشركين:

أما جيش المشركين من قريش وحلفائهم، فكان بقيادة أبي سفيان بن

---

(١) عينان، جبل بأُحد.

(٢) المغازي للواقدي: ١ / ٢١٩ - ٢٢١، و ١ / ٢٢٤ - ٢٢٥، وابن هشام: ٣ / ٦٥ - ٦٦.

(٣) ابن هشام: ٣ / ٦٥ - ٦٦.

(٤) الواقدي: ١ / ٢٢١ وما بعدها.

حرب، الذي قام بتعبئة قريش، وهم ثلاثة آلاف رجل، ومعهم مائتا فرس قد جنبوها، فجعلوا على ميمنة الخيل خالد بن الوليد، وعلى ميسرتها عكرمة بن أبي جهل، وجعلوا على الخيل صفوان ابن أُمية، وعلى الرّماة عبد الله بن أبي ربيعة، ودفعوا اللواء إلى طلحة بن أبي طلحة. . وصاح أبو سفيان: يا بني عبد الدار، نحن نعرف أنّكم أحق باللواء منّا، إنّا إنّما أتينا يوم بدر من اللّواء، وإنما يؤتى القوم من قبل لوائهم، فالزموا لواءكم وحافظوا عليه، وخلّوا بيننا وبينه، فإنّا قوم مستميتون موتورون، نطلب ثاراً حديث العهد. . .[١].

أما لواء المسلمين فقد نص الواقدي أن رسول الله ﷺ سأل من يحمل لواء المشركين؟ قيل: بنو عبد الدار. قال: نحن أحقّ بالوفاء منهم أين مصعب بن عمير؟ قال: ها أنا ذا.

قال ﷺ : خذ اللواء، فأخذه مصعب بن عمير، وتقدم به بين يدي رسول الله ﷺ[٢].

وإنه لما قتل مُصعب بن عمير أعطى رسول الله ﷺ اللواء عليّ بن أبي طالب[٣].

إلاّ أن أحد المحققين شكك في صحّة هذه الرواية وقال: «لا يصح ما ادَّعوه من أن اللواء كان مع مصعب بن عمير، أو أنّه أخذه من علي، وأعطاه لمصعب، والصحيح هو أنّه كان مع علي عليه السلام في أُحد وبدر وفي كل مشهد. . .»، ثمّ ذكر مجموعة من الروايات التي يستفاد منها أن علياً عليه السلام هو صاحب راية رسول الله ﷺ[٤].

---

(١) ابن هشام ٣: ٦٦، والواقدي: ١ / ٢٢٠ - ٢٢١ .

(٢) المصدر نفسه: ١ / ٢٢١ .

(٣) ابن هشام: ٣ / ٧٣ .

(٤) العاملي، جعفر: الصحيح من سيرة النبي ﷺ : ٦ / ١١٥ وما بعدها .

٣ - وقائع المعركة في جولتها الأُولى

بدأت المعركة في جولتها الأُولى من قبل المشركين على أصوات دُفوف هند بنت عتبة والنسوة اللآتي معها، وتحريضهنَّ للرجال وتذكيرهم بمن أُصيب ببدر، فأنشدت هند:

وَيــــهــــا بـــنــــي عـــبـــد الـــدّار وَيــــهــــا حُـــمـــاةَ الأدبـــار
ضَــــربـــاً بـــكـــلِّ بـــتـــار[1]

ثمّ أنشدت:

نـــحـــنُ بـــنـــاتُ طَـــارق نَـــمْـــشِـــي عـــلـــى الَّـــنـــمـــارق
إن تُـــقـــبـــلـــوا نُـــعـــانـــق او تُـــدبـــروا نُـــفـــارق
فـــراقَ غـــيـــرِ وامـــق[2]

وكان شعار أصحاب رسول الله ﷺ يوم أُحد: أَمِت، أَمِت[3].

وتنص كلّ كتب السيرة والتاريخ على أن معركة أُحد في جولتها الأُولى تتوجت بنصر مؤزَّر كبير لصالح المسلمين، وكان يمكن لهذا النصر أن يستمرَّ إلى نهاية المعركة لولا ما حصل من أمر الرّماة.

وفيما يلي بعض النصوص التاريخية لمشاهد المعركة في جولتها الأُولى:

لقد بدأت معركة أُحد - كما يستفاد من رواية الواقدي - بمبارزة فردية بين حامل راية المشركين طلحة بن أبي طلحة، والإمام علي بن أبي طالب عليه السلام، إذ صاح طلحة بن أبي طلحة: «مَن يبارز؟ فقال علي عليه السلام: هل لك في مبارزتي؟ قال طلحة: نعم، فبرزا بين الصّفين، ورسول الله ﷺ جالس تحت الراية عليه

---

(١) و (٢) ابن هشام: ٣ / ٦٨، والمغازي: ١ / ٢٢٥ .

(٣) السيرة النبوية: ٣ / ٦٨ .

درعان ومغفر وبيضة، فالتقيا، فبدره عليٌّ فضربه على رأسه، فمضى السيف حتّى فلق هامته حتّى انتهى إلى لحيته، فوقع طلحة وانصرف علي عليه السلام، فقيل لعليّ: ألا ذففت عليه[1]؟ قال: إنّه لما صرع استقبلتني عورته فعطفني عليه الرحم، وقد علمت أنّ الله تبارك وتعالى سيقتله... فلما قُتل طلحة سُرّ رسول الله صلى الله عليه وآله وأظهر التكبير، وكبّر المسلمون، ثمّ شدّ أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله على كتائب المشركين، فجعلوا يضربون حتّى نقضت صفوفهم»[2].

إلاّ أنّ ابن هشام يذكر مبارزة علي عليه السلام لطلحة وقتله، بعد مقتل حمزة، ومصعب حيث أرسل رسول الله صلى الله عليه وآله إلى علي بن أبي طالب عليه السلام: «أن قدّم الراية فتقدم علي... فناداه أبو سعد بن أبي طلحة، وهو صاحب لواء المشركين: أن هل لك يا أبا القُصم في البراز حاجة؟ قال: نعم، فبرزا بين الصّفين، فاختلفا ضربتين، فضربه عليّ فصرعه، ثمّ انصرف عنه ولم يجهز عليه..».

وفي رواية أُخرى: «أنَّ أبا سعد طلحة بن أبي طلحة خرج بين الصّفين فنادى: مَن يبارز برازاً، فلم يخرج إليه أحد، فقال يا أصحاب محمد، زعمتم أن قتلاكم في الجنّة، وأن قتلانا في النار، كذبتم واللات أن لو تعلمون ذلك حقّاً لخرج إليّ بعضكم، فخرج إليه علي بن أبي طالب، فاختلفا ضربتين، فضربه عليّ فقتله»[3].

إلاّ أن الأنسب بوقائع معركة أُحد وأجوائها أن هذه المبارزة الفردية كانت في أول المعركة، وبعدها التحم الجيشان، بعد التكبير الذي أطلقه رسول الله صلى الله عليه وآله

(١) ذففت عليه: أي أجهزت عليه.

(٢) الواقدي، المغازي: ١ / ٢٢٦.

(٣) ابن هشام، السيرة النبوية: ٣ / ٧٣ - ٧٤.

والمسلمون، وعبارة الواقدي: «ثمّ شدّ أصحاب رسول الله ﷺ على كتائب المشركين» تدل بوضوح على ذلك.

ومهما يكن من أمر، فقد تعاقب آل طلحة من عبد الدار على حمل لواء المشركين فحملها بعد مقتل طلحة بن أبي طلحة، أخ له يدعى عثمان.. فقتل، ثمّ حملها أبو سعد بن أبي طلحة، فقتل، ثمّ حملها مسافع بن أبي طلحة، فقتل... ثمّ كلاب بن أبي طلحة... فقتل، ثمّ الجُلاس بن أبي طلحة... فقتل، وهكذا قتل آل أبي طلحة تحت ذلك اللواء، فحمله من بعدهم أرطاة بن شرحبيل، فقتله علي عليه السلام، ثمّ شريح بن قارض فقتله علي عليه السلام على رواية...[1] ثمّ انتهى اللواء مع (صؤب) غلام لبني أبي طلحة حبشي وكان آخر من أخذه منهم فقاتل به... حتّى قتل. وفي ذلك يقول حسان بن ثابت:

فخرتم باللواء وشرّ فخر لواء حين ردّ إلى صواب
جعلتم فخركم فيه بعبد وألأمُ مَن يطأ عفر التراب

ويقول ابن إسحاق: إنّ اللّواء لم يزل صريعاً حتّى أخذته عَمرة بنت علقمة الحارثية، فرفعته لقريش، فلاثوا به[2].. وقال حسّان بن ثابت في شأن

عمرة بنت علقمة الحارثية ورفعها اللواء:

فلولا لواء الحارثيّة أصبحوا يباعون في الأسواق بيع الجلائب[3]

لقد انهزم المشركون شرّ هزيمة بعد مقتل حملة اللواء، وكادت المعركة أن تنتهي عند ذلك حسب تعبير الواقدي حيث يقول: «ما ظفّر الله نبيّه في موطن قطّ ما ظفّره وأصحابه يوم أُحد، حتّى عصوا الرسول وتنازعوا في الأمر، لقد قُتل

---

(١) الواقدي: ١ / ٢٢٧ - ٢٢٨.

(٢) لاثوا به: اجتمعوا حوله والتفوا.

(٣) ابن هشام، السيرة النبوية: ٣ / ٧٨ - ٧٩.

أصحاب اللواء وانكشف المشركون منهزمين، لا يلوون، ونساؤهم يدعون بالويل بعد ضرب الدّفاف والفرح . . . وقد روى كثير من الصحابة ممن شهد أُحداً، قال كل واحد منهم: والله إني لأنظر إلى هند وصواحبها منهزمات، ما دون أخذهنّ شيء لمن أراد ذلك، وكلّما أتى خالد - ابن الوليد - من قبل ميسرة النبيﷺ ليجوز حتّى يأتي من قبل السّفح فيردّه الرّماة، حتى فعلوا ذلك مراراً، ولكن المسلمين أُتوا من قِبلَ الرّماة»[١].

وقبل أن نأتي إلى ما فعله خالد بن الوليد عند ترك الرماة الجبل لجمع الغنائم، ننقل نصاً آخر للواقدي يصف فيه - وبدقة متناهية - انهزام المشركين في معركة أُحد في جولتها الأُولى:

«قال نسْطاس مولى صفوان بن أُمية - وكان أسلم فحسن اسلامه -:

كنت مملوكاً فكنت فيمن خُلّف في العسكر . . . وانطلق القوم على تعبيتهم ميمنة وميسرة . . . ودنا القوم بعضهم من بعض، فاقتتلوا ساعة ثمّ إذا أصبحنا منهزمين، فدخل أصحاب محمّد عسكرنا ونحن في الرّحال، فأحدقوا بنا، فكنت فيمن أسروا، وانتهبوا العسكر أقبح انتهاب، وقد ولّى أصحابنا وأيسنا منهم، وانحاش[٢] النساء فهنّ في حجرهنّ سلم لمن أرادهنّ، وصار النهب في أيدي الرجال، فإنا لعلى ما نحن فيه من الاستسلام إلى أن نظرت إلى الجبل، فإذا الخيل مقبلة فدخلوا العسكر فلم يكن أحد يردّهم، قد ضيعت الثغور التي كان بها الرّماة وجاؤوا إلى النّهب والرّماة ينتهبون، وأنا انظر إليهم متأبطي قسيّهم وجعابهم، كل رجل منهم في يديه أو حضنه شيء قد أخذه، فلما دخلت خيلنا، دخلت على قوم غارين آمنين، فوضعوا فيهم السيوف فقتلوا فيهم قتلا ذريعاً،

(١) الواقدي، المغازي: ١ / ٢٢٩ .

(٢) انحاش النساء: أي تنفرن (القاموس المحيط) .

وتفرّق المسلمون في كل وجه، وتركوا ما انتهبوا وأجلوا عن عسكرنا، فرجعنا متاعنا بعدُ فما فقدنا منه شيئاً، وخلّوا أسرانا. . .»[١].

هكذا كانت وقائع معركة أُحد في جولتها الأُولى، كما تصورها لنا - وبدقة - النصوص التاريخية، نصر كبير وسريع، وهزيمة منكرة ومباغة لقريش وحلفائها. إلاّ أنّه سرعان ما انقلبت موازين القوى فتحول النصر إلى انكسار في أرض المعركة، وهذا ما حصل في هذه المعركة في جولتها الثانية.

٤ - وقائع المعركة في جولتها الثانية

كان لوجود الرماة على سفح جبل أُحد أثر كبير في انتصار المسلمين في الجولة الأُولى للمعركة، إذ كان هؤلاء الرماة «يحمون ظهور المسلمين، ويرشقون خيل المشركين بالنّبل، فتولّي هَوارب»[٢].

ورغم قلة عدد هؤلاء الرماة - إذ إنهم لم يتجاوز عددهم الخمسين كما تنص على ذلك كتب السيرة[٣] - في مقابل جيش جرار قوامه ثلاثة آلاف رجل، إلاّ أنّهم كانوا يسددون نبالهم إلى عدوهم فلا تخطئ أبداً، «قال بعض الرّماة: لقد رمقتُ نبلنا يومئذ، ما رأيتُ سهماً واحداً مما نرمي به خيلهم يقع على الأرض إلاّ في فرس أو رجل»[٤].

وبمقدار ما كان أثرهم كبيراً وايجابياً في هزيمة المشركين في الجولة الأُولى، كان لهم الأثر الكبير في هزيمة المسلمين وانكسارهم في الجولة الثانية

---

(١) الواقدي، المغازي: ١ / ٢٣٠ - ٢٣١ (بتلخيص).

(٢) الواقدي، المغازي: ١ / ٢٢٥ .

(٣) ابن سعد، الطبقات الكبرى: ٢ / ٢٦٨، وابن هشام، السيرة النبوية: ٣ / ٦٥ .

(٤) الواقدي، المغازي: ١ / ٢٢٥ .

من المعركة.

لقد أوصاهم رسول الله ﷺ بعدم ترك مواضعهم وفي كل ظروف المعركة المتوقعة: «قوموا على مصافكم هذا، فاحموا ظهورنا، فإن رأيتمونا قد غنمنا لا تشركونا، وإن رأيتمونا نُقتل فلا تنصرونا».

إلاّ أنَّ هؤلاء - إلاّ نزر يسير منهم - لم يلتزموا بوصايا الرّسول ﷺ بكل بنودها وفقراتها، نعم التزموا به في أول المعركة فانهزم المشركون تاركين وراءهم أمتعتهم وسلاحهم... وخالفوا أمر رسول الله في البقاء وعدم ترك المواضع التي صفهم فيها رسول الله، فكانت الكرّة على المسلمين، وبحسب تعبير المؤرخ الواقدي «ولكنّ المسلمين أتوا من قبل الرّماة»[1].

يروي الواقدي: «فلّما انهزم المشركون وتبعهم المسلمون، يضعون السلاح فيهم حيث شاؤوا حتّى أجهضهم عن العسكر، ووقعوا ينتهبون العسكر، قال بعض الرّماة لبعض: لِمَ تقيمون هاهنا في غير شيء؟ قد هزم الله العدوّ وهؤلاء إخوانكم ينتهبون عسكرهم، فادخلوا عسكر المشركين فاغتنموا مع اخوانكم. فقال بعض الرّماة لبعض: ألم تعلموا أنّ رسول الله ﷺ قال لكم: - كذا وكذا - ... فقال الآخرون: لم يُرد رسول الله هذا، وقد أذلّ الله المشركين وهزمهم، فادخلوا العسكر فانتهبوا مع اخوانكم، فلمّا اختلفوا خطبهم أميرهم عبد الله بن جبير... ثمّ أمرهم بطاعة الله وطاعة رسوله ﷺ... وانطلقوا فلم يبقَ من الرّماة مع أميرهم... إلاّ نفير ما يبلغون العشرة»[2].

ويروي أيضاً عن رافع بن خديج: «فلمّا انصرف الرّماة وبقي من بقي، نظر خالد بن الوليد إلى خلاء الجبل وقلّة أهله، فكرّ بالخيل وتبعه عكرمة في الخيل، فانطلقا إلى بعض الرّماة فحملوا عليهم فراموا القدح حتّى أُصيبوا، ورامى عبد الله

(١) المصدر نفسه: ١ / ٢٢٩.

(٢) المصدر نفسه: ١ / ٢٣٠.

ابن جبير حتّى فنيت نبله، ثمّ طاعن بالرمح حتّى انكسر، ثمّ كسر جفن سيفه، فقاتلهم حتّى قُتل (رضي الله عنه)... فكنّا أتينا من قبل أنفسنا ومعصية نبيّنا، واختلط المسلمون، وصاروا يقتلون ويضرب بعضهم بعضاً، وما يشعرون بما يصنعون من العجلة والدهشة»[١].

ووصلت حالة الدهشة والارتباك في صفوف المسلمين إلى حدٍّ لا يُصدَّق، فشخصية أُسيد بن خضير معروفة لدى المهاجرين والأنصار، إلاّ أنّه جرح يومئذ بجرحين غائرين من المسلمين!! ضربه أحدها أبو بُردة وما يدري، وهو يقول: خذها وأنا الغلام الأنصاري، وكرّ أبو زعنة - وهو من المسلمين - في حومة القتال فضرب أبا بردة ضربتين وما يشعر.. والتفّت سيوف المسلمين على الشيخ الكبير حسيل بن جابر وهم لا يعرفونه، حين اختلطوا، وحذيفة - ولده - يقول:

أبي، أبي؛ حتّى قتل، فقال حذيفة: «يغفر الله لكم، وهو أرحم الراحمين، ما صنعتم، فزادته عند رسول الله ﷺ خيراً وأمر رسول الله ﷺ بديته أن تخرج... فتصدق حذيفة بن اليمان بدمه على المسلمين»[٢].

وبقي المسلمون على هذه الحالة يخبط بعضهم البعض الآخر، حتّى أظهروا الشّعار بينهم فجعلوا يصيحون: أمِت، أمِت، فكفَّ بعضهم عن بعض[٣].

٥ - الثبات والهزيمة في معركة أُحد:

لقد سجّلت لنا وقائع معركة أُحد صوراً رائعة لثبات واستقامة وشجاعة الثلة المؤمنة من أصحاب رسول الله ﷺ وقد رزق الله بعضهم الشهادة في هذه المعركة، وأصاب البعض الآخر جراحات بليغة في سبيل الله، وفي المقابل هنالك صور مؤلمة مُخجلة سجلها المؤرخون تحكي لنا هزيمة الأكثرية الساحقة

---

(١) الواقدي، المغازي: ١ / ٢٣٢ - ٢٣٣.

(٢) و (٣) المصدر نفسه: ١ / ٢٣٣ - ٢٣٤.

من هؤلاء حتّى لم يثبت مع النبيﷺ سوى نفر قليل لا يتجاوز عددهم الثلاثين على أكثر تقدير في روايات المؤرخين[١].

أ - نماذج من صور الاستقامة والثبات والتضحية:

ثبات رسول اللهﷺ:

فكان أول الناس ثباتاً واستقامة في هذه المعركة حيث انكشف الناس وانهزموا... هو رسول اللهﷺ ففي رواية موسى بن يعقوب... عن المقداد قال: «... فنادى المشركون بشعارهم: يا لَلعزّى، يا آل هُبل! فأوجعوا والله فينا قتلا ذريعاً، ونالوا من رسول اللهﷺ ما نالوا، لا والذي بعثه بالحق، إن رأيت رسول اللهﷺ زال شبراً واحداً، إنّه لفي وجه العدو، وتثوب إليه طائفة من أصحابه مرّة، وتتفرق عنه مرّة، فربما رأيته قائماً يرمي عن قوسه أو يرمي بالحجر حتّى تحاجزوا، وثبت رسول اللهﷺ كما هو في عصابة صبروا معه»[٢].

والمعروف تاريخياً أن رسول اللهﷺ قد أُصيب في هذه المعركة بجراحات كثيرة، فقد كسرت رباعيته، وشُجَّ في وجنتيه، حتّى غاب حلق المغفر في وجنته، وأُصيبت ركبتاه فجحشتا... إلاّ أنّهﷺ بقي ثابتاً لا يلتفت وراءه، ولم يكن أحد يشبه رسول اللهﷺ إذا جدّ الجدُّ[٣].

ثبات علي عليه السلام ودوره يوم أُحد:

اختلفت الروايات في عدد الذين ثبتوا مع رسول اللهﷺ وفي أسمائهم - كما سوف يأتينا - إلاّ أن كلّ الروايات التاريخية تجمع على ثبات علي عليه السلام

(١) المصدر نفسه: ١ / ٢٤٠ .

(٢) المصدر نفسه: ١ / ٢٤٠ و ٢٤٢ .

(٣) الواقدي، المغازي: ١ / ٢٤٤، ٢٥١، وابن هشام، السيرة النبوية: ٣ / ٧٩ .

واستقامته في هذه المعركة[١]، وهو الوحيد الذي لم ينهزم ولم ينكل أو يتراجع في هذه المعركة وفي كل المعارك والوقائع التي خاضها إلى جنب رسول الله ﷺ وتشير بعض الروايات إلى أن عدد أصحاب اللواء من المشركين كانوا أحد عشر رجلا، وفي رواية تسعة رجال، قتلهم جميعاً علي بن أبي طالب عليه السلام[٢].

واختلفت الروايات في عدد قتلى المشركين في أُحد، ما بين الثمانية عشر رجلا، إلى الثمانية والعشرين... قتل منهم علي عليه السلام اثني عشر رجلا كما في رواية ابن أبي الحديد[٣]، وقال الشيخ المفيد: «وقد ذكر أهل السير قتلى أحد من المشركين، وكان جمهورهم قتلى أمير المؤمنين عليه السلام» ثمّ ذكر أسماء اثني عشر من الأبطال المعروفين ممن قتلهم عليه السلام[٤].

ووقف علي عليه السلام يوم أُحد كالطود الشامخ، يدافع عن رسول الله، ويحميه بنفسه عندما تداكت كتائب المشركين على رسول الله ﷺ لينالوا منه، فنراه ﷺ يقول لعلي: يا علي، اكفني هذه، فيحمل عليهم، ويفرقهم ويكثر فيهم القتل، حتّى قال جبرئيل عليه السلام: يا محمد إن هذه المواساة، لقد عجبت الملائكة من حسن مواساة عليّ لك بنفسه، فقال ﷺ: وما يمنعه من هذا، وهو مني وأنا منه. فقال جبرئيل: وأنا منكما. ثمّ سمع مناد من السماء يقول:

لا سيف إلاّ ذو الفقار ولا فتى إلاّ علي[٥]

فسئل ﷺ عنه فقال: ذاك جبرئيل.

---

(١) المصدر نفسه: ١ / ٢٤٠.

(٢) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة: ١٣ / ٢٩١، والطبري: ٢ / ٥١٤.

(٣) المصدر نفسه: ١٥ / ٥٤.

(٤) المفيد في الإرشاد: ١ / ٩٠، والعاملي، الصحيح من سيرة النبي ﷺ: ٦ / ١٥٩ - ١٦٠، وانظر مصادره في هامش الصفحة: ١٦٠.

(٥) الطبري، التاريخ: ٢/ ٥١٤، والإرشاد للمفيد: ١/ ٨٥ - ٨٧، وعنه في البحار: ٢٠/ ٨٨.

وتنص الروايات التاريخية أن أمير المؤمنين عليه السلام قد أُصيب في هذه المعركة بجراحات كثيرة في بدنه، قال أنس بن مالك: «أتي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بعلي عليه السلام يومئذ وفيه نيف وستون جراحة، من طعنة، وضربة، ورمية، فجعل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يمسحها وهي تلتئم بإذن الله تعالى كأن لم تكن»(١).

وفي رواية الشيخ المفيد في الإرشاد: أن علياً ناول فاطمة عليها السلام سيفه ذا الفقار وقال لها: خذي هذا السيف، فلقد صدقني اليوم، وأنشأ يقول:

أَفاطِمُ هاكِ السيفَ غيرَ ذَمِيم ... فلستُ بِرِعْديد ولا بِمَلِيم

لَعمري لقد أُعذِرتُ في نصر أحمد ... وطاعةِ ربٍّ بالعبادِ عليم

أميطي دِماءَ القوم عنه فإنّه ... سقى آلَ عبد الدار كأس حميم

وقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «خذيه يا فاطمة، فقد أدّى بَعْلِك ما عليه، وقد قتل الله بسيفه صناديد قريش»(٢).

ثبات حمزة بن عبد المطلب وشهادته:

كان حمزة بن عبد المطلب (رضي الله عنه) من أشد المتحمسين للقاء المشركين خارج المدينة، فقد قال لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «والذي أنزل عليك الكتاب، لا أطعمُ اليوم طعاماً حتّى أُجالدهم بسيفي خارجاً من المدينة» وكان يقال: «كان حمزة يوم الجمعة صائماً، ويوم السبت صائماً، فلاقاهم وهو صائم»(٣).

وكانت قريش تقدر مكانة وخطورة وشجاعة حمزة، إذ إنّه الشخصية الثالثة المطلوبة لقريش وللمشركين بعد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وعلي بن أبي طالب عليه السلام ولهذا قالت ابنة الحارث بن عامر بن نوفل، «لوحشي» - وهو عبد لجبير بن مطعم -:

---

(١) المجلسي، بحار الأنوار: ٢٠ / ٢٣، والطبرسي، مجمع البيان: ٢ / ٥٠٩ .

(٢) المفيد، الإرشاد: ١ / ٨٩ - ٩٠ .

(٣) الواقدي، المغازي : ٢١١/١ .

إن أنت قتلت أحد الثلاثة فأنت حرّ، إن قتلت محمّداً، أو حمزة بن عبد المطلب، أو عليّ بن أبي طالب، فإني لا أرى في القوم كفؤاً لأبي غيرهم، فقال وحشي: «أمّا رسول الله فقد علمت أنّي لا أقدر عليه، وأن أصحابه لن يسلموه، وأما حمزة فقلت: والله لو وجدته نائماً ما أيقظته من هيبته، وأ مّا عليٌّ فقد كنت التمسه، فبينا أنا في الناس التمس عليّاً إلى أنّ طلع عليٌّ، فطلع رجل حذر مَرِس، كثير الالتفات، فقلت: ما هذا صاحبي الذي التمس، إذ رأيت حمزة يفري الناس فرياً، فكمنت إلى صخرة[1] وهززت حربتي حتّى إذا رضيت منها دفعتها عليه، فوقعت في ثُنَّته[2]. حتى خرجت من بين رجليه، فأقبل نحوي، فغلب فوقع، وأمهلته حتّى إذا مات جئت فأخذت حربتي، ثمّ تنحّيت إلى العسكر، ولم تكن لي بشيء حاجة غيره»[3].

ولم تكتفِ هند بنت عتبة - زوج أبي سفيان، وأُم معاوية - بمقتل حمزة، فبعد أن إنكشف المسلمون عن أرض المعركة تاركين أجساد الشهداء على الأرض، جاءت نساء المشركين بقيادة هند للتنفيس عن أحقادهنَّ، فأخذن يمثلن بأجساد الشهداء وخاصة بجسد حمزة بن عبد المطلب (رضي الله عنه).

يقول ابن إسحاق: «ووقعت هند بنت عتبة... والنسوة اللاتي معها، يمثلن بالقتلى من أصحاب رسول الله ﷺ يجدِّعنَّ الأذان والأُنف، حتّى اتخذت هند من آذان الرّجال وأُنفهم خدماً[4] وقلائد، وبقرت عن كبد حمزة، فلاكتها، فلم تستطع أن تُسيغها، فلفظتها، ثمّ علت على صخرة مشرفة، فصرخت بأعلى صوتها فقالت:

---

(١) المصدر نفسه: ١/ ٢٨٥ .

(٢) الثَّنه: ما بين أسفل البطن إلى العانة .

(٣) ابن هشام، السيرة النبوية: ٣/ ٧٠ .

(٤) خدم: جمع خدمة، وهي الخلخال .

نحن جزيناكم بيوم بدر والحرب بعد الحرب ذات سُعدِ
شفيت نفسي وقضيتُ نذري شفيتَ وحشيّ غليل صدري

وروي عنها أيضاً:

شفيتُ من حمزة نفسي بأُحد حتّى بقرت بطنه عن الكَبد[١]

وبعدها جاء دور أبي سفيان بن حرب ولم يكتف بما فعلته هند من أفاعيل منكرة بحمزة، إذ وقف على جسده، وأخذ يضرب في شدق حمزة بزجّ الرمح وهو يقول: «ذُق عُقق، فقال الحُليس بن زيّان: يا بني كنانة: هذا سيّد قريش يصنع بابن عمّه ما ترون لحماً[٢]؟ فقال - أبو سفيان -: ويحك اكتمها عنّي، فإنها كانت زلّة»[٣].

ولهذا تأثر رسول الله ﷺ كثيراً، وآلمه المنظر عندما وقف على حمزة (رضي الله عنه) وذلك لما جرى عليه من المثلة الشنيعة، يقول ابن هشام: «ولما وقف رسول الله ﷺ على حمزة قال: لن أُصاب بمثلك أبداً، ما وقفت موقفاً قط أَغيظ إليّ من هذا! ثمّ قال: جاءني جبريل فأخبرني أنّ حمزة بن عبد المطلب مكتوب في أهل السماوات السبع: حمزة بن عبد المطلب، أسد الله، وأسد رسوله»[٤].

ثبات واستقامة وتضحية بعض أصحاب رسول الله ﷺ:

لقد سُجِّلَ لبعض أصحاب الرسول ﷺ صوراً رائعة من التضحية والفداء والإيثار، أزالت مرارة الهزيمة، وبلسمت الجراح الغائرة، وكانت كالبلسم على

---

(١) ابن هشام، السيرة النبوية: ٣ / ٩١ - ٩٢ .

(٢) لحماً: أي ميتاً لا يقدر على الانتصار لنفسه .

(٣) ابن هشام، السيرة النبوية: ٢ / ٩٣ .

(٤) المصدر نفسه: ٣ / ٩٦ .

قلب رسول الله ﷺ.

ولا يمكن لنا أن نستوعب كل صور التضحية والفداء وإنما نكتفي ببعض النماذج ممن سجلت مواقفهم وكلماتهم بحروف من نور.

سعد بن الربيع: وكان هذا الرجل من الأنصار ومن المسلمين الأوائل وممن شهد بيعة العقبة، بل كان من النُّقباء يوم العقبة، وشهد بدراً، وأُستشهد يوم أُحد.

لما فرغ الناس لقتلاهم، قال رسول الله ﷺ: «مَن رجل ينظر لي ما فعل سعد ابن الربيع؟ أفي الأحياء هو أم في الأموات؟ فقال رجل من الأنصار: أنا انظر لك يا رسول الله ما فعل سعد.

فنظر فوجده جريحاً في القتل وبه رمق، قال: فقلت له: إنَّ رسول الله ﷺ أمرني أن انظر، أفي الأحياء أنت أم في الأموات؟

قال: أنا في الأموات، فأبلغ رسول الله ﷺ عنّي السلام، وقل له: إنّ سعد بن الربيع يقول لك: جزاك الله عنّا خير ما جزى نبيّاً عن أُمته، وأبلغ قومك عنّي السلام وقل لهم: إنّ سعد بن الربيع يقول لكم: إنه لا عذر لكم عند الله إن خلص إلى نبيكم ﷺ ومنكم عين تطرف.

قال - الراوي -: ثمّ لم أبرح حتّى مات، قال: فجئت رسول الله ﷺ فأخبرته خبره. فرأيت رسول الله ﷺ استقبل القبلة رافعاً يديه يقول: اللهمّ القَ سعد بن الربيع وأنت عنه راض»[1].

حنظلة بن أبي عامر (غسيل الملائكة):

وكان حنظلة. . . قد تزوَّج. . . وأُدْخِلت عليه زوجته في الليلة التي في

(١) ابن هشام، السيرة النبوية: ٣/ ٩٤ - ٩٥. الواقدي، المغازي: ١/ ٢٩٢.

صبحها قتال أُحد، فاستأذن رسول الله ﷺ أن يبيت عندها فأذن له، فلما صلّى الصبح غدا يريد الخروج، فلزمته زوجته فعاد معها، فأجنب منها ثمّ أراد الخروج، فأرسلت زوجته إلى أربعة من قومها فاشهدتهم أنّه قد دخل بها، فقيل لها بعد: لِمَ أشهدت عليه؟ قالت: رأيت كأنّ السماء فُرجت فدخل فيها حنظلة ثمّ أطبقت، فقلت: هذه الشهادة، فأشهدت عليه أنه قد دخل بي، وتعلّق بعبد الله بن حنظلة.

وأخذ حنظلة بن أبي عامر سلاحه، فلحق برسول الله ﷺ بأُحد وهو يسوّي الصفوف، فلما انكشف المشركون اعترض حنظلة لأبي سفيان فضرب عرقوب فرسه، ووقع أبو سفيان إلى الأرض، فجعل يصيح: يا معشر قريش، أنا أبو سفيان، وحنظلة يريد ذبحه بالسيف، فأسمع صوته رجالا لا يلتفتون إليه من الهزيمة حتّى عاينه الأسود بن شعوب، فحمل على حنظلة بالرمح... ثمّ ضربه الثانية فقتله، وهرب أبو سفيان يعدو على قدميه فلحق ببعض قريش[١].

ووالد حنظلة هو أبو عامر الراهب، الذي سمّاه رسول الله (الفاسق) الذي خرج مع مجموعة من قومه من أهل المدينة والتحق بقريش محرضاً لهم على رسول الله ﷺ وخرج معهم في هذه المعركة كما مرّ بنا سابقاً، «فلما قتل حنظلة مرّ عليه أبوه، وهو مقتول إلى جانب حمزة بن عبد المطلب، وعبد الله بن جحش، فقال: إن كنت لأَحذّرك هذا الرجل[٢]... ثمّ نادى: يا معشر قريش، حنظلة لا يمثل به... فمثّل بالناس وترك فلم يمثّل به»[٣].

وسمّي حنظلة بغسيل الملائكة للرواية المشهورة عن رسول الله ﷺ حيث

---

(١) الواقدي، المغازي: ١ / ٢٧٣ - ٢٧٤ . ابن هشام، السيرة النبوية: ٣ / ٧٥ .

(٢) يعني رسول الله ﷺ.

(٣) الواقدي، المغازي: ١/ ٢٧٤ .

قال: «إنّي رأيت الملائكة تغسّل حنظلة بن عامر بين السماء والأرض بماء المزن في صحاف الفضّة». قال أبو أُسيد الساعدي: فذهبنا فنظرنا إليه فإذا رأسه يقطر ماءً، فرجعت إلى رسول الله ﷺ فأخبرته، فأرسل إلى امرأته فسألها، فأخبرته انه خرج وهو جُنب»[١].

وحنظلة الشهيد هو والد شهيد معروف في التاريخ يدعى «عبد الله بن حنظلة» صاحب ثورة المدينة وواقعة الحرَّة في وجه الأمويين زمن يزيد بن معاوية بن أبي سفيان[٢].

عمرو بن الجموح وشوقه للجنة:

يذكر المؤرخون: «إنّ عمرو بن الجموح كان رجلا أعرج شديد العرج، وكان له بنون أربعة مثل الأُسد، يشهدون مع النبي ﷺ المشاهد، فلما كان يوم أُحد أرادوا حبسه، وقالوا له: إن الله عزّ وجل قد عذرك، فأتى رسول الله ﷺ، فقال: إن بني يريدون أن يحبسوني عن هذا الوجه، والخروج معك فيه، فوالله إني لأرجو أن أطأ بعرجتي هذه في الجنّة، فقال رسول الله ﷺ: أما أنت فقد عذرك الله فلا جهاد عليك، وقال لبنيه: ما عليكم أن ألا تمنعوه، لعلّ الله أن يرزقه الشهادة، فخرج معه فقتل يوم أُحد»[٣].

وزاد الواقدي في المغازي: «إن عائشة زوج النبي ﷺ لقيت هند بنت عمرو ابن حرام أُخت عبد الله بن حرام - على مشارف المدينة - تسوق بعيراً، عليه زوجها عمرو بن الجموح، وابنها خلاّد بن عمرو، وأخوها عبد الله بن عمرو بن حرام أبو جابر - الأنصاري - فقالت عائشة: عندك الخبر، فما وراءكِ؟ فقالت

---

(١) المصدر نفسه: ١ / ٢٧٤ .

(٢) للتوسع: انظر كتابنا: نهضة كربلاء والعزة الحسينية: ٦٣ وما بعدها، طبعة دار المحجة البيضاء بيروت ١٤٢٩هـ ٢٠٠٨م .

(٣) ابن هشام، السيرة النبوية: : ٣ / ٩٠ - ٩١ .

هند: خيراً، أما رسول الله ﷺ فصالح، وكل مصيبة بعده جَلَل[(١)]، واتخذ الله من المؤمنين شهداء، ﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُواْ خَيْرًاۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴿٢٥﴾﴾[(٢)].

قالت عائشة: من هؤلاء؟ قالت: أخي وابني خلاّد، وزوجي عمرو بن الجموح، قالت: فأين تذهبين بهم؟ قالت: إلى المدينة أقبرهم فيها... حَل! تزجرُ بعيرها، ثمّ برك بعيرها، فقالت عائشة: لما عليه - من حمل - قالت: ماذاك به، لربّما حمل ما يحمل البعيران، ولكني أراه لغير ذلك، فزجرته فقام، فلما وجهته به إلى المدينة برك، فوجّهته راجعة إلى أُحد فأسرع.

فرجعت إلى النبي ﷺ فأخبرته بذلك فقال رسول الله ﷺ : فإن الجمل مأمور هل قال - أي زوجها عمرو - شيئاً؟ قالت: إنّ عَمراً لمّا وجّه إلى أُحد استقبل القبلة وقال: اللهم لا تردّني إلى أهلي خزياً، وارزقني الشهادة، قال رسول الله ﷺ : فلذلك الجمل لا يمضي، إنّ منكم يا معشر الأنصار مَن لو أقسم على الله لأبرّه، منهم عمرو بن الجموح، يا هند، ما زالت الملائكة مظلّة على أخيك من لدن قتل إلى الساعة ينظرون أين يُدفن.

ثمّ مكث رسول الله ﷺ حتّى قبرهم، ثمّ قال: يا هند، قد ترافقوا في الجنّة جميعاً، عمرو بن الجموح، وابنك خلاّد، وأخوك عبد الله، قالت هند: يا رسول الله ادع الله عسى أن يجعلني معهم»[(٣)].

كانت هذه بعض صور الملاحم البطولية لمواقف الثبات والاستقامة والتضحية، ومن المؤكد أنّ هنالك صوراً ومواقف كريمة أُخرى لا يمكننا استيعابها جميعاً، ولكنّا نشير إلى بعضها:

---

(١) قال ابن هشام: الجلل: يكون من القليل، ومن الكثير، وهو هاهنا من القليل، السيرة النبوية: ٣/ ٩٩ .

(٢) الأحزاب: ٢٥ .

(٣) الواقدي، المغازي: ١ / ٢٦٥ - ٢٦٦ .

موقف أنس بن النضر:

بعد أن فرّ من فرّ من معركة أُحد، وترك رسول اللهﷺ في أرض المعركة مع نفير من أصحابه، وأُشيع بين الناس أنّ محمداًﷺ قد قُتل، ثبت هذا المجاهد ثبوت الأبطال وقاتل قتال الشجعان حتّى استشهد، يروي الواقدي في المغازي قال: «قالوا: أتينا عمر بن الخطاب في رهط من المسلمين قعوداً، ومرّ بهم أنس ابن النّضر.. فقال: ما يقعدكم؟ قالوا: قُتل رسول اللهﷺ! قال: فما تصنعون بالحياة بعده؟ قوموا فموتوا على ما مات عليه! ثمّ جالدهم بسيفه حتّى قُتل. فقال عمر بن الخطاب: إنّي لأرجو أن يبعثه الله أُمّة وحدهُ يوم القيامة. ووجد به سبعون ضربة في وجهه، ما عُرف حتّى عرفت أُخته حسن بنانه، ويقال حُسن ثناياه»(١).

وفي رواية الطبري: «انتهى أنس بن النضر... إلى عمر بن الخطاب وطلحة بن عبيد الله في رجال من المهاجرين والأنصار، وقد ألقوا بأيديهم، فقال: ما يجلسكم، قالوا... ثمّ نقل نص الرواية السابقة»(٢).

ويروي الطبري حديث فرار الأصحاب، عمن حدثه عن السدي، قال: «... وتفرق عنه أصحابه، ودخل بعضهم المدينة، وانطلق بعضهم فوق الجبل إلى الصخرة فقاموا عليه! وجعل رسول اللهﷺ يدعو الناس: إليّ عباد الله، إليّ عباد الله!... وفشا في النّاس أنّ رسول اللهﷺ قد قُتل، فقال بعض أصحاب الصخرة: ليت لنا رسولا إلى عبد الله بن أبي فيأخذ لنا أمنة من أبي سفيان! يا قوم إنّ محمداً قد قتل، فارجعوا إلى قومكم قبل أن يأتوكم فيقتلوكم! قال أنس بن النضر: يا قوم، إن كان محمّد قد قُتل، فإن ربّ محمد لم يقتل، فقاتلوا على ما

(١) المصدر نفسه: ١ / ٢٨٠، والطبري: ٢ / ٥١٧.

(٢) الطبري: ٢ / ٥١٧.

قاتل عليه محمّد: اللهمّ إني اعتذر إليك مما يقول هؤلاء، وأبرأُ إليك مما جاء به هؤلاء، ثمَّ شدَّ بسيفه فقاتل حتّى قُتل»[١].

إنّ في موقف هذا الشهيد دلالات كثيرة، وفي كلامه بحسب رواية الطبري تأملات سوف نتوقف عندها لاحقاً.

موقف أبي دجانة سماك بن خرشة أخي بني ساعدة:

روى الواقدي، وابن إسحاق، والطبري، واللفظ للأول:

«وقال رسول الله ﷺ يوم أُحد: مَن يأخذ هذا السيف بحقّه؟ قالوا: وما حقّه؟ قال ﷺ: يضرب به العدوّ، فقال عمر: أنا، فأعرض عنه رسول الله ﷺ، ثمّ عرضه رسول الله ﷺ بذلك الشرط، فقام الزبير فقال: أنا، فاعرض عنه رسول الله ﷺ، حتى وجد عمر وابن الزبير في أنفسهما، ثمّ عرضه الثالثة: فقال أبو دجانة: أنا يا رسول الله آخذه بحقّه، فدفعه إليه رسول الله ﷺ فصدق به حين لقي العدوّ، وأعطى السيف حقّه، فقال أحد الرجلين - إما عمر وإما الزبير[٢] -: والله لأجعلن هذا الرجل من شأني، الذي أعطاه النبيّ السيف ومنعنيه، قال: فاتّبعه، قال: فوالله ما رأيت أحداً قاتل أفضل من قتاله، لقد رأيته يضرب به حتّى إذا كلَّ عليه وخاف إلاّ يحيك عمد به إلى الحجارة فشحذه، ثمّ يضرب به العدوّ حتّى ردّه كأنّه المنجل. وكان حين أعطاه السيف مشى بين الصَّفين واختال في مشيته، فقال رسول الله ﷺ حين رآه يمشي تلك المشية: إنّ هذه لمشية يبغضها الله إلاّ في مثل هذا الموطن.

قال أبو دجانة: إني لأنظر يومئذ إلى امرأة تقذف الناس وتحوشهم حَوشاً

(١) المصدر نفسه: ٢ / ٥١٩ - ٥٢٠.

(٢) في رواية ابن هشام: ٣ / ٦٨، ان القائل هو: الزبير بن العوام.

منكراً، فرفعت عليها السيف وما أحسبها إلاّ رجلا، قال: وأكره أن اضرب بسيف رسول الله امرأة، والمرأة عَمرة بنت الحارث وفي رواية ابن إسحاق: فاكرمت سيف رسول الله ﷺ أن أضرب به امرأة»[١].

وفي قصّة هذا الصحابي الشجاع، واعطائه السيف من قبل رسول الله ﷺ بعد أن أعرض ﷺ عمن سبقه في قبول أخذه السيف بحقّه. . . مواطن من التأمل والعبرة لعلنا نتوقف عندها لاحقاً.

ب - نماذج من صور الهزيمة:

لقد سجلت لنا وقائع معركة أُحد صوراً رائعة تجلّت فيها التضحية والفداء والثبات والاستقامة. كذلك نجد إلى جانب ذلك صوراً من الخذلان والهزيمة.

لقد خرج النبي ﷺ من المدينة ومعه ألف مقاتل، وفي وسط الطريق إلى أُحد انحاز عنه ابن أُبي مع مجموعة قوامها ثلاثمائة مقاتل، وعادوا إلى المدينة كما مرّ بنا سابقاً.

وخاض رسول الله ﷺ المعركة في جولتها الأُولى بسبعمائة مقاتل وكان النصر حليفهم، إذ انهزمت قريش وتركت نساءها باكيات مولولات في ساحة المعركة.

ولكن وبعد هذه الجولة ونتيجة لمخالفة أكثرية الرماة الذين وضعهم رسول الله ﷺ لحماية ظهور المقاتلين من أعلى الجبل، انقلبت موازين القوى بعد أن وجدها المشركون فرصة للالتفاف على جيش المسلمين، وهكذا حصل ; إذ أُحيط بجيش المسلمين من كلّ جانب فأكثروا فيهم القتل ثمّ التمثيل بالأجساد.

---

(١) الواقدي، المغازي: ١ / ٢٥٨ - ٢٥٩، وابن هشام، السيرة النبوية: ٣ / ٦٦ - ٦٨، والطبري: ٢ / ٥١٠ - ٥١١.

وفي مثل هكذا مواطن يأتي دور الصبر والاستقامة والثبات الذي أوصاهم به رسول الله ﷺ قبل المعركة: «انظروا ما أمرتكم به فاتّبعوه، امضوا على اسم الله فلكم النصر ما صبرتم»[١].

فنجد عدم التقيد بأوامر رسول الله ﷺ أولا، وعدم الثبات والاستقامة والصبر من قبل الكثير من المقاتلين، ثانياً، قد أدى إلى كثرة القتلى والجرحى في صفوف المسلمين، ولا نقول هزيمة المسلمين في هذه المعركة إذ لم تكن في أُحد هزيمة كما سوف يأتينا لاحقاً.

وعندما نعود إلى النصوص التاريخية نجد أن المؤرخين قد سجلوا لنا لقطات من صور الهزيمة والفرار وذكروا بعض أسماء الفارّين بصراحة تامة، وحذفوا بعض الأسماء الأُخرى وذكروا محلّها فلان وفلان، لأسباب معروفة.

فعندما يذكر الراوي استقامة وثبات وتضحية تلك المرأة الصالحة نسيبة بنت كعب، يقول: سمعت النبي يقول: «لمقام نسيبة اليوم خير من مقام فلان وفلان...»[٢] فمن هو فلان بن فلان؟

فهنا نجد نوعاً من التدليس التاريخي إما من قبل الراوي نفسه، أو من قبل المؤرخ الذي ينقل رواية الراوي، ولهذا نجد ابن أبي الحديد المعتزلي بعد أن ينقل رواية الواقدي السابقة يعقب على ذلك بقوله: «ليت الرّاوي لم يُكنِّ هذه الكناية، وكان يذكرهما باسمهما حتّى لا تترامى الظنون إلى أُمور مشتبهة! ومن أمانة المحدّث أن يذكر الحديث على وجهه ولا يكتم منه شيئاً، فما باله كتم اسم

---

(١) الواقدي، المغازي: ١ / ٢١٤ .

(٢) المصدر نفسه: ١ / ٢٦٩ .

هذين الرجلين»[١].

ومهما يكن من أمر لسنا بصدد ذكر أسماء وعدد من فرّ من المعركة بعد أن ذكرت الروايات التاريخية انهم الأكثرية، أو أنهم كلّ الجيش ما عدا علياً عليه السلام[٢] ثمّ عاد من عاد إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حتّى تكامل عددهم إلى الثلاثين كما في رواية الواقدي[٣].

إلاّ أنّ هذا المؤرخ نفسه يذكر في مكان آخر من كتابه انه: «وثبت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كما هو في عصابة صبروا معه، أربعة عشر رجلا، سبعة من المهاجرين وسبعة من الأنصار»[٤].

ونكتفي هنا بذكر بعض النصوص التي تشير إلى مواقف الهزيمة الميدانية والنفسية، وحجم الفارين في ذلك اليوم.

روى الواقدي:

«لمّا صاح الشيطان... إنّ محمّداً قد قُتل.. سقط في أيدي المسلمين وتفرّقوا في كلّ وجه وصعدوا في الجبل».

وفي رواية محمد بن مَسلمة يقول: «سمعت أُذناي وأبصرت عيناي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول يومئذ، وقد انكشف الناس إلى الجبل وهم لا يلوون عليه، وإنه يقول: إليّ يا فلان، إليّ يا فلان، أنا رسول الله! فما عرّج منهما واحد عليه ومضيا».

---

(١) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة: ١٤ / ٢٦٨، وقارن بما قاله العلامة المجلسي في البحار: ٩ / ٧٩ من الطبعة الأُولى الحديثة (١٤٢١ هـ - ٢٠٠١ م) والمجلد ٢٠ / ١٣٣ من طبعته الـ (١١٠) مجلدات.

(٢) المفيد، الإرشاد: ١ / ٧٩.

(٣) الواقدي، المغازي: ١ / ٢٤٠.

(٤) المصدر نفسه: ١ / ٢٤٠ و ٢٩٤.

وفي رواية أُخرى يقول الراوي: لمّا انكشف المسلمون ذلك اليوم نظرت إلى رسول الله ﷺ وما معه إلاّ نفير..[١]... «حتّى انتهى من انتهى منهم إلى قريب من المهراس»[٢].

والملاحظ في هذه الروايات انها تنقل الحدث عن حس ومشاهدة ميدانية، وليست مضامينها أُموراً حدسية حتّى يشكك فيها.

كما أنّ هزيمة من انهزم لم تنتهِ إلى «المهراس» وإنما وصل بعضهم إلى المدينة، حتّى دخلوا إلى نسائهم! «حتى جعل النساء يقلن: أعن رسول الله تفرّون» وكان ابن أُم مكتوم يقول لهم: أعن رسول الله تَفرُّنَّ؟ ثمّ جعل يؤفف بهم.

بل ان بعضهم هرب إلى أبعد من ذلك حتّى وصل إلى «مَلل» و «الشقرة» وهما على طريق المدينة إلى مكة وعلى بعد يومين من المدينة!! ولقيتهم أُم أيمن تحثي في وجوههم التراب وتقول لبعضهم: هاك المِغزل فاغزل به، وهلّم سيفك[٣].

وقد مرّ بنا سابقاً رواية الطبري عن بعض الفارين، أصحاب الصخرة قولهم: «ليت لنا رسولا إلى عبد الله بن أُبي، فيأخذ لنا أمنة من أبي سفيان... وقول أنس ابن النضر:... اللهم إني أعتذر إليك مما يقول هؤلاء، وأبرأ إليك مما جاء به هؤلاء»[٤].

بل إن بعض الفارين من المعركة لم يَعُدْ إليها ولا إلى المدينة إلاّ بعد ثلاثة أيام كان فيها مختفياً في الجبال فقال له رسول الله ﷺ : «لقد ذهبتم فيها

(١) الواقدي، المغازي: ١ / ٢٣٥، ٢٣٧، ٢٣٨، ٢٤٠ .

(٢) المهراس: أقصى شعب أُحد، يجتمع فيه ماء المطر .

(٣) الواقدي، المغازي: ١ / ٢٧٧ - ٢٧٨، وانظر هامش: ٢٧٧ - ٢٧٨ من المصدر نفسه .

(٤) الطبري: ٢ / ٥٢٠ .

عريضة»[١] كناية عن هزيمته التي أبعد فيها - زماناً ومكاناً - عن محل الواقعة.

والأَمرُّ والأدهى من ذلك كله ما روي عن السِّدي في سبب نزول الآية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ . . .﴾[٢] قال: «لما كانت وقعة أُحد اشتدّ على طائفة من الناس وتخوفوا أن يدال عليهم الكفار، فقال رجل لصاحبه بعد وقعة أُحد: «أما أنا فإني ذاهب إلى ذلك اليهودي، فآوي إليه وأتهوّد معه، لعلّه ينفعني إذا وقع أمر أو حدث حادث! وقال الآخر: وأما أنا فأذهب إلى فلان النصراني بالشام، فآوي إليه واتنصّر معه، فأنزل الله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ﴾»[٣].

نكتفي بهذا المقدار من صور الهزيمة والفرار ولا نوغل في العمق بذكر الأسماء والمسمَّيات بعد أن تكفلت بذلك كتب السيرة والتراجم والرجال[٤].

٦ - دور المرأة في معركة أُحد

أ - دور المرأة المشركة في معركة أُحد:

لقد ابتدعت قريش أمراً لم تعهده العرب في حروبها حينما أخرجوا معهم النساء لتشجيعهم وتذكيرهم بقتلى بدر، فأخذنَ يُحَرِّضْنَ ويضرِبْنَ بالدفوف، وينشُدنَ الأشعار، ويشجعْنَ الرجال، و «كلّما ولّى رجل حرّضنه وذكّرنه قتلاهم ببدر»[٥]، ولم تسجل لنا وقائع معركة أُحد بكلّ تفاصيلها أيّ شجاعة قتالية لنساء

---

(١) المفيد، الإرشاد: ١ / ٨٤، والطبري: ٢ / ٥٢٢ .

(٢) المائدة: ٥١ .

(٣) ابن كثير، التفسير: ٢/٩٥، في تفسير الآية ٥١ من سورة المائدة. والسيوطي، تفسيره الدر المنثور: ٣ / ٩٣ عند تفسير الآية ففسرها .

(٤) للتوسع انظر الصحيح من سيرة النبي: ٦ / ٢٢٢ - ٢٢٣ مع الهامش .

(٥) الواقدي، المغازي: ١ / ٢٢٣ و ٢٢٥ .

قريش، «قيل لأُم عمارة: هل كنّ نساء قريش يومئذ يقاتلن مع أزواجهنّ؟ فقالت: أعوذ بالله، ما رأيت امرأة منهنّ رمت بسهم ولا بحجر، ولكن رأيت معهنّ الدّفاف، يضربن ويذكّرن القوم قتلى بدر، ومعهنّ مكاحل ومراود، فكلّما ولّى رجل أو تكعكع، ناولته إحداهنّ مِروداً ومكحلة ويقلن: إنما أنت امرأة. وقد رأيتهنّ ولّين منهزمات مشمرات. . . يتبعن الرجال على الأقدام، فجعلن يسقطن في الطريق، وقد رأيت هند بنت عتبة، وكانت امرأة ثقيلة ولها خَلق، قاعدة خاشية من الخيل ما بها مشي، ومعها امرأة أُخرى، حتّى كرّ القوم علينا فأصابوا منّا ما أصابوا، فعند الله نحتسب ما أصابنا يومئذ من قبل الرّماة ومعصيتهم لرسول الله ﷺ»[1].

نعم كانت لنساء قريش بقيادة «هند بنت عتبة» دور المُثْلَة بأجساد الشهداء، «وكانت هند أوّل من مَثَّل بأصحاب النبي ﷺ وأمرت النساء بالمَثل - جدع الأُنوف والآذان - فلم تبقَ امرأة إلاّ عليها معضدان ومَسكتان وخَدمتان[2]، ومُثِّلَ بهم كلُّهم إلاّ حنظلة».

وفي رواية أُخرى للواقدي: «إنَّ هند أخذت كبد حمزة فمضغتها ثمّ لفظتها. . . ثمّ قالت لوحشي قاتل حمزة: أرني مصرعه، فأراها مصرعه، فقطعت مذاكيره، وجدعت أنفه، وقطعت أُذنيه، ثمّ جعلت مَسكتين ومعضدين وخدمتين، حتّى قدمت بذلك مكّة، وقدمت بكبده معها»[3].

بهذه الأعمال الشنيعة ختمت نساء قريش معركة أُحد وهكذا سجّل لنا الرواة دورهن المخزي في هذه المعركة.

ب - دور المرأة المسلمة في معركة أُحد:

وفي المقابل نجد نماذج من النساء المؤمنات خرجن مع النبي ﷺ في هذه

---

(١) المصدر نفسه: ٢ / ٢٧٢ .

(٢) المعضد: الدملج، والمسك: الأسورة، والخدمة: الخلخال (الصحاح) .

(٣) الواقدي، المغازي: ١ / ٢٨٦ .

المعركة، ولم يكن الغرض من خروجهنّ القتال إلى جانب الرجال، إذ لا قتال على النساء، ولا لغرض التحريض والتشجيع، وإنما من أجل حمل الماء وسقي الجرحى والتمريض، ولكن عندما آلت الأُمور إلى موقف يجب فيه القتال على الكلّ دفاعاً عن النفس، وقفنَ في ذلك الموقف الحرج موقفاً مشرفاً فاق مواقف بعض الرجال كما في بعض الروايات التي سوف تأتينا.

وفيما يلي بعض النماذج لدور المرأة المسلمة في معركة أُحد.

نسيبة بنت كعب أُم عمارة:

وقد سجلت هذه المرأة في معركة أُحد أروع صور الشجاعة والمواساة لرسول الله والدفاع عن الإسلام وعن رسول الله ﷺ.

لقد شهدت هذه المرأة أُحداً هي وزوجها وأبناها، وكان خروجها أوّل النهار من يوم أُحد تريد أن تسقى الجرحى، فقاتلت يومئذ وأبلت بلاءً حسناً، فجرحت اثني عشر - أو ثلاثة عشر - جرحاً بين طعنة برمح أو ضربة بسيف.

تروي أُم سعد بنت سعد بن ربيع - الشهيد في هذه المعركة - تقول: «دخلت عليها - أي على نسيبة - فقلت لها: يا خالة، حدثيني خبرك، فقالت: خرجت أوّل النهار إلى أُحد، وأنا أنظر ما يصنع الناس، ومعي سقاء فيه ماء، فانتهيت إلى رسول الله ﷺ وهو في أصحابه، والدّولة والريح للمسلمين، فلمّا انهزم المسلمون انحزت إلى رسول الله ﷺ فجعلت أُباشر القتال وأذب عن رسول الله ﷺ بالسيف وأرمي بالقوس حتى خلصت إليّ الجراح.

وفي رواية أُخرى، «قالت أُم عمارة - نسيبة - قد رأيتني وانكشف الناس عن رسول الله ﷺ فما بقي إلاّ نفير ما يتمّون عشرة، وأنا وابناي وزوجي بين يديه نذبّ عنه، والناس يمرون به - أي برسول الله - منهزمين، ورآني - رسول الله - لا تُرسَ معي، فرأى رجلا مولّياً معه تُرس، فقال ﷺ: يا صاحب التُرس، ألق

تُرسك إلى من يقاتل، فألقى ترسه فأخذته فجعلت أترّس عن رسول الله ﷺ».

وقد بقيت هذه المرأة على ثباتها وشجاعتها وعزمها، رغم الجراحات الكثيرة التي أصابتها، فبعد انتهاء معركة أُحد نادى منادي النبي ﷺ إلى حمراء الأسد، «فشدَّت عليها ثيابها فما استطاعت من نزف الدّم... فلمّا رجع رسول الله ﷺ من الحمراء، ما وصل إلى بيته حتّى أرسل إليها... من يسأل عنها، فرجع يخبره بسلامتها فسرّ النبي ﷺ بذلك».

ولهذا ثمن النبي ﷺ مواقفها الشجاعة وتوَّجها بكلمات خالدة، خلّدت ذكرها في الخالدين، فقد حدث ضمرة بن سعيد عن جدته - وكانت قد شهدت أُحداً تسقي الماء - قالت: سمعت النبي ﷺ يقول: «لمقام نسيبة بنت كعب اليوم خير من مقام فلان وفلان! وكان يراها تُقاتل أشدّ القتال، وانها لحاجزة ثوبها على وسطها، حتى جرحت ثلاثة عشر جرحاً...».

ويروي الواقدي عمن حدثه عن عبد الله بن زيد بن عاصم يقول: «شهدت أحداً مع رسول الله ﷺ ، فلمّا تفرّق الناس عنه دنوت منه، وأُمي تذبّ عنه، فقال: يا ابن أُم عمارة، قلت: نعم، قال: إرم، فرميت بين يديه... فنظر إلى جرح بأُمي على عاتقها، فقال ﷺ : أُمّك، أُمّك! اعصب جُرحَها، بارك الله عليكم أهل بيت مقام أُمّك خير من مقام فلان وفلان، ومقام ربيبك - يعني زوج أُمّه - خير من مقام فلان وفلان، ومقامك لخير من مقام فلان وفلان، رحمكم الله أهل البيت! قالت - نسيبة - ادع الله أن نرافقك في الجنة، قال: اللهمّ اجعلهم رفقائي في الجنة. قالت: ما أُبالي ما أصابني من الدنيا»[1].

حَمنة بنت جحش:

«وكانت قد خَرجت يومئذ إلى أُحد مع النساء يسقين الماء» ولم تكن قد

---

(١) كل الروايات نقلناها عن الواقدي، المغازي: ١ / ٢٦٨ - ٢٧٣ .

شاركت في القتال كما فعلت أُم عمارة نسيبة، إلاّ أنّها واست النبيﷺ حيث فقد في هذه المعركة خالها حمزة بن عبد المطلب، وأخاها عبد الله بن جحش، وزوجها مصعب بن عمير، فتلقت خبر استشهادهم بصبر وجلد وإيمان راسخ.

روى الواقدي قال: «وأقبلت حَمنة بنت جحش.. فقال لها رسول اللهﷺ: يا حَمنَ، احتسبي، قالت: مَن يا رسول الله؟ قال: خالك حمزة، قالت: إنّا لله وإنّا إليه راجعون، غفر الله له ورحمه، هنيئاً له الشهادة، ثمّ قال لها: احتسبي، قالت: مَن يا رسول الله؟ قال: أخوك، قالت: إنّا لله وإنّا إليه راجعون، غفر الله له ورحمه، هنيئاً له الجنّة. ثمّ قال لها: احتسبي، قالت: مَن يا رسول الله؟ قال: مصعب بن عمير، قالت: وا حُزناه... فقال رسول اللهﷺ إنّ للزوج من المرأة مكاناً ما هو لأحد، ثمّ قال لها رسول اللهﷺ: لِمَ قلت هذا؟ قالت: يا رسول الله، ذكرتُ يُتم بنيه فراعني، فدعا رسول اللهﷺ لولده أن يُحسن عليهم من الخَلف...»[1].

السُّميراء بنت قيس:

إحدى نساء بني دينار، وقد أُصيب ابناها مع النبيﷺ بأُحد، فلما نعيا لها قالت: «ما فعل رسول اللهﷺ؟ قالوا: خيراً، هو بحمد الله صالح على ما تحبّين، قالت: أرونيه انظر إليه! فأشاروا لها إليه، فقالت: كلّ مصيبة بعدك يا رسول الله جلل، وخرجت تسوق بابنيها بعيراً تردهما إلى المدينة...»[2].

هذه نماذج لبعض صور الشجاعة والبطولة والمواساة للمرأة إلى جانب النبيﷺ.

وقد مرّ بنا سابقاً قصّة عمرو بن الجموح وشهادته، وقول زوجته التي فقدت زوجها وابنها وأخاها حيث قالت لعائشة: «أما رسول الله فصالح، وكلّ

(١) الواقدي، المغازي: ١ / ٢٩١ - ٢٩٢.

(٢) المصدر نفسه: ١ / ٢٩٢.

مصيبة بعده جلل».

وروى ابن هشام صورة رائعة لمواساة نساء الأنصار للنبي في قصة شهادة حمزة بن عبد المطلب.

قال: «وبعد عودة رسول الله ﷺ إلى المدينة مرّ بدار من دور الأنصار... فسمع البكاء والنوائح على قتلاهم، فذرفت عينا رسول الله ﷺ فبكى، ثمّ قال: لكنّ حمزة لا بواكي له، فلما رجع سعدبن معاذ، وأُسيد بن حضير، إلى دار بني عبد الأشهل أمرا نساءهم أن يتحزمن، ثم يذهبن فيبكين على عمّ رسول الله ﷺ... فلما سمع رسول الله ﷺ بكاءهنّ على حمزة خرج عليهنّ... فقال: ارجعن يرحمكن الله، فقد آسيتن بأنفسكن، وفي رواية: انه ﷺ قال: رحم الله الأنصار، فإن المواساة منهم ما علمت لقديمة...»[1].

٧ - نهاية المعركة

حرص رسول الله ﷺ على تجميع قوى المسلمين من جديد والرجوع بهم إلى مراكزهم الأُولى التي وضعهم فيها وإعادة كرّة الحرب على المشركين من جديد، فأخذ يناديهم بأسمائهم: «إليّ يا فلان، إليّ يا فلان، أنا رسول الله ﷺ...» «أنا ابن العواتك، أنا النبيّ لا كذب، أنا ابن عبد المطلب»[2].

فعاد إلى النبي ﷺ ثلة من المؤمنين المجاهدين، واستطاعوا أن يصدّوا الهجمات المتتالية من قبل المشركين بقيادة خالد بن الوليد، فذهبت كل محاولات المشركين للقضاء النهائي على المسلمين ادراج الرياح، وخافوا أن يقوم المسلمون بحملة مضادة بعد تجمّعهم حول النبي ﷺ تكون فيها خسارتهم

(١) ابن هشام، السيرة النبوية: ٣ / ٩٦ .

(٢) الواقدي، المغازي: ١ / ٢٣٧ - ٢٨٠ .

للحرب، في الوقت الذي بلغ الإعياء والارهاق بقريش حداً بالغاً لما تكبدوه في هذه الواقعة في جولتها الأُولى من ضحايا، وفي جولتها الثانية من جهد وعناء نتيجة هجماتهم المتكررة للقضاء على المسلمين نهائياً، لهذا كلّه قررت قريش انهاء القتال، فأعلن أبو سفيان انتهاء الحرب، ونادى بأعلى صوته: أعل هبل، فأجابه النبيﷺ بواسطة أحد أصحابه «الله أَعْلى وأَجلُّ»، ثمّ قال أبو سفيان: «لنا العزّى ولا عُزّى لكم» فأجابه النبيﷺ أيضاً: «الله مولانا ولا مولى لكم». ولما انصرف أبو سفيان ومن معه نادى: «وإن موعدكم بدر العام القابل» فقال النبيﷺ لرجل من أصحابه قل: «نعم هو بيننا وبينكم موعد»[١].

لقد كانت قريش بانسحابها المفاجئ من المعركة تريد أن تحافظ على النصر الظاهري الذي حققته، وكانت تعلم يقينا أنّها إن أصرَّت على استمرارية الحرب فإن الكرّة سوف تكون عليهم، وهذا ما أفصح عنه بعض قادتهم بعد الانسحاب والوصول إلى وادي العقيق «فوقفوا وقفة بالعقيق وتشاوروا في دخول المدينة، فقال لهم صفوان بن أُمية: قد أصبتم القوم، فانصرفوا فلا تدخلوا عليهم وأنتم كالّون، ولكم الظفر، فإنكم لا تدرون ما يغشاكم، قد ولّيتم يوم بدر، والله ما تبعوكم والظفر لهم...».

وفي رواية عمرو بن العاص - وكان مع المشركين في أُحد - «... لمّا كررنا عليهم أصبنا مَن أصبنا منهم وتفرّقوا في كلّ وجه، وفاءت لهم فئة بعد، فتشاورت قريش فقال: لنا الغلبة، فلو انصرفنا... ولا نأمن أن يكرّوا علينا وفينا جراح، وخيلنا عامّتها قد عُقرت من النّبل فمضوا...»[٢].

إلاّ أنّ رسول اللهﷺ كان يحسب للأُمور العسكرية حساباتها الدقيقة،

---

(١) المصدر نفسه: ١/ ٢٩٦ - ٢٩٧، والسيرة النبوية لابن هشام: ٣/ ٩٣، والطبري: ٢/ ٥٢٦ - ٥٢٧.
(٢) المصدر نفسه: ١ / ٢٩٨ - ٢٩٩.

والحرب خدعة، فقد تكون قريش بانسحابها المفاجئ من المعركة تعدّ العدة للإغارة على المدينة بعد أن تستجمع قواها، ولهذا: «بعث رسول الله ﷺ عليّ ابن أبي طالب فقال: اخرج في آثار القوم، فانظر ماذا يصنعون وما يريدون، فإن كانوا قد جنّبوا الخيل، وامتطوا الإبل فانهم يريدون مكة، وإن ركبوا الخيل وساقوا الإبل، فإنهم يريدون المدينة، والذي نفسي بيده، لئن أرادوها لأسيرن إليهم فيها، ثمّ لأُناجزنهم.

قال عليّ: فخرجت في آثارهم انظر ماذا يصنعون، فجنّبوا الخيل، وامتطوا الإبل، ووجّهوا إلى مكة»[١].

وهكذا اطمأنّ رسول الله ﷺ بعدم عودة قريش إلى الحرب وغزو المدينة.

٨ – دفن شهداء معركة أُحد

لقد خلّفت معركة أُحد سبعين شهيداً، من المهاجرين أربعة أو ستة، والباقون من الأنصار[٢]. وجرح من المسلمين بنفس العدد، وهنالك روايات أُخرى في عدد من قتل أو جرح تراجع في مظانها.

وبعد أن انسحبت قريش من أرض المعركة «فزع الناس لقتلاهم، فاحتمل ناس من المسلمين قَتلاهم إلى المدينة، فدفنوهم بها، ثمّ نهى رسول الله ﷺ عن ذلك، وقال: ادفنوهم حيث صُرعوا».

وروى ابن إسحاق: «أن رسول الله ﷺ لمّا أشرف على القتلى يوم أُحد، قال: أنا شهيد على هؤلاء، إنه ما من جريح يُجرح في الله، إلاّ والله يبعثه يوم القيامة يدمى جرحه، اللونُ لونُ دم، والريح ريح مسك، انظروا أكثر هؤلاء جمعاً للقرآن،

---

(١) ابن هشام، السيرة النبوية: ٣ / ٩٤، والطبري: ٢ / ٥٢٧، إلا أنّ الواقدي في المغازي: ١ / ٢٩٨ ذكر ان النبي قد أرسل سعد بن أبي وقاص! انظر ما قاله العاملي من الصحيح: ٦ / ٢٢٧ – ٢٢٨.

(٢) الواقدي، المغازي: ١ / ٣٠٠.

فاجعلوه أمام أصحابه في القبر» وكانوا يدفنون الاثنين والثلاثة في القبر الواحد[١].

وقد نقل الواقدي صوراً مؤثرة عن النبيﷺ حين وقف على دفن هؤلاء الشهداء بعد أن رأى ما فعل بهم من مثلة في أجسادهم الشريفة، وخاصة جسد حمزة بن عبد المطلب (رضي الله عنه) «فخرج النبيﷺ يمشي حتّى وقف عليه، فقال: ما وقفت موقفاً قطّ أغيظ إليّ من هذا الموقف..» ويقال: لما أُصيب حمزة جاءت صفية بنت عبد المطلب تطلبه، فحالت بينها وبينه الأنصار، فقال رسول اللهﷺ : «دعوها، فجلست عنده فجعلت إذا بكت بكى رسول اللهﷺ وإذا نشجت ينشج رسول اللهﷺ»[٢].

ولابد لنا من الاشارة إلى قضية ردّدها كتاب السيرة والأثر في كتبهم في قصّة استشهاد حمزة والمثلة به ووقوف رسول اللهﷺ على جسده وهو بتلك الحالة، فقد روي عن ابن عباس في تفسير الآية ١٢٦ من سورة النحل: «أنّ رسول اللهﷺ حين رأى بحمزة ما رأى قال: «لولا أن تحزن صفيّة أو تكون سنّة من بعدي لتركته حتّى يكون في أجواف السباع وحواصل الطّير، ولئن أنا أظهرني الله على قريش في موطن من المواطن لأمثلنَّ بثلاثين رجلا منهم» فلمّا رأى المسلمون حزن رسول اللهﷺ ، وغيظه على ما فعل بعمّه، قالوا: والله لئن أظهرنا عليهم يوماً من الدهر لنمثلنّ بهم مُثلة لم يمثّلها أحد من العرب بأحد قط!.. روى عن ابن عباس قال: إن الله عزّ وجل أنزل في ذلك من قول رسول اللهﷺ وقول أصحابه: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ ۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّـٰبِرِينَ ﴿١٢٦﴾﴾[٣] فعفا رسول اللهﷺ وصبر ونهى عن المثلة»[٤].

---

(١) ابن هشام، السيرة النبوية: ٣ / ٩٨ .

(٢) الواقدي، المغازي: ١ / ٢٨٩ - ٢٩٠، وابن هشام، السيرة النبوية: ٣ / ٩٦ .

(٣) النحل: ١٢٦ .

(٤) الطبري: ٢/٥٢٨ - ٥٢٩، والواقدي، المغازي: ١/ ٢٩٠، وابن هشام، السيرة النبوية: ٣/٩٦ .

إلاّ أنّ هذه القضية فيها تأمل؛ وللتشكيك في صحتها مجال واسع، إذ لم يكن النبي ﷺ يتعامل مع الوقائع والأحداث من موقع الانفعالات العصبية القبلية، ولا ينسجم ما ينسب إليه في القضية مع أخلاقيته وانسانيته الفذة، ثمّ ما الفائدة في ابقاء جسد الشهيد تحت حرارة الشمس وللطيور الجارحة، أليس في ذلك اهانة للميت؟ إذ إن اكرام الميت دفنه، ولم يغادر رسول الله أرض المعركة حتّى دفن الشهداء هناك. ثمّ أليس فيما ينسب إليه ﷺ من قول نوع من الجزع المفرط الذي يتجاوز حدود الصبر والحزن المعقول؟

أما قضية ما نسب إليه من قوله يتوعد قريش بالمثلة بأجسادهم.. فلماذا لم يمثّل بهم في حينها وأجساد هؤلاء المشركين من قريش كانت مطروحة في أرض المعركة، فلماذا يؤجل الأمر إلى حين يظفر بهم؟

ثمّ إن الآية التي استدل بها في المقام من سورة النحل، وهي من السور المكية، وأُحد قد كانت في السنة الثالثة من الهجرة... وهنالك مجال واسع للمناقشة في هذه القضية[1].

ومن الصور المؤثرة التي ينقلها المؤرخون مرور رسول الله ﷺ بجثة مصعب ابن عمير وهو مسجى «ولم يوجد له كفن إلاّ بردة... فقال ﷺ : لقد رأيتك بمكّة وما بها أحد أرقّ حلّة، ولا أحْسَن لمّة منك، ثمّ أنت شعث الرأس في بردة، ثمّ أمر به يقبر»[2].

ومرّ رسول الله على جسدي عبد الله بن عمرو بن حَرام - والد جابر الأنصاري - وعمرو بن الجموح، وقد مثّل بهما كلّ المثل، قطعت آرابهما - يعني عضواً عضواً - فلا تعرف أبدانهما، فأمر بدفنهما في قبر واحد لما كان

(١) انظر الصحيح من سيرة النبي: ٦ / ٢٥٦ - ٢٦٢ .

(٢) الواقدي، المغازي: ١ / ٣١١ .

بينهما من الصّفاء، فقالﷺ : «ادفنوا هذين المتحابّين في الدنيا في قبر واحد»[١].

وأمر رسول اللهﷺ ببردة تمدّ على جسد حمزة وهو في القبر، فجعلت البردة إذا خمّروا رأسه بدت قدماه، وإذا خمّروا رجليه تنكشف عن وجهه، فقال رسول اللهﷺ : «غطّوا وجهه، وجعلوا على رجليه الحَرْمَلَ، فبكى المسلمون يومئذ فقالوا: يا رسول الله، عمّ رسول الله، لا نجد له ثوباً. . .»[٢].

٩ - مكانة ومنزلة شهداء أُحد

لقد كانت معركة أُحد ثاني معركة كبيرة مع قريش، وأوّل معركة يسقط فيها هذا العدد من الشهداء ولولا ثبات وتضحية هؤلاء الشهداء، وثبات مَنْ ثبت مع النبيﷺ ولم يرزق الشهادة في هذه المعركة لما آلت الأُمور إلى ما آلت إليه، ولمالت قريش على المسلمين وانهتهم عن آخرهم.

ولهذا كان لهؤلاء الشهداء المكانة العظيمة والمنزلة الشريفة، لأنهم جادوا بأنفسهم من أجل الله، ودفاعاً عن الإسلام وعن النبيﷺ ولم يكن لهم طمع في دنيا يصيبونها أو مال يكسبونه.

وكان رسول اللهﷺ يقدر لهؤلاء الشهداء تضحيتهم عندما قال: «أنا على هؤلاء شهيد، فقال له أبو بكر: يا رسول الله، أليسوا إخواننا، أسلموا كما أسلمنا، وجاهدوا كما جاهدنا؟

قالﷺ : بلى، ولكن هؤلاء لم يأكلوا من أُجورهم شيئاً، ولا أدري ما تحدثون بعدي! فبكى أبو بكر وقال: إنّا لكائنون بعدك»[٣].

---

(١) المصدر نفسه: ١ / ٢٦٦ - ٢٦٧ .

(٢) المصدر نفسه: ١ / ٣١١ .

(٣) المصدر نفسه: ١ / ٣١٠ .

وكان رسول اللهﷺ يزور هؤلاء الشهداء ويرفع صوته فيقول: «السلام عليكم بما صبرتم، فنعم عقبى الدار» ومرّ رسول الله على مصعب بن عمير فوقف عليه، ودعا، وقرأ: ﴿رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾﴾[١] - ثمّ قال - أشهد أنّ هؤلاء شهداء عند الله يوم القيامة، فأتوهم وزوروهم وسلّموا عليهم، والذي نفسي بيده، لا يسلّم عليهم أحد إلى يوم القيامة إلاّ ردّوا عليه.

وكانت فاطمة بنت رسول اللهﷺ تأتيهم بين اليومين والثلاثة، فتبكي عندهم وتدعو.

«وكانت أُم سلمة زوج النبيﷺ تذهب فتسلّم عليهم في كلّ شهر فتظل يومها، فجاءت يوماً ومعها غلامها... فلم يُسلِّم فقالت: أي لُكع، ألاّ تسلّم عليهم؟ والله لا يسلّم عليهم أحد إلاّ ردّوا إلى يوم القيامة».

وتروي فاطمة الخزاعية تقول: «رأيتني وغابت الشمس بقبور الشهداء ومعي أُخت لي، فقلت لها: تعالي، نسلّم على قبر حمزة وننصرف، قالت: نعم، فوقفنا على قبره وقلنا: السلام عليك يا عمّ رسول الله، فسمعنا كلاماً ردّ علينا: وعليكما السلام ورحمة الله. قالتا: وما قُربنا أحد من الناس»!

وتأسياً بالنبيﷺ واستناناً بسنتهﷺ كان بعض الصحابة يزورون قبور شهداء أُحد منهم: «سعد بن أبي وقاص، وأبو سعيد الخدري، ومحمد بن مسلمة، وسلمة بن سَلامة، وأبو هريرة...»[٢].

ونقل السمهودي: «وكان الناس يحملون تراب قبر سيدنا حمزة بن عبد المطلب... ويعملون منها خرزاً يشبه السبح، وان نقل تربة حمزة إنما هو للتداوي»[٣].

---

(١) الأحزاب: ٢٣ .

(٢) الواقدي، المغازي: ١ / ٣١٣ - ٣١٤ .

(٣) السمهودي، وفاء الوفا: ١ / ٦٩ و ١١٦ .

١٠ - من كرامات شهداء أُحد

لقد ظهرت لشهداء أُحد كرامات كثيرة، دونتها كتب السيرة والتاريخ، وقد بيّن النبيﷺ منزلة هؤلاء الشهداء وكراماتهم في أحاديث يرويها جابر بن عبد الله الأنصاري، الذي استشهد والده عبد الله بن عمرو بن حرام في معركة أُحد.

قال جابر: «لما استشهد أبي جعلت عمّتي تبكي، فقال النبيﷺ : ما يبكيها؟ ما زالت الملائكة تظلّ عليه بأجنحتها حتّى دفن.

وكان والد جابر - عبد الله بن عمرو بن حرام - قد قال: «رأيت في النوم قبل يوم أُحد بأيّام وكأ نّي رأيت مبشّراً بن عبد المنذر - أحد شهداء بدر - يقول: أنت قادم علينا في أيام، فقلت: وأين أنت؟ فقال في الجنّة، نسرح منها حيث نشاء، قلت له: ألم تقتل يوم بدر؟ فقال: بلى، ثمّ أحييتُ، فذكر ذلك لرسول اللهﷺ فقال: هذه الشهادة يا أبا جابر».

وروي أنّ رسول اللهﷺ قال لجابر: «يا جابر، ألا أُبشرك؟ قال: قلت: بلى بأبي - أنت - وأُمي، قال: فإنّ الله أحيا أباك، ثمّ كلّمه كلاماً فقال: تمنَّ على ربّك ما شئت، فقال: أتمنّى أن أرجع فأُقتل مع نبيّك، ثمّ أحيا فأُقتل مع نبيّك، قال: إني قد قضيتُ أنّهم لا يرجعون»[١].

وبعد أكثر من أربعين سنة مضت على واقعة أُحد، ظهرت في المدينة آية كرامات هؤلاء الشهداء الأبرار، ومن تلك الأرض التي طهّرتها دماؤهم الزكية واستودعهم رسول اللهﷺ فيها حتّى يكون اليوم الذي ينشرون فيه من قبورهم ليلقوا جزاء الشهداء الصديقين.

إلاّ أنّ ابن آكلة الأكباد «معاوية بن أبي سفيان» أراد أن يستكمل المشهد

---

(١) الواقدي، المغازي: ١ / ٢٦٦ - ٢٦٨ .

الدامي الذي مثلته والدته هند بنت عتبة، وإن يثأر لقتلى بدر من أمثال شيبة وعتبة والوليد، وأن يصبّ جام حقده وانتقامه على قبور شهداءأُحد وغالبيتهم من الأنصار، وفيهم بعض المهاجرين وعلى رأسهم حمزة بن عبد المطلب سيد الشهداء. فتتبع قبور شهداء أُحد، وحمل أهلها على نقل رفات شهدائهم إلى أماكن أُخرى بحجة إعمال قناة ماء تسمى «كظامة».

يقول الواقدي: «إنّ معاوية لما أراد أن يجري كظامة - والكظامة عين أحدثها معاوية - نادى مناديه بالمدينة: مَن كان له قتيل بأُحد فليشهد»[1].

هكذا أقدم على هذا العمل معاوية ومن دون أن يراعي مشاعر وأحاسيس وعواطف أبناء وأحفاد هؤلاء الشهداء، ومن دون التفات إلى مكانة هؤلاء الشهداء، وإلى خصوصية المكان الذي حرَص رسول الله أن يدفنوا فيه دون غيره من الأماكن.

يكتب الدكتور طه حسين - الكاتب والأديب المصري المعروف - عن لسان أحد مشايخ المدينة الذين شاهدوا الحادثة وتأثروا وحزنوا لها يقول: «ولو قد استشارنا معاوية قبل أن يحوّل شهداءنا عن مقابرهم التي احتفرها لهم الله ورسوله، لقلنا له إنّا نؤثر الظمأ والجدب وسوء الحال على أن يحوّل هؤلاء الشهداء أو تُنبش قبورهم، ولقلنا له: إنّ بين هؤلاء الشهداء سيدهم حمزة بن عبد المطلب قاتل شيبة بن ربيعة وعتبة بن ربيعة، الذي صرعه وحشيّ، وبقرت بطنه ولاكت كبده هند»[2]!

بعد ذلك النداء المدهش والمدوي في ارجاء المدينة فزع أهلها لقبور

(١) المصدر نفسه: ١ / ٢٦٧ .

(٢) طه حسين، على هامش السيرة المجلد الثالث: ٤٦٣، من المجموعة الكاملة لمؤلفات طه حسين، ط . دار الكتاب اللبناني - بيروت - (١٩٨٥ م) .

شهداءهم في أُحد «فكانوا يحفرون التراب، فكلّما حفروا فتراً[١] من التراب فاح عليهم المسك، ووجدوا أجسام الشهداء طرايا يتثنون»[٢].

ولقد كانت هذه الأجساد الطاهرة تحمل من مكان إلى آخر فتنثني وتضطرب وكأنها في النوم ولم يُلمَّ بها الموت.

قال جابر - بن عبد الله الأنصاري -: «فرأيت أبي في حفرته فكأنه نائم، وما تغيّر من حاله قليل ولا كثير» فقيل له: أفرأيت أكفانه؟ فقال: «إنّما كُفّن في نَمرة خُمّر بها وجهه وعلى رجليه الحَرمل، فوجدنا الّنمرة كما هي والحَرمل على رجليه على هيئته» وبين ذلك وبين وقت دفنه ستّة وأربعون سنة، فشاورهم جابر في أن يُطيّب بمسك، فأبى ذلك أصحاب النبيﷺ وقالوا: «لا تحدثوا فيهم شيئاً».

وكان عبد الله بن عمرو بن حرام - والد جابر - قد أُصيب في أُحد بجراحات كثيرة كما أسلفنا، منها جرح غائر في وجهه، فدفن على حالته بعد أن وضعت يده على وجهه، وعندما كشف عن قبره وظهر جسده «أُميطت يده عن جُرحه فثعب الدم[٣]، فردّت إلى مكانها فسكن الدم»[٤].

ويروي ابن سعد في طبقاته عن جابر الأنصاري قال: «لما أراد معاوية أن يجري عينه التي بأُحد كتبوا إليه: إنّا لا نستطيع أن نُجريها إلاّ على قبور الشهداء، قال: فكتب: انبشوهم! قال: فرأيتهم يحملون على أعناق الرجال كأنهم قوم

(١) الفتر: ما بين طرف السبابة والابهام إذا فتحتهما.

(٢) الواقدي، المغازي: ١ / ٢٦٧ - ٢٦٨.

(٣) ثعب: أي جرى (النهاية).

(٤) الواقدي، المغازي: ١ / ٢٦٧.

نيام، وأصابت المسحاة طرف رجل حمزة بن عبد المطلب فانبعثت دماً»[(١)].

لقد رأى الناس ذلك المنظر وأحسوه، وتأثرت به نفوسهم، واضطربت له قلوبهم، وازداد له إيمانهم، فهم بين الحزن لما كان من تحويل هؤلاء الشهداء عن قبورهم، والاعجاب بما كان من هذه الآية، وكان الصحابي أبو سعيد الخدري قد قال يومها: «لا يُنكر بعد هذا منكر أبداً»[(٢)].

نقول: بعد ذكر هذه الحادثة وقول معاوية: انبشوهم! لا يبقى مجال لتصديق قول الواقدي: «إن معاوية كان يزور قبور شهداء أُحد حين مرّ حاجاً أو معتمراً»[(٣)].

فسلام على حمزة بن عبد المطلب أسد الله، وأسد رسوله، وسلام على شهداء معركة أُحد، ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٤﴾﴾[(٤)].

---

(١) ابن سعد، الطبقات: ٣ / ٨، والواقدي، المغازي: ١ / ٢٦٨ دون ذكر الاسم .

(٢) الواقدي، المغازي: ١ / ٢٦٨ .

(٣) المصدر نفسه: ١ / ٣١٣ .

(٤) الرَّعد: ٢٤ .

الأسئلة:

١ - ما هي خلفيات معركة أُحد؟ وأسبابها من قبل قريش؟

٢ - كيف استعدت قريش لهذه المعركة من ناحية المال والرجال والتعبئة الإعلامية والمعنوية؟

٣ - كيف استعد رسول الله ﷺ والمسلمون لمواجهة قريش؟

٤ - ما هو الدور الذي قام به اليهود والمنافقون قبل المعركة؟

٥ - كيف كانت وقائع معركة أُحد في جولتها الأُولى؟

٦ - كيف كانت صور الهزيمة والثبات في هذه المعركة؟ وما هي نماذجها؟

٧ - ما هو الدور الإيجابي والسلبي الذي قامت به المرأة في هذه المعركة؟

٨ - كيف كانت نهاية معركة أُحد؟ وما هو السبب لانسحاب المشركين المفاجي؟

٩ - ما هي منزلة شهداء أُحد؟ وما هي الكرامات التي ظهرت لهم بعد ذلك؟

الدَّرْسُ العاشِر

أحداثُ السَّنَةِ الثَّالِثَةِ من الهجرة إلى السنة الرابعة

(غزوة أُحد)

«القسم الثاني»

محاور البحث:

١ - موقف المنافقين واليهود بعد عودة المسلمين إلى المدينة

٢ - غزوة حمراء الأسد ; أسبابها ونتائجها

٣ - الأسرى في معركة أُحد، وغزوة حمراء الأسد

٤ - تأملات في أحداث ووقائع معركة أُحد

أولا: معركة أُحد نصر أم هزيمة؟

ثانياً: بعض الحِكم والعظات المستفادة من معركة أُحد

ثالثاً: القرآن الكريم ومعركة أُحد

رابعاً: الدروس والعبر من معركة أُحد

• الأسئلة

غزوة أُحد / ق ٢

١ – موقف المنافقين واليهود بعد عودة الرسول والمسلمين إلى المدينة

لقد قام المنافقون وأحلافهم من اليهود في هذه المعركة بدور التخذيل قبل المعركة وأثنائها، ودور الشماتة والسرور، وقبح القول بعد المعركة.

وقد مرّ بنا سابقاً رجوع ابن أُبي مع مجموعة من المنافقين واليهود أثناء الخروج إلى أُحد وكان عددهم ثلاثمائة رجل، وهو ثلث الجيش الإسلامي الذي خرج لهذه المعركة، وكانوا في المدينة يترقبون نتائج المعركة، وعندما سمعوا بهزيمة المسلمين أخذوا يخذّلون أهل المدينة ويخوّفونهم هجوم قريش على المدينة، «وقال مُنافق: إنّ رسول الله قد قُتل فارجعوا إلى قومكم ; فإنهم داخلوا البيوت»[١].

وبعد انتهاء المعركة وعودة الرسولﷺ وأصحابه إلى المدينة جعل ابن أُبي والمنافقون معه يشمتون ويُسَرون بما أصابهم ويظهرون أقبح القول... وأظهرت اليهود القول السّيء فقالوا: «ما محمّد إلاّ طالب ملك، ما أُصيب هكذا نبيّ قطّ، أُصيب في بدنه وأُصيب في أصحابه! وجعل المنافقون يخذّلون عن رسول اللهﷺ أصحابه ويأمرونهم بالتفرّق عن رسول اللهﷺ.. ويقولون لأصحاب رسول اللهﷺ : لو كان مَن قُتل منكم عندنا ما قُتل...»[٢].

إلاّ أنّ رسول اللهﷺ قد استوعب موقف هؤلاء المنافقين واليهود

(١) الواقدي، المغازي: ١ / ٢٨٠ .

(٢) المصدر نفسه: ١ / ٣١٧ .

الاستفزازي والمشين بموقف حكيم وبسعة صدر وحلم كبير، ولم يتعرَّض لهم بأذى أو حرب، إذ ان مواجهة هؤلاء في هذا الظرف الحساس يعني فتح جبهة حرب داخلية تشغل المسلمين عن مواجهة قريش والمشركين الذين يحيط خطرهم بالإسلام والمسلمين.

ولهذا عندما مشى أحد الصحابة إلى رسول الله ﷺ ليستأذنه في قتل من سمع ذلك منه من اليهود والمنافقين، قال له رسول الله ﷺ: «إنّ الله مُظهر دينه ومعزّ نبيّه، ولليهود ذمّة فلا أقتلهم. قال: فهؤلاء المنافقون يا رسول الله! قال ﷺ أليس يظهرون شهادة أن لا إله إلاّ الله وأني رسول الله؟ قال: بلى يا رسول الله، وإنما يفعلون ذلك تعوّذاً من السيف، فقد بان لهم أمرهم وأبدى الله أضغانهم عند هذه النكبة.

فقال رسول الله ﷺ: «نهيت عن قتل من قال لا إله إلاّ الله وأنّ محمداً رسول الله، إنّ قريشاً لن ينالوا منّا مثل هذا اليوم حتى نستلم الرّكن»[1].

ولكن رسول الله ﷺ كان يقدّر حجم الاشاعات المغرضة والأراجيف التي أطلقها اليهود والمنافقون في المدينة، وخشي أن يتحوّل الأمر إلى فتنة بين المسلمين بعد أن تعمل تلك الأراجيف عملها في نفوسهم، فيتملكهم الوهن والضعف، فتتزعزع بذلك مكانة الإسلام في المدينة وما حولها، كما خشي أن يدفع الطمع قريشاً إلى إعادة الكَرّة على المسلمين في المدينة وهم على تلك الحالة من الزعزعة والاضطراب.

«ولهذا كلّه رأى رسول الله ﷺ انه لابدّ من عمل سريع يزيل أثر الوهن من قلوب أصحابه، ومن علاج حاسم حازم يعيد إلى المسلمين ثقتهم بأنفسهم، ويستردون به ما فقدوا من الهيبة في نفوس أعدائهم، فعزم على أن يخرج

(١) المصدر نفسه: ١ / ٣١٨.

بأصحابه في إثر قريش على رغم ما أصابهم من القرح، وما كان بهم من الإعياء والجَهد»[١].

٢ - غزوة حمراء الأسد؛ أسبابها ونتائجها

تعدّ غزوة حمراء الأسد مع غزوة أُحد غزوة واحدة. بل انّها من تتمات غزوة أُحد الضرورية؛ إذ لم تفصل بينهما سوى يوم واحد فقط «وكانت يوم الأحد لثمان خلون من شوال، على رأس اثنين وثلاثين شهراً، ودخل المدينة يوم الجمعة وغاب خمساً»[٢].

وكانت أسباب هذه الغزوة كما يستفاد من توقيتها ومجريات الأحداث فيها:

أولا: قطع دابر الفتنة التي كانت على وشك الوقوع في المدينة نتيجة لما بثه اليهود والمنافقون من أكاذيب وأراجيف واشاعات.

ثانياً: إشعار قريش ومن والاها، بقوة المسلمين، وأنّهم - على الرغم مما أصابهم - لا تزال بهم قوة يستطيعون بها أن يرهبوا عدو الله وعدوّهم.

ثالثاً: إعادة الثقة والعزيمة إلى نفوس المسلمين، ورفع معنوياتهم التي ضعفت أو انهارت نتيجة ما أصابهم في أُحد.

روى الواقدي وابن هشام: «لما صلّى رسول الله ﷺ الصبح يوم الأحد ومعه وجوه الأوس والخزرج.. فلمّا انصرف ﷺ من صلاة الصبح أمر بلالا أن ينادي:

إنّ رسول الله يأمركم بطلب عدوّكم، ولا يخرج معنا إلاّ من شهد

(١) دويدار، أمين: صور من حياة الرسول: ٣٨٠.

(٢) الواقدي، المغازي: ١ / ٣٣٤.

القتال بالأمس»[١].

هنا يأتي سؤال لابد أن نتوقف عنده قبل الاسترسال في ذكر تفاصيل هذه الغزوة، والسؤال هو: هل كان تحرك النبي ﷺ باتجاه حمراء الأسد تكتيكاً عسكرياً أتبعه كقائد ميداني؟ أم انه كان بأمر من الله سبحانه؟

ويتضح الجواب من خلال ما ذكرناه من أسباب موضوعية لهذه الغزوة، إذ إن رسول الله ﷺ كقائد ميداني يدير دَفة الأُمور بحكمة وشجاعة وإقدام، فرأى أن من المناسب الخروج وبسرعة قياسية في أثر قريش، للأسباب التي ذكرناها، وكان تقديراً في محلّه، وقد أتت هذه الحركة بنتائج جيدة كما سوف يأتينا.

إلاّ أن بعض الكتّاب حاول أن يستند إلى رواية القمي في تفسيره، ليقول: «ان جبرئيل عليه السلام نزل على النبي ﷺ فقال: يا محمد، إن الله يأمرك أن تخرج في أثر القوم ولا يخرج معك إلاّ من به جراحة، فأمر مناديه أن ينادي بذلك»[٢].

ثمّ يقول هذا «المحقق»: ويؤيد - ان هؤلاء السبعين هم المجروحون - قوله تعالى في هذه المناسبة: ﴿ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ﴾[٣].

ثمّ يخرج هذا المحقق بهذه النتيجة - التي ذكرها سابقاً - إذا كان الذين خرجوا هم المجروحون فقط، فلا معنى لذكر - فلان وفلان - وغيرهم، ممن لم يكن به جراح في الخارجين إلى حمراء الأسد[٤].

---

(١) الواقدي، المغازي: ١ / ٣٣٤، وابن هشام، السيرة النبوية: ٣ / ١٠١ .

(٢) القمي، علي بن ابراهيم، تفسير القمي: ١/ ١٢٥ .

(٣) آل عمران: ١٧٢ .

(٤) جعفر مرتضى، الصحيح من سيرة النبي: ٦ / ٣٠٣ - ٣٠٤ .

ومن الواضح ان رواية القمي لا يمكن الاستناد إليها لضعفها أو إرسالها؛ والمؤيد الذي ذكره من آية سورة آل عمران ليس بمؤيد كما هو واضح.

ثمّ إنّ هذه الطريقة في البحث التاريخي من خلال الاستناد إلى رواية ضعيفة، لابعاد شخص أو شخصين عن الحدث التاريخي تخلُّ بمنهجية البحث العلمي وموضوعيته، وتجر البحث التاريخي إلى تعصبات مذهبية، فضلا عن كونها املاءً لقناعات شخصية يراد إثباتها بأوهى الأدلة!

وعلى أي حال، حمل وجوه الأنصار أمر رسول الله ﷺ إلى قومهم، فخرج سعد بن معاذ يأمر قومه بالمسير، والجراح في الناس فاشية، وعامّة بني عبد الأشهل جريح، بل كلّها، فجاء سعد بن معاذ فقال: إنّ رسول الله ﷺ يأمركم أن تطلبوا عدوّكم، فقال أُسيد بن حضير، وبه سبع جراحات وهو يريد أن يداويها: سمعاً وطاعة لله ولرسوله، وجاء سعد بن عبادة قومه بني ساعدة فأمرهم بالمسير، فتلبّسوا ولحقوا...

وجاء أبو قَتادة أهل خُرْبَى، وهم يداوون الجراح فقال: هذا منادي رسول الله ﷺ يأمركم بطلب عدوّكم، فوثبوا إلى سلاحهم وما عرّجوا على جراحاتهم، فخرج من بني سلمة أربعون جريحاً، حتّى وافوا النبي ﷺ ببئر أبي عتبة فلمّا نظر رسول الله ﷺ والجراح فيهم فاشية قال: «اللهم ارحم بني سلمة»[١].

وهكذا لبّى الجميع نداء رسول الله ﷺ في الخروج إلى عدوهم وهم على ما هم عليه من أثر الجراح.

ومن طريف ما ينقله المؤرخون: «أن أخوين من الأنصار من بني عبد الأشهل كانا قد شهدا أُحداً مع رسول الله ﷺ ورجعا إلى المدينة جريحين، فلما

---

(١) الواقدي، المغازي: ١ / ٣٣٤ - ٣٣٥ .

أذّن مؤذّن رسول الله ﷺ بالخروج في طلب العدوِّ، قال أحدهما للآخر:

أتفوتنا غزوة مع رسول الله ﷺ ؟ والله إنّ تركنا غزوة مع رسول الله لَغَبن! والله ما لنا من دابّة نركبها، وما منّا إلاّ جريح ثقيل... فخرجا يزحفان في أثر رسول الله ﷺ ويحمل أحدهما الآخر على عاتقه حتّى انتهيا إلى ما انتهى إليه المسلمون»[١].

واستأذن رسول الله ﷺ رجال لم يحضروا القتال في أُحد، فأبى ذلك عليهم فلم يشترك في هذه الغزوة من الذين تخلّفوا عن أُحد إلاّ جابر بن عبد الله الأنصاري الذي استشهد والده في أُحد فقد خلّفه على أخوات له سبع - فلم يشترك في أُحد -، فاستأذن رسول الله فأذن له بالاشتراك في هذه الغزوة[٢].

لم تكن هذه الغزوة بحاجة إلى مزيد من الاستعداد والتعبئة العسكرية، فرجال المسلمين لا زالوا على هيئتهم الحربية وجراح الكثير منهم لا زالت تشخب دماً، ولواء الحرب لا زال معقوداً لم يُحلّ من الأمس، فدفعه رسول الله ﷺ إلى علي عليه السلام، فخرج رسول الله ﷺ إلى حمراء الأسد التي لا تبعد عن المدينة سوى أميال قدّرها بعضهم بثمانية[٣].

وفي رواية الواقدي: «ان رسول الله ﷺ قد بعث مجموعة مكوّنة من ثلاثة أشخاص لاستطلاع أثر قريش، فتخلّف أحدهما، ولحق الآخران بقريش في حمراء الأسد، فامسك بهما رجال من قريش وقتلاهما هناك»[٤].

انتهى رسول الله ﷺ بمن معه من أصحابه إلى حمراء الأسد فعسكر هناك،

---

(١) المصدر نفسه: ١ / ٣٣٥، وابن هشام، السيرة النبوية: ٣ / ١٠١ .

(٢) المصدر نفسه: ١ / ٣٣٦، وابن هشام: ٣ / ١٠١ .

(٣) ابن هشام: ٣ / ١٠٢، والواقدي، المغازي: ١ / ٣٣٦ .

(٤) الواقدي: ١ / ٣٣٧ .

وأقام فيها الاثنين والثلاثاء والأربعاء، ثمّ رجع إلى المدينة[١].

وفي رواية الواقدي عن جابر بن عبد الله قال: «. . . وكان رسول الله ﷺ يأمرهم في النهار بجمع الحطب، فإذا أمسوا أمرنا أن نوقد النيران، فيوقد كلّ رجل ناراً، فلقد كنّا تلك الليالي نوقد خمسمائة نار حتّى ترى من المكان البعيد، وذهب ذكر معسكرنا ونيراننا في كلِّ وجه حتى كان مما كَبت الله تعالى عدوّنا»[٢].

وكانت قريش قد تحركت في طريقها إلى مكة حتّى وصلت إلى منطقة «الرّوحاء» فعسكروا فيه، فأخذوا يتلاومون فيما بينهم ويحدثون أنفسهم بالرجوع إلى المدينة لاستئصال المسلمين فيها، وكان يقول بعضهم للآخر: لا محمّداً أصبتم، ولا الكواعب أردفتم، فبئس ما صنعتم، ويقول آخر: ما صنعنا شيئاً، أصبنا أشرافهم ثمّ رجعنا قبل أن نستأصلهم. . وفي رواية ابن هشام: لنكرّن على بقيتهم، فلنفرغنّ منهم[٣].

وفي أثناء وجود رسول الله في «حمراء الأسد» مرّ به معبد بن أبي معبد الخزاعي، وهو يومئذ مشرك، وكانت خزاعة سلماً للنبي ﷺ ، فقال: «يا محمد، لقد عزّ علينا ما أصابك في نفسك وما أصابك في أصحابك، ولوددنا أنّ الله أعلى كعبك، وأنّ المصيبة كانت بغيرك، ثمّ مضى حتّى لقي أبا سفيان بن حرب ومن معه بالرّوحاء - وهم على تلك الحالة من التلاوم فيما بينهم - فلما رأى أبوسفيان معبداً قال: هذا معبد وعنده الخبر، ما وراءك يا معبد؟ قال: تركتُ محمداً وأصحابه خلفي يتحرّقون عليكم مثل النيران، وقد أجمع معه من تخلّف عنه

---

(١) ابن هشام: ٣ / ١٠٢ .

(٢) الواقدي: ٣ / ٣٣٨ .

(٣) المصدر نفسه: ٣ / ٣٣٨، وابن هشام: ٣ / ١٠٢ .

بالأمس من الأوس والخزرج، وتعاهدوا ألاّ يرجعوا حتّى يلحقوكم فيثأروا منكم، وغضبوا لقومهم غضباً شديداً ولمن أصبتم من أشرافهم. قالوا: ويحك! ما تقول؟ قال: والله ما أرى أن ترتحل حتّى أرى نواصي الخيل، ثمّ قال: لقد حملني ما رأيت منهم أن قلت أبياتاً من الشعر، قال: وما قلت؟

قال: قلت:

كادت تُهَدُّ مِنَ الأَصْواتِ رَاحِلَتي ... إذ سالت الأرْضُ بالجُرْدِ الأبابيلِ

تعدو بأُسْدٍ كِرامٍ لا تَنابِلَةٍ ... عِندَ اللِّقاءِ ولا مِيلٍ مَعَازيلِ

فَقُلْتُ وَيلَ ابنِ حَرْبٍ من لِقَائهمُ ... إذا تغطْمَطَت البطاءُ بالجيلِ[1]

وكان لكلام معبد الخزاعي أثر نفسي كبير على قريش، التي كانت تريد أن تحافظ على النصر الظاهري الذي حققّته في أُحد، فقطع عليهم كلام معبد المهول كل تفكير في العودة إلى القتال، بالاضافة إلى نصيحة نصحهم بها صفوان بن أُمية قبل أن يطلع عليهم معبد، إذ قال لهم: «يا قوم، لا تفعلوا، فإنّ القوم قد حزنوا، وأخشى أن يجمعوا عليكم مَن تخلّف من الخزرج، فارجعوا والدّولة لكم، فإنّي لا آمن إن رجعتم أن تكون الدّولة عليكم».

وقد عقّب رسول الله ﷺ على كلام صفوان بن أُمية فقال ﷺ: «أرشدهم صفوان وما كان برشيد، والذي نفسي بيده، لقد سوّمت لهم الحجارة، ولو رجعوا لكانوا كأمس الذاهب»[2]!

وهكذا انصرف أبو سفيان ومن معه سراعاً خائفين من الطّلبِ لهم، وفي الطريق مرّ به ركب من عبد القيس، فقال: أين تريدون؟ قالوا: نريد المدينة؟

---

(١) الواقدي، المغازي: ١ / ٣٣٨ - ٣٣٩، وابن هشام، السيرة النبوية: ٣ / ١٠٢ - ١٠٣، وانظر شرح مفردات الأبيات الشعرية في هامش المصدرين.

(٢) الواقدي، المغازي: ١ / ٣٣٩، وابن هشام: ٣ / ١٠٤.

قال: وَلِمَ؟ قالوا: نريد الميِّرة، قال: فهل أنتم مبلغون عني محمداً رسالة أُرسلكم بها إليه، وأحمِّل لكم هذه غداً زبيباً بعكاظ إذا وافيتموها؟ قالوا: نعم، قال: فإذا وافيتموه فاخبروه، أنا قد أجمعنا السير إليه وإلى أصحابه لنستأصل بقيتهم، فمرّ الركب برسول الله ﷺ وهم بحمراء الأسد، فأخبروه بالذي قال أبو سفيان، فقال: حسبنا الله ونعم الوكيل».

وكان رسول الله ﷺ ومن معه قد انصرف من حمراء الأسد إلى المدينة بعد أن أرسل معبد الخزاعي رجلا من خزاعة إليه ﷺ يعلمه أن قد انصرف أبو سفيان وأصحابه خائفين وجلين[1].

وانتهت بذلك قصّة غزوة حمراء الأسد من دون قتال بين الطرفين، بعد أن حقّقت النتائج المرجوة منها، إذ استردّ المسلمون كثيراً من هيبتهم ومكانتهم التي أضعفتها معركة أُحد ونتائجها، فعادوا إلى المدينة ليدخلوها وهم أرفع رؤوساً وأعزّ جانباً.

٣ - الأسرى في معركة أُحد، وغزوة حمراء الأسد

لقد خلّفت معركة أُحد قتلى وجرحى من الطرفين، ولم يكن هنالك أسرى لا من المسلمين ولا من المشركين، وكذلك لم يكن هنالك مواجهة وقتال في

غزوة حمراء الأسد، حتى يكون هنالك قتلى أو أسرى، سوى ما ذكرنا من مقتل الرجلين اللذين بعثهما رسول الله ﷺ لاستجلاء خبر قريش فقبض عليهما وقتلا في حمراء الأسد، قبل أن يصل رسول الله ﷺ إليها[2].

إلاّ أن كتب السيرة تشير إلى أسيرين أحدهما قبض عليه في المدينة بعد

(١) ابن هشام، السيرة النبوية: ٣ / ١٠٣، والواقدي، المغازي: ١ / ٣٤٠ .

(٢) انظر قصّة مقتلهما عند الواقدي في المغازي: ١ / ٣٣٧ - ٣٣٨ .

معركة أُحد، والآخر قبض عليه في حمراء الأسد، ولكلّ منهما قصّة في أسره وقتله بعد ذلك.

الأول: معاوية بن المغيرة بن أبي العاص.

وقد ذكر قصّة أسره وقتله باختصار شديد، ابن هشام في سيرته[1] وذكرها الواقدي في مغازيه بشيء من التفصيل والإسهاب، وفيما يلي مختصر ما قاله الواقدي مع التوضيح قال: «وكان معاوية بن المغيرة قد انهزم يومئذ - أي يوم أُحد - فمضى على وجهه فقام قريباً من المدينة، فلما أصبح دخل المدينة فأتى منزل عثمان بن عفان. . . فلمّا رآه - عثمان - قال: ويحك، أهلكتني وأهلكت نفسك، ما جاء بك؟ قال: يا ابن عمّ، لم يكن لي أحد أقرب إليّ منك ولا أحقّ، فأدخله عثمان في ناحية البيت، ثمّ خرج إلى النبيﷺ يريد أن يأخذ له أماناً. . .

وكان رسول اللهﷺ : «قد قال قبل أن يأتيه عثمان: إن معاوية قد أصبح بالمدينة فاطلبوه، فطلبوه فلم يجدوه، فقال بعضهم: اطلبوه في بيت عثمان بن عفّان، فدخلوا بيت عثمان فسألوا أُم كلثوم - بنت رسول اللهﷺ - فأشارت إليه فاستخرجوه من تحت حمارة[2] لهم فانطلقوا به إلى النبيﷺ وعثمان جالس عند رسول اللهﷺ فلما رآه عثمان قد أُتي به قال: والذي بعثك بالحقّ، ما جئتك إلاّ أن أسألك أن تؤمنه، فهبه لي يا رسول الله! فوهبه له وأمنه وأجّله ثلاثاً، فإن وجد بعدهنّ قتل. فخرج عثمان فاشترى له بعيراً وجهّزه، ثمّ قال: ارتحل، فارتحل.

وسار رسول اللهﷺ إلى حمراء الأسد. . . وأقام معاوية حتّى كان اليوم الثالث، فجلس على راحلته وخرج حتّى إذا كان بصدور العقيق، قال رسول

---

(١) السيرة النبوية: ٣ / ١٠٤ .

(٢) الحمارة: ثلاثة أعواد يشد بعض أطرافها إلى بعض ويخالف بين أرجلها، وتغلق عليها الاداوة ليبرد الماء .

الله ﷺ : إنّ معاوية قد أصبح قريباً فاطلبوه، فخرج الناس في طلبه، وكان زيد بن حارثة وعمّار بن ياسر أسرعا في طلبه، فأدركاه بالجمّاء فضربه زيد بن حارثة. . . ورماه عمار بسهم فقتلاه»(١) .

وفي رواية الكليني في الكافي، والبلاذري في أنساب الأشراف: «إنّ علياً هو الذي قتل معاوية بن المغيرة»(٢) .

والذي يبدو من خلال السياق التاريخي لقصّة أسر معاوية بن المغيرة وقتله، ان أسره ومقتله كان بعد واقعة أُحد، وإنه اشترك في المعركة إلى آخرها، ثمّ قام بالتمثيل بأجساد القتلى بحسب رواية البلاذري عن ابن الكلبي الذي قال: «إنّ معاوية بن المغيرة جدع أنف حمزة يوم أُحد وهو قتيل»(٣) لأن مقتل حمزة كان بعد أن استولى خالد بن الوليد على الجبل وأحاط بالمسلمين من ورائهم.

ومن المحتمل أن يكون مقتل معاوية بن المغيرة حصل بعد رجوع النبيﷺ من غزوة حمراء الأسد، لأن النبيﷺ لم يمكث في المدينة بعد أُحد إلاّ ليلة واحدة، وكانت فترة مكوثه في حمراء الأسد ورجوعه منها لا تتجاوز الخمسة أيام، فالمرجع أن معاوية بن المغيرة قد اشترك في معركة أُحد إلى آخرها، ثمّ تأخر عن اللحاق بقريش لأمر ما، فبات ليلته قرب المدينة ثمّ اتجه صوب المدينة، وأختبأ في بيت ابن عمه عثمان فأخذ له الأمان، وأمهله رسول الله ثلاثاً. . . إلى آخر الرواية. ومما يؤيد ذلك رواية البلاذري عن ابن الكلبي السابقة إذ يقول: «فأخذ - أي معاوية - بقرب أُحد، فقتل على أُحد بعد انصراف قريش

(١) الواقدي، المغازي: ١ / ٣٣٣ - ٣٣٤ .

(٢) الكليني، محمد بن يعقوب، الكافي: ٣/ ٢٥١ - ٢٥٢، والبلاذري، أنساب الاشراف: ١/ ٣٣٧ - ٣٣٨، وابن ابي الحديد، شرح نهج البلاغة: ١٥ / ٤٧ .

(٣) البلاذري، أنساب الاشراف: ١ / ٣٣٧ - ٣٣٨ .

بثلاث»[١]، إذ إنّ معاوية قد قتل في «العقيق» وهي بقرب أُحد، ويكون مقتله بعد انصراف قريش بثلاثة أيام من منطقة الروحاء إلى المدينة، وعودة النبيﷺ إليها[٢].

الثاني: أبو عزة الجمحي، وهو الشاعر المعروف والذي كان يحرّض القبائل ويدعوهم للمشاركة مع قريش في أُحد، ناقضاً بذلك عهده مع رسول اللهﷺ بأن لا يؤلِّب المشركين على المسلمين، وقد منَّ عليه رسول الله رحمةً ببناته بعد أن أُسر في بدر كما مرّ بنا سابقاً.

وقد ذكر الواقدي في قصّة أسره ومقتله روايتين، الأُولى تقول: «إن رسول الله أَخذ - أبا عزة - أسيراً يوم أُحد، ولم يأخذ رسول اللهﷺ أسيراً غيره، فقال: يا محمّد، مُنَّ عليَّ! فقال رسول اللهﷺ: إنّ المؤمن لا يُلدغ من جُحر مرّتين! ولا ترجع إلى مكّة تمسح عارضيك تقول: سخرتُ بمحمّد مرتين! ثمّ أمر به عاصم ابن ثابت فضرب عنقه.

ثمّ يذكر الواقدي الرواية الثانية فيقول: وسمعنا في أسره غير ذلك.. : «لمّا انصرف المشركون عن أُحد نزلوا بحمراء الأسد في أوّل الليل ساعة، ثمّ رحلوا وتركوا أبا عزّة نائماً مكانه حتّى ارتفع النهار ولحقه المسلمون، وهو مستنبه يتلدّد[٣]، وكان الذي أخذه عاصم بن ثابت، فأمره النبيّﷺ فضرب عنقه»[٤].

والذي يبدو أن رواية الواقدي الثانية هي الأصح، لأنّ المسلمين لم تكن حالهم يوم أُحد حال من يتهيّأ له أسرُ أحد من المشركين في المعركة لما أصابهم من الوَهن[٥].

---

(١) المصدر نفسه: ١ / ٣٣٥.

(٢) للتوسع انظر شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد: ١٥ / ٤٥ - ٤٨.

(٣) يتلدد: أي يلتفت يميناً وشمالا.

(٤) الواقدي: ١ / ١١١ و ٣٠٩، وابن هشام: ٣ / ١٠٤.

(٥) ابن ابي الحديد، شرح نهج البلاغة: ١٥/٤٦.

٤ - تأملات في أحداث ووقائع معركة أُحد

بعد أن استعرضنا أحداث غزوة حمراء الأسد والتي - كما قلنا - تعتبر من التتمات اللازمة والضرورية لمعركة أُحد، بل هما معاً بمثابة معركة واحدة، وان انفردت كل واحدة منهما باسم يخصه في كتب السيرة.

لابد لنا من العودة إلى مجريات معركة أُحد لنتأمل في بعض فصولها وأحداثها لنستخلص منها الدروس والعبر.

أولا: معركة أُحد نصر أم هزيمة للمسلمين؟

مما لا شك فيه أن وقائع أرض المعركة في أُحد شهدت نصراً للمسلمين في أول المعركة، وهزيمة نكراء للمشركين ثمّ انقلب الأمر إلى إنكسار للمسلمين ونصر - بحسب الظاهر - للمشركين.

ولهذا دأب كتّاب السيرة إلى احصاء أسباب هذا الإنكسار العسكري والتي منها:

١ - العصيان والتنازع ومن ثمّ الفشل، وهذا ما صرح به القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم[1] بِإِذْنِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ ۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۚ﴾[2] والآية تشير إلى معصية الرماة الذين وضعهم رسول الله ﷺ على الجبل وأكد عليهم بعدم مغادرته مهما كانت ظروف ونتائج المعركة، ولكنّهم عصوا الأوامر فحصل الذي حصل.

٢ - الاغترار بالكثرة، إذ كانوا يقولون للنبي ﷺ : «قد كنت في بدر في

---

(١) الحس: هو القتل على وجه الاستيصال.

(٢) آل عمران: ١٥٢.

ثلاثمائة رجل، فأظفرك الله بهم، ونحن اليوم بشر كثير. . .»[(١)] وعنصر الاغترار بالكثرة يفقد العناصر المشاركة الاعتماد على النفس، ويجعلهم يعيشون روح التواكل واللامسؤولية[(٢)].

هذان السببان يشكلان العامل الأساس للانكسار العسكري الذي لحق بالمسلمين في هذه المعركة. ومن وجهة نظر عسكرية يمكن اضافة أسباب أُخرى أدّت إلى كثرة خسائر المسلمين في المعركة، والتي منها:

الأول: عدم المطاردة: إذ لم يقم المسلمون بمطاردة قريش بعد هزيمتهم في الجولة لأُولى من المعركة، وإنما انشغلوا بجمع الغنائم، ولو أنّهم طاردوا قريشاً فوراً بعد هزيمتها، لقضوا على قواتها بسهولة.

الثاني: مخالفة الأوامر: وهو العصيان الذي ذكرناه أولا، ويعني عسكرياً عدم الانضباط العسكري، والذي يعتبر روح الجندية والسبب المباشر المؤدي إلى كلّ انتصار في المعركة. ومخالفة الأوامر من قبل الرماة أدّى إلى خلو الموقع العسكري الاستراتيجي، الذي استغله خالد بن الوليد، فحوصروا من كل الجهات، فأكثروا فيهم القتل.

الثالث: وجود عنصر المباغتة لدى العدو: والمباغتة مبدأ من أهم مبادئ الحرب، ومعناه ضرب العدو من مكان أو زمان أو بأُسلوب لا يتوقعه، بحيث يمكن تحطيم قوى العدو المادية والمعنوية، وما قام به خالد بن الوليد هو عنصر مباغتة تامة للمسلمين. . أتاحت الفرصة لقريش لإعادة الكرة على المسلمين[(٣)].

هذا أهم ما يمكن احصاؤه من الأسباب العسكرية لإنكسار المسلمين في

---

(١) الواقدي، المغازي: ١ / ٢١١ .

(٢) للتوسع انظر، الصحيح من سيرة النبي: ٦ / ١٩٦ - ١٩٨ .

(٣) للتوسع انظر، الرَّسول القائد: ١٨٨ .

هذه المعركة.

دور القيادة في معركة أُحد:

وينبغي أن نشير هنا إلى مسألة القيادة في هذه المعركة إذ كان لقريش قائد عام هو أبو سفيان بن حرب، ولم تظهر أية حَنكة لهذا القائد في المعركة، بل انهزم مع المنهزمين في الجولة الأُولى من المعركة.

أما قيادة النبيﷺ ، فقد ظهرت بشكل جليّ في هذه المعركة، فقد انتخب الموضع المناسب للمعركة، وأَجبر قريشاً على قبول المعركة فيه، ونظّم خطّة القتال، فانتخب مواضع الرماة لحماية ظهور المسلمين، وخصص لهذه المواضع قوة كافية للدفاع عنها بإمرة قائد مسؤول.

كذلك ظهرت عبقرية قيادته في أثناء القتال خلال الجولة الثانية من المعركة، حين طوق المشركون قوة المسلمين وانهارت المعنويات، وانهزم من انهزم حتّى لم يبقَ معه إلاّ قليل يقاوم زخم هجوم قريش... فنجد النبي في هذا الموقف الصعب للغاية، يسيطر على الموقف ويقود الباقين، ويقوم باعادة تنظيم قواته الباقية، ويعيد إليهم معنوياتهم وبأسهم وقوتهم، ويصد بها الهجمات المضادة للمشركين.

ولم يكتفِ النبيﷺ بانسحاب المشركين من أُحد، وإنما خرج في اليوم الثاني من المعركة، لمطاردة قوات المشركين حتّى اضطروا إلى الهروب إلى مكة تحت غطاء الحيلة وارسال المعلومات الكاذبة للمسلمين...(١).

يقول أحد الباحثين العسكريين عن قيادة النبيﷺ في هذه المعركة: «هذه قيادة عبقرية، ظهرت للرسولﷺ بهذه المعركة بشكل واضح كل الوضوح، كان

(١) المرجع نفسه: ١٨٩ - ١٩٠ بتصرّف واختصار.

من بعض نتائجها أنّها جعلت النصر إلى جانب المسلمين المغلوبين»، ثمّ يقول: «وأشهد أنني لم اقرأ في تاريخ الحرب لكل الأُمم، موقفاً صعباً يائساً كالذي كان فيه المسلمون يوم (أُحد) فاستطاع الرسول القائد عليه أفضل الصلاة والسلام، بقيادته الفذة أن يتخلّص من هذا الموقف العصيب، وينقذ قواته من فناء أكيد، ثمّ يعيد إليها ثقتها بنفسها ويعيد إليها قوتها المادية والمعنوية بشكل لم يسبق له نظير، وخلال فترة زمنية محدودة جداً، إن بروز قيادة النبيﷺ في معركة (أُحد) كان باهراً فذاً»[١].

وخلاصة الأمر، لا يمكن أن نعزو الانتصار العسكري للمشركين إلى قيادته، إذ لم يكن له دور يذكر، ولا الانكسار العسكري للمسلمين إلى قيادة النبيﷺ بل ان قيادة النبيﷺ هي التي أحالت الهزيمة إلى نصر كما سوف يأتينا لاحقاً.

نعود للسؤال الذي طرحناه وهو معركة أُحد نصر أم هزيمة؟

لقد أجمع المؤرخون وكتاب السيرة على اعتبار نتيجة معركة أُحد نصراً للمشركين وهزيمة للمسلمين! إلاّ أنَّ الحقائق العسكرية لهذه المعركة لا تتفق على ما أجمع عليه المؤرخون وكتّاب السيرة.

فلو استعرضنا قوات الطرفين فإنا لا نجد هنالك تكافؤاً بين القوتين لا من ناحية العدد ولا من ناحية العدّة، فقد كانت قوات المسلمين ستمائة وخمسين راجلا وخمسين فارساً، وبعدة عسكرية متواضعة، بينما كانت قوات المشركين ألفين وتسعمائة من قريش ومواليهم وأحابيشهم ومائة من بني ثقيف، منهم سبعمائة دارع، ومع قوات المشركين مائتا فرس وثلاثة آلاف بعير، مستصحبين معهم النساء للتشجيع ورفع المعنويات، مع هذا التفوق الكبير للمشركين في

---

(١) المرجع نفسه: ١٩١ .

العدد والعدّة استطاع المسلمون في ابتداء المعركة طرد المشركين والاحاطة بنسائهم وأموالهم وتعفير لوائهم بالتراب بعد أن قتلوا حملة اللواء من آل طلحة الواحد بعد الآخر. إلاّ أن مخالفة الأوامر من قبل الرماة، وعنصر المباغتة الذي استخدمه خالد بن الوليد، قلب ميزان القوى إلى جانب المشركين.

إلاّ أن نتائج كل معركة لا تقاس من الناحية العسكرية بعدد الخسائر بالأرواح فقط، بل تقاس بالحصول على هدف القتال الحيوي وهو القضاء المبرم على العدو مادياً ومعنوياً.

فهل حصل المشركون على هذا الهدف الحيوي وتمّ القضاء على المسلمين بالكامل؟

مما لا شك فيه أن قريشاً لم تحقق أي هدف من أهدافها التي خرجت من أجلها سوى المثلة بأجساد القتلى الشهداء، وهو عمل مشين كانت العرب تستقبحه في حروبها وغاراتها وغزواتها وجاء الإسلام ليؤكد أن المثلة حرام. بل إن خسائر المسلمين بالأرواح لم يكن سوى سبعين رجلا، أي بنسبة عشرة بالمائة فقط من عددها، في مقابل قوة متفوقة عليها بالعدد بنسبة خمسة أمثال المسلمين

ولهذا أخذت قريش وهي تنسحب إلى مكة تتلاوم فيما بينها وتقول: «لا محمّداً أصبتم، ولا الكواعب أردفتم، فبئس ما صنعتم.. ما صنعنا شيئاً، أصبنا أشرافهم ثمّ رجعنا قبل أن نستأصلهم...»[١].

فأين هو النصر العسكري الذي حققته قريش، وقد قتل من صناديدهم في هذه المعركة ثمانية وعشرون رجلا[٢]؟

---

(١) الواقدي، المغازي: ١ / ٣٣٨.

(٢) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة: ١٥ / ٥٤ وعدهم ابن هشام في السيرة النبوية: ٣ / ١٢٩ اثنان وعشرون رجلاً.

فلا يمكن اعتبار اخفاق القوة الكبيرة في القضاء على القوة الصغيرة مادياً ومعنوياً في مثل ذلك الموقف الحرج للغاية نصراً لتلك القوات الكبيرة على القوة الصغيرة[١].

يقول المستشرق جيورجيو في كتابه: نظرة جديدة في سيرة رسول الله ﷺ (ص ٢٦٧): «من وجهة نظر محارب متخصّص - محايد - لم يخسر المسلمون في معركة أُحد، إنما وقعوا في تجربة مفاجئة وحسب، لأن جيش مكة لم يفن جيش المسلمين، كما لم يحتل المدينة»[٢].

نعم قد تكون معنويات المسلمين قد ضعفت وفترت، وهم يرون القتلى وقد مثّل بهم، وكثرة الجرحى فيهم، وهذا ما عالجه الرسول القائد ﷺ بحكمته الربانية من خلال الخروج بهم وهم مع ما فيهم من قرح وجرح لمطاردة عدوّهم وابعاد الخطر عن المدينة.

ثمّ جاء دور القرآن الكريم ليبين أسباب ونتائج المعركة ويرفع من معنويات المسلمين.

ثانياً: الحكم والعظات المستفادة من معركة أُحد:

لقد كان في قصّة معركة أُحد ووقائعها كثير من الحكم والعظات توقف عندهما المؤرخون اجمالا أو تفصيلا.

قال ابن إسحاق: «كان يوم أُحد يوم بلاء ومصيبة وتمحيص، اختبر الله به المؤمنين، ومحص به المنافقين، ممّن كان يظهر الإيمان بلسانه، وهو مستخف بالكفر في قلبه، ويوماً أكرم الله فيه من أراد كرامته بالشهادة من أهل ولايته»[٣].

---

(١) الرسول القائد: ١٨٦ - ١٨٧ .

(٢) الندوي، أبو الحسن، السيرة النبوية: ٣٢٦ (الهامش ٥) .

(٣) ابن هشام، السيرة النبوية: ٣/ ١٠٥ .

وقال السمهودي في وفاء الوفاء، والديار بكري في تاريخ الخميس واللفظ للأوّل:

قال: «قال العلماء: وكان في قصّة أُحد من الحكم والفوائد أشياء عظيمة:

منها: تعريف المسلمين سوء عاقبة المعصية، وشؤم ارتكاب النهي ; لما وقع من الرماة.

ومنها: أن عادة الرّسل أن تبتلى وتكون لهم العاقبة.

ومنها: اظهار أهل النفاق، حتّى عرف المسلمون أنّ لهم عدواً بين أظهرهم.

ومنها: أن في تأخير النصر هضماً للنفس.

ومنها: أنّ الله هيأ لعباده المؤمنين منازل في دار كرامته لا تبلغها أعمالها، فسبّب لهم ذلك ليبلغوها.

ومنها: ان الشهادة من أعلى مراتب الأولياء، فساقها لهم بين يدي الرسول ليكون شهيداً عليهم»[(١)].

ومما لا شك فيه أن ما ذكره المؤرخون من حكم وعبر لمعركة أُحد، ليس على نحو الاستقراء التام، فمعركة أُحد فياضة بالعظات والحكم والدروس البليغة، مما لا يعرف كنهها إلاّ الله سبحانه.

ثالثاً: القرآن الكريم ومعركة أُحد:

تحدث القرآن الكريم وبمساحة من سورة آل عمران عن «غزوة أُحد» وأحداثها والتعقيب عليها وبأُسلوب قرآني رائع يلامس واقع المعركة ويشخص ما

---

(١) السمهودي، وفاء الوفا: ١ / ٢٩٥، والديار بكري، تاريخ الخميس: ١ / ٤٤٥ .

اكتنفها من اخطاء واضطراب وتذبذب في الأفعال والتصرفات، ليجعل منها وسيلة لتربية الأُمة المسلمة، من خلال تحمل تبعاتها، والارتفاع بمستوى المسؤولية والأمانة الضخمة التي أناطها الله بها، وعدم النكوص والتراجع عن هذه المسؤولية.

روى الواقدي عمن حدّثه عن رجل قال لعبد الرحمن بن عوف: حدّثنا عن أحد، فقال: «يا ابن أخي عُدّ بعد العشرين ومائة من آل عمران فكأنك حضرتنا»[(١)].

وقال ابن إسحاق: «فكان مما أنزل الله تبارك وتعالى في يوم أُحد من القرآن ستون آية من آل عمران، فيها صفة ما كان في يومهم ذلك، ومعاتبة من عاتب منهم»[(٢)].

وهذه الآيات القرآنية قد نزلت بعد واقعة أُحد، وتحدثت عنها، إلاّ أنّها لم تكن جميعها عن هذه الواقعة وإنما تخلّلتها آيات تحدثت عن واقعة بدر والنصر الذي أحرزه المسلمون فيها وعن الربا والنهي عنه، وعن الشورى والأخذ بها، وعرجت على الانفاق في السراء والضراء، والأخلاق الفاضلة ككظم الغيظ والعفو عن الناس، والشفقة والرحمة ولين قلب الرسولﷺ والاستغفار والتوبة... إلاّ أن التعقيب على معركة أحد وأحداثها كان له النصيب الأكبر في هذه الآيات الكريمة[(٣)].

وفيما يلي بعض هذه الآيات الكريمة تاركين التوسع في شرح مفرداتها وتفسيرها والروايات الواردة في أسباب نزولها إلى كتب التفسير التي تحدثت عنها

---

(١) المغازي: ١ / ٣١٩، وأنساب الأشراف: ١ / ٣٢٧ .

(٢) ابن هشام، السيرة النبوية: ٣ / ١٠٦ .

(٣) للتوسع في معرفة تعليل وضع هذه الآيات في سياق الآيات الواردة في قصّة معركة أُحد؛ انظر تفسير المنار: ٤ / ١٢١، وتفسير الميزان: ٤ / ١٧ - ١٩ .

باسهاب وتفصيل.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (١٢١) إِذْ هَمَّت طَّائِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (١٢٢) وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (١٢٣)﴾[١].

الخطاب في الآية للنبي ﷺ حيث تذكره بيوم خروجه من أهله، وتعبئة المؤمنين للقتال، ثمّ الآية الثانية تذكر الطائفتين اللتين همتا بالفشل الذي هو ضعف مع الجبن.

وقد ذكر المؤرخون: «ان الطائفتين هما بنو حارثة وبنو سلمة من الأنصار همّوا ألا يخرجوا مع النبي ﷺ إلى أحد، ثمّ عزم لهما فخرجا»[٢].

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (١٢٣) إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُنزَلِينَ (١٢٤) بَلَىٰ إِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ (١٢٥) وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (١٢٦)﴾[٣].

في هذه الآيات الكريمة يذكرهم الله سبحانه بالمعركة التي انتهت بنصرهم وهي: «معركة بدر» من خلال موازنة وتأمل في الأسباب والنتائج، ومعرفة مواطن الضعف ومواطن القوة، وأسباب النصر وأسباب الهزيمة، ليكونوا على يقين من أن النصر والهزيمة كليهما يجريان ضمن سنن الله تعالى «لقد كان نصرهم في بدر فيه رائحة المعجزة، فقد تم بغير أداة من الأدوات المادية المألوفة للنصر،

---

(١) آل عمران: ١٢١ - ١٢٢.

(٢) الواقدي، المغازي: ١ / ٣١٩، وابن هشام السيرة النبوية: ٣ / ١٠٦.

(٣) آل عمران: ١٢٣ - ١٢٦.

فلم تكن الكفتان فيها - بين المؤمنين والمشركين - متوازنتين ولا قريبتين من التوازن، كان المشركون حوالي ألف، خرجوا نفيراً لاستغاثة أبي سفيان. . مزودين بالعدة والعتاد، والحرص على الأموال والحمية للكرامة. وكان المسلمون حوالي ثلاثمائة، لم يخرجوا لقتال هذه الطائفة ذات الشوكة، إنما خرجوا لرحلة هنيئة، لمقابلة القافلة العزلاء وأخذ الطريق عليها، فلم يكن معهم - على قلّة العدد - إلاّ القليل من العدّة، وكان وراءهم في المدينة مشركون لا تزال لهم قوتهم، ومنافقون لهم مكانتهم، ويهود يتربصون بهم. . وكانوا هم بعد ذلك كلّه قلة مسلمة في وسط خضم من الكفر والشرك في الجزيرة، ولم تكن قد زالت عنهم صفة أنهم مهاجرون مطاردون من مكة، وأنصار آووا هؤلاء المهاجرين ولكنهم ما يزالون نبة غير مستقرة في هذه البيئة».

فبهذا كلّه يذكرهم الله - سبحانه - ويرد ذلك النصر إلى سببه الأول في وسط هذه الظروف، إن الله هو الذي نصرهم، ونصرهم لحكمة نص عليها في مجموعة هذه الآيات، وهم لا ناصر لهم من أنفسهم ولا من سواهم، فإذا اتقوا وخافوا فليتقوا وليخافوا الله، الذي يملك النصر والهزيمة، والذي يملك القوة وحده والسلطان(١).

وكان رسول الله ﷺ قد قال لهم عند خروجهم إلى أُحد: «ولكم النصر ما صبرتم».

يقول الواقدي: «فلم يصبروا وانكشفوا فلم يمدَّ رسول الله ﷺ بملك واحد يوم أُحد»(٢).

وقال تعالى: ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ

(١) سيِّد قطب، في ظلال القرآن: ٢ / ٦٧ - ٦٨ .

(٢) الواقدي، المغازي: ١ / ٣٢٠ .

عَٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ ﴿١٣٧﴾ هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوۡعِظَةٌ لِّلۡمُتَّقِينَ ﴿١٣٨﴾﴾[١].

«السنن: جمع سنة، وهي الطريقة المسلوكة في المجتمع، والأمر بالسير في الأرض لمكان الاعتبار بآثار الماضين من الأُمم الغابرة، والملوك والفراعنة الطاغية، حيث لم ينفعهم شواهق قصورهم، ولا ذخائر كنوزهم، ولا عروشهم ولا جموعهم، وقد جعلهم الله أحاديث يعتبر بها المعتبرون، ويتفكه بها المغفَّلون»[٢].

وكأن القرآن الكريم وفي مقام التوطئة لبيان ما جرى عليهم وما أصابهم في معركة أُحد، يقول للمسلمين: ان ما جرى للمكذبين بالأمس سيجري مثله للمكذبين اليوم وغداً، ذلك كي تطمئن قلوب الجماعة المسلمة إلى العاقبة من جهة، وكي تحذر الانزلاق مع المكذبين من جهة أُخرى[٣]..

وقال تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُواْ وَلَا تَحۡزَنُواْ وَأَنتُمُ ٱلۡأَعۡلَوۡنَ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ إِن يَمۡسَسۡكُمۡ قَرۡحٌ فَقَدۡ مَسَّ ٱلۡقَوۡمَ قَرۡحٌ مِّثۡلُهُۥۚ وَتِلۡكَ ٱلۡأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيۡنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعۡلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَيَتَّخِذَ مِنكُمۡ شُهَدَآءَۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَيَمۡحَقَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿١٤١﴾ أَمۡ حَسِبۡتُمۡ أَن تَدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ وَلَمَّا يَعۡلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمۡ وَيَعۡلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٢﴾ وَلَقَدۡ كُنتُمۡ تَمَنَّوۡنَ ٱلۡمَوۡتَ مِن قَبۡلِ أَن تَلۡقَوۡهُ فَقَدۡ رَأَيۡتُمُوهُ وَأَنتُمۡ تَنظُرُونَ ﴿١٤٣﴾﴾[٤].

كانت الآيات السابقة بمثابة التوطئة والمدخل لهذه الآيات التي تشتمل على أصل المقصود من أمر ونهي وثناء وتوبيخ.

وفي هذه الآيات دلالة على أن سبب وهنهم[٥] وحزنهم ما شاهدوه من

---

(١) آل عمران: ١٣٧ - ١٣٨.

(٢) و (٣) السيّد الطباطبائي، الميزان: ٤ / ٢١، وسيِّد قطب، في ظلال القرآن: ٢ / ٨٤.

(٤) آل عمران: ١٣٩ - ١٤٣.

(٥) الوهن: هو الضعف في الخَلق والخُلق، والقَرح: الأثر من الجراحة من شيء يصيبه من خارج.

إصابة القرح إياهم، واستعلاء الكفار عليهم، فإن المشركين وإن لم ينالوا كل الغلبة والظفر على المؤمنين، ولكن الذي أصاب المؤمنين كان أشد وأوجع وهو شهادة سبعين من سراتهم وشجعانهم، ووقوع ماوقع في عقر دارهم فكان هذا سبب وهنهم وحزنهم.

فمحصل المعنى: لا ينبغي لكم أن تهنوا في عزكم، ولا أن تحزنوا لما فاتكم من الظفر على أعدائكم والانتصار ملاك الفتح والظفر، وأما القرح الذي أصابكم فلستم بمنفردين فيه بل القوم - وهم المشركون - قد أصابهم مثله، فلم يسبقوكم في شيء حتى يوجب ذلك وهنكم وحزنكم[(١)].

وقد توقف المرحوم الشهيد السيّد قطب عند هذه الآيات ليعلّق عليها بأُسلوب ينبض بالحركة وجمال الأُسلوب والبيان فقال: «ولا تهنوا - من الوهن والضعف - ولا تحزنوا - لما أصابكم ولما فاتكم - وأنتم الأعلون - لأن - عقيدتكم أعلى فأنتم تسجدون لله وحده، وهم يسجدون لشيء من خلقه أو لبعض من خلقه! ومنهجكم أعلى، فأنتم تسيرون على منهج من صنع الله، وهم يسيرون على منهج من صنع خلق الله! ودوركم أعلى، فأنتم الأوصياء على هذه البشرية كلّها، الهداة لهذه البشرية كلّها، وهم شاردون عن النهج، ضالون عن الطريق، ومكانكم في الأرض أعلى فلكم وراثة الأرض التي وعدكم الله بها، وهم إلى الفناء والنسيان صائرون.. فإن كنتم مؤمنين حقاً فأنتم الأعلون، وإن كنتم مؤمنين حقّاً فلا تهنوا ولا تحزنوا، فإنّما هي سنة الله أن تصابوا وتصيبوا، على أن تكون لكم العقبى بعد الجهاد والابتلاء والتمحيص»[(٢)].

وهكذا تسير الآيات القرآنية لتستعرض مشاهد ولقطات متفرقة مقصودة،

---

(١) السيّد الطباطبائي، الميزان: ٤ / ٢٧ .

(٢) سيد قطب، في ظلال القرآن: ٢ / ٨٥ .

من أرض المعركة في آيات واضحة الدلالة والمعاني، ترسم لنا صور الأفعال وتجسد لنا مكنون الأقوال. وقد توقفنا في ثنايا الحديث عن وقائع المعركة عند مضامين الكثير منها من خلال نصوص المؤرخين وكتّاب السيرة، ومن هذه الآيات:

﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾[١].

وسياق الآية مع ما فيها من عتاب وتوبيخ أقوى شاهد على أن هؤلاء ظنوا يوم أُحد بعد أن حمي الوطيس أن النبيﷺ قد قُتل، فتسلّلوا عند ذلك، وانقلبوا على أعقابهم، وتولوا عن القتال من دون أن يكونوا قد انحازوا إلى فئة، أو موقع آخر من مواقع القتال! وليتهم توقفوا عند هذا الحد، بل أن أقوالهم التي سجلت عليهم في التاريخ تدل على رجوعهم، على أعقابهم القهقرى. منها رواية أنس بن النضر التي يرويها ابن هشام عن أنس بن مالك، وقد مرّت بنا سابقاً. كذلك رواية محمد بن مسلمة التي يرويها الواقدي[٢].

والآيات القرانية ١٥٢ إلى ١٥٨ من سورة آل عمران تقصّ لنا طرفاً من هذه الهزيمة والانقلاب، كذلك الآيات ١٦١ و ١٦٥ جاءت بنفس المضامين السابقة وتحكي لنا أحاديث وأقوال هؤلاء في تلك المعركة وذلك الامتحان والابتلاء الكبير ثمّ تحدثت الآيات ١٦٦ – ١٦٨ عن أقوال المنافقين قبل المعركة وبعدها، والآيات ١٧٢ – ١٧٥ تحدثت عن غزوة حمراء الأسد، وفي ثنايا هذه الآيات تحدث القرآن الكريم عن مكانة الشهداء عامة وشهداء أُحد خاصة[٣].

---

(١) آل عمران: ١٤٤ .

(٢) ابن هشام، السيرة النبوية: ٣ / ٨٣، والواقدي، المغازي: ١ / ٢٣٧ و ١ / ٢٨٠ .

(٣) للتوسع انظر تفسير الميزان: ٤ / ٥ – ٧٧ .

رابعاً: الدروس والعبر المستفادة من معركة أُحد:

تضمنت غزوة أُحد جملة من المواقف، وتجسدت فيها مجموعة من القيم والمفاهيم، التي كان لها بالغ الأهمية في حياة الأُمة الإسلامية، ولا يمكن لنا أن نتجاوزها من دون أن نتوقف عندها ونتأمل فيها ونستلهم منها الدروس والعبر العظيمة، والتي يمكن ايجازها واختصارها بما يلي:

١ - الأخذ بمبدأ الشورى:

والذي تجلى واضحاً في قضية غزوة أُحد، كما كان كذلك في قضية وقصة معركة بدر الكبرى. وهو مبدأ كان رسول الله يأخذ به نفسه، ويلتزم بالتشاور مع أصحابه في الأُمور التي فيها مجال للتشاور كأُمور الحرب والقتال كما هو في معركتي بدر وأُحد وبعض المعارك والغزوات الأُخرى كما سوف يأتينا.

وهنا ينبغي الاشارة إلى جملة من الأُمور:

الأول: لا ريب في حسن المشاورة وصلاحها، وقد ورد الحث عليها في الأخبار الكثيرة، والنبي الأكرمﷺ التزم بهذا المبدأ عملياً في جملة من الموارد، وقد نزلت الآية الكريمة بمناسبة واقعة أُحد في قوله تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ﴾[1].

والسؤال الذي يطرح نفسه هو: هل أن هذه المشاورة واجبة على النبيﷺ بشكل لا يمكن للنبيﷺ أن يتخلف عنها؟ وهل أن نتيجتها ملزمة للنبيﷺ في الأخذ بها وعدم مخالفتها؟

علّنا نجد الاجابة في الرواية التي يرويها المفسرون بسند حسن عن ابن عباس

---

(١) آل عمران: ١٥٩ .

قال: «لما نزلت ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الأمْرِ﴾ قال رسول الله ﷺ : أما إنّ الله ورسوله لغنيان عنهم، ولكن جعلها الله رحمة لأُمتي، فمن استشار منهم لم يعدم رشداً، ومن تركها لم يعدم غيّاً»[١] فالنبي ﷺ لعصمته واتصاله بوحي السماء غني عن المشاورة والتشاور، فهي ليست بواجبة عليه لعدم حاجته إليها، فضلا عن أن تكون نتيجتها ملزمة له بعد أن نصت الآية المباركة على أن اتحاذ القرار النهائي في الأُمور التي يتشاور بها مع أصحابه ترجع إليه نفسه ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ﴾.

وينبغي الاشارة إلى نقطة مهمة في هذا البحث وهي: أن مورد المشاورة لا تشمل الأُمور التي فيها الزام شرعي، وحكم إلهي ثابت، وإنّما موردها الولاية والتدبير في الأُمور العامة التي لم يرد فيها نص مما يجري فيه المشاورة.

يقول السيّد الطباطبائي (رحمه الله): «والروايات في المشاورة كثيرة جداً، وموردها ما يجوز للمستشير فعله وتركه بحسب المرجحات، وأ مّا الأحكام الإلهية الثابتة فلا مورد للاستشارة فيها، كما لا رخصة في تغييرها لأحد وإلاّ كان اختلاف الحوادث الجارية ناسخاً لكلام الله تعالى»[٢].

الثاني: والدرس الذي نستفيده من مبدأ الشورى الذي كان النبي ﷺ يلتزم به ويأخذ بنتيجته وخاصة في أُمور الحرب رغم عدم وجوبه عليه، هو: «ان النبي ﷺ وهو في مقام النبوة، وفي حين كان أصحابه يتفانون في سبيله... فإنّه لا يريد أن ينفرد في اتخاذ القرار، لأنّ أقل مضار ذلك هو أن لا يشعر اتباعه بأن لهم شخصيتهم وفكرهم المتميز، فهو حين يتجاهلهم كأنّه يقول لهم: إنّهم لا يملكون الفكر والفهم والشعور الكافي، وإنّما هم مجرد آلة تنفيذ لا أكثر ولا أقل، وهو فقط يملك حرية اصدار القرار، والتفكير فيه دونهم..!

---

(١) السيوطي، الدر المنثور: ٢ / ٣٣٦ .

(٢) تفسير الميزان: ٤ / ٧٠ .

وطبيعي أن ينعكس ذلك على الأجيال بعدهﷺ ، فكلّ حاكم يأتي سوف يستبد بالقرار وسيقهر الناس على الإنصياع لإرادته مهما كانت، وذلك بحجة أن له في رسول اللهﷺ أُسوة حسنة!!

مع أنّه ليس من لوازم الحكم الاستبداد بالرأي، فقد استشار النبيﷺ - وهو معصوم - أصحابه في بدر وأُحد»[١] .

وعلم الله كم جنت الأُمة الإسلامية من ويلات وحروب تركت آثارها المدمرة، وهوت بالأُمة الإسلامية إلى منحدر سحيق، نتيجة غرور دكتاتور هنا، ومستبّد هناك، ممن تسلطوا على شعوبهم بغير إرادة منهم ولا رضى، هؤلاء الذين زعموا لأنفسهم من الفضل في عقولهم، وبعد النظر في تفكيرهم ما يحملهم على احتقار إرادة شعوبهم، والتعالي عن استشارة عقلائهم وحكمائهم ومفكريهم، مع إنّ الكثير من هؤلاء المستبدين المتسلطين، ممّن لم يكونوا يمتلكون عقلا راجحاً، ولا أدنى ثقافة أو علم أو تجربة تميزهم عن رعيتهم، وإنّما تسلطوا على وسائل الحكم وقهروا شعوبهم بها.

«ففيما فعله رسول اللهﷺ في أحد وغيرها من مشورة لأصحابه قدوة لكل حاكم مخلص، ولكل قائد حكيم، ولكل داعية صادق»[٢] .

الثالث: والدرس الآخر الذي نستفيده من مبدأ المشاورة الذي أخذ به النبيﷺ هو ما تجلّى لنا من خلال البحث في معركة أُحد «فقد لاحظنا أنّهﷺ لم يشأ أن يعود عن موافقته لأصحابه الذين اقترحوا الخروج للقاء العدو خارج المدينة، بعد أن لبس درعه وأخذ أُهبته للقتال، على الرغم من أنّهم ندموا وعادوا عن رأيهم ورجوه البقاء إذا كان يرى ذلك. . . .

---

(١) الصحيح من سيرة النبي : ٦ / ٩٣، نقلاً عن الشهيد مرتضى مطهري .

(٢) السباعي، مصطفى: السيرة النبوية، دروس وعبر: ١١٨، ط . المكتب الإسلامي - بيروت، ط . الثانية (د - ت) .

ولعل الحكمة الجلية في هذا، أن البحث في الأمر بعد أخذ العدة للقتال، وبعد ظهور النبيﷺ في قومه وأصحابه لابساً درعه وآخذاً سلاحه، شيء خارج عن حدود ما يقتضيه مبدأ التشاور خصوصاً في القضايا الحربية التي تحتاج - مع المشورة - إلى قدر كبير من الحزم والعزم. ثمّ إن المعنى الذي يتولد عن تقاعسهﷺ عن الخروج بعد أن طلع عليهم مستعداً لذلك، إنّما هو الضعف والاضطراب في الإرادة وهو كثيراً ما يكون نابعاً من الخوف والحذر اللذين لا معنى لهما.

ولذلك أجابهم النبيﷺ عن كلامهم بعبارة فيها كل الحزم والعزم، دون أن يلتفت إلى لغط القوم وتعاتبهم فيما بينهم، قال: ما ينبغي لنبيّ لبس لامته أن يضعها حتى يقاتل»[(١)].

٢ - مبدأ التعامل مع المنافقين:

لقد كان للمنافقين وعلى رأسهم «ابن أُبي» دور تخريبي وخيانة واضحة سبقت معركة أُحد من خلال الانسحاب بثلث الجيش وهم في طريقهم إلى أُحد، ثمّ كان لهم دور الشماتة، وإطلاق الكمات النابية بعد عودة الجيش الإسلامي في الوقت الذي كانت جراحات المجاهدين تشخب دماً، وبكاء وعويل الأرامل والأيتام تملأ أرجاء المدينة.

فكانت أُحد ومعركتها - بحق - يوم تمحيص وابتلاء برز فيها نفاق المنافقين بشكل فاقع، إذ تكشفت وانزاحت كل أقنعة النفاق التي كانوا يتسترون بها قبل ذلك، ودلّت أفعالهم وأقوالهم على مكنونات أنفسهم، وخبث سرائرهم.

والدعوات - إبان امتدادها وانتصارها - تغري الكثيرين بالانضواء تحت لوائها، فيختلط المخلص بالمغرض، والأصيل بالدخيل. وهذا الاختلاط مضر

---

(١) البوطي - محمد سعيد، فقه السيرة النبوية: ٢٦٢ - ٢٦٣ .

أكبر الضرر بسير الرسالات الكبيرة.

ومن مصلحتها الأُولى أن تصاب برجّات عنيفة تعزل خبثها عنها، وقد اقتضت حكمة الله أن يقع هذا التمحيص في أُحد.

﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ﴾[١].

فالجبن والنكوص هما اللذان كشفا عن طوية المنافقين، فافتضحوا أمام أنفسهم وأمام الناس، قبل أن تعلن عن نفاقهم السماء...»[٢].

فلولا معركة أُحد، والمواقف المتشابكة فيها، لما تميزّت جبهة النفاق بهذا الشكل البارز، وفي ذلك درس بليغ لمن نظر وتأمل فيما انطوت عليه نتائج هذه المعركة.

والدرس الآخر الذي نستفيده من هذه القضية يتجلّى في كيفية تعامل النبيﷺ مع هؤلاء المنافقين بعد المعركة، وقد أظهروا الشماتة في أمر لا يشمت فيه ذو الحِجى، ومن له أدنى درجة من المروءة، ومن قبل ذلك خانوا النبي والمسلمين بانسحابهم من المعركة.

لقد تعامل معهم النبيﷺ بانسانية عالية، وبمنتهى الحلم وسعة الصدر، وبحكمة نافذة امتاز بها النبيﷺ ، فلم يعرضهم على السيف، ولم يأذن لأحد بالتعرض لهم، ماداموا يظهرون شهادة أن لا إله إلاّ الله، محمد رسول اللهﷺ» ولو على مستوى لقلقة اللسان فقط، وعندما استأذنهﷺ عمر في قتل هؤلاء المنافقين لم يأذن له، رغم محاججته مع النبيﷺ كما مرّ بنا.

وفي هذا الموقف النبيل والحليم من رسول اللهﷺ الدروس والعبر والعظات الكثيرة، فمشروع النبيﷺ هو الهداية ممزوجة بالرأفة والرحمة بالناس

---

(١) آل عمران: ١٧٩ .

(٢) الغزالي - محمد، فقه السيرة: ٢٦١ (مرجع سابق) .

﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾[١].

ولا يتصرف النبيﷺ مع معارضيه «كأبن أُبي» - الذي عارض خروج النبيﷺ من المدينة ثمّ توج معارضته بالانسحاب في وسط الطريق - كما يتصرف الحكام الجبابرة الذين يسحقون كلّ صوت معارض لهم ويسكتونه بكلّ وسائط البطش التي يمتلكونها.

لقد كان معروفاً عن النبيﷺ انّه كان لا يتعرض بسوء لمن يظهر الإسلام، حتّى لو كان بمستوى وحشي قاتل عمه حمزة سيد الشهداء.

لقد أراد النبيﷺ أن يعطي الفرصة لهؤلاء المنافقين للتعرف أكثر فأكثر على تعاليم الإسلام وأهدافه، ولكي يعيشوا أجواءه من الداخل، وليكتشفوا ما أمكنهم من أسرار عظمته وأصالته، فتلين قلوبهم، وتخضع له عقولهم، ولا أقلّ من أن أبناءهم، ومن يرتبط بهم، يصبح أقدر على ملامسة واقع المسلمين، والتفاعل مع تعاليم الإسلام، مادام يعيشه بنفسه، وتقع تحت سمعه وبصره.

ثمّ إن اتخاذ أي اجراء ضد المنافقين معناه: فتح جبهة جديدة في المواجهة... إذ سوف ينضم هؤلاء المنافقون إلى جبهة المشركين المحاربين لدولة الإسلام.. وواضح أن تصرفاً كهذا ليس من الحكمة ولا من الحنكة في شيء، لأنّه يأتي في ظرف يحتاج فيه الإسلام إلى تمزيق أعدائه وتفريقهم؛ حيث لا يستطيع مواجهتهم جميعاً في آن واحد[٢].

وفي الختام نقول: شتان بين تفكير النبيﷺ وتصرفه وبعد النظر والحكمة لديه، وبين وجهة نظر أحد أصحابه حين طلب من النبيﷺ أن يقتل هؤلاء المنافقين! إذ إن مواقف الانفعال والتسرع بردود الأفعال قد تضيع الكثير من

---

(١) التوبة: ١٢٨ .

(٢) العاملي، الصحيح من سيرة النبيﷺ : ٦ / ١٢٦ - ١٢٨ (بتلخيص) .

مواطن الحكمة والاتزان.

٣ - عدم التمثيل بقتلى المشركين:

لقد ارتكب جيش المشركين في أُحد - وخاصة النساء اللاتي خرجن معهم وعلى رأسهن «هند بنت عتبة» زوج أبي سفيان - أبشع جريمة عرفت في تاريخ الحروب والغزوات حيث عمدن إلى التمثيل بشهداء المسلمين، تمثيلا مروعاً، اطفاءً لحقد دفين في صدورهن، وهو عمل قبيح وشنيع، تستقبحه كل البشرية، وحتى العرب في جاهليتها لم تكن تقدم على المثلة بجسد القتيل، ولهذا نجد فيما ينسب إلى أبي سفيان انّه تبرأ من هذه الأفعال وقال مخاطباً المسلمين بعد المعركة: «في قتلاكم مثلة لم آمر بها»[١].

وقد بقيت آثار هذه الأفعال الشنيعة تلاحق مرتكبيها فكانوا يعيّرون بها إذ عرفت «هند» بسبب فعلتها هذه بآكلة الأكباد، ودعي ابناؤها في ما بعد ببني آكلة الأكباد.

وكان حقاً على النبيﷺ وهو يرى ما فعل بالشهداء وخاصة بعمّه «حمزة بن عبد المطلب» من المثلة الشنيعة، أن يحزن ويبكي ويتألم ويتحسر عليهم، أن يقول: «ما وَقفتُ موقاً قط أغيظ إليّ من هذا»[٢].

إلاّ أن نبي الرحمةﷺ لم يقدم على الانتقام من موقع الانفعال والعصبية للقبيلة والرحم، ولم يمثل بجثث قتلى المشركين التي تركها أصحابها في أرض المعركة، ولم يبادر أحد من المسلمين إلى ارتكاب مثل هذه الأفعال الشنيعة، لا في أُحد ولا في بدر التي اسفرت عن سبعين قتيلا من المشركين دفنوا في قليب بدر، ولا في غيرها من المعارك والغزوات.

وما نسبه المؤرخون إلى النبيﷺ وإلى المسلمين من أنّهﷺ قال: «..

---

(١) السيرة الحلبية: ٢/ ٢٤٤، وابن هشام، السيرة النبوية: ٣/ ٩٤، والواقدي، المغازي: ١/ ٢٩٧.

(٢) ابن هشام، السيرة النبوية: ٣ / ٩٦.

ولئن أظهرني الله على قريش في موطن من المواطن لامثلنّ بثلاثين رجلا منهم... وقال المسلمون: والله لئن أظفرنا الله بهم يوماً من الدهر لنمثّلن بهم مُثلة لم يمثّلها أحد من العرب.. فأنزل الله تعالى: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّـٰبِرِينَ﴾[1] فمضى رسول الله ﷺ، وصبر ونهى عن المثلة»[2].

فهذه النسبة لا تنسجم مع روحية وأخلاقية وانسانية النبي الأعظم ﷺ الذين لم يغفل وهو في احلك الظروف الضاغطة عن قانون العدالة والحق، التي كشفت عنها الآية المباركة ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّـٰبِرِينَ﴾ فليس الدين الإسلامي شريعة انتقام وتأثر وانفعال.

فلا يبقى إلاّ أن نتأمل فيما ذكره المؤرخون، وقد كفانا مؤونة ذلك بعض المحققين، وأجاب عما ذكروه جواباً مناسباً[3].

ومهما يكن من أمر، فإن في موقف النبي ﷺ وعدم تعامله بروحه الانتقام والتأثر والعصبية والانفعال.. درس بليغ لكل مجاهد وطالب حق في ساحات الصراع المرير بين الحق والباطل.

نكتفي بهذا المقدار من الدروس والعبر من هذه المعركة؛ التي كَثُر فيها مواطن الصبر والعظات والدروس القيمة للمسلمين عبر تاريخ صراعهم المرير ضد أعدائهم، لتؤتي ثمارها نضجاً للتجربة، وتقويماً للحركة، واستقامة على الطريق.

---

(١) النحل: ١٢٦ .

(٢) ابن هشام، السيرة النبوية: ٣ / ٩٦، والواقدي، المغازي: ١ / ٢٩٠ .

(٣) للتوسع انظر الصحيح من سيرة النبي للعاملي: ٦ / ٢٥٦ وما بعدها .

الأسئلة:

١ - كيف كان موقف اليهود والمنافقين بعد عودة الرسول والمسلمين إلى المدينة؟

٢ - كيف تعامل رسول الله ﷺ مع مواقف الاستفزاز والشماتة من قبل المنافقين بعد معركة أُحد؟

٣ - ما هي أسباب ونتائج وآثار غزوة حمراء الأسد؟

٤ - هل كان هنالك أسرى في معركة أُحد؟ وكيف تعامل الرسول ﷺ مع الأسيرين اللذين وقعا في الأسر بعد المعركة؟

٥ - هل تعتبر واقعة أُحد هزيمة عسكرية للمسلمين؟ ولماذا؟

٦ - ما هي الحِكم والعظات المستفادة من معركة أُحد؟

٧ - كيف تعامل القرآن الكريم مع أحداث ونتائج معركة أُحد؟

٨ - ما هي أهم الدروس والعِبر المستفادة من معركة أُحد؟

الدرس الحادي عشر
أحداث ووقائع السنة الرابعة من الهجرة

(الأوضاع السياسية في المدينة بعد معركة أُحد)

محاور البحث:

- الموقف العام في المدينة بعد معركة أُحد

المتربصون بالإسلام والمسلمين من داخل المدينة ومن خارجها :

أ - اليهود

ب - المنافقون

ج - قريش وأعراب البادية

٢ - سرايا وغزوات السنة الرابعة :

أ - سرية أبي سلمة إلى بني أسد .

ب - سرية عبد الله بن أُنيس

ج - حادثة الرّجيع

د - حادثة بئر معونة

٣ - الدروس والعبر المستفادة

• الأسئلة

الأوضاع السياسية في المدينة بعد معركة أُحد

١ - الموقف العام في المدينة بعد المعركة

لقد عمل النبي ﷺ والمسلمون على أن يجعلوا من المدينة المنورة قاعدة أمينة للإسلام قبل واقعة أُحد، وذلك من خلال عدة اجراءات عسكرية وإدارية أشرنا إليها فيما سبق. إلاّ أن غزوة أُحد وما تركته من آثار، أعادت الأمر إلى سابق عهدها وأضحت الدولة الإسلامية الفتية أمام مشاكل داخلية وخارجية.

أمّا المشاكل الداخلية فكانت تتمثل في كتلتين مناوئتين للإسلام والمسلمين:

الأُولى: هم اليهود الذين هم أشدّ عداوة للذين آمنوا في السراء والضراء، وإن كانت السراء تضطرهم إلى اخفاء نيّاتهم، بينما يعلنون هذه النيات صريحة في الضراء.

والثانية: المنافقون الذين تظاهروا بالإسلام، فانكشفت طوايا نفوسهم قبيل معركة أُحد، وبعدها عندما رأوا الخطر محدقاً بالمسلمين.

وأ مّا المشاكل الخارجية فقد كانت تتمثل أيضاً في جبهتين معاديتين هما:

الأُولى: قريش التي امتلأت نفوسها غبطة وسروراً بما حصلوا عليه من انتصار عسكري في أُحد، فأخذت تشنّ حرباً دعائية ضد المسلمين، لتظهر نتائج غزوة أُحد بمظهر يرفع من قيمتها ويحطّ من قيمة المسلمين.

والثانية: القبائل المجاورة للمدينة، أُولئك الأعراب الذين يستخدمون للأقوياء، فيظهرون بمظهر المسالم الوادع، ويبطشون بالضعفاء بطشاً لا هوادة فيه

ولا رحمة.

ولهذا كلّه كان على المسلمين أن يعيدوا الكرّة للقيام بالتطهير العام، في المدينة المنورة وخارجها حتى يعيدوا النظام إلى صفوفهم، وحتى يستعيدوا السيطرة الكاملة على المدينة وما حولها من القبائل، وحتى يعيدوا هيبتهم على المشركين من قريش والقبائل الأُخرى الموالية لها، وبذلك يستعيدوا سمعتهم المتميزة بين العرب[١].

والذي يبدو من خلال سير الأحداث والوقائع بعد معركة أُحد أن سلّم أولويات المواجهة لهذه المشاكل كانت تقتضي التصدي للمشاكل الخارجية منها، إذ إن اليهود في المدينة يمكن ضبط تحركاتهم ولا زالت معاهدة وثيقة العهد سارية المفعول بينهم وبين المسلمين، ولم يظهروا بمظهر عسكري ضد المسلمين سوى حربهم النفسية والكلامية وشماتتهم، وسوف يأتينا مزيد من التوضيح حول اليهود في مكانه المناسب لاحقاً.

وأ مّا المنافقون فبرغم موقفهم القاسي من معركة أُحد وخيانتهم ومن ثمّ شماتتهم... إلاّ أنّ النبيﷺ وبحكمته وبعد نظره لم يرد فتح جبهة داخلية معهم، إذ إن هؤلاء لا زالوا يظهرون الإسلام، ويعيشون في وسط المسلمين، وبعض أبنائهم ومن طوائفهم كانوا من المسلمين المخلصين لله ولرسولهﷺ في إسلامهم كابن عبد الله بن أُبي، الذي استأذن رسول اللهﷺ في قتل أبيه ولم يأذن له بذلك[٢].

فهؤلاء المنافقون يعيشون تحت رقابة صارمة لتحركاتهم من قبل المسلمين وأبنائهم وطوائفهم من المسلمين فلا يمكنهم القيام بأي تحرك عسكري ضد

---

(١) الرسول القائد: ٢٠١ (بتصرف وتوضيح).

(٢) ابن هشام، السيرة النبوية: ٣ / ٢٩٣.

الإسلام والمسلمين من داخل المدينة، إلاّ أنّهم كانوا مصدر أذى للمسلمين من خلال السعي لاضعاف معنويّات المسلمين، وإثارتهم الفرقة بينهم، وتحريض الأنصار على المهاجرين، واحياء الأحقاد الجاهلية بين الأوس والخزرج. . . وكانت هذه معالم استراتيجيتهم السياسية لاضعاف الإسلام والمسلمين على طول خط المواجهة. وجاء القرآن الكريم ليكشف نواياهم وتحركاتهم ودسائسهم.

كما أنّ النبيﷺ نفسه قد حاول أن يحدّ من فعالية المنافقين ما أمكنه، وذلك بتنبيه الصحابة إلى خططهم ومؤامراتهم، والكشف عن حقيقتهم ووجودهم، وتحذير الناس منهم. . . بل قد اتخذﷺ احياناً اجراءات عملية ضدهم، كهدم مسجد الضرار. . وهذا بطبيعته يمثل حصانة ومناعة للمسلمين ضد النفاق والمنافقين ومكائدهم(١).

وخلاصة الأمر أن النبيﷺ لم يدخل في مواجهة عسكرية مع المنافقين، ولا مع اليهود حتى أظهروا الحرب كما سوف يأتينا.

فلم يكن أمام النبيﷺ في حينها إلاّ العدو الخارجي الذي يتمثل بقريش والمشركين من أهل مكة، ومن الأعراب والقبائل من القاطنين حول المدينة.

أما قريش فقد عادت إلى مكة، وتوجه أبو سفيان بن حرب إلى آلهته التي رفع شعارها في أُحد بقوله: «اعل هُبل» ولم يلبث حين بلغها أن قصد الكعبة قبل أن يدخل إلى بيته، وبها رفع إلى كبير آلهتهم «هبل» آي الثناء والحمد، ثمّ حلق لِمَّته ورجع إلى داره موفياً نذره ألاّ يقرب زوجته حتى ينتصر من محمد(٢).

فكان موعد النبيﷺ مع قريش «بدر الصفراء على رأس الحول» كما نادى

(١) الصحيح من سيرة النبي: ٦ / ١٢٨ .

(٢) هيكل - محمد حسين، حياة محمد: ٣٠٣ .

بذلك أبو سفيان[١].

فلم يبقَ في سلّم أولويات المواجهة إلاّ الأعراب والقبائل البدوية المجاورة التي رأت الفرصة أمامهم سانحة للإغارة على المدينة، بعد أن ردّت «أُحد» إليهم بعض نشاطهم، فطمعوا في المسلمين، وظنوا أنّهم أصبحوا في متناول أيديهم غنيمة باردة.

فكان من اللازم تطهير أطراف المدينة من هؤلاء الأعراب، فكانت غزوات وسرايا السنة الرابعة من الهجرة، والتي سوف نذكرها بايجاز.

٢ - سرايا وغزوات السنة الرابعة من الهجرة

أ - سرية أبي سلمة إلى بني أسد:

نصّ المؤرخون على أن سرية أبي سلمة إلى بني أسد في «قَطَن»[٢] كانت في شهر محرم على رأس خمسة وثلاثين شهراً، فيمكن أن تعدّ من حوادث السنة الرابعة بنحو من المسامحة، أو من حوادث نهاية السنة الثالثة كما هو صحيح[٣].

وقد أهمل ابن هشام ذكر هذه السرية في حوادث السنة الرابعة من الهجرة، وذكرها الواقدي في المغازي بروايتين تكمل احداهما تفاصيل الأُخرى، إلاّ أن كلا الروايتين تفقدان التسلسل المنطقي الروائي والزمني في سرد الأحداث ولهذا سوف نذكر أحداث هذه السرية بحسب ترابط أحداثها من خلال الجمع والتركيب بين الروايتين.

فبعد شهرين من واقعة أُحد بلغ النبيﷺ أنّ طليحة وسلمة ابني خويلد -

---

(١) الواقدي، المغازي: ١ / ٢٩٧ .

(٢) قَطَن: جبل بناحية فيد، به ماء لبني أسد، (طبقات ابن سعد: ٢ / ٣٥) .

(٣) للتوسع انظر الصحيح من سيرة النبيﷺ : ٧ / ١٤٧ وما بعدها .

وكانا على رأس بني أسد - يحرّضان قومهما ومن أطاعهما لغزو المدينة ولنهب أموال المسلمين.

أمّا كيف وصل إلى النبيﷺ خبر تحرك «طليحة وسلمة» وهما في أرض «قَطَن» التي تبعد عن المدينة (٣٠٠) كيلومتراً شمال شرق المدينة باتجاه منطقة القصيم؟

فقد قال الواقدي: إن رجلا من طيّ قدم المدينة، يريد امرأة ذات رحم به من طيّ متزوجة رجلا من أصحاب رسول اللهﷺ، فنزل على صهره الذي هو من أصحاب رسول اللهﷺ فأخبره أنّ طليحة[١] وسَلمة ابني خويلد تركهما قد سارا في قومهما ومن أطاعهما بدعوتهما إلى حرب رسول اللهﷺ يريدان أن يدنوا للمدينة، فخرج به الرجل الذي من أصحاب رسول اللهﷺ إلى النبيﷺ فأخبره ما أخبر الرجل[٢].

أما عن دوافع وأهداف طليحة وسلمة من مهاجمة المدينة فقد ذكرها الواقدي عن قول ذلك الرجل محدثاً بها صهره قال: «وقالوا: نسير إلى محمّد في عقر داره، ونصيب من أطرافه، فإنّ لهم سَرحاً يرعى جوانب المدينة، ونخرج على متون الخيل، فقد أربعنا خيلنا ونخرج على النجائب المخبورة، فإن اصبنا نهباً لم ندرك، وإن لاقينا جَمعهم كنّا قد أخذنا للحرب عدّتها، معنا خيل ولا خيل لهم، ومعنا نجائب أمثال الخيل، والقوم منكوبون قد أوقعت بهم قريش حديثاً، فهم لا يستلّبون دهراً، ولا يثوب لهم جمع»[٣].

وواضح من خلال هذا المقطع من النص التاريخي أن هؤلاء الأعراب قدروا ضعف المسلمين بعد أُحد، فوجدوها فرصة سانحة للاغارة ونهب

---

(١) أسلم طليحة بعد ذلك ثمّ ارتدّ بعد وفاة النبيﷺ وادّعى النبوة.

(٢) الواقدي، المغازي: ١ / ٣٤٢.

(٣) المصدر نفسه: ١ / ٣٤٢.

المدينة، والمسلمون بحالة منهكة ولا يستطيعون الدفاع عن المدينة بحسب تقديرهم. إلاّ أنّ رجلا منهم - ويدل كلامه على حصافة عقله وحكمته - يقال له قيس بن الحارث بن عمير، قام فيهم فقال: «يا قوم، والله ما هذا برأي! ما لنا قبلهم وتر وما هم نهبة لمنتهب، إنّ دارنا لبعيدة عن يثرب، وما لنا جمع كجمع قريش، مكثت قريش دهراً تسير في العرب تستنصرها، ولهم وتر يطلبونه، ثمّ ساروا وقد امتطوا الإبل وقادوا الخيل وحملوا السلاح مع العدد الكثير، ثلاثة آلاف مقاتل سوى اتباعهم - وإنّما جهدكم أن تخرجوا في ثلاثمائة رجل إن كملوا، فَتَفرّون بأنفسكم وتخرجون من بلدكم، ولا آمن أن تكون الدائرة عليكم. فكاد أن يشككهم في المسير، وهم على ما هم عليه بعد»[1].

استمع النبيﷺ إلى ما قاله الرجل الطائي، ولم يشكك فيما قاله، بل وثق به كامل الوثوق إذ جعله دليلا للسرية التي أخرجها كما سوف يأتينا.

كان أمام النبيﷺ خياران لمعالجة الموقف، امّا الانتظار بعد إعداد العدة لمواجهة هجوم هؤلاء على المدينة، وإمّا ارسال قوة قتالية لمباغتتهم في وقت لا يتوقعونه، فوجد - بحكمته وقيادته العسكرية الفذة - أنّ الخيار الثاني هو الأفضل، والأنسب بالأهداف التي يتوخاها لجعل المدينة آمنة من أي عدوان خارجي عليها، ولهذا قرّر غزوهم في عقر دارهم.

فدعا رسول اللهﷺ أبا سلمة وقال له: «اخرج في هذه السريّة فقد استعملتك عليها، وعقد له لواءً وقال: سِر حتّى ترد أرض بني أسد، فأغر عليهم قبل أن تلاقي عليك جموعهم، وأوصاه بتقوى الله ومن معه من المسلمين خيراً، فخرج معه في تلك السريّة خمسون ومائة[2] وخرج معه الطائيّ دليلا فأغذّوا

(١) المصدر نفسه: ١ / ٣٤٢ .

(٢) المصدر نفسه: ١ / ٣٤١ .

- أسرعوا - السير، ونكّب بهم عن سَنَن الطريق، وسار بهم ليلا ونهاراً وفي رواية: فكانوا يسيرون الليل ويكمنون النهار - حتى وردوا «قَطَن» ماء من مياه بني أسد، هو الذي كان عليه جمعهم - فيجدون سرحاً فأغاروا على سرحهم فضمّوه، وأخذوا رعاءً لهم، مماليك ثلاثة، وأفلت سائرهم فجاؤوا جمعهم فخبّروهم الخبر وحذروهم جَمع أبي سلمة، وكثّروه عندهم فتفرّق الجمع من كلّ وجه، وورد أبو سلمة الماء فوجد الجمع قد تفرّق، فعسكر وفرّق أصحابه في طلب النِّعم والشاء، فجعلهم ثلاث فرق، فرقة أقامت معه، وفرقتان أغارتا في ناحيتين شتّى، وأوعز إليهما إلاّ يمعنا في طلب، وألاّ يبيتوا إلاّ عنده إن سلموا، وأمرهم ألاّ يفترقوا، واستعمل على كلّ فرقة عاملا منهم، فآبوا إليه جميعاً سالمين، قد أصابوا إبلا وشاءً ولم يَلْقوا أحداً، فانحدر أبو سلمة بذلك كلّه إلى المدينة راجعاً، ورجع معه الطائيّ، فلما ساروا ليلة قال أبو سلمة: اقتسموا غنائمكم، فأعطى أبو سلمة الطائي الدليل رضاه من المغنم، ثمّ أخرج صفيّاً لرسول الله ﷺ عبداً، ثمّ أخرج الخمس، ثمّ قسم ما بقي بين أصحابه فعرفوا سُهمانهم، ثمّ أقبلوا بالنّعم والشاء يسوقونها حتى دخلوا المدينة»[١].

وهنالك رواية ثانية لهذه الواقعة تذكر أن أبي سلمة قد لقي القوم وقاتلهم وانه قد قتل مسعود بن عروة، وان سعد بن أبي وقاص قد قتل رجلا منهم. . . وحمل أبو سلمة فانكشف المشركون على حاميتهم، وتبعهم المسلمون، ثمّ تفرق المشركون في كلّ وجه. . . ثمّ انصرفوا راجعين إلى المدينة[٢].

عاد أبو سلمة إلى المدينة إلاّ أنّه لم يعش بعد هذه السرية طويلا، فقد كان جرح بأحد ولم يكن التئام جرحه إلاّ ظاهراً، فلما جهد نفسه ثغر الجرح وظل به

---

(١) المصدر نفسه: ١ / ٣٤٢ - ٣٤٣ .

(٢) المصدر نفسه: ١ / ٣٤٥ وتاريخ الخميس: ١ / ٤٥٠ .

حتى قضى عليه[١].

قال الواقدي: وأصحابنا يقولون: أبو سلمة من شهداء أُحد للجرح الذي جرح يوم أُحد ثمّ انتقض به[٢].

وهنالك روايات أُخرى في تاريخ وفاة أبي سلمة، وزواج رسول الله ﷺ من أُم سلمة بعد أن أكملت عدتها منه[٣].

لقد حققت هذه السرية كامل أهدافها التي أرادها رسول الله ﷺ منها:

فهي من جهة قد بادرت بالاغارات على قوة أعدت العدة والعدد لمهاجمة المدينة، فهزمتها في عقر دارها من دون خسائر تذكر.

ومن جهة ثانية: تركت هذه السريّة في نفوس الأعداء شعوراً مؤثراً على معنويّاتهم، ألا وهو قناعتهم بقدرة المسلمين على الاستخفاء، والقيام بالحروب الخاطفة المفاجئة، التي تجعلهم يمتلئون رعباً منهم، ويتوقّعون الإغارة في أيّ وقت عليهم، وهذا الشعور حملهم على الاعتراف بقوة المسلمين، ومسالمتهم فيما بعد.

لقد أعادت هذه السرية هيبة المسلمين وقوتهم التي ضعفت ووهنت بعد معركة أُحد.

ب - سريّة عبد الله بن أُنيس الجهني:

اختلف المؤرخون في تاريخ هذه السرية فقد ذكرها بعضهم ضمن حوادث السنة الرابعة[٤] وذكرها آخرون ضمن حوادث السنة الخامسة[٥]، وعند

---

(١) هيكل، حياة محمد: ٣٠٤.

(٢) المغازي: ١ / ٣٤٤.

(٣) انظر الصحيح من سيرة النبي ﷺ: ٧ / ١٤٧.

(٤) ابن سعد، الطبقات: ٢ / ٢٧٥.

(٥) الواقدي، المغازي: ١ / ٥٣١.

البلاذري: سنة ست من الهجرة[١].

ومن الطبيعي أن يجرّ هذا الاختلاف إلى كونها متقدمة أو متأخرة عن بعض السرايا الأُخرى، إذ جعلها بعضهم بعد سرية عاصم بن ثابت وانها السبب لقصة الرجيع التي قتل فيها عاصم وأصحابه[٢].

وهذه السريّة لم يكن فيها إلاّ رجل واحد هو عبد الله بن أنيس الجهني، ولم يروِها المؤرخون إلاّ عنه، ولم ترد عن غيره! مما جعل للشك في كثير من حوادثها مجالا عند المؤرخين[٣].

وذكر هذه السرية الواقدي في المغازي وابن سعد في الطبقات، وهي بحسب رواية ابن سعد، قال: «... بلغ رسول الله ﷺ أنّ سفيان بن خالد الهذلي.. وكان ينزل «عُرَنَة»[٤] وما والاها في ناس من قومه وغيرهم، وقد جمع الجموع لرسول الله ﷺ، فبعث رسول الله ﷺ عبد الله بن أُنيس ليقتله: فقال: صفه لي يا رسول الله، قال: إذا رأيته هبته وفَرَقْتَ منه وذكرت الشيطان.. يقول - عبد الله بن أنيس -: واستأذن رسول الله ﷺ أن أقول فأذن لي، فأخذت سيفي وخرجت اعتزي - أي أنتسب - إلى خزاعة، حتى إذا كنت ببطن عُرنة لقيته يمشي ووراءه الأحابيش ومن ضوى إليه، فعرفته بنعت رسول الله ﷺ وهبته، فرأيتني أقطر فقلت: صدق الله ورسوله، فقال: مَن الرّجل؟ فقلت: رجل من خزاعة سمعت بجمعك لمحمد فجئتك لأكون معك. قال: أجل إني لأجمع له، فمشيت معه وحدثته واستحلى حديثي حتّى انتهى إلى خبائه، وتفرق عنه أصحابه، حتى إذا هدأ الناس وناموا اغتررته فقتلته وأخذت رأسه! ثمّ خرجت

---

(١) البلاذري، أنساب الأشراف: قسم سيرة النبي: ٣٧٦.

(٢) و (٣) الصحيح من سيرة النبي: ٧ / ١٥١ وما بعدها.

(٤) عُرنَة: واد بعرفة، وليس من الموقف.

فكنت أسير الليل واتوارى بالنهار حتى قدمت المدينة، فوجدت رسول الله ﷺ في المسجد، فلمّا رآني قال: أفلح الوجه! قلت: أفلح وجهك يا رسول الله ﷺ، فوضعت رأسه بين يديه واخبرته خبري...»[١].

هذه رواية ابن سعد التي اختصر فيها الواقعة بشكل غير مخلّ، إلاّ أن الواقدي ذكر جملة من التفاصيل الخارقة التي تصل إلى حد المعاجز والكرامات النبوية، ينسبها الراوي إلى نفسه، اعرضنا عن ذكرها لتطرق الشك إلى كثير منها[٢].

والملاحظ أن هذه الحادثة وقعت في منطقة «عَرَنة» وهي من وديان «عرفة» القريبة من مكة موطن قريش، إلاّ أن الجموع التي أعدت لهذه المهمة من قبل سفيان بن خالد الهذلي لم تكن من قريش، وإنّما هي من قبائل الحجاز دون قريش، ولا تعد قبيلة سفيان بن خالد الهذلي، ثمّ اللحيانيّ من قريش ولا من بطونها.

ولعلّ دوافع سفيان بن خالد في الاعداد لغزو المدينة اما بتحريض من قريش، أو تقرباً لها، أو معاداة للإسلام، أو طمعاً في نيل غنائم المدينة وخيراتها، بعد أن وجد أن الفرصة سانحة ذلك بعد غزرة أُحد، التي أطمعت القبائل في غزو المدينة.

أما كيف وصل الخبر إلى رسول الله ﷺ رغم بعد المسافة بين المدينة وعرنة والتي قطعها عبد الله بن أنيس في ثمانية عشر ليلة بحسب رواية ابن سعد[٣]! فهذا ما لم تحدثنا فيه روايات المؤرخين، فلعلّه كان بوحي من السماء.

---

(١) ابن سعد، الطبقات: ٢ / ٢٧٥ .

(٢) للتوسع انظر الصحيح من سيرة النبي: ٧ / ١٥٢ وما بعدها .

(٣) طبقات ابن سعد: ٢ / ٢٧٥ .

ومهما يكن من أمر، فقد حقّق رسول الله ﷺ ما أراده من هذه المهمة، وهي منع الأعراب من غزو المسلمين في المدينة قبل انجاز تجمعهم وقيامهم بالغزو، إذ تفرّقت جموع الأعراب التي حشدها خالد بن سفيان في (عرنة) لغزو المسلمين، لأنّها فقدت قائدها فماتت نياته العدوانية معه[١].

حادثتا: يوم الرجيع، وبئر معونة[٢]:

من الحوادث المؤسفة التي وقعت في نهاية السنة الثالثة وبداية السنة الرابعة من الهجرة حادثتا: يوم الرجيع، وبئر معونة.

فبعد السريتين الناجحتين اللتين قضى بهما النبي ﷺ على تحرك بني أسد، وتحرك قبيلة - هذيل - بقيادة سفيان بن خالد، وقعت هاتان الحادثتان المؤلمتان حيث قتل فيها جمع من أصحاب رسول الله ﷺ من حملة السيف وحفظة القرآن.

وقبل الدخول في تفاصيل هاتين الحادثتين لابدّ من الاشارة إلى أنّ الحادثتين المذكورتين قد منيتا بطابع قصصيّ إلى حدّ كبير، وأدّى هذا الأمر إلى اختلاف كثير من الأخبار المتعلقة بهاتين الواقعتين، كما ولّد شكّاً جدّياً في كثير من التفاصيل المرتبطة بهما[٣].

وقد دوّن تفاصيل هاتين الحادثتين كلّ كتاب السيرة النبوية، كابن هشام، والواقدي وابن سعد، والمسعودي، والبلاذري... بتفصيل واسهاب من قبل البعض، وباختصار واقتضاب من قبل البعض الآخر، إلاّ أن الطابع العام

(١) الرسول القائد: ٢٠٥.

(٢) ذكرهما الواقدي في المغازي: ١ / ٣٤٦ و ٣٥٤ بعنوان «غزوة»، اما ابن هشام فقد ذكرهما في السيرة: ٣ / ١٦٩ و ١٨٣ بعنوان «يوم الرجيع» و (حديث بئر معونة) وهو الأنسب لعدم انطباق مصطلح السرية أو الغزوة عليهما.

(٣) جعفريان، سيرة سيد الأوصياء والمرسلين: ٦٨٥.

لمرويات هؤلاء المؤرخين هو التهافت والتضارب بل التناقض في مروياتهم.

وسوف نذكر كلا الحادثتين برواية ابن هشام في السيرة، مع ذكر بعض المتممات اللازمة من مغازي الواقدي.

ج - حادثة يوم الرجيع:

قال ابن هشام: قَدِم على رسول الله ﷺ بعد أُحد رهط من قبيلتي «عضل والقارة» فقالوا: يا رسول الله إن فينا إسلاماً، فابعث معنا نفراً من أصحابك يفقّهوننا في الدين، ويقرئوننا القرآن، ويعلّموننا شرائع الإسلام، فبعث رسول الله ﷺ نفراً ستة[1] من أصحابه، وهم: مرثد بن أبي مرثد الغنوي، وخالد بن البكير اللَّيثي، وعاصم بن ثابت، وخبيب بن عديّ، وزيد بن الدّثنة، وعبد الله ابن طارق.

وأمّر رسول الله ﷺ على القوم مرثد بن أبي مرثد الغنوي[2] فخرج القوم حتّى إذا كانوا على الرّجيع - ماء لهذيل بناحية الحجاز، على صدر الهدأة - غدروا بهم، فاستصرخوا عليهم هذيلا، فلم يرع القوم، وهم في رحالهم، إلاّ الرّجال بأيديهم السيوف، قد غشوهم، فأخذوا أسيافهم ليقاتلوهم فقالوا لهم: إنّا والله ما نريد قتلكم، ولكنّا نريد أن نصيب بكم شيئاً من أهل مكة ولكم عهد الله وميثاقه أن لا نقتلكم.

فأ مّا مرثد بن أبي مرثد، وخالد بن البكير، وعاصم بن ثابت فقالوا: والله لا نقبل من مشرك عهداً ولا عقداً أبداً. . . فقال عاصم بن ثابت - أبيات من

---

(١) قيل: انهم كانوا عشرة، ستة من المهاجرين وأربعة من الأنصار (الروض الأنف: ٣ / ٢٣٣) وهو الموافق لرواية صحيح البخاري، وعند الواقدي: ٨ / ٣٥٥ إنهم سبعة، وهنالك روايات أُخرى في عددهم .

(٢) وفي الروض الأنف: ٣/ ٢٣٣ أمّر عليهم رسول الله ﷺ : عاصم بن ثابت، وانظر الواقدي: ١/ ٣٥٥ .

الشعر -: . . . ثمّ قاتل القوم حتى قتل وقتل صاحباه.

. . . وأما زيد بن الدّثنة، وخبيب بن عدي، وعبد الله بن طارق، فلانوا ورقّوا، ورغبوا في الحياة، فأعطوا بأيديهم، فأسروهم، ثمّ خرجوا إلى مكّة، ليبيعوهم بها، حتى إذا كانوا بالظّهران، انتزع عبد الله بن طارق يده من القِران، ثمّ أخذ سيفه، واستأخر عنه القوم، فرموه بالحجارة حتى قتلوه.

وأ مّا خبيب بن عديّ وزيد بن الدثّنة فقدموا بهما مكة، فباعوهما من قريش بأسيرين من هذيل كانا بمكة.

قال ابن إسحاق: وأ مّا زيد بن الدثّنة فابتاعه صفوان بن أُميّة ليقتله بأبيه، وبعث به. . . مع مولى له يقال له نسطاس، إلى التّنعيم، وأخرجوه من الحرم ليقتلوه، واجتمع رهط من قريش، فيهم أبو سفيان بن حرب، فقال له أبو سفيان حين قدم ليقتل: أُنشدك الله يا زيد، أتحبّ أن محمداً عندنا الآن في مكانك نضرب عنقه، وإنّك في أهلك؟

قال: والله ما أُحب أن محمداً الآن في مكانه الذي هو فيه تصيبه شوكة تؤذيه، وأني جالس في أهلي!

فقال أبو سفيان: ما رأيت من الناس أحداً يحبّ أحداً كحبّ أصحاب محمد محمداً. ثمّ قتله نسطاس، يرحمه الله.

وأ مّا خبيب بن عدي - فتروي ماوية أو مارية - قالت: كان خبيب عندي، حبس في بيتي. . قال لي حين حضره القتل: ابعثي إليّ بحديدة أتطهّر بها للقتل ; فأعطيت غلاماً من الحيّ المُوسى، فقلت: ادخل بها على هذا الرجل البيت، قالت: فوالله ما هو إلاّ أن دلّى الغلام بها إليه، فقلت: ماذا صنعت! أصاب والله الرجل ثأره بقتل هذا الغلام، فيكون رجلا برجل، فلما ناوله الحديدة أخذها من يده ثمّ قال: لَعمرك، ما خافت أُمك غدري حين بعثتك بهذه الحديدة إليّ! ثمّ

خلّ سبيله.

قال ابن هشام: ويقال: إن الغلام ابنها.

وفي رواية الواقدي: قالت ماوية: يا خبيب، إنّما أمنتك بأمان الله وأعطيتك بإلهك، ولم أعطك لتقتل ابني، فقال خبيب: ما كنت لأقتله، وما نستحل في ديننا الغدر.

قال ابن إسحاق: ثمّ خرجوا بخبيب، حتى إذا جاؤوا به إلى التّنعيم ليصلبوه، قال لهم: إن رأيتم أن تدعوني حتى أركع ركعتين فافعلوا، قالوا: دونك فاركع، فركع ركعتين أتمهما واحسنهما، ثمّ أقبل على القوم فقال: أما والله لولا أن تظنّوا أني إنّما طوّلت جزعاً من القتل لاستكثرت من الصلاة.

قال - الراوي - فكان خبيب بن عديّ أوّل من سنّ هاتين الرّكعتين عند القتل للمسلمين.

ثمّ رفعوه على خشبة، فلما اوثقوه، قال: اللهمّ إنّا قد بلّغنا رسالة رسولك، فبلّغه الغداة ما يصنعُ بنا، ثمّ قال: اللهمّ أحصهم عدداً، واقتلهم بدداً، ولا تغادر منهم أحداً.

ثمّ قتلوه (رحمه الله)[١].

هذا هو ملخص قصة حادثة الرجيع برواية ابن هشام عن ابن إسحاق، وقد حذفنا الزوائد منها وما اختلف فيه الرواة إلاّ اليسير الذي لم يمكن تجاوزه، وحتى فيما نقلناه من ابن هشام فيه مجال للمناقشة[٢].

---

(١) ابن هشام: السيرة النبوية: ٣ / ١٦٩ - ١٧٣ «بتلخيص» وقارن: الواقدي في المغازي: ١ / ٣٥٤ - ٣٦٣، وابن سعد، الطبقات: ٢/٢٧٧، والديار بكري، تاريخ الخميس: ١/٤٥٤ وما بعدها.

(٢) بحث السيد جعفر مرتضى في الصحيح من سيرة النبي: ٧ / ١٥٥ وما بعدها حادثتي الرجيع وبئر معونة بالتفصيل ووقف عند الكثير من رواياتها.

ولابد من التساؤل عن السبب الذي دفع هؤلاء النفر من قبيلتي (عَضل والقارة) للقدوم إلى المدينة والطلب من النبيﷺ أن يبعث معهم نفراً من المسلمين! فهل هو ما ذكره من تفقيههم في الدين، واقرائهم القرآن، وتعليمهم شرائع الإسلام، كما ذكرت ذلك رواية السيرة النبوية؟

أم أن هنالك دوافع أُخرى وراء ذلك؟

الذي يظهر من رواية الواقدي أن وراء طلب قبيلتي (عضل والقارة) من رسول اللهﷺ أن يبعث معهم هؤلاء النفر.. ليس ما دعوه من تعليم الإسلام والقرآن والتفقه في الدين وإنّما كانت لهم مآرب أُخرى تذرعوا بهذه الأكاذيب للوصول إليها.

قال الواقدي: لمّا قتل سفيان به خالد الهذلي، مشت بنو لحيان إلى عَضل والقارة، فجعلوا لهم فرائض على أن يقدموا على رسول اللهﷺ فيكلّموه، فيخرج إليهم نفراً من أصحابه، يدعونهم إلى الإسلام، فنقتل من قتل صاحبنا ونخرج بسائرهم إلى قريش بمكّة فنصيب به ثمناً، فإنهم ليسوا لشيء أحبّ إليهم من أن يؤتوا بأحد من أصحاب محمد، يمثّلون به ويقتلونه بمن قتل منهم ببدر، فقدم سبعة نفر من عَضل والقارة مقرّين بالإسلام، فقالوا لرسول اللهﷺ : «إنّ فينا اسلاماً...»[1]. وهنا تتصل رواية الواقدي برواية ابن هشام ولا يستبعد أن تكون دوافع اخراج أُولئك النفر من المسلمين بحجة تبليغ الدين هو الثأر لسفيان ابن خالد الذي قتله غيلة عبد الله بن أُنيس، بأمر من النبيﷺ كما مرّ بنا سابقاً، بالاضافة إلى الدوافع المادية التي يبتغونها من بيع هؤلاء المسلمين لقريش لتقتلهم ثأراً لقتلاهم ببدر، إذ لم يعرف عن هاتين القبيلتين (عَضل والقارة) إسلاماً قبل ذلك.

وفي رواية ابن هشام: نجد أن هؤلاء النفر من قبيلتي «عضل والقارة»

(١) الواقدي، المغازي: ١ / ٣٥٤.

يذكرون السبب الثاني لغدرهم وهو: «أن يصيبوا بهم شيئاً من أهل مكة»[١] ولم يذكروا قضية الثأر لمقتل سفيان بن خالد. ووقائع مقتل هؤلاء المسلمين لم تذكر لنا شيئاً من قضية التأثر هذه.

وعلى أي حال، فقد ذهب هؤلاء النفر من المسلمين ضحية غدر وخيانة من قبل هؤلاء الأعراب الذين لم يرعوا فيهم إلاّ ولا ذمة، لتبقى قصتهم عبرة وموعظة للمسلمين، يستلهم منها الدروس والعبر، التي سوف نتوقف عند بعضها في نهاية هذا الدرس إن شاء الله.

وينبغي أن نشير إلى أن هنالك جملة من القصائد الشعرية ذكرها ابن هشام في سيرته لحسان بن ثابت تتوزع ما بين الرثاء لقتلى هذه الواقعة، وهجاء لمن ارتكبها، وهنالك أبيات شعرية رائعة ينسبها ابن إسحاق لخبيب بن عديّ حين بلغه أن القوم قد اجتمعوا لقتله، إلاّ أن ابن هشام قال: «وبعضُ أهل العلم بالشعر ينكرها له» ومن قول خبيب في قصيدته:

فوالله ما أرجو إذا متّ مسلماً   على أيّ جنب كان في الله مَصرعي
فلستُ بمبدٍ للعدوّ تخشّعاً   ولا جزعاً إني إلى الله مَرجعي[٢]

د - حادثة بئر معونة:

وقعت هذه الحادثة مقارنة لحادثة «الرجيع» المتقدمة، كما في رواية الواقدي الذي أرخ لكلا الحادثتين بقوله «في صفر على رأس ستة وثلاثين شهراً» إلاّ أنّه قدّم هذه الحادثة وذكر وقائعها قبل حادثة «الرجيع» التي ذكر لها نفس التاريخ[٣]. ونجد هذا الاختلاف في تاريخ الحدثين عند غيره من المؤرخين،

---

(١) ابن هشام، السيرة النبوية: ٣ / ١٧٠ .

(٢) المصدر نفسه: ٣ / ١٧٦، وانظر ما بعدها من صفحات .

(٣) الواقدي، المغازي: ١ / ٣٤٦ و ٣٥٤ .

وفي تقديم احدى الحادثتين على الأُخرى[1].

وهذه من جملة ما ابتليت بهما هاتان الحادثتان من اختلاف في مروياتهما وتفاصيلهما وجزئياتهما.

وقد اعتمدنا في ذكر الحادثتين على رواية ابن هشام في سيرته الذي ذكرهما بالترتيب الذي ذكرناه في هذا الدرس.

قال ابن إسحاق: «فأقام رسول الله ﷺ - بعد أحد - بقيّة شوّال وذا القعدة وذا الحجّة. . . ، ثمّ بعث رسول الله ﷺ أصحاب بئر معونة في صفر، على رأس أربعة أشهر من أُحد.

قالوا: قدم أبو براء عامر بن مالك بن جعفر ملاعب الأسنّة[2] على رسول الله ﷺ المدينة، فعرض عليه رسول الله ﷺ الإسلام، ودعاه إليه، فلم يسلم ولم يبعد من الإسلام، وقال: يا محمد، لو بعثت رجالا من أصحابك إلى أهل نجد، فدعوهم إلى أمرك، رجوت أن يستجيبوا لك، فقال رسول الله ﷺ: إني أخشى عليهم أهل نجد؛ قال أبو براء: أنا لهم جار، فابعثهم فليدعوا الناس إلى أمرك.

فبعث رسول الله ﷺ المنذر بن عمرو. . في أربعين من أصحابه[3]، من خيار المسلمين، منهم فلان وفلان. . في رجال مسمّين من خيار المسلمين، فساروا حتى نزلوا «بئر معونة» وهي بين أرض بني عامر وحرّة بني سُليم.

فلما نزلوها بعثوا حرام بن ملحان بكتاب رسول الله ﷺ إلى عدوّ الله عامر بن طفيل، فلما أتاه لم ينظر في كتابه حتى عدا على الرجل فقتله، ثمّ استصرخ

---

(١) انظر: الديار البكري، تاريخ الخميس: ١ / ٤٥١ و ٤٥٤.

(٢) ابن هشام، السيرة النبوية: ٣ / ١٨٤ (الهامش).

(٣) في رواية الواقدي: ١ / ٣٤٧ عددهم سبعين رجلا من الأنصار.

عليهم بني عامر، فأبوا أن يجيبوه إلى ما دعاهم إليه، وقالوا: لن نُخفر[١] أبا براء، وقد عقد لهم عقداً وجواراً، فاستصرخ عليهم قبائل من بني سليم، «عُصيّة ورعل وذكوان»، فأجابوه إلى ذلك، فخرجوا حتى غشوا القوم، فأحاطوا بهم في رحالهم، فلما رأوهم أخذوا سيوفهم، ثمّ قاتلوهم حتى قتلوا عن آخرهم، يرحمهم الله، إلاّ كعب بن زيد... فإنّهم تركوه وبه رَمق، فارتُثّ[٢] من بين القتلى، فعاش حتى قتل يوم الخندق شهيداً (رحمه الله)»[٣].

هذه ملخص حادثة بئر معونة، واستشهاد هؤلاء الصفوة من المبلغين وحملة الإسلام، بحسب رواية ابن هشام في سيرته.

وهنالك أُمور جانبية أُخرى ذكرها ابن هشام، وأطال في سردها الواقدي[٤] تركناها خوف الإطالة، وابتعاداً عن السرد القصصي الملحمي الذي ابتليت به هذه الحادثة كما ابتليت بها حادثة الرجيع السابقة أو اللاحقة لها حسب اختلاف المؤرخين.

أما عن كيفية وصول خبر استشهاد هؤلاء الأبرار إلى النبيﷺ فإنّ ابن هشام يذكر أن عمر بن أُمية الذي نجى من هذه الواقعة، وقتل رجلين من بني عامر غيلة ثأراً من بني عامر، وكان بين هذين الرجلين ورسول اللهﷺ عقد وجوار، ولم يعلم بذلك عمرو بن أُمية، فعدا عليهما فقتلهما «فلما قدم على رسول اللهﷺ فأخبره الخبر، قال رسول اللهﷺ : لقد قتلت قتيلين، لأدينّهما، ثمّ قال رسول اللهﷺ : هذا عمل أبي بَراء، قد كنت لهذا كارهاً متخوفاً»[٥].

---

(١) نخفر: ننقض عهده.

(٢) ارتث: أي رفع منها وبه بقية حياة.

(٣) ابن هشام، السيرة النبوية: ٣ / ١٨٣ وما بعدها.

(٤) الواقدي، المغازي: ١ / ٣٤٦ - ٣٥٣.

(٥) ابن هشام، السيرة النبوية: ٣ / ١٧٢.

أما الواقدي فيقول: فلمّا جاء رسول اللهﷺ خبر بئر معونة، جاء معها في ليلة واحدة مصابهم ومصاب مرثد بن أبي مرثد، وبعث «محمد بن مسلمة، فجعل رسول اللهﷺ يقول: هذا عمل أبي براء، قد كنت لهذا كارهاً»[١].

وتقارن وصول خبر هذه الوقائع الثلاثة وخاصة بعث محمد بن مسلمة إلى بني أسد، مع ما بينهما من فاصل زمني إلى النبيﷺ، غريب حقاً! ولا نجد له تفسيراً معقولا.

ومهما يكن من أمر، فقد كان فقد هؤلاء المجاهدين في هاتين الحادثتين من الوقائع المؤلمة، وقد أحزنت النبيﷺ والمسلمين كثيراً مما دعاه أن يدعوا على قتلتهم كما في بعض الروايات[٢] وخاصة أن هؤلاء السبعين من شهداء بئر معونة كانوا من الأنصار الذين آووا ونصروا النبيﷺ وجاءت في أعقاب معركة أُحد التي أسفرت عن سبعين شهيداً أيضاً، ولهذا تصف الرواية حزن رسول الله عليهم فتقول: «ولم يجد رسول اللهﷺ على قتلى ما وجد على قتلى بئر معونة»[٣].

وكانت هاتان الحادثتان الحادثتين محفزاً جديداً للمنافقين الذين كانوا يغتنمون كل فرصة مؤاتية للنيل من المسلمين، فاغتنموها فرصة «فقال رجل من المنافقين: يا ويح هؤلاء المفتونين الذين هلكوا، لا هُم قعدوا في أهليهم، ولا هُم أدّوا رسالة صاحبهم»[٤].

٣ - الدروس والعبر

بعد هذه الجولة في طرف من حوادث السنة الرابعة من الهجرة، لابد لنا من أن نتوقف عندها لاستخلاص بعض الدروس والعبر منها:

---

(١) الواقدي، المغازي: ١ / ٣٤٩ .

(٢) و (٣) المصدر نفسه: ١ / ٣٤٩ - ٣٥٠ .

(٤) ابن هشام، السيرة النبوية: ٣ / ١٧٤ .

أولا: نلاحظ في سرية أبي سلمة إلى قبيلة بني أسد، وفي مهمة عبد الله بن أُنيس جملة من الأُمور والتي منها:

١ - اهتمام النبيﷺ في متابعة التحركات الخارجية التي تهدد أمن وسلامة الدولة الإسلامية الفتية، وذلك من خلال رصد التحركات العسكرية للقبائل المجاورة، بل وحتى البعيدة عن المدينة كما حصل في هاتين السريتين، إذ كانت قبيلة بني أسد على بُعد (٣٠٠) كيلومتر من المدينة، وكان خالد بن سفيان الهذلي يعدّ العدّة لغزو المدينة وهي على مشارف مكة، مع هذا تتبع النبيﷺ أخبارهم، ورصد تحركاتهم، وأجهز عليهم قبل عدوانهم.

وفي ذلك درس بليغ لرجال الحكم والدولة في رصد المشكلات والأزمات في وقتها الملائم وقبل فوات الأوان.

٢ - السرعة في اتخاذ قرار المواجهة للعدو، ومباغتة العدو في عقر داره، واختيار الشخص المناسب، والتوقيت المناسب، والطريق الأنسب.. كل ذلك مما لاحظناه في قرارات النبيﷺ في هاتين السّريتين، اللتين نجحتا بحسب ما أراد النبيﷺ وخطط لهما.

وهذا أيضاً درس كبير لمن يتصدّى مسند إتخاذ القرار من رجال السياسة والحكم، إذ إن أي تردّد وتراجع أو تباطؤ عن اتخاذ القرار المناسب في وقته، سوف يكبّد الأُمة خسائر فادحة، ويفوت عليها مكاسب كبيرة.

ثانياً: لقد كانت المهمة التي أرسل من أجلها النبيﷺ بعض أصحابه في حادثتي الرجيع وبئر معونة، مهمة تبليغية دعوتية، على أصح المرويات[١].

---

(١) ذكر الواقدي في المغازي: ١ / ٣٥٤ أن النبي بعث أصحاب الرجيع عيوناً إلى مكة ليخبروه خبر قريش! ونص على ذلك البخاري في صحيحه أيضاً، إلاّ أن الأصح هو ما ذكرته الروايات الأُخرى من أن مهمتهم كانت تبليغية بناءً على طلب قبيلتي عضل والقارة.

وفي ذلك دلالات ودروس وعبر كثيرة منها:

١ - إنّ النبي الأكرمﷺ رغم انشغاله في تحصين الدولة الإسلامية من العدو الداخلي والخارجي من خلال ارسال السرايا والمجموعات القتالية لافشال مخططات المتآمرين على الإسلام إلاّ انه لا يغفل عن الجانب الآخر من رسالته وهي: الدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة، من خلال ارسال البعثات التبليغية للقيام بهذه المهمة التي لا تقلّ أهمية عن المهمة الأُولى، وكما يحتاج المقاتل إلى إعداد وتهيئة وتدريب، كذلك يحتاج المبلغ والداعية إلى الله إلى الأعداد والمعرفة بالاحكام الإسلامية والتعاليم النبوية، فكان النبي يَعدُّ أصحابه على كلا المستويين.

٢ - يدل كل من حادثة الرجيع وبئر معونة على اشتراك المسلمين كلهم في مسؤولية الدعوة إلى الإسلام وتبصير الناس بحقيقته وأحكامه، فليس أمر الدعوة موكولا إلى الأنبياء والرسل وحدهم، أو إلى خلفائهم والعلماء دون غيرهم.

٣ - ونحن نتأمل في مفردات هاتين الحادثتين نستشعر مدى أهمية القيام بواجب هذه الدعوة، من ارسال النبيﷺ أُولئك القراء الذين بلغت عدتهم سبعين شاباً من خيرة أصحابهﷺ ، ولمّا يمض أمد طويل على مقتل أُولئك النفر الستة الذين كان قد بعثهم في ذلك السبيل نفسه.. ولقد استشعرﷺ الخوف عليهم، وذكر ذلك لعامر بن مالك عندما اقترح عليه ارسال وفد لدعوة الناس إلى الدين، ولكنهﷺ كان يرى أن القيام باعباء التبليغ أهم من كلّ شيء، ولئن لم يكن تحمل مسؤولية الدعوة والنهوض بها إلاّ بمثل هذه المغامرة وقبول ما قد ينتج عنها، فلتكن المغامرة، وليكن ما أراد الله تعالى في سبيل القيام بأمره وتبليغ دعوته[١] .
فلابدّ للدعوة من تضحيات بالأرواح والأنفس حتى تكون كلمة الله هي العليا،

---

(١) البوطي - محمد سعيد، فقه السيرة: ٢٧٦ .

ويعزّ الله دينه.

ثالثاً: مع غض النظر عمّا اكتنف حادثتي الرجيع وبئر معونة من تهافت وتناقض في مروياتها وابتلائها بمسحة قصصية لا تخلو من جانب الأُسطورة في بعض تفاصيلها، إلاّ أنّ في المقدار المتفق عليه - نسبياً - بين المؤرخين دلالات ايمانية كثيرة، ودروس وعظات عظيمة منها:

١ - نجد في الحادثتين جانب الخيانة والغل والحقد الذي كانت تفيض به افئدة المشركين، على المؤمنين، حتى انهم ارتضوا لأنفسهم أحط مظاهر الخيانة والغدر ابتغاء إطفاء غليل أحقادهم على المسلمين.

ونجد في الجانب الآخر صورة رائعة لعكس هذه الطبيعة تماماً لدى أُولئك المسلمين الذين راحوا ضحية تلك الخيانة والأحقاد، وقصة ذلك تتجلى في موقف «خبيب» وهو على مشارف القتل، إذ كان بامكانه أن ينتقم لنفسه، أو يقابل غدرهم بغدر، من خلال قتل ذلك الطفل الذي جاءه بشفرة الحلاقة، وهبت والدته مذعورة لتخلصه من براثن الموت، إلاّ أنه أبى إلاّ أن يكون ذلك المسلم الأمين لدينه وعقيدته، فقال لها بكل ثقة وإيمان «ما كنت لأقتله، وما نستحل في ديننا الغدر».

وفي ذلك درس كبير للدعاة إلى الله في مقابلة من يكيل لهم الحقد والكراهية والغدر والخيانة، إذ لا يرتضون لأنفسهم مقابلة الحقد بالحقد والكراهية بالكراهية والغدر والخيانة بمثلهما، وإنما تفيض جوانحهم حباً وحناناً وحرصاً على هدايتهم، ولا يستبيحون لأنفسهم التلبس بالغدر والخيانة، مادام لا تقره الشريعة ولا ينسجم مع مبادئ الإسلام الحنيف.

٢ - كما أن هذه المفردة من قصة «خبيب» توقفنا عند معجزة التربية الإسلامية للإنسان! «فخبيب» هذا، وأُولئك المشركون الحاقدون الذين راحوا يضعون له الموت ظلماً وعدواناً، عرب أنبتتهم أرض واحدة وأظلتهم طبائع

وتقاليد واحدة، ولكن «خبيباً» اعتنق الإسلام فأخرجه الإسلام إنساناً آخر، وأُولئك عكفوا على ضلالاتهم، فحبستهم ضلالاتهم في طبائعهم المتوحشة الغادرة، فما أعظم ما يفعله الإسلام في الطبيعة الإنسانية من تغيير وتحويل[(١)].

٣ - والدرس الآخر الذي نستلهمه من هذه الحادثة يتجلى في موقف زيد بن الدثنة وهو يساق إلى الموت صبراً على أيدي أُولئك الطغام، وذلك عندما أجاب عدو الله أبا سفيان بقوله: «والله ما أحب أنّ محمداً الآن في مكانه الذي هو فيه تصيبه شوكة تؤذيه، وإني جالس في أهلي» فيندهش عدو الله من هذا الموقف البطولي فيقول مقراً: «ما رأيت من الناس أحداً يحبّ أحداً كحب أصحاب محمد محمّداً».

«فهذا الجواب على وجازته يعبر وبصدق عن مدى المحبة التي كانت تنطوي عليه فؤاد هذا الصحابي لرسول الله ﷺ، ولا ريب أن هذه المحبة من أهم الأسباب التي حببت إلى قلوبهم كل تضحية وبذل في سبيل دين الله تعالى والدفاع عن رسوله، ومهما بلغ المسلم في إيمانه، فإنه بدون مثل هذه المحبة لرسول الله ﷺ يعتبر ناقص الإيمان، وإنها لحقيقة صرح بها رسول الله ﷺ إذ قال: «لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده والناس أجمعين»[(٢)].

وهذا هو الحب الذي يمثل حقيقة الإيمان عند الإنسان المسلم كما روي عن رسول الله ﷺ قوله: «ثلاث من كنّ فيه وجد حلاوة الإيمان: مَن كان اللهُ ورسولهُ أحبّ إليه ممّا سواهما، ومَن أحبّ عبداً لا يحبّه إلاّ لله، ومَن يكرهُ أن يعود في الكفر بعد أن أنقذه الله كما يكره أن يلقى في النار»[(٣)].

٤ - وقبل أن نختتم هذه التأملات في استخلاص الدروس والعبر من

---

(١) المصدر نفسه: ٢٧٧ (بتصرف).

(٢) المصدر نفسه: ٢٧٨ (بتصرف) والحديث متفق عليه.

(٣) رواه البخاري ومسلم في صحيحهما.

حادثتي الرجيع وبئر معونة - وما أكثر دروسها وعبرها - لابد لنا من أن نتوقف عند المجاهد الشهيد «خبيب» في لحظات حياته الأخيرة وفي موقفين إيمانيين:

أولهما: انه يطلب من المشركين أن يمهلوه حتى يصلي ركعتين، فيصليهما بأحسن وجه، وفي هذا الفعل العبادي دلالات ايمانية كبيرة، فإن الصلاة خير عنوان، وأفضل ما يختتم به العبد الصالح حياته، ولا يعني ذلك أنه سنَّ سنة من بعده، لأنّ السنة تتمثل في قول النبيﷺ وفعله وتقريره.

ثانياً: على فرض صحة ما نسب إلى «خبيب» من أبيات شعرية قبل استشهاده، فإن في هذه الأبيات - وخاصة في البيتين الأخيرين منها - تعبيراً بليغاً عن الهمِّ الرسالي الذي يحمله الداعية إلى الله، فلذّة الحياة الدنيا عنده في عقيدته واسلامه، وما التضحية بالروح من أجل ذلك، لا تعني إلاّ الانطلاق من سجن الدنيا إلى نعيم الآخرة، وأنعم بها من غاية، هي كل أمل المسلم في حياته التي يعيشها[١].

---

(١) البوطي، فقه السيرة: ٢٧٩ .

الأسئلة:

١ - كيف كان الموقف العام في المدينة بعد واقعة أُحد؟

٢ - مَن هم الذين كانوا يتربصون بالإسلام والمسلمين من داخل المدينة وخارجها؟

٣ - كيف كانت سلّم الأولويات عند النبيﷺ في مواجهة المتربصين بالإسلام؟

٤ - لماذا أقدم النبيﷺ على مباغتة بني أسد في عقر دارهم؟

٥ - ما هي المهمة التي كُلف بها عبد الله بن أُنيس؟ وما هي أسبابها ونتائجها؟

٦ - ما هي أهم الدروس والعبر التي نستفيدها من حادثتي الرجيع وبئر معونة؟

الدرس الثاني عشر
أحداث ووقائع السنة الرابعة من الهجرة
(المواجهة مع اليهود والمشركين)

محاور البحث:

١ - غزوة يهود بني النضير
تأملات في بعض كلمات المستشرقين
٢ - غزوة ذات الرقاع
٣ - غزوة بدر الصفراء
٤ - غزوة دومة الجندل
٥ - أحداث، وتشريعات
أ - ولادة الإمام الحسين عليه السلام
ب - تحريم الخمر
ج - تشريع صلاة الخوف
٦ - الدروس والعبر

• الأسئلة

المواجهة مع اليهود والمشركين

١ - غزوة يهود بني النضير في المدينة

تاريخ الغزوة وأسبابها:

ذكر الواقدي في المغازي، وابن سعد في الطبقات واللفظ للثاني: «ثمّ غزوة رسول اللهﷺ بني النضير في شهر ربيع الأول سنة أربع على رأس سبعة وثلاثين شهراً من مهاجَره»[1].

فهذه الغزوة تقع في سياق أحداث ووقائع السنة الرابعة من الهجرة وفي أعقاب واقعة أُحد، ومن أحد آثار هذه الواقعة على المدى البعيد.

أما عن أسباب هذه الغزوة فقد أطبقت كلمات المؤرخين على ذكر سبب واحد لها، من دون أن تشير إلى أسباب أُخرى في هذا السياق!

وقبل أن نذكر ما نص عليه مؤرخو السيرة النبوية من أسباب لهذه الغزوة، لابد لنا من التذكير «بوثيقة العهد» التي كتبها رسول اللهﷺ ووافق على بنودها سكان المدينة من الأوس والخزرج واليهود.

وتنص هذه الوثيقة في أحد بنودها: «وإنّ اليهود ينفقون مع المؤمنين ماداموا محاربين»[2].

---

(١) ابن سعد، الطبقات: ٢ / ٢٧٨، والواقدي المغازي: ١ / ٣٦٢ .

(٢) حميد الله - محمد، مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة: ٦٢، ط . دار النفائس - بيروت، الطبعة الخامسة (١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥ م) .

وفي رواية أُخرى أن رسول الله ﷺ قد وقع وثيقة عهد مع يهود «بني قريظة» و «بني النضير» و «بني قينقاع» وقد جاء في أحد بنودها: «أن لا يعينوا - أي تلك الطوائف اليهودية الثلاث - على رسول الله ﷺ ولا على أحد من أصحابه بلسان ولا يد ولا بسلاح ولا بكراع - أي الخيل وغيرها من المركب - في السرّ والعلانية، لا بليل ولا بنهار، الله بذلك عليهم شهيد، فإن فعلوا فرسول الله في حلٍّ من سفك دمائهم، وسبي ذراريهم، ونسائهم، وأخذ أموالهم».

وقد كتب رسول الله ﷺ لكلّ قبيلة منهم كتاباً على حدة على هذا الغرار، ثمّ وقع عليها: «حيي بن أخطب، عن قبيلة (بني النضير)، وكعب بن أسد عن (بني قريظة) ومخيرق عن قبيلة (بني قينقاع)»[(١)].

نضع في ذاكرتنا هذين البندين من وثيقة العهد لنعود إلى ما ذكره ابن سعد في الطبقات من بيان لأسباب هذه الغزوة وتفاصيل أحداثها، مع بعض التوضيحات اللازمة من رواية الواقدي.

قال ابن سعد في الطبقات:

«خرج رسول الله ﷺ يوم السبت فصلّى في مسجد قباء ومعه نفر من أصحابه من المهاجرين والأنصار، ثمّ أتى بني النضير فكلّمهم أن يعينوه في دية الكلابيّين اللذين قتلهما عمرو بن أُمية الفهري، فقالوا: نفعل يا أبا قاسم ما أحببت، وخلا بعضهم ببعض وهمّوا بالغدر به، وقال عمرو بن جحاش: أنا أظهر على البيت فأطرح عليه صخرة. فقال سلام بن مِشكَم: لا تفعلوا، والله ليخبرنّ بما هممتم به، وإنه لنقض العهد الذي بيننا وبينه.

وجاء رسول الله ﷺ الخبر بما همّوا، فنهض سريعاً كأنّه يريد حاجة، فتوجّه

(١) المجلسي، بحار الأنوار: ١٦ / ١١١ والمجلد ٨ / ٥٤٩ من الطبعة الحديثة، دار التعارف - بيروت، ط. الأُولى (١٤٢١ هـ - ٢٠٠١ هـ).

إلى المدينة ولحقه أصحابه فقالوا: أقُمت ولم نشعر؟ قالﷺ : همّت يهود بالغدر فأخبرني الله بذلك فقمت.

وبعث إليهم رسول اللهﷺ ، محمد بن مسلمة أن أُخرجوا من بلدي فلا تساكنوني بها وقد هممتم بما هممتم به من الغدر، وقد أجّلتكم عشراً، فمن رُئي بعد ذلك ضربت عنقه. فمكثوا على ذلك أياماً يتجهّزون وأرسلوا إلى ظهر لهم بذي الجدر[١]، وتكاروا من الناس من أشجع ابلا.

فأرسل إليهم ابن أُبي: لا تخرجوا من دياركم وأقيموا في حصنكم فإنّ معي ألفين من قومي وغيرهم من العرب يدخلون معكم حصنكم فيموتون عن آخرهم، وتمدّكم قريظة وحلفاؤكم من غطفان، فطمع حيي فيما قال ابن أُبي فارسل إلى رسول اللهﷺ : إنّا لا نخرج من ديارنا فاصنع ما بدا لك.

فاظهر رسول اللهﷺ التكبير وكبّر المسلمون لتكبيره، فقالﷺ : حاربت يهود.

فصار إليهم النبيﷺ في أصحابه، فصلّى العصر بفضاء بني النضير، وعليّ (رضي الله عنه)، يحمل رايته، واستخلف على المدينة ابن أُم مكتوم.

فلمّا رأوا رسول اللهﷺ قاموا على حصونهم معهم النبل والحجارة واعتزلتهم قريظة فلن [هكذا] تُعنهم، وخذلهم ابن أُبي وحلفاؤهم من غطفان فأيسوا من نصرهم، فحاصرهم رسول اللهﷺ وقطع نخلهم، فقالوا: نحن نخرج عن بلادك، فقالﷺ : لا أقبله اليوم ولكن أخرجوا منها ولكم دماؤكم وما حملت الإبل إلاّ الحلقة[٢].

فنزلت يهود على ذلك، وكان حاصرهم خمسة عشر يوماً، فكانوا يخربون

---

(١) موضع على بعد ستة أميال من المدينة بناحية قباء (وفاء الوفاء: ٢ / ٢٧٩).

(٢) الحلقة: السلاح كلّه، أو خاص بالدروع.

بيوتهم بأيديهم، ثمّ أجلاهم عن المدينة وولّى إخراجهم محمد بن مسلمة، وحملوا النساء والصبيان وتحمّلوا على ستمائة بعير. . فلحقوا بخيبر، وحزن المنافقون عليهم حزناً شديداً.

وقبض رسول الله ﷺ الأموال والحلقة فوجد من الحلقة خمسين درعاً، وخمسين بيضة[١]، وثلاثمائة سيف وأربعين سيفاً.

وكانت بنو النضير صفياً لرسول الله ﷺ خالصة له حَبساً لنوائبه ولم يخمّسها ولم يسهم منها لأحد، وقد أعطى ناساً من أصحابه، ووسّع في الناس منها. . . »[٢].

كانت هذه رواية ابن سعد في طبقاته حول غزوة واجلاء يهود بني النضير من المدينة، وقد لخص ابن سعد هذه الغزوة وحوادثها بخلاف الواقدي الذي توسع كثيراً في جزئيات الواقعة، وذكر حوارات جانبية تفرد بروايتها[٣].

إلاّ أنّه بقي شيء لم توضحه لنا رواية ابن سعد في الطبقات، وإنّما أشار إليها إشارة عابرة فقط، وهو مصير غنائم بني النضير، من أموال وسلاح وأراضي زراعية واسعة. . فقال: وكانت بنو النضير - ويقصد أموالهم - صفياً لرسول الله ﷺ خالصة له حبساً لنوائبه ولم يخمسها ولم يسهم منها لأحد، وقد أعطى ناساً من أصحابه، ووسع في الناس منها[٤].

ومن الواضح أن غنائم بني النضير كانت من الفيء بنص القرآن الكريم،

---

(١) البيضة: من السلاح، سميت بذلك لأنّها على شكل بيضة النعام، وتسمى (الخوذة)، لسان العرب.

(٢) طبقات ابن سعد: ٢ / ٢٧٨، والواقدي، المغازي: ١ / ٣٦٣ وما بعدها، وابن هشام: ٣ / ١٩٠.

(٣) انظر الواقدي، المغازي: ١ / ٣٦٣ إلى ٣٨٣.

(٤) الطبقات: ٢ / ٢٧٨.

وهي خالصة لرسول الله ﷺ إذ لم يكن هنالك قتال في هذه الغزوة كما جاء في رواية ابن سعد، وإن كانت بعض الروايات تشير إلى مناوشات جانبية وقتل بعض اليهود بيد علي بن أبي طالب عليه السلام[١].

وفي رواية الواقدي: «قال عمر بن الخطاب: يا رسول الله، إلاّ تخمّس ما أصبت من بني النضير كما خمّست ما أصبت من بدر؟ فقال رسول الله ﷺ: لا أجعل شيئاً جعله الله عزّ وجل لي دون المؤمنين، بقوله تعالى: ﴿مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡقُرَىٰ﴾[٢] كهيئة ما وقع فيه السّهمان للمسلمين»[٣].

إلاّ أن رسول الله ﷺ رأى أن حاجة المسلمين وخاصة المهاجرين منهم إلى هذه الأموال ماسة، ولهذا قسم ما أفاء الله عليّه بين المهاجرين، ولم يُعط الأنصار إلاّ رجلين كانا محتاجين.

يقول الواقدي: «فلمّا غنم رسول الله ﷺ بني النضير، دعا ثابت بن قيس بن شمّاس، فقال: ادعُ لي قومك! قال ثابت: الخزرج يا رسول الله؟ قال رسول الله ﷺ: الأنصار كلّها، فدعا الأوس والخزرج، فتكلّم رسول الله ﷺ فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله، ثمّ ذكر الأنصار وما صنعوا بالمهاجرين، وانزالهم اياهم في منازلهم، وأثرتهم على أنفسهم، ثمّ قال: إن أحببتم قسمتُ بينكم وبين المهاجرين ممّا أفاء الله عليَّ من بني النضير، وكان المهاجرون على ما هم عليه من السّكنى في مساكنكم وأموالكم، وإن أحببتم أعطيتهم وخرجوا من دوركم، فتكلّم سعد بن عبادة وسعد بن معاذ فقالا: يا رسول الله، بل تَقسمه للمهاجرين، ويكونون في دورنا كما كانوا، ونادت الأنصار: رضينا وسلّمنا يا رسول الله.

قال رسول الله ﷺ: اللهمّ ارحم الأنصار وأبناء الأنصار، فقسم رسول

---

(١) الواقدي، المغازي: ٣٧٢، والمفيد، الارشاد: ١/ ٩٢ - ٩٣ .

(٢) الحشر: ٧ .

(٣) الواقدي، المغازي: ٣٧٧ وما بعدها .

اللهﷺ ما أفاء الله عليه، وأعطى المهاجرين ولم يعط أحداً من الأنصار من ذلك الفيء شيئاً، إلاّ رجلين كانا محتاجين، سهل بن حنيف، وأبا دجانة، وأعطى سعد بن معاذ سيف ابن أبي الحقيق، وكان سيفاً له ذكرٌ عندهم وكان ممّن أعطى ممن سمّي لنا من المهاجرين... فلان وفلان... ووسّع رسول اللهﷺ في الناس منها»[١].

ما نزل من القرآن في هذه الواقعة:

وقد ذكر المؤرخون ما نزل من القرآن في بني النضير، حتى قيل: «ونزل في بني النضير سورة الحشر بأسرها، يذكر فيها ما أصابهم الله به من نقمته، وما سلّط عليهم به رسولهﷺ وما عمل به فيهم...»[٢].

وعندما نستعرض آيات سورة الحشر من الآيات الثانية إلى الآية السابعة عشرة، نجدها تصف حادث بني النضير وجلاهم بالتفصيل، ثمّ تعقب على تلك الأحداث بما يناسبها من ارشادات وعبر وعظات لتكون درساً للمسلمين، «فتفي بمقتضيات الأحداث، وتمتد وراءها وحولها في مجالات أوسع واشمل من مقتضيات تلك الأحداث المحدودة بالزمان والمكان»[٣] وهذه ميزة فريدة اختص بها القرآن الكريم في عرض الأحداث.

قال تعالى: وهو يقص نبأ الحادث الذي نزلت فيه السورة:

﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن دِيَٰرِهِمْ لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ ۚ مَا ظَنَنتُمْ أَن

---

(١) الواقدي، المغازي: ١ / ٣٧٩ - ٣٨٠.

(٢) ابن هشام، السيرة النبوية: ٣ / ١٩٢ وما بعدها، والواقدي، المغازي: ١ / ٣٨٠ وما بعدها. وانظر أسباب النزول للواحدي النيسابوري: ٢٧٨ وما بعدها، طبعة دار الكتب العلمية - بيروت، (بلا - ت).

(٣) سيد قطب، في ظلال القرآن: ٨ / ٢٩.

يَخۡرُجُواْۖ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمۡ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنۡ حَيۡثُ لَمۡ يَحۡتَسِبُواْۖ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعۡبَۚ يُخۡرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيۡدِيهِمۡ وَأَيۡدِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ فَٱعۡتَبِرُواْ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ ﴿٢﴾ وَلَوۡلَآ أَن كَتَبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡجَلَآءَ لَعَذَّبَهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابُ ٱلنَّارِ ﴿٣﴾﴾(١).

ثم يبين سبحانه السبب الذي من أجله حصل الذي حصل لهم:

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ شَآقُّواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۖ وَمَن يُشَآقِّ ٱللَّهَ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ﴿٤﴾﴾(٢).

ثمّ يطمئن - سبحانه - المؤمنين على صواب ما أوقعوه بهؤلاء الذين كفروا وشاقوا الله ورسوله:

﴿مَا قَطَعۡتُم مِّن لِّينَةٍ(٣) أَوۡ تَرَكۡتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذۡنِ ٱللَّهِ وَلِيُخۡزِيَ ٱلۡفَٰسِقِينَ ﴿٥﴾﴾(٤).

ثمّ يبين سبحانه حكم الفيء، الذي أفاءه الله على رسوله في هذه الواقعة:

﴿وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنۡهُمۡ فَمَآ أَوۡجَفۡتُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ خَيۡلٖ وَلَا رِكَابٖ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُۥ عَلَىٰ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴿٦﴾ مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ كَيۡ لَا يَكُونَ دُولَةَۢ بَيۡنَ ٱلۡأَغۡنِيَآءِ مِنكُمۡۚ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمۡ عَنۡهُ فَٱنتَهُواْۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ﴿٧﴾﴾(٥).

ثمّ يذكر سبحانه وتعالى أن حكم الفيء يرجع إلى النبيﷺ فله أن يتصرف

---

(١) الحشر: ٢ - ٣.

(٢) الحشر: ٤.

(٣) اللينة: النخلة الناعمة (الراغب الإصفهاني، المفردات).

(٤) الحشر: ٥.

(٥) الحشر: ٦ - ٧.

فيه بما يرى، ثمّ دلّه - سبحانه - على موارد صرفه، ثمّ بين الملامح المميزة للمهاجرين، والملامح المميزة للأنصار، بأروع بيان:

﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴿٨﴾ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾ وَالَّذِينَ جَاءُوا مِن بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠﴾﴾ (١).

ثمّ يعود - سبحانه - إلى الحادث ليرسم صورة لفريق آخر ممن اشتركوا فيها وهم فريق المنافقين:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١١﴾ لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُوا لَا يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٢﴾ لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِم مِّنَ اللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿١٣﴾ لَا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَاءِ جُدُرٍ ۚ بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ ۚ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴿١٤﴾ كَمَثَلِ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ۖ ذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٥﴾ كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦﴾ فَكَانَ عَاقِبَتَهُمَا أَنَّهُمَا فِي النَّارِ خَالِدَيْنِ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ ﴿١٧﴾﴾ (٢).

«وبهذا المثل الموحي تنتهي قصة بني النضير، وقد ضمت في ثناياها وفي

---

(١) الحشر: ٨ - ١٠.

(٢) الحشر: ١١ - ١٧.

أعقابها هذا الحشد من الصور والحقائق والتوجيهات، واتصلت أحداثها المحلية الواقعة بالحقائق الكبرى المجردة الدائمة، وكانت رحلة في عالم الواقع وفي عالم الضمير، تمتد إلى أبعد من حدود الحادث ذاته، وتفترق رواياتها في كتاب الله عن رواياتها في كتب البشر بمقدار ما بين صنع الله وصنع البشر من فوارق لا تقاس»[١].

تأملات في بعض كلمات المستشرقين:

وقبل أن ننهي الحديث عن قضية بني النضير لابد لنا من وقفة تأمل ومناقشة لما قاله بعض كتاب السيرة وبعض المستشرقين حول سبب هذه الواقعة:

لقد اتضح لنا ومن خلال اجماع المؤرخين أن السبب الحقيقي لغزوة يهود بني النضير هو نقضهم للعهد والميثاق الذي كان بينهم وبين النبيﷺ التي نصت عليها البنود القانونية التي تضمنتها الوثيقة النبوية المعروفة «بوثيقة العهد».

والقرآن الكريم يصرح بأن هؤلاء اليهود من بني النضير ﴿. . . شَآقُّواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۖ وَمَن يُشَآقِّ ٱللَّهَ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾[٢]. والمشاقة: هي المخالفة بالعناد، أي صار في شق غير شقِّ أوليائه[٣].

بل حتى بعض المنصفين من كتاب السيرة من المستشرقين قد سجل في كتابه حقيقة خيانة اليهود لرسول اللهﷺ فقال: «وإذا كان محمد قد قَسا على اليهود فإن من الإنصاف أن يُعترف بأنهم خانوه»[٤].

---

(١) سيد قطب، في ظلال القرآن: ٨ / ٤٦ .

(٢) الحشر: ٤ .

(٣) مفردات ألفاظ القرآن للراغب الإصفهاني: مادة: شقا .

(٤) درمنغم - اميل (المستشرق الفرنسي)، حياة محمد: ٢٣٧ (مرجع سابق) .

فبرغم وضوح السبب الحقيقي لغزوة بني النضير، ومن ثمّ اجلاؤهم من حول المدينة، نجد بعض كتّاب السيرة يحرّف الواقع ويعتبر ما جرى على هؤلاء اليهود نتيجة «تفكير سياسي دقيق من النبيﷺ، إذ إنه رأى اليهود والمنافقين كأنهم يتربصون به الدوائر، فقدّر أن لا شيء خير من أن يستدرجهم لتتضح نيّاتهم، ولما كان اليهود من بني النضير حلفاء لبني عامر، فقد ذهب إلى محلّتهم على مقربة من قباء في عشرة من كبار المسلمين... وطلب إليهم معاونتهم في دية القتيلين اللذين قتلهما عمرو بن أُمية خطأً، ومن غير أن يعلم أن محمداً أجارهم»[١].

ويعبر كاتب آخر بتعبير أخف وقعاً من تعبير «الاستدراج» فيقول: «وكان لابد أن ينتهز الرسول فرصة ما ليختبرهم - أي اليهود - ويكشف عن نواياهم في هذا الظرف العصيب، فانتهز فرصة القتيلين... الخ»[٢].

إلاّ أنّ تعبير «الاستدراج» أو «انتهاز الفرصة» من هذين الكاتبين، وإن كانتا من الوسائل الرائجة في دنيا السياسة والساسة في التعامل مع خصومهم السياسين للايقاع بهم والتخلّص منهم؛ إلاّ أنّها لا تنطبق على سياسة الرسول الأكرمﷺ المتصلة بوحي السماء، ولا بأخلاقياته العالية مع خصومه من المنافقين واليهود بل وحتى المشركين منهم.

فبرغم المواقف العدائية من المنافقين، ودورهم الغادر في كل واقعة من وقائع الحقبة المدنية، إلاّ أنّهم قد استتروا بستار الإسلام، فلم يكن النبي ولا المسلمون يتعرّضون لهم ويكشفون ستر الإسلام عنهم، وكذلك اليهود بكل طوائفها، رغم كشف الله عزّ وجل للنبيﷺ وللمسلمين عن سرائرهم وما تخفي

---

(١) هيكل - محمد حسين، حياة محمد: ٣١٠، طبعة مكتبة النهضة - مصر، ط. الثالثة عشر (١٩٦٨ م).

(٢) دويدار، أمين، صور من حياة الرسولﷺ: ٣٨٩.

نفوسهم من عداوة وبغضاء. . إلاّ أنّ النبيﷺ لم يتعرض لهم للعهد الذي كتبه معهم في أن يتركهم ودينهم، ويتركوه ودينه، وألا يمالئوا عليه عدواً، ولا يظاهروا عليه أحداً.

ولم يكن النبيﷺ بحاجة إلى «استدراجهم» إلى الغدر حتى يوقع بهم، ولا بحاجة إلى اختلاق الذرائع حتى ينتهزها فرصة لقتالهم، فهؤلاء هم الذين جنوا على أنفسهم من خلال غدرهم ونقضهم للميثاق والعهد، فجرى عليهم ما جرى من أحداث طالت الأفراد منهم ككعب بن الأشرف، أو طالت قبائلهم كبني القينقاع وبني النضير وكذلك ما سوف يأتينا من أحداث بني قريظة وواقعة غزوة خيبر.

والغريب في بعض كتاب السيرة اصرارهم على ابراز شخصية الرسولﷺ وكأنه شخصية سياسية منفصلة عن السماء ووحيه، فيصورونه في أفعاله كما يصورون الساسة الذين يكيلون لخصومهم، ويستخدمون أُسلوب تصفيتهم الجسدية للتخلص منهم، فيقول أحد هؤلاء الكتّاب: «فقد جعل - أي النبيﷺ - تصفيتهم - أي اليهود - على مراحل. . وكان السبب الحقيقي لغزو بني قينقاع تنفيذ المخطط التصفوي الذي وضعه رسول اللهﷺ. . والسبب الحقيقي لاجلاء بني النضير هو: تنفيذ المخطط الذي وضعه رسول الله في تصفيته أعداء الدولة الإسلامية، وإجلاء بني النضير يعتبر العملية التصفوية الثانية. . والسبب الحقيقي لغزوة بني قريظة تنفيذ رسول الله المخطط السياسي الذي وضعه لدولة الإسلام، وقد جاء دور بني قريظة في هذا المخطط. .»[١].

وهكذا تضيع معالم الأسباب الحقيقة للأحداث عند هذا الكاتب، وتضيع معها معالم شخصية النبيﷺ الإلهية، ولا يعدو عن كونه رجل سياسة ليس له هم

(١) قلعه چي - محمّد روّاس، قراءة سياسية للسيرة النبوية: ١١٧، ١٤٠، ١٦٧، ١٨٥.

إلاّ التخطيط للكيد بخصومه وتصفيتهم على مراحل!!

وإذا كان الأمر بهذه المثابة عند بعض كتّاب السيرة من المسلمين حول شخصية الرسولﷺ السياسية، فماذا نتوقع من كتّاب التاريخ والسيرة من غير المسلمين - وخاصة اليهود منهم - عندما يقفون عند هذه الأحداث ويقيمونها في كتبهم؟

فهذا منتجمري وات يكتب في كتاب «محمد في المدينة»(١) حول حادث بني النضير فيقول: «ولربما فكر محمد بأن على اليهود أن يدفعوا أكثر مما يدفعه متوسط سكان المدينة، فراق لليهود أن يدفعوا أقل»(٢).

فهو لا ينكر أصل خروج النبيﷺ إلى بني النضير ليطلب منهم المساعدة في دفع دية العامريين اللذين قتلا خطأً، إلاّ أنه يزور واقع خيانة اليهود وغدرهم، ويصور الأمر وكأنه نوع من الابتزاز المالي من قبل النبيﷺ لبني النضير، من خلال الطلب منهم بدفع أموال لم يكونوا ملزمين بدفعه، وبأكثر مما يدفعه أهل المدينة! ومن هنا نشأت التعقيدات - بنظره - بين النبيﷺ وبين بني النضير، وبالنتيجة فبنو النضير يصبحون ضحية لأطماع مالية لا مبرر لها، ولا يصح مطالبتهم بها.

ثمّ يتابع كلامه بذكر ارسال النبيﷺ إليهم يأمرهم بمغادرة المدينة، تحت طائلة الموت في مدة عشرة أيام... فيقول: «إنّ هذا الانذار لا يتناسب مع الإهانة، أو الإدعاءات الغامضة بصدد الخيانة، ومع ذلك يمكن لهذه الادعاءات أن لا تبدو غامضة لرجل غربي في أيامنا هذه، فقد كان الفريقان يعلمان كيف عامل بعض المسلمين «كعب بن الأشرف» وكان محمد يعلم جيداً - حسب

---

(١) وله كتاب «محمد في مكة»، ترجمة: شعبان بركات من منشورات المكتبة العصرية - صيدا لبنان.

(٢) منتجمري وات، محمد في المدينة: ٣٢٢.

الآراء السائدة في الجزيرة العربية آنذاك - أنه إذا سنحت الفرصة المناسبة انتهزها اعداؤه، وقتلوه، وكان التأخير في اعطاء الجواب لاتاحة الفرصة لقتله، ولهذا اعتبر عملا عدائياً»[١].

فبرغم وضوح خيانة بني النضير وتآمرهم لقتل النبيﷺ وبالنتيجة نقضهم للعهد المبرم بينهم وبين النبيﷺ، والتي نقلتها لنا كتب السيرة والتاريخ الأساسية، والتي تشكل مصادر ومراجع كتابه، مع هذا الوضوح يدعي هذا الكاتب انها ادعاءات غامضة، ولا يناسبها حجم الانذار مع الإهانة التي وجهت لبني النضير! ثمّ يشير إلى مقتل كعب بن الأشرف، ويوحي لقرائهِ بأنه قتل مظلوماً وبغير حق، وأن المسلمين قد عاملوه بقسوة لا يستحقها[٢].

والنتيجة النهائية لهذا التحليل البعيد عن واقع ما سطرته نصوص التاريخ يحاول هذا الكاتب أن يدفع تهمة الخيانة والغدر عن اليهود في هذه الواقعة، الأمر الذي لم يدفعه اليهود عن أنفسهم، ولا ادعوا براءاتهم منها!

ولو تجاوزنا هذا الكاتب إلى كاتب آخر وهو اليهودي: «إسرائيل ولفنسون» في كتابه: «تاريخ اليهود في بلاد العرب في الجاهلية وصدر الإسلام»[٣] وهو يستعرض واقعة اجلاء بني النضير، في أحد فصول كتابه المذكور، لوجدنا

---

(١) المصدر نفسه: ٣٢٢ - ٣٢٣ .

(٢) الصحيح من سيرة النبيﷺ: ٨ / ٧٥ - ٧٦ (بتصرف) .

(٣) صدر الكتاب في طبعته الأُولى عن لجنة التأليف والترجمة والنشر في القاهرة، عام (١٩٧٢ م)، وكان أساساً أُطروحة دكتوراه في الجامعة المصرية، أشرف عليها وقدّم لها الدكتور: طه حسين . والطبعة الحديثة المنقحة للكتاب صدرت عن دار ومكتبة بيبلون (٢٠٠٦ م) مع مقدّمة الدكتور: طه حسين، ودراسة مفصلة بعنوان: صراع اليهودية والإسلام من منظور يهودي، للدكتور لوييس صليبا . وقد اعتمدنا هذه الطبعة الحديثة في نقل آراء المؤلف . ويعتبر هذا الكتاب من أهم الكتب التي تتحدث عن تاريخ اليهود في الجزيرة العربية .

العجب العجاب من تزوير الواقع وتحريف الأسباب عن وجهتها الحقيقية، والتماس أسباب أُخرى لم تنص عليها أيّ من كتب السيرة والأثر، وبالنتيجة يبرئ بني النضير من تهمة الخيانة ونقض العهد، بل يلقي التبعة على رسول الله وعلى المؤمنين في كل ما وقع في هذه الغزوة!

لقد زعم هذا المؤلف - ومن دون دليل أو نص تاريخي - أن النبيﷺ غضب على يهود بني النضير لأنّهم لم يشاركوه في واقعة أُحد، فأراد لهذا أن ينتقم منهم، فأنذرهم بأن يخرجوا من المدينة في مدّة أقصاها عشرة أيام!!

يقول في كتابه (ص ٢٥٨ - ٢٥٩): «وكان انذار الرسول لهم بذلك بمثابة انتقام منهم على عدم اشتراكهم في واقعة أُحد، وكأنَّ الرسول كان يعتبرها كغزوة موجهة إلى مدينة يثرب، فكان على بني النضير أن يخرجوا للقاء العدو كما تقضي شروط المعاهدة».

وكأ نّما احسّ المؤلف أنه قد احرج نفسه بهذا التعليل، لأنّ ما ذكره من سبب لغزو بني النضير ينطبق تمام الانطباق على يهود بني قريظة، فلماذا لم ينتقم منها سواء ببني النضير؟ فيستدرك بعد هذا مباشرة فيقول: «ثمّ يظهر أن بني قريظة كانوا مرتبطين بعهد آخر، غير عهد بني النضير، وأن الشروط كانت غير شروط عهد بني النضير، إذ لم يطالبهم الرسول بالاشتراك في واقعة «أُحد» كما طالب بني النضير، ولم يثأر منهم بحجة مخالفة الشروط، كما ثأر من بني النضير».

ثمّ يخرج بنتيجة أدان فيها الرسولﷺ على ضوء ما افترضه باعتبار ما افترضه حقيقة واقعية، وأمراً تاريخياً مسلماً به، فاردف يقول: «وليس معقولا أن يغضب الرسول من بني النضير، لعدم خرجوهم إلى الوغى في واقعة أُحد، دون أن تكون هناك معاهدة تلزم الفريقين بتنفيذها».

وعندما نتأمل في هذا المقطع من كلام المؤلف نجده يزعم أن رسول الله

طالب بني النضير بالاشتراك معه في واقعة أُحد، وأنه كانت هنالك معاهدة بين الرسول وبني النضير تلزمهم بالاشتراك في هذه الواقعة، وأُخرى بينه وبين بني قريظة لا تلزمهم بالاشتراك كما تلزم بني النضير، وأنّه لو لم تكن معاهدة بني النضير ملزمة لما غضب الرسول على بني النضير دون غيرهم من اليهود!

وهذا الزعم من المؤلف يحتاج إلى سندتاريخي يؤيد صحته، فعلى أي سند تاريخي اعتمد المؤلف في زعمه هذا؟

ومن الواضح تاريخياً انّه لا يوجد أي نص تاريخي لهذا المدعى، ولا ذكر أحد من كتّاب السيرة - ولو بقول شاذ - أن رسول الله طالب بني النضير أو غيرهم من اليهود بالاشتراك مع المسلمين في واقعة أُحد! بل الروايات كلها مجمعة على عكس ما ذهب إليه المؤلف وان رسول الله ﷺ قد ارجع تلك الكتيبة من اليهود في طريقه إلى أُحد، وعندما طُلب منه ﷺ أن يشرك هؤلاء اليهود معه في المعركة قال قولته المشهورة: «لا يستنصر بأهل الشرك على أهل الشرك»[١].

والغريب في منهج هذا المؤلف في كتابه أنه يحاول الوصول إلى زعمه بأي وسيلة، فيعمد إلى اجماع روايات المؤرخين في قضية اجلاء بني النضير وان سببها الغدر والخيانة ونقض العهد والميثاق. . فيشكك في تلك الروايات ومن دون سند يذكر سوى عدم رضاه ورضا المستشرقين من أمثاله بها.

فيقول (ص ٢٥٩ - ٢٦٠): «ويذكر مؤرخو العرب سبباً آخر لإعلان الحرب على بني النضير، غير امتناع اليهود عن الاشتراك في يوم أُحد، فيقول ابن هشام: إنّ رسول الله خرج إلى بني النضير، يستعينهم في دية ذينك القتيلين من بني عامر. . الخ[٢].

---

(١) الواقدي، المغازي: ١ / ٢١٧، والسيرة النبوية: ٣ / ٦٤، وطبقات ابن سعد: ٢ / ٢٦٨ .

(٢) انظر رواية ابن هشام: ٣ / ١٩٠ .

ثمّ يقول: لكن المستشرقين ينكرون صحة هذه الرواية، ويستدلون على كذبهم [هكذا] بعدم وجود ذكر لها في صورة الحشر التي نزلت بعد اجلاء بني النضير».

ثمّ يقول: «على أننا، لو سلّمنا بصحة هذه الرواية، فإنّنا لا نجدها كافية لاشهار الحرب على جميع بطون بني النضير، إذ نعلم من نص المعاهدة الكبيرة بين رسول الله واليهود، أن كل جرم من جهة فرد، أو عدّة أفراد، يقع عقابه على فاعليه وأهل بيته، دون أن يمسّ غيرهم بشيء من الأذى».

ثمّ يخرج بنتيجة يبرئ فيها بني النضير من تهمة الغدر والخيانة، وهذا يعني ادانة النبيﷺ والمسلمين لأنّهم أجلوا بني النضير من دون أن تثبت عليهم جريمة الغدر!

يقول (ص ٢٦١): «والذي يظهر لذي عينين أن بني النضير لم يكونوا ينوون الغدر بالنبي واغتياله، على مثل هذه الصورة، لأنّهم كانوا يخشون عاقبة فعلتهم هذه من انصاره، ولو أنهم كانوا ينوون اغتياله غدراً، لما كانت هنالك ضرورة لإلقاء الصخرة عليه من فوق الحائط، بل كان في استطاعتهم أن يفاجؤوه وهو يحادثهم، إذ لم يكن معه غير قليل من أصحابه».

ونحن نواجه هنا منهجاً متعسفاً في التعامل مع النصوص التاريخية من مؤلف ينبغي له أن يأخذ بالمنهج العلمي وهو يكتب رسالة «دكتوراه» في التاريخ!

فأي منهج علمي يبيح له أن ينكر رواية ابن هشام استناداً إلى عدم قبول المستشرقين من أمثاله لها! مع العلم أن الرواية لم ينفرد ابن هشام بها، وإنما ذكرها الواقدي في المغازي، وابن سعد في الطبقات[1] وغيرهم من المؤرخين.

---

(١) انظر الواقدي، المغازي: ١ / ٣٦٤ - ٣٦٥، وطبقات ابن سعد: ٢ / ٢٧٨ .

والطريف في انكار رواية ابن هشام من قبل المستشرقين الذين يستند المؤلف على انكارهم هو عدم وجود ذكر لها في سورة الحشر التي نزلت بعد جلاء بني النضير!!

وكأنّه يتوقع من القرآن الكريم أن يكون كتاب تاريخ يعرض الحوادث عرضاً تاريخياً مسلسلا ويقف عند جزئيات الأحداث.. وهو خلاف منهج العرض القرآني للأحداث الذي لا يعرض للحوادث إلاّ بمقدار ما يلفت النظر، ويعرضها للعبرة والتربية واستخلاص المعاني الكامنة وراء الحوادث.

على أن السبب الذي ينكر المستشرقون وجوده قد ذكر في سورة الحشر، ولكن على طريقة القرآن لا على طريقة المؤرخين، وذلك في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۖ وَمَن يُشَآقِّ ٱللَّهَ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٤﴾﴾[(١)].

وكأنما أحسَّ المؤلف أن هذا الاستدلال ليس كافياً لتكذيب كل المؤرخين وإنكار صحة الرواية فاستدرك قائلا: على أننا لو سلمنا بصحة الرواية، فإنا لا نجدها كافية لاشهار الحرب.. الخ فهو يشكك في الرواية أولا، ثمّ على فرض صحتها فما قيل فيها من سبب لاشهار الحرب على بني النضير، ليس بسبب واجب - بحسب نظره -!

إلاّ أن هذا الاستدراك خلاف واقع الجريمة التي همَّ بها بنو النضير والنتائج التي أسفرت عنها، فإنّ الذي همَّ بقتل الرسول ﷺ لم يكن فرداً ولا أفراداً بصفتهم الشخصية، إنّما كانوا زعماء بني النضير الذين بيدهم الحل والعقد، والذين ذهب إليهم الرسول ﷺ ليفاوض في أشخاصهم القبيلة بجميع بطونها وساداتهم، فهم حين يهمون بأمر إنّما يهمون به باسم القبيلة كلها لأنّهم كبراؤها وساداتها، ولن ينفي عن القبيلة تهمة الجريمة أن يقوم بها فرد أو أفراد من هؤلاء.

---

(١) الحشر: ٤ .

فالجريمة إذن ليست جريمة فردية حتى يؤاخذ بها فرد أو أفراد من هؤلاء.

ثمّ إنّ الجريمة التي أقدم عليها هؤلاء اليهود لو تمت فهي لم تكن جريمة عادية واقعة على فرد عادي إنما كان جرمها واقعاً على المؤمنين جميعاً في شخص رسولهم، فكانت نتائجها أخطر النتائج وأسوأها عاقبة، لأنّها القضاء على دين الله الذي جاء به رسوله، ومن أجل هذا عبر القرآن عن هذه الجريمة في سورة الحشر على أنها جريمة جماعية، همّت فيها جماعة بالاعتداء على جماعة.

على أن النصوص التي يشير إليها المؤلف في المعاهدة الكبيرة - وثيقة العهد - إنّما جاءت بألفاظ العموم التي تتسع للفرد والجماعة معاً[(١)(٢)].

وللمؤلف في كتابه «تاريخ اليهود» الكثير من هذه المغالطات لم نتعرض لها خوف الإطالة[(٣)].

وقبل أن نَدَعَ مؤلف كتاب تاريخ اليهود مؤقتاً - إذ لنا عودة إليه عند الحديث عن أوجه الصراع الأُخرى مع اليهود في الوقائع الإسلامية الآتية - ينبغي أن نسجل للمؤلف دفاعه عن أبناء جلدته من اليهود وتبرأتهم من كل ما عرف عنهم من غدر وخيانة وعداء للإسلام والمسلمين، ولو كانت هذه التبرأة على حساب الحقيقة والواقع ومن خلال تزييف التاريخ ونصوصه، فهذا ليس بغريب! على يهودي يدافع عن أبناء جلدته.

ولكن الغريب في الأمر أن يكون هذا الكتاب أُطروحة دكتوراه، وباشراف عميد الأدب العربي الدكتور: طه حسين، فهل كان المشرف على الرسالة - وهو

---

(١) للتوسع انظر مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي، محمد حميد الله: ٥٩ وما بعدها.

(٢) اقتبسنا هذه المناقشات من كتاب: صور من حياة الرسول لأمين دويدار: ٣٩٠ - ٣٩٨ (بتصرف وتلخيص).

(٣) انظر الصفحة: ٢٥٤ - ٢٥٥ كمثال.

الذي له مؤلفات كثيرة في السيرة والتاريخ - قد غفل عن هذه المغالطات والتحريفات الشنيعة؟ أم أنه كان يرتضي هذه النتائج التي تمخض عنها بحث تلميذه «اسرائيل ولفنسون»[١] والذي يعبر عنه بأنه «وفق إلى الخير في هذا الكتاب الذي قدّمه إلى الجامعة المصرية، ونال به شهادة الدكتوراه»[٢]!

لقد أطلنا الوقوف عند هذه التأملات والمناقشات لأنّا وجدنا ضرورة الوقوف عندها ومناقشتها فإن ما قاله هؤلاء الكتّاب قد يطمس وجه الحقيقة ويزيف التاريخ، والأخطر من ذلك كلّه أن الأمر يتعلق بشخصية الرسول الأكرم ﷺ الذي يجب أن تنزه من كل تهمة تنسب إليه بالباطل.

وسوف نتوقف عند بعض الدروس والعبر من هذه الواقعة في نهاية الدرس إن شاء الله تعالى.

٢ - غزوة ذات الرقاع

عاشت المدينة المنورة بعد غزوة بني النضير فترة من السكينة والهدوء والطمأنينة، حيث أصابت هذه الغزوة اليهود والمنافقين معاً، وكسرت شوكتهم، وملأت قلوبهم رعباً، فكفّ المنافقون - مؤقتاً - عن اللغو والارجاف واشاعة الفتنة، وقبع يهود بني قريظة في عقر دارهم يترقبون بحذر وخوف، فلم يعد المسلمون يخشون من العدو الداخلي على المدى القريب، وإن كانت المخاوف من تحركهم مرة أُخرى - على المدى البعيد - لا زالت قائمة.

كذلك حصلت حالة من الانتعاش الاقتصادي بعد توزيع غنائم بني النضير بين المهاجرين، فتحسنت أوضاعهم المعيشية، بعد أن كانوا يتقاسمون مع

---

(١) انظر ترجمته في كتاب الأُستاذ: نجيب عقيقي (المستشرقون): ٢ / ٤٦٠، طبعة دار العارف - القاهرة، الطبعة الرابعة (بلا - ت).

(٢) انظر مقدّمة الدكتور طه حسين للكتاب: ٥٥ - ٥٨ .

الأنصار رغيف خبزهم، واغتبط الأنصار باستغناء المهاجرين عن معونتهم[١].

إلاّ أن رسول الله ﷺ - برغم هذا الهدوء النسبي - كان يعيش حالة الحذر واليقظة والترقُّب من شيء جديد من الأعراب البادي على المدينة، فكان ﷺ يبث العيون لالتقاط الأخبار عن أي تحرك من قبل القبائل المتربصة بالمدينة وأهلها، لكي يأخذهم على غرة، ويباغتهم في عقر دارهم قبل أن يستجمعوا قواهم.

فكانت هذه الغزوة نتيجة لهذا الحذر الشديد، ودفعاً لعدو خارجي قبل تحركه.

تاريخ غزوة ذات الرقاع:

يؤرخ الواقدي وابن سعد لهذه الغزوة بقوله: «خرج رسول الله ﷺ ليلة السبت لعشر خلون من المحرم على رأس سبعة وأربعين شهراً» ويذكرها ابن هشام في حوادث السنة الرابعة من الهجرة[٢].

وهنالك روايات أُخرى في تاريخ هذه الغزوة، إلاّ أنّ المعتمد هو ما قاله هؤلاء الأعمدة الثلاثة من مؤرخي السيرة والمغازي.

وتبعاً لذلك حصل اختلاف أيضاً في تقدمها أو تأخرها عن بعض الغزوات الأُخرى[٣]، فنجد الواقدي وابن سعد يذكر انها بعد غزوة بدر الموعد (الصغرى) بينما يذكرها ابن هشام بعد غزوة بني النضير وقبل غزوة بدر الصغرى[٤] بل أن بعض المؤرخين قال: انها كانت بعد غزوة خيبر سنة سبع أو بعد غزوة الحديبية،

---

(١) للتوسع انظر حياة محمد: ٣٢١ وصور من حياة الرسول: ٤٠١ .

(٢) انظر الواقدي، المغازي: ١/ ٣٩٥، وطبقات ابن سعد: ٢/ ٢٨٠، وسيرة ابن هشام: ٣/ ٢٠٣ .

(٣) للتوسع انظر الصحيح من سيرة النبي: ٨ / ٢٧٤ وما بعدها .

(٤) انظر المصادر المذكور أعلاه في الهامش رقم (٢) .

وقال بعض آخر انها كانت آخر الغزوات[١].

ولا يهمنا الوقوف ومناقشة بعض هذه الآراء في تاريخ الغزوة بعد أن اعتمدنا قول أعلام السيرة الثلاثة، وأنهم أرّخوا لها ضمن أحداث السنة الرابعة من الهجرة.

وجه التسمية:

واختلفت كلمات المؤرخين في سبب تسمية هذه الغزوة بذات الرقاع، وأنسب هذه الأقوال وأكثرها قبولا هو ما نقله السهيلي في الروض بقوله: «ويقال: ذات الرقاع شجرة بذلك الموضع يقال لها ذات الرقاع، وذكر غيره أنها أرض فيها بقع سود، وبقع بيض، كأنها مرقعة برقاع مختلفة، فسميت ذات الرقاع...» وهو ما نص عليه الواقدي في المغازي[٢].

ولهذه الغزوة أسماء أُخرى غير «ذات الرقاع» التي عرفت بها فسميت بـ «غزوة محارب، وغزوة بني ثعلبة، وغزوة بني أنمار، وغزوة صلاة الخوف لوقوعها بها، وغزوة الأعاجيب لما وقع فيها من الأُمور العجيبة»[٣].

وتقصي الأقوال في هذه النقطة من البحث ليس بذي أهمية للباحث في وقائع هذه الغزوة بعد أن عرفت باسم «ذات الرقاع» كعلم لها.

أحداث هذه الغزوة:

روى الواقدي عمن حدّثه، قال: «قالوا: قدم قادم بجلب له فاشترى بسوق النّبط، وقالوا: من أين جلبت جلبك؟ قال: جئتُ من نجد وقد رأيت أنماراً

---

(١) انظر الصحيح من السيرة: ٨ / ٢٧٥ - ٢٧٦.

(٢) السهيلي، الروض الأنف: ٣ / ٢٥٣، والواقدي، المغازي: ١ / ٣٩٥.

(٣) السيرة النبوية: ٣ / ٢٠٤ (الهامش) نقلا عن الزرقاني في شرح المواهب.

وثعلبة قد جمعوا لكم جموعاً، وأراكم هادين - أي هادئين - عنهم.

فبلغ النبيﷺ قوله، فخرج في أربعمائة من أصحابه - وقال قائل: كانوا سبعمائة أو ثمانمائة - من المدينة، حتى سلك المشيق، ثمّ أفضى إلى وادي الشّقرة فأقام به يوماً، وبثّ السرايا فرجعوا إليه مع الليل، وخبّروه أنهم لم يروا أحداً وقد وطئوا آثاراً حديثة.

ثمّ سار رسول اللهﷺ في أصحابه حتى أتى محالّهم، فيجدون المحالّ ليس فيها أحد، وقد ذهبت الأعراب إلى رؤوس الجبال وهم مطلّون على النبيﷺ ، وقد خاف الناس بعضهم بعضاً، والمشركون منهم قريب، وخاف المسلمون أن يغيروا عليهم وهم غارون، وخافت الأعراب ألاّ يبرح رسول اللهﷺ حتى يستأصلهم.

وفيها صلّى رسول اللهﷺ صلاة الخوف، عن جابر بن عبد الله، قال:

فكان أوّل ما صلّى يومئذ صلاة الخوف، وخاف أن يغيروا عليه وهم في الصلاة وهم صفوف.

قال ابن سعد: وبعث رسول اللهﷺ ، جعال بن سراقة بشيراً إلى المدينة بسلامته وسلامة المسلمين، وقدم صراراً يوم الأحد لخمس ليال بقين من المحرم.. وغاب خمس عشر ليلة»[١].

وهكذا روى الواقدي وغيره هذه الغزوة ولم يذيلوها بقصائد ينسبونها لحسان ابن ثابت ثمّ الردّ عليها كما هو في الغزوات والوقائع السابقة.

إلاّ أن هذه الغزوة قد ابتليت بمجموعة من القصص العجيبة، حتى أن بعض

(١) الواقدي، المغازي: ١ / ٣٩٥ - ٣٩٦، وابن هشام، السيرة النبوية: ٣ / ٢٠٤، وابن سعد، الطبقات: ٢ / ٢٨٠ .

المؤرخين سماها بـ (غزوة الأعاجيب، لما وقع فيها من الأُمور العجيبة)[١] فمن قصة «غورث» وما هم به من قتل رسول الله ﷺ إلى قصة جابر بن عبد الله وَجَمله مع رسول الله ﷺ إلى قصة عمار بن ياسر وعبّاد بن بشر، وقيامهما على حراسة جيش رسول الله ﷺ وما أُصيبا به.. وغيرها[٢] تدور هذه الروايات بعد أن اختصرت أصل الحادث وما وقع فيه.

ولا يسعنا المجال للوقوف عند هذه القصص، والتأكد من صحتها، ودلالاتها على فرض صحتها، وقد كفانا بعض كتّاب السيرة مؤنة ذلك[٣].

وعلى أي حال، لم يكن في هذه الغزوة قتال ولا غنائم[٤] إلاّ أنّها بعثت رسالة واضحة الدلالات لهؤلاء الأعراب الذين يحدثون أنفسهم بغزو المدينة، مفادها: أن دولة الإسلام بقيادة رسول الله ﷺ قادرة على ضرب المحاربين لها وتأديبهم وضرب تجمعاتهم قبل أن يستكملوا استعدادتهم، وأنّها ليست كما يظنون عاجزة عن النهوض في وجههم وتأديبهم.

٣ - غزوة بدر الصفراء

وسميت ببدر الصفراء وبدر الآخرة، وبدر المَوعد، وذلك أن أبا سفيان لما أراد أن ينصرف من «أُحد» نادى: ألاّ إنّ موعدكم بدر الصّفراء على رأس الحول، فقال رسول الله ﷺ لرجل من أصحابه: قُل: نعم، هو بيننا وبينكم موعد[٥].

---

(١) سيرة ابن هشام: ٢ / ٢٠٤ (الهامش).

(٢) للاطلاع على هذه القصص، انظر السيرة النبوية: ٣ / ٢٠٥ - ٢٠٩، والواقدي: ١ / ٣٩٧ - ٤٠٢.

(٣) انظر الصحيح من سيرة النبي: ٨ / ٣٢٥ وما بعدها.

(٤) ذكر ابن سعد في الطبقات: ٢ / ٢٨٠: «ان هؤلاء الأعراب انهزموا فلم يجد النبي ﷺ إلاّ نسوة فأخذهن» إلاّ أنها رواية انفرد بذكرها ولم تؤيدها النصوص التاريخية الأُخرى.

(٥) الواقدي، المغازي: ١ / ٢٩٧، وابن هشام، السيرة: ٣ / ٩٤.

قال الواقدي وهو يؤرخ لهذه الغزوة:

«غزوة بدر الموعد، وكانت لهلال ذي القعدة على رأس خمسة وأربعين شهراً، وغاب رسول الله ﷺ فيها ستّ عشرة ليلة، ورجع إلى المدينة لأربع عشرة بقيت من ذي القعدة واستخلف على المدينة ابن رواحة.

ولهذا قدم الواقدي هذه الغزوة على غزوة ذات الرقاع التي أرخ لها بـ «ليلة السبت لعشر خلون من المحرّم على رأس سبعة وأربعين شهراً» وهكذا تسلسل الغزوتين عند ابن سعد في الطبقات»[١].

إلاّ أنّ ابن هشام ذكرها بعد غزوة ذات الرقاع وأرخ لها بقول ابن إسحاق: «ثمّ خرج في شعبان إلى بدر»[٢] والذي يتناسب مع تاريخ معركة أُحد أن تكون هذه الغزوة في ذي القعدة، لتكون الفترة الزمنية الفاصلة بين الغزوتين سنة كاملة، ويؤيد ذلك أن موسم بدر الذي كانت تجتمع فيه العرب للبيع والشراء كان في ذي القعدة إلى ثامنه[٣].

وفيما يلي ملخص النص التاريخي لهذه الغزوة برواية الواقدي في المغازي:

«قالوا: لما أراد أبو سفيان أن ينصرف يوم أُحد نادى: موعد بيننا وبينكم بدر الصفراء رأس الحول.. وكانت بدر الصّفراء مجمعاً يجتمع فيه العرب، وسوقاً تقوم لهلال ذي القعدة إلى ثمان ليال خلون منه. فإذا مضت ثماني ليال منه تفرّق الناس إلى بلادهم، فلمّا دنا الموعد كره أبو سفيان الخروج إلى رسول الله ﷺ وجعل يحبّ أن يقيم رسول الله وأصحابه بالمدينة ولا يوافقون الموعد،

---

(١) الواقدي، المغازي: ١ / ٣٨٤ و ٣٩٥، وطبقات ابن سعد: ٢ / ٢٧٩ .

(٢) سيرة ابن هشام: ٣ / ٢٠٩ .

(٣) الذهبي، تاريخ الإسلام: مجلد المغازي: ٢٥١ .

فكان كل من ورد عليه مكّة يريد المدينة أظهر له: إنّا نريد أن نغزو محمّداً في جمع كثيف!

فيقدم القادم على أصحاب رسول الله ﷺ فيراهم على تجهّز فيقول: تركت أبا سفيان قد جمع الجموع، وسار في العرب ليسير اليكم لموعدكم، فيكره ذلك المسلمون ويهيّئهم ذلك.

ويقدم نعيم بن مسعود الأشجعي مكة، فجاءه أبو سفيان بن حرب في رجال من قريش، فقال: يا نعيم، إني وعدت محمداً وأصحابه يوم أُحد أن نلتقي نحن وهو ببدر الصفراء على رأس الحول، وقد جاء ذلك. فقال نعيم: ما أقدمني إلاّ ما رأيت محمّداً وأصحابه يصنعون من اعداد السلاح والكراع وقد تجلّب إليه حلفاء الأوس من بلى وجهينة وغيرهم، فتركت المدينة أمس وهي كالرّمانة!

فقال أبو سفيان: أحقاً ما تقول؟ قال: إي والله. فجزّوا نعيماً خيراً ووصلوه وأعانوه.

ثمّ إن أبا سفيان أرسل نعيماً إلى المدينة ليخذّل المسلمين بعد أن ضمن له عشرين بعيراً، «فخرج على بعير حملوه عليه، وأسرع السير فقدم وقد حلق رأسه معتمراً، فوجد أصحاب رسول الله يتجهزون، فقال أصحاب رسول الله ﷺ: من أين يا نعيم؟ قال: خرجت معتمراً إلى مكّة. فقالوا: هل لك علم بأبي سفيان؟ قال: نعم، تركت أبا سفيان قد جمع الجموع واجلب معه العرب، فهو جاء فيما لا قبل لكم به، فأقيموا ولا تخرجوا... والله ما أرى أن يفلت منكم أحد! وجعل يطوف بهذا القول في أصحاب رسول الله ﷺ حتى رعّبهم وكرّه إليهم الخروج....

واستبشر بذلك المنافقون واليهود وقالوا: محمد لا يفلت من هذا الجمع! واحتمل الشيطان أولياءه من الناس لخوف المسلمين، حتى بلغ رسول الله ﷺ ألاّ

يخرج معه أحد»(١).

والملاحظ في هذا المقطع من النص التاريخي ان قريشاً بقيادة أبي سفيان قد استخدمت أُسلوب الدعاية المضادة، أو ما يعرف بالحرب النفسية لإشاعة جو من الخوف والرعب في قلوب المسلمين، وقد نجح في ذلك إلى حد ما، بواسطة رسوله إلى المدينة نعيم بن مسعود.

موقف النبيﷺ من هذه الأكاذيب:

لقد عرف عن النبيﷺ الحزم والعزم في مثل هكذا مواقف، وعرف عنه أيضاً انهﷺ إذا أوعد وفّى، ولا يخلف وعده، حتى لو كان من وعده في مستوى أبي سفيان بن حرب، ولهذا لم تزده هذه الأكاذيب والأراجيف إلاّ اصراراً على الخروج لموعد عدوه في بدر.

ويروي الواقدي قول رسول اللهﷺ وهو يرى ذلك الوجل والخوف عند أصحابه: «والذي نفسي بيده، لأخرجنّ وإن لم يخرج معي أحد» قال الراوي: فلمّا تكلّم رسول اللهﷺ ، تكلّم بما بصّر الله عزّ وجل المسلمين، وأذهب ما كان رعَّبهم الشيطان، وخرج المسلمون بتجارات لهم إلى بدر.

قال الراوي: كان عثمان بن عفّان يقول: لقد رأيتنا وقد قُذف الرعب في قلوبنا، فما أرى أحداً له نيّة في الخروج حتى أنهج الله تعالى للمسلمين بصائرهم، وأذهب عنهم تخويف الشيطان فخرجوا، فلقد خرجت ببضاعة إلى موسم بدر، فربحت للدينار ديناراً، فرجعنا بخير وفضل من ربّنا.

فسار رسول اللهﷺ في المسلمين وخرجوا ببضائع لهم ونفقات، فانتهوا إلى بدر ليلة هلال ذي القعدة، وقام السوق صبيحة الهلال، فأقاموا ثمانية أيام

---

(١) الواقدي، المغازي: ١ / ٣٨٤ - ٣٨٦ بتلخيص .

والسوق قائمة.

وكان رسول الله ﷺ قد خرج في ألف وخمسمائة من أصحابه وكانت الخيل عشرة أفراس، وكان يحمل لواء رسول الله ﷺ الأعظم يومئذ علي بن أبي طالب عليه السلام[١].

أبو سفيان يتظاهر بالقوة العسكرية:

لم ينتظر أبو سفيان نتائج تحرك رسوله إلى المسلمين نعيم بن مسعود، ومدى تأثير خذلانه لهم، وإنما أراد أن يتظاهر بحركة عسكرية خاطفة تعيد له بعض ماء الوجه أمام القبائل العربية.

يقول الواقدي: ثمّ إنّ أبا سفيان قال: يا معشر قريش، لقد بعثنا نعيم بن مسعود لأن يخذّل أصحاب محمد عن الخروج وهو جاهد، ولكن نخرج نحن فنسير ليلة أو ليلتين ثمّ نرجع، فإن كان محمّد لم يخرج بلغه أنّا خرجنا ورجعنا لأنّه لم يخرج، فيكون هذا لنا عليه! وإن كان خرج أظهرنا أنّ هذا عام جدب ولا يصلحنا إلاّ عام عشيب! قالوا: نِعمَّ ما رأيت.

فخرج في قريش، وهم ألفان ومعهم خمسون فرساً، حتى انتهوا إلى مجنّة[٢]، ثمّ قال: ارجعوا، لا يصلحنا إلاّ عام خصب غيداق[٣]، نرعى فيه الشجر، ونشرب فيه اللبن، وإنّ عامكم هذا عام جَدب، وإني راجع فارجعوا، فسمّى أهل مكة ذلك الجيش جيش السّويق، يقولون: خرجوا يشربون السّويق[٤].

---

(١) الواقدي، المغازي: ١ / ٣٨٦ - ٣٨٧.

(٢) مجنة: موضع على أميال يسيرة من مكة بناحية مرّ الظهران (معجم البلدان).

(٣) غيداق: واسع مخصب (لسان العرب).

(٤) الواقدي، المغازي: ١ / ٣٨٧ - ٣٨٨.

النبيﷺ ينتظر في بدر:

بقي رسول اللهﷺ في بدر إلى قرب نهاية موسم التجارة فيها، وأراد من هناك أن يبعث برسالة شفهية شديدة اللهجة لقريش تدخل في قلوبهم الرعب.

قال صاحب المغازي: وأقبل رجل من بني ضَمرة يقال له مَخشى بن عمرو، وهو الذي حالف رسول اللهﷺ على قومه في غزوة ودّان - والناس مجتمعون في سوقهم وأصحاب رسول اللهﷺ أكثر أهل الموسم - فقال: يا محمّد، لقد أُخبرنا أنّه لم يبق منكم أحد، فما أعلمكم إلاّ أهل الموسم.

فقال رسول اللهﷺ ليرفع ذلك إلى عدوّه قريش: ما أَخرجنا إلاّ موعد أبي سفيان وقتال عدوّنا، وإن شئت نبذنا إليك وإلى قومك العهد، ثمّ جالدناكم قبل أن نبرح من منزلنا هذا!! فقال الضّمري: بل، نكفّ أيدينا عنكم ونتمسّك بحلفك.

وصول رسالة النبيﷺ إلى قريش:

سمع حوار رسول اللهﷺ مع ذلك الضمري رجل يدعى: معبد بن أبي معبد الخزاعي، وكان مقيماً ثمانية أيام، وقد رأى أهل الموسم، ورأى أصحاب رسول اللهﷺ وسمع كلام «مخشى» فانطلق - سريعاً - حتى قدم مكّة، فكان أول من قدم بخبر موسم بدر، فسألوه فأخبرهم بكثرة أصحاب محمد، وأنهم أهل ذلك الموسم، وما سمع من قول رسول اللهﷺ للضّمري، وقال: وافى محمّد في ألفين من أصحابه، وأقاموا ثمانية أيام حتى تصدع أهل الموسم.

فقال صفوان بن أُميّة لأبي سفيان: قد والله نهيتك يومئذ أن تعدَ القوم، وقد اجترأوا علينا، ورأوا قد أخلفناهم، وإنّما خلّفنا الضعف عنهم»[١].

---

(١) الواقدي، المغازي: ١ / ٣٨٨ - ٣٨٩ .

وهكذا انتهت غزوة بدر الموعد، ولم يكن فيها مواجهة أو قتال، وإنّما كان فيها موسم تجارة وبيع وشراء وربح فيها المسلمون مرتين، مرة بخروجهم لعدوهم ومرابطتهم، ومرة في تجارتهم التي ربحت دينار بدينار، فعادوا إلى المدينة مرفوعي الرأس غانمين من كلا التجارتين.

وتركت هذه الغزوة آثاراً كبيرة في نفوس المسلمين من جهة، إذ انها محت كل أثر سيّء لمعركة أُحد من نفوسهم، ومن جهة أُخرى بعثت برسالة قوية لقريش وللقبائل المجاورة مفادها: ان المسلمين بقيادة رسول الله ﷺ قادرون على المواجهة وقبول التحدي من قريش فضلا عن القبائل الأُخرى، التي ليس أمامها إلاّ التحالف مع رسول الله ﷺ لتوفر لها أسباب القوة والمنعة.

٤ – غزوة دومة الجندل[١]

سميت بهذا الاسم نسبة إلى مدينة أو حصن على سبع مراحل من دمشق، وتقع بين دمشق والمدينة المنورة، فيها حصن مبني بالجندل، أو هي حصن وقرى بين الشام والمدينة قرب جبل طيء[٢].

وقد ذهب أكثر المؤرخين إلى أن غزوة دومة الجندل كانت في بداية السنة الخامسة «وفي ربيع الأول على رأس تسعة وأربعين شهراً»[٣] إلاّ أن الحلبي في سيرته قال انها كانت في أواخر السنة الرابعة[٤].

ونحن نذكرها هنا لنختتم بها أحداث السنة الرابعة لنفرد الحديث في الدرس القادم عن غزوة الأحزاب ضمن أحداث السنة الخامسة من الهجرة.

---

(١) بضم داله وفتحه، وقد أنكر ابن دُريد الفتح وعدّه من أغلاط المحدثين، والجندل: الحجارة والحجر كلّه، الواحدة جندلة.

(٢) انظر التفاصيل في معجم البلدان: ٤/ ٣٢٥، طبعة دار احياء التراث العربي، طبعة جديدة (بلا – ت).

(٣) الواقدي، المغازي: ١ / ٣٨٨، وابن هشام، السيرة النبوية: ١ / ٢١٣.

(٤) السيرة الحلبية: ٢ / ٣٧٦.

النص التاريخي لغزوة دُومة الجندل:

لقد اختصر ابن إسحاق هذه الغزوة في سيرته اختصاراً مخلا، فلم يذكر منها سوى خروج النبيﷺ واستعماله على المدينة سباع بن الغفاري وختم الغزوة بقوله: ثمّ رجع رسول اللهﷺ قبل أن يصل إليها، ولم يلق كيداً، فأقام بالمدينة بقيّة سنته[1].

وعلى ضوء هذا لا يوجد في هذه الغزوة قتال ولا أسرى ولا غنائم، بل إنّ النبيﷺ لم يصل إلى تلك المنطقة وإنّما عاد إلى المدينة بعد أن قطع مسافة معينة!

إلاّ أن الواقدي، وابن سعد، وابن كثير وغيرهم، ذكروا هذه الغزوة وأهدافها ونتائجها بالتفصيل.

روى الواقدي عمن حدّثه قال: «قالوا: أراد رسول اللهﷺ أن يدنو إلى أدنى الشام، وقيل له إنّها صُرف من أفواه الشام، فلو دنوت لها كان ذلك ممّا يفزع قَيصر! وقد ذكر له أنّ بدومة الجندل جمعاً كثيراً، وأنهم يظلمون مَن مرَّ بهم من الضافطة[2] وكان بها سوق عظيم وتجّار، وضوى إليها قوم من العرب كثير، وهم يريدون أن يدنوا من المدينة.

فندب رسول اللهﷺ الناس، فخرج في ألف من المسلمين، فكان يسير الليل ويكمن في النهار، ومعه دليل له من بني عذرة يقال له مذكور هاد خرّيت... ولمّا دنا رسول اللهﷺ من دُومة الجندل.. قال له الدليل: يا رسول الله، إنّ سوائمهم ترعى فأقم لي حتى اطّلع لك. قال رسول اللهﷺ: نعم.

فخرج العذريّ طليعة حتى وجد آثار النّعم والشاء وهم مغرّبون، ثمّ رجع

---

(١) ابن هشام، السيرة النبوية: ٣١٣ .

(٢) الضافطة: قوماً من الأنباط كانوا يحملون إلى المدينة الدقيق والزيت .

إلى النبي ﷺ فأخبره وقد عرف مواضعهم، فسار النبي ﷺ حتى هجم على ماشيتهم ورعائهم، فأصاب رسول الله ﷺ مَن أصاب، وهرب من هرب في كلّ وجه.

وجاء الخبر أهل دومة الجندل فتفرّقوا، ونزل رسول الله ﷺ بساحتهم، فلم يجد بها أحداً، فأقام بها أياماً وبثَّ السرايا وفرقها حتى غابوا عنه يوماً ثمّ رجعوا إليه، ولم يصادفوا أحداً، وترجع السرية بالقطعة من الإبل.

إلاّ أنّ محمد بن مَسلمة أخذ رجلا منهم، فأتى به النبي ﷺ فسأله عن أصحابه فقال: هربوا أمس حيث سمعوا بأنك قد أخذت نعمهم. فعرض عليه رسول الله ﷺ الإسلام فأسلم، فرجع النبي ﷺ إلى المدينة، وكان رسول الله ﷺ استعمل على المدينة سباع بن عُرفطة.

وزاد ابن سعد بقوله: وفي هذه الغزاة وادع رسول الله ﷺ، عيينة بن حصن أن يرعى بتغلمين وما والاه إلى المَراض، وكان ما هناك قد أخصب، وبلاد عيينة قد أجدبت، وتغلمين من المَراض على ميلين، والمراض على ستّة وثلاثين ميلا من المدينة على طريق الرّبذة»[1].

وهكذا ينتهي الحديث عن هذه الغزوة بتفاصيلها الكثيرة التي أوردها الواقدي وغيره من المؤرخين والتي فيها ردّ واضح على دعوى من قال: إنّ رسول الله رجع قبل أن يصلّ إلى دومة الجندل ولم يذكر أي مبرر لهذا الرجوع المدعى!

إلاّ انّنا نلاحظ أحد كتّاب السيرة النبوية قد شكك في أصل وقوع هذه الغزوة، من خلال التشكيك في رواية الواقدي واعتبرها من المراسيل، ومستبعداً

---

(١) الواقدي، المغازي: ١ / ٤٠٣ - ٤٠٤، وابن سعد، الطبقات: ٢ / ٢٨٠ - ٢٨١، وتاريخ الخميس للديار البكري: ١ / ٤٦٩.

اقدام النبيﷺ على هذه الغزوة، لأنّها تستوجب ترك المدينة قرابة شهر كامل، وإلى مكان بعيد مسافة تزيد على خمسة عشر يوماً، مع وجود الأعراب من حول المدينة وهم يترقبون المسلمين، ووجود المنافقين في داخلها، وهم على اتصال دائم بقريش وأحلافهم من المشركين.. فقال:

«ومن البعيد أن يتركها - المدينة - ليغزو أطراف الجزيرة المتاخمة لحدود الشام في مثل هذه الظروف إلاّ أن يكون مأموراً من الله سبحانه والله أعلم بحقائق الأُمور»[١].

وبغض النظر عن رواية الواقدي، فإن ما ذكره هذا الكاتب من اشكال وجيه في نفسه، إذ لم تكن الظروف الموضوعية المحيطة بدولة الإسلام تسمح بهكذا غزوة في أطراف الجزيرة، ولا قوة المسلمين بلغت إلى درجة من التكامل والاستعداد للاصطدام بجيوش قيصر على الشام، أو إفزاع «قيصر» كما في رواية الواقدي.

ولا ننسى أن قريشاً لا زالت تستعد لغزوة جديدة، والمنافقون يتربصون ويتحينون الفرصة، واليهود موتورون بعد اجلاء بني قريظة وبني النضير وهم في حالة ترقب وحذر، فأعداء الداخل والخارج كل متربص بالنبيﷺ والمسلمين ودولة الإسلام، مع هذا كيف نتصور أن يتجه النبي إلى أطراف الجزيرة وحدودها؟!

إلاّ أنّ كاتب آخر من كتّاب السيرة لم يوافق على ما ذكره سلفه من اشكال وجيه على أصل وقوع هذه الغزوة فعقد عنواناً فرعياً في كتابه سماه «دومة الجندل، حقيقة أم خيال» وأخذ يناقش مقولته ضمن نقاط كثيرة لا يخلو بعضها من تكلف وتعسف واضح[٢].

---

(١) الحسني - هاشم معروف، سيرة المصطفى: ٤٥٧ .

(٢) للتوسع انظر: الصحيح من سيرة النبي: ٨ / ٣٩٦ - ٣٩٨ .

٥ - أحداث وتشريعات

أ - ولادة الإمام الحسين بن علي عليه السلام :

نص الطبري وغيره من المؤرخين على أن ولادة الحسين بن علي عليه السلام كانت في السنة الرابعة من الهجرة لليالي خلون من شعبان[١] في المدينة المنورة.

وقيل: ان ولادته كانت في السنة الثالثة من الهجرة[٢] وهنالك أقوال أُخرى في سنة ولادته[٣].

إلاّ أنّ الشيخ الكليني في الكافي ينص على ولادته في السنة الثالثة للهجرة، في حين أنه يقول بأنّه عليه السلام قبض في شهر محرم من سنة إحدى وستين للهجرة وله سبع وخمسون سنة وأشهر[٤] ولازم ذلك أن تكون ولادته عليه السلام في السنة الرابعة.

وهنالك اختلاف أيضاً في يوم ولادته فقيل في الثالث أو الرابع أو الخامس من شعبان[٥].

والإمام الحسين بن علي عليه السلام هو حفيد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأحد سبطيه، وسيّد شباب أهل الجنة، وابن علي وفاطمة عليهما السلام وكفاه فخراً هذا النسب الشريف والمجد العالي.

---

(١) انظر الطبري، تاريخ الأُمم والملوك: ٢ / ٥٥٥، والذهبي، تاريخ الإسلام، مجلد المغازي: ٢٥٢ .

(٢) ابن عبد البر، الاستيعاب، المطبوع بهامش الإصابة: ١ / ٣٧٨، وتاريخ خليفة بن خياط: ٣٨ .

(٣) للتوسع انظر الصحيح في السيرة: ٧ / ٣٣ وما بعدها .

(٤) انظر الكافي للكليني: ٢ / ٤٦٣ .

(٥) الصحيح من السيرة: ٧ / ٣٣ و ٥١ .

ب - من تشريعات السنة الرابعة:

أولا: تحريم الخمر:

لقد كانت عادة شرب الخمر من العادات المنتشرة في الجاهلية وبشكل واسع في الجزيرة، إلاّ أنها كانت ينظر إليها على أنها من العادات السيئة، ولم تكن سُمعة من يشربها حسنة حتى عند عرب الجاهلية، ولهذا حرّمها الكثير من الشخصيات المعروفة على أنفسهم قبل مجيء الإسلام، لأنّهم رأوا في شربها حط لكرامتهم وازراء بشخصيتهم.

روى ابن الأثير في أُسد الغابة في ترجمة عباس بن مرداس فقال: «وكان العباس بن مرداس ممن حرّم الخمر في الجاهلية، فقيل له: ألا تأخذ من الشرب فإنه يزيد قوّتك وجراءتك؟ قال: لا أُصبح سيّد قومي وأُمسي سفيهها، لا والله لا يدخل جوفي شيء يحول بيني وبين عقلي أبداً»[١].

إلاّ أن هذه العادة السيئة التي تذهب بعقل الإنسان ومروءته بقيت سائدة حتى بعد ظهور الإسلام، ولم يحرمها القرآن الكريم إلاّ على مراحل متعددة، وضمن آيات قرآنية في سورة النحل والبقرة والنساء والمائدة ومن أوضح الآيات القرآنية التي نصت على تحريم الخمر بشكل قاطع الآية (٩٠) من سورة المائدة، في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾﴾ وهي من السور المدنية[٢] عندها قالوا بعد سماع هذه الآية: «انتهينا يا ربّ»[٣].

وقد اختلفت روايات المؤرخين في سنة تحريم الخمر، فقيل انها حرمت

---

(١) ابن الأثير، أبي الحسن علي بن محمد الجزري: أُسد الغابة في معرفة الصحابة: ٣ / ١٦٨ .

(٢) انظر الآيات: النحل: ٦٧، والبقرة: ٢١٩، والنساء: ٤٣ .

(٣) الآلوسي - شهاب الدين محمود، تفسير روح المعاني: ٧ / ١٥ . تحقيق: محمد أحمد الأمد وزميله، طبعة دار احياء التراث العربي - بيروت، الطبعة الأُولى، (١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م).

سنة ثلاث من الهجرة.

وقال بعض انها حرمت سنة أربع من الهجرة، وقال آخرون أن تحريمها كان سنة ست من الهجرة[١].

إلاّ أنّ السيد الطباطبائي في الميزان - وتابعه بعض كتّاب السيرة - ذهب إلى أن تحريم الخمر قد تمّ في مكة وفي أول البعثة الشريفة.. فقال بعد جمع الآيات القرآنية التي تتحدث عن الخمرة: «والذي تفيده آيات الكتاب العزيز أنها - أي الخمرة - حرمت في مكة قبل الهجرة.. فالكتاب نص في تحريم الخمر في الإسلام قبل الهجرة، ولم تنزل آية المائدة - الآية ٩٠ - إلاّ تشديداً على الناس لتساهلهم في الانتهاء عن هذا النهي الإلهي وإقامة حكم الحرمة»[٢].

ثانياً: تشريع صلاة الخوف:

وتنص كتب السيرة على أن صلاة الخوف قد شرعت في غزوة ذات الرقاع، أي في السنة الرابعة، وبحسب قول الواقدي في المغازي: «فكان أوّل ما صلّى يومئذ صلاة الخوف» ويؤيد ذلك ما رواه الشيخ الصدوق في الفقيه بسند صحيح: «ان النبيﷺ قد صلّى بأصحابه صلاة الخوف في ذات الرقاع»[٣].

وهنالك روايات أُخرى في سنة تشريع هذه الصلاة تراجع في مظانها[٤]، ولمعرفة كيفية صلاة الخوف وشرائطها وأحكامها تراجع الكتب الفقهية الموسعة وكتب الفقه المقارن.

---

(١) للتوسع في هذه الأقوال ومناقشتها انظر الصحيح من سيرة النبي: ٥ / ٢٩٣ .

(٢) الطباطبائي، الميزان: ٦ / ١٣٤ - ١٣٥، وانظر الحسني، سيرة المصطفى: ٣٦٧، والصحيح من سيرة النبي: ٥ / ٢٩٤ وما بعدها .

(٣) الواقدي، المغازي: ١ / ٣٩٦، وابن بابويه من لا يحضره الفقيه: ١ / ٤٦٠ .

(٤) انظر الصحيح من سيرة النبي: ٨ / ٣٠٢ وما بعدها .

٦ - الدروس والعبر

بعد هذه الجولة في بعض أحداث ووقائع السنة الرابعة من الهجرة، لابد لنا من وقفة تأمل في بعض هذه الأحداث لاستخلاص الدروس والعبر والعظات منها:

أولا: لقد توقفنا عند غزوة بني النضير وأسبابها الواقعية، وحاولنا أن نصحح بعض الأخطاء التي وقع فيها بعض كتّاب السيرة النبوية من المسلمين ومن غيرهم أمثال المستشرقين، ولا نريد أن نكرر ما قلناه هناك.

ولا يراودنا أي شك في أن العقاب الذي أنزله رسول الله ﷺ بيهود بني النضير كان مكافئاً للجريمة التي همّوا بها، ولا نشك أيضاً في أنه ﷺ لم يكن ليخرجهم من المدينة إلاّ بعد أن تأكد له أنهم قد بيّتوا نية الغدر، وأن بقاءهم في المدينة قد غدا خطراً عليه وعلى دعوته، ولم ينطلق النبي ﷺ من عقدة الانتقام الشخصي، وما كان رسول الله ﷺ يريد أن ينتقم إلاّ لدين الله الذي أرادوا أن يهدموه بقتل رسول الله ﷺ[١]. فهؤلاء قد جنوا على أنفسهم «ولا يحيط المكر السيءُ إلاّ بأهله».

ثانياً: رغم أن أموال بني النضير كانت من «الفي» وهو: ما غنمه المسلمون من أعدائهم بدون قتال، وحكم الفي يعود النظر والتصرف فيه إلى ما يراه رسول الله ﷺ من مصلحة، وإنّه لا يجب عليه ﷺ تقسيمه بين المقاتلين كما تقسم عليهم الغنائم التي غنموها بعد قتال وحرب.

على الرغم من ذلك نجد رسول الله ﷺ وتطبيقاً للعدالة الاجتماعية التي جاء بها الإسلام في تشريعاته وأحكامه، قسم هذه الأموال بين المهاجرين بالشكل

---

(١) دويدار - أمين، صور من حياة الرسول ﷺ: ٣٩٨ (بتصرف).

الذي بيّناه في النص التاريخي.

وهذا التصرف النبيل من قبل رسول الله ﷺ إن دلّ على شيء فإنما يدل على أنه ﷺ كان يؤثر أصحابه على نفسه في أموال خصّه الله بها، وذلك ايثاراً لرضا الله سبحانه، وطلباً لمثوبته عزّ وجل، ومن جانب آخر نجده ﷺ - كما في النص التاريخي - يطلب موافقة الأنصار على أن يخص المهاجرين بهذه الأموال! رغم انه ﷺ كان يمكنه أن يتصرف من دون ذلك! وهذا الفعل له دلالاته التربوية والاخلاقية الكثيرة، وفيه من أوجه الحكمة والتدبير الشيء الكثير، فهو ﷺ لا يريد أن ينفرد بالقرار، بل يشاركهم فيه، ويريد أن يبعد الحزازات التي قد يثيرها بعض المنافقين بأنه قد آثر قومه وأبناء جلدته، كما أنه أراد أن يبرز للأُمة درساً عالياً في الايثار بين المهاجرين والأنصار ليخلق مجتمعاً متكافاًيشعر أعضاؤه بالآم ومشاكل بعضهم البعض، ويعملون على ايجاد الحلول الناجعة لها.

ولهذا جاء القرآن الكريم ليمجد ما قام به النبي ﷺ، وليثني على المهاجرين والأنصار مواقفهم في الهجرة والجهاد والايثار بالأموال والأنفس[(١)].

ثالثاً: وفي غزوة بني النضير يبرز دور المنافقين بقيادة «عبد الله ابن أُبي» مرة أُخرى، إذ كان هؤلاء يترصدون المواقف السياسية والعسكرية في المدينة، ويتخذون المواقف المخالفة لمواقف النبي ﷺ والمسلمين في المدينة. ولا تمرّ علينا حادثة من الحوادث التي وقعت في المدينة إلاّ ونجد لهؤلاء دوراً سلبياً في تلك الحوادث.

وقد عرض علينا القرآن الكريم حال هؤلاء المنافقين، ووضح لنا موقفهم، وتحالفهم مع اخوانهم اليهود، وكشف موقفهم من المسلمين، من خلال آيات سورة الحشر التي ذكرناها سابقاً.

---

(١) انظر الآيات: ٦ إلى ٩ من سورة الحشر.

وجاءت بعد ذلك الآيات القرآنية بل سور كاملة من القرآن لتتحدث عن كتلة النفاق والمنافقين وتبين خصائصهم ونفسياتهم وخطرهم، وتحذر المسلمين منهم ومن مخططاتهم العدوانية.

وسوف نلاحظ من خلال الأحداث والوقائع الآتية أن دورهم التخريبي في داخل الدولة الإسلامية يتصاعد كلما قوّي الإسلام والمسلمون وبسط نفوذه داخل الجزيرة العربية.

وهذه المشكلة الكبيرة التي عانت من آثارها الدولة الإسلامية في عهد رسول الله ﷺ، سوف تمتد إلى ما بعد زمن الرسالة، إذ لم تنتهِ حركة النفاق والمنافقين بوفاة رسول الله ﷺ كما يدعي بعضهم ذلك.

فلابد للقيادة الإسلامية أن تحذر من هؤلاء من داخل كيانها، كما تحذر من العدو الخارجي الذي يهددها من الخارج.

رابعاً: وفي الغزوات الثلاث التي استعرضنا بعض فصولها يبرز لدينا بشكل واضح الدور القيادي الرباني لرسول الله ﷺ كقائد للدولة الإسلامية عامة، عليه أن يرعى شؤونها الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والعسكرية، فنجد الرسول الأكرم يولي عنايته للجانب الاقتصادي والمعيشي للمسلمين، فيوزع «في» بني النضير بين المهاجرين ونفر من الأنصار، آخذاً بالاعتبار مبدأ العدالة الاجتماعية والتكافئ المعيشي.

وفي الجانب السياسي نجده يعقد بعض التحالفات مع بعض القبائل، ويُذكر الأُخرى بتحالفها كما في غزوتي دومة الجندل وبدر الصغرى. وهكذا نجد رسول الله ﷺ في الجانب العسكري قائداً فذّاً، فما تحرك تحركاً، ولا نزل منزلا إلاّ واتخذ كل الاحتياطات الأمنية التي تحفظ سلامة الجيش، وتحميه من مباغتة العدو.

ولا ننسى الجانب الأمني والاستخباراتي للدولة الإسلامية الذي كان يوليه الرسول عناية خاصة من خلال بثِّ العيون والمخبرين لرصد أي تحرك عسكري يعرض سلامة وأمن الدولة الإسلامية للخطر. ولم تكن هذه التشكيلة الأمنية والمخابراتية تحمل الأسماء والمسميات التي يوجس المواطن في يومنا هذا حالة الرعب والخوف منها، لأنها تحصي عليه انفساسه وتعرضه لأشد الاخطار إذا أوقعت به.

لقد تحولت الأجهزة الأمنية والاستخباراتية في زماننا هذا إلى أدوات قمع واضطهاد وقتل، لحماية الحاكم من شعبه، بدلا من أن تكون وسيلة لحماية الدولة والمواطنين من الاخطار الخارجية والداخلية المحيطة بهم من كلِّ جانب.

وخلاصة الأمر، لقد تجلّى في شخصية النبيﷺ أسمى السمات القيادية، والمثل الأعلى لكل من يريد أن يقود الأُمة من ساسة وعسكريين، ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾[1].

خامساً: وفي قصة تحريم الخمر، تتجلّى لنا بعض خصائص التشريع الإسلامي في التربية والتغيير الاجتماعي، وتتجلى لنا قاعدة التغيير المرحلي والتدريجي للعادات والتقاليد الاجتماعية المستحكمة في نفوس الناس، والتي لا تتوافق مع تعاليم الإسلام وآدابه الاجتماعية.

لقد خضع تحريم الخمر لسنّة التدرّج، وكان ذلك التحريم على مراحل معروفة في تاريخ التشريع الإسلامي، حتّى نزلت الآيات الحاسمة في النهي عنها من سورة المائدة وفي ختامها (فَهَلْ أَنْتُمْ مُنتَهُونَ) عندها قال المؤمنون بقوّة وتصميم: «قد انتهينا يا رب».

---

(١) الأحزاب: ٢١ .

وفي هذا المنهج القرآني في التربية والتغيير الاجتماعي من خلال الأخذ بِسنة التدرّج والمرحلية، يتضح للدعاة والمبلغين والمصلحين المنهج الأسمى، والطريقة المثلى التي عليهم اتباعها في الوسط الاجتماعي الذي يتعاملون معه، ويرمون إلى التغيير والاصلاح فيه، من خلال تغيير بعض العادات والسلوكيات التي لا تلتقي مع تعاليم الإسلام.

فقضية تحريم الخمر وإن جاءت في سياق تربية الأُمة المسلمة في المدينة، وتخليصها من الجاهِلية ورواسبها وتقاليدها واعرافها الاجتماعية، إلا أنَّ في الأُسلوب القرآني الرباني في بيان هذا التحريم درس بليغ لنا كدعاة ومبلغين ومصلحين ومغيرين؛ وعلينا أن نفهم هذا الدرس فهم وعاية ودراية؛ وإن نطبقه في واقعنا العملي.

الأسئلة:

١ - في أي سنة تمّ إجلاء يهود بني النضير عن المدينة؟ وما هي الأسباب الحقيقية لذلك؟

٢ - كيف نردُّ على أكاذيب بعض المستشرقين فيما يدعونه من أن النبيﷺ أجلى بني النضير لأنّهم لم يدفعوا دية العامري، أو لأنّهم لم يشتركوا في غزوة أُحد؟

٣ - متى كانت غزوة ذات الرقاع؟ وما وجه تسميتها بهذا الإسم؟ وما هي نتائجها وآثارها؟

٤ - ما هي الأسباب التي دعت النبيﷺ للخروج إلى موعد قريش في بدر الصغرى؟

٥ - متى وقعت غزوة دومة الجندل؟ وما هي أسبابها ونتائجها؟ وكيف نناقش الاشكالات الواردة في أصل وقوعها؟

٦ - ما هي الحكمة في التحريم التدريجي لشرب الخمر؟ وما هو الدرس العملي الذي نستفيده من ذلك؟

الدرس الثالث عشر
أحداث ووقائع السنة الخامسة من الهجرة
غزوة الأحزاب (الخندق)
«القسم الأول»

محاور البحث:

خلفيات غزوة الأحزاب:

١ - تاريخ غزوة الأحزاب ووجه التسمية

٢ - تحرك اليهود لتحزيب الأحزاب

٣ - وصول خبر الأحزاب إلى النبيﷺ وحفر الخندق

٤ - صور من عمل النبيﷺ وأصحابه في حفر الخندق

٥ - معجزات وكرامات للنبيﷺ عند حفر الخندق

٦ - تحصين المدينة، وتشبيك دورها وتسيير الدوريات

٧ - وصول جيش الأحزاب إلى مشارف المدينة

٨ - يهود بني قريظة ينقضون العهد

٩ - الأساليب السياسية لكسب المعركة

- الأسئلة

غزوة الأحزاب «الخندق» / ق ١

خلفيات غزوة الأحزاب

قبل الدخول في تفاصيل هذه الغزوة من خلال نصوصها التاريخية، لابد لنا من الاشارة إلى الخلفيات والدوافع المسبقة لهذه الغزوة، من خلال استعراض الواقع العسكري والسياسي والاجتماعي لمجتمع المدينة وما حولها بعد انتهاء السنة الرابعة من الهجرة.

ومن دون هذه الإشارة - على ايجازها - لا يمكن أن نفهم جيداً الدوافع النفسية والعسكرية والسيايسة للأشخاص الذين كان لهم الدور الرئيسي في تحشيد الحشود، وتحزيب الأحزاب لغزو رسول الله ﷺ ودولة الإسلام في المدينة، للقضاء عليها واستئصالها من جذورها.

إن الذين تحركوا لتحزيب الأحزاب، وتحشيد قبائل الشرك والوثنية هم اليهود، ومن خلال شخصياتهم ورموزهم المعروفة تاريخياً، فهم الذين تحركوا على قريش أولا وغطفان وسليم ثانياً، وهم الذين حملوا بني قريظة على نقض العهد، فكان لهم الدور الرئيسي في هذه الغزوة وهذا العدوان.

وهنا يأتي السؤال عن دوافع هؤلاء اليهود وما كانوا يبتغونه من خلال هذا التحرك الواسع؟ وهل كان ينجح هؤلاء اليهود في تحركهم لو لم تكن تلك القبائل الوثنية وعلى رأسها قريش قد التقت مصالحها مع مصالح هؤلاء اليهود فوجدوها فرصة لا تعوض للقضاء على الإسلام والمسلمين؟

كان موقف اليهود في المدينة وما حولها من دعوة الإسلام والنبي الأكرمﷺ موقف الحقد والبغضاء والحسد أولا، ثمّ تطور إلى حب الانتقام والثأر! والمواقف المعادية بشدة للإسلام والمسلمين وللنبي الأكرمﷺ ثانياً.

لقد كان اليهود في المدينة - قبل دخول الإسلام إليها - لهم السيادة والهيمنة السكانية والدينية والتجارية على المدينة بالكامل، إذ كانت المدينة موطنهم وموطن آبائهم وأجدادهم منذ عهود بعيدة، أما القبائل الأُخرى وخاصة قبيلتي الأوس والخزرج فهؤلاء من الطارئين عليها في طبقة أو طبقتين أو ثلاثة من جيل الآباء والأجداد، أما المسلمون فهم قد وفدوا أخيراً على المدينة.

ومن الناحية الدينية، كانت لهم الهيمنة الكاملة إذ إنهم أهل الكتاب الأوّل وأهل العلم والمعرفة، ومن حملة راية التوحيد في العالم وبين الأُمم الوثنية، وكانت نظرة العرب إليهم - وخاصة في يثرب - نظرة احترام وتقدير لمكانتهم الدينية، وتعاليمهم السامية.

وأ مّا من الناحية التجارية والسياسية، فكان هؤلاء اليهود يسكنون في أفضل مناطق المدينة من حيث الأرض الخصبة، وعيون الماء العذبة، والواحات الواسعة، بالاضافة إلى ما كانوا يتوارثونه من حرف ومهن كصياغة الذهب والأواني وغيرها.

ومن الناحية السياسية والأمنية فقد كانت لهم معاهدات وأحلاف مع القبائل الساكنة في المدينة وخارجها، فكانت هذه القبائل تقاتل إلى جانبها إذا دخلت في حرب أو مواجهة مع القبائل الأُخرى، بالاضافة إلى ما كانت لديهم من امكانات عسكرية وحصون محكمة، ومواقع عسكرية متميزة تحميهم من غارات الأعراب وغزوات القبائل.

ولم يأتِ الإسلام لكي يلغي هذه الامتيازات التي كان هؤلاء اليهود يتمتعون بها، فلم يجبرهم النبيﷺ على ترك دينهم ماداموا من أهل الكتاب، ولم يسلبهم

أموالهم وأراضيهم ماداموا على العهد والميثاق الذي كتبه معهم في اطار وحدود «وثيقة العهد» ولم يُلغِ تحالفاتهم مع القبائل الأُخرى. . لم يحصل شيء من ذلك من قبل النبيﷺ أبداً.

وإنّما تعامل معهم النبيﷺ بمنتهى الإنسانية، وضمن ضوابط وحدود الدين الإسلامي.

إلاّ أن هؤلاء اليهود، وخاصة زعمائهم وأهل الحل والعقد منهم من أمثال حيي ابن أخطب، وسلام بن أبي الحقيق تناسوا ذلك كلّه، ووصل الحقد والعداء بهم إلى منحدر خطير، ففضلوا وثنية قريش على دين التوحيد الذي جاء به رسول اللهﷺ كما سوف يأتينا.

لقد قدّر هؤلاء اليهود أنّهم وحدهم غير قادرين على القضاء على الإسلام ودعوة الرسولﷺ ، بعد أن أخذت هذه الدعوة تظهر وتنتشر ويزداد أنصارها وحلفاؤها يوماً بعد يوم، وتزداد قوة وصلابة مما مكنها من بسط نفوذها على المدينة وتطهيرها من يهود بني قينقاع وبني النضير، والسيطرة على حركة المنافقين. فلابد لهم من تحالف كبير لا طاقة للمسلمين به ليتمكنوا من توجيه ضربة قاصمة يستطيعون بها القضاء على الإسلام وأهله. ولما كانت قريش والوثنية العربية من الكارهين لهذه الدعوة والمحاربين لها، فلابد لهؤلاء اليهود من التحالف معهم - وهم على وثنيتهم - وتأليف الأحزاب منهم «وأن يكوّنوا منهم كتلة واحدة ينقضّون بها على محمد وصحبه فيضربونهم ضربة رجل واحد، فيقضون عليهم في ساعة واحدة من نهار، وبذلك تستريح الوثنية العربية، ويستريح اليهود معهم، فتعود لهم السيادة والهيمنة الدينية والتجارية والسياسية. . هكذا فكر هؤلاء اليهود وعلى هذه النية أجمعوا أمرهم وعقدوا عزيمتهم. . . »[(١)].

---

(١) دويدار - أمين، صور من حياة الرسول: ٤١٨ .

ولهذا كلّه كان لهؤلاء اليهود الدور الرئيسي في هذه الغزوة كما سوف يتبين لنا من خلال النصوص التاريخية لها.

أما قريش والقبائل الأُخرى التي شاركت في هذه الغزوة.. فلم تكن تمتلك هذا الأُفق الواسع من التخطيط والتفكير للقضاء على خصمها، وإنّما كانت تنطلق على سجيّتها وبروحها القبلية، وما ركب في شخصيتها من الحرص على الثأر لمن قتل منها ببدر، وتأمين مسيرة تجارتها إلى الشام.. أما الدوافع الدينية فهي آخر ما كانت تفكر به قريش من أمر.

وكلّ الوقائع التاريخية تؤكد على أنّ هؤلاء الوثنيين لم يخلصوا لوثنيتهم ولأصنامهم، وإنّما مصالحهم الدنيوية كانت قد اقتضت منهم التظاهر بهذه العبادة الوثنية، ولهذا لم نجد من هؤلاء الوثنيين أي ردّ فعل عندما حطمت هذه الأصنام وديست تحت الأقدام يوم فتح مكة - كما سوف يأتينا - فلم يشق أحدهم من أجلها ثوبه، ولا لطم وجهه، ولا بكى ولا انتحب!

أما عرب غطفان وهذيل وبني سليم.. وغيرهم فهؤلاء أكثرهم من المرتزقة ومع من يدفع لهم أكثر، وقد وعدهم اليهود بثمر خيبر لمدة سنة - كما في الرواية - فخرجوا من أجل ذلك، وقد حاول الرسول ﷺ أن يأخذهم ويعزلهم عن قريش بنفس الطريقة كما سوف يأتي.

وخلاصة الأمر أن هذه الغزوة بكل ملابساتها قد خطط لها اليهود بدقة متناهية وبمكر كبير، وهم الذين ساقوا هؤلاء الأحزاب إلى المدينة، وبعد ذلك هم الذين دفعوا ضريبة ذلك قتلا وتنكيلا، ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾[1].

بعد هذه المقدمة لخلفيات هذه الغزوة: نأتي إلى النصوص التاريخية التي سلطت الأضواء على فصولها وجزئياتها.

---

(١) فاطر: ٤٣.

١ - تاريخ غزوة الأحزاب ووجه التسمية

قال ابن إسحاق: «ثمّ كانت غزوة الخندق في شوال سنة خمس»[١] ووافقه على هذا الواقدي في المغازي، إلاّ أنّه قال بوقوعها في شهر ذي القعدة[٢]. ووافق على وقوعها في سنة خمس من الهجرة جملة من المؤرخين[٣].

وهنالك قول لبعض المؤرخين ينص على أن هذه الغزوة كانت في السنة الرابعة. بالاضافة إلى قول آخر انفرد به اليعقوبي حيث يقول: «إن الخندق كانت في السنة السادسة»[٤].

والمعروف بين أكثر المؤرخين وقوع هذه الغزوة ضمن أحداث السنة الخامسة من الهجرة، والتي سميت «بسنة الأحزاب»[٥].

ولعلّ اختلاف المؤرخين في سنة وقوع هذه الغزوة ما بين السنة الرابعة والخامسة، يعود إلى الاختلاف في تحديد بداية السنة الهجرية[٦].

وقد أرّخ ابن هشام في السيرة لهذه الغزوة بعد غزوة دومة الجندل، إلاّ أن الواقدي ذكرها بعد غزوة المُريسيع والمعروفة بغزوة (بني المصطلق) والتي حصلت فيها قضية الإفك المعروفة.

أمّا وجه التسمية: فانا نجد أن المؤرخين أرخوا لهذه الغزوة تحت عنوان

---

(١) ابن هشام، السيرة النبوية: ٣ / ٢١٤ .

(٢) الواقدي، المغازي: ١ / ٤٤٠ .

(٣) الصحيح من سيرة النبيﷺ : ٩ / ٣٣ (الهامش) .

(٤) المصدر نفسه: ٩ / ٣٤، وانظر الهامش (١ و ٢) من نفس الصفحة .

(٥) انظر المسعودي، التنبيه والإشراف: ٢١٤ .

(٦) انظر البيهقي، دلائل النبوة: ٣ / ٣٩٦ - ٣٩٧، طبعة دار الكتب العلمية - بيروت، ط . الثانية (١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م).

«غزوة الخندق»[(١)] وبعض آخر منهم عنونها بـ (غزوة الخندق وهي غزوة الأحزاب)[(٢)]، فعرفت هذه الغزوة بهذين الاسمين: الأحزاب والخندق.

والوجه في إطلاق هذين الاسمين على هذه الغزوة واضح من خلال أحداثها، فقد «سميت بالخندق لحفر النبيﷺ الخندق باشارة سلمان الفارسي، وسميت بالأحزاب - جمع حزب أي طائفة - لاجتماع طوائف المشركين على حرب المسلمين، وهم قريش وغطفان واليهود ومن معهم، وهم الذين سماهم الله تعالى بالأحزاب، وأنزل الله تعالى ذلك في صدر سورة الأحزاب»[(٣)].

٢ - تحرك اليهود لتحزيب الأحزاب

لقد دوّن الواقدي في مغازيه «غزوة الخندق» بكل تفاصيلها وجزئياتها، وقد تكرر عنده ذكره الحادثة بحسب تعدّد الراوي والمرويّ عنه.

أ مّا ابن هشام فقد روى هذه الغزوة باختصار، إلاّ أنّ مختصره يحتاج إلى اختصار آخر، ولهذا سوف نعتمد رواية ابن هشام عن ابن إسحاق مع حذف الزوائد منها، أو اكمال ذلك من رواية الواقدي وغيره ان اقتضى الأمر لذلك.

قال محمد بن إسحاق: «ثمّ كانت غزوة الخندق في شوال سنة خمس، قالوا: إنّه كان من حديث الخندق أن نفراً من اليهود، منهم: سلام بن الحقيق النّضري، وحيي بن أخطب النضري... في نفر من بني النّضير، ونفر من بني وائل، هُم الذين حزّبوا الأحزاب على رسول اللهﷺ.

خرجوا حتى قدموا على قريش مكة، فدعوهم إلى حرب رسول اللهﷺ،

---

(١) انظر ابن هشام، السيرة النبوية: ٣ / ٢١٤، والواقدي، المغازي: ١ / ٤٤٠ .

(٢) انظر ابن سعد، الطبقات: ٢ / ٢٨٢، وابن كثير، السيرة النبوية: ٣ / ١٧٨ .

(٣) الديار بكري، تاريخ الخميس: ١ / ٤٧٩ .

وقالوا: إنّا سنكون معكم عليه، حتى نستأصله، فقالت لهم قريش: يا معشر يهود، إنكم أهل الكتاب الأوّل والعلم بما أصبحنا نختلف فيه نحن ومحمد، أفدينُنا خير أم دينه؟

قالوا: بل دينكم خير من دينه، وأنتم أولى بالحق منه! فهم الذين أنزل الله تعالى فيهم: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ سَبِيلًا ﴿٥١﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ وَمَن يَلْعَنِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ نَصِيرًا ﴿٥٢﴾﴾[1].

فلما قالوا ذلك لقريش، سرّهم ونشطوا لما دَعَوهم إليه، من حرب رسول الله ﷺ، فاجتمعوا لذلك واستعدوا له، ثمّ خرج أُولئك النّفر من يهود، حتّى جاءوا غطفان، فدعوهم إلى حرب رسول الله ﷺ، وأخبروهم أنهم سيكونون معهم عليه، وأن قريشاً قد تابعوهم على ذلك، فاجتمعوا معهم فيه.

وفي رواية الواقدي: «ثمّ ساروا إلى غطفان، فجعلوا لهم تمرَ خَيبر سنة، وينصرونهم ويسيرون مع قريش إلى محمد إذا ساروا، فأنعمت بذلك غَطفان»[2].

قال ابن إسحاق: «فخرجت قريش، وقائدها أبو سفيان بن حرب، وخرجت غطفان، وقائدها عيينة بن حصن[3]، والحارث بن عوف في بني مرّة،

---

(١) النساء: ٥١ - ٥٢ .

(٢) ابن هشام، السيرة النبوية: ٣ / ٢١٤ - ٢١٥، والواقدي، المغازي: ١ / ٤٤٠ - ٤٤٣ .

(٣) وعيينة: هو أبو الأعور، وكان مع معاوية بصفين، أسلم ثمّ ارتد وآمن بطليحة حين تنبأ، وأخذ أسيراً، ولم يزل مظهراً الإسلام على جفوته وعنجهيته ولوثة اعرابيته حتى مات، وهو الذي قال فيه النبي ﷺ: الأحمق المطاع، لأنّه كان يتبعه عشرة آلاف قناة. (الروض الأنف ; وشرح المواهب) .

ومسعر بن رُخيلة. . . فيمن تابعه من قومه من أشجع»[١].

قال الواقدي: «وكان القوم جميعاً الذين وافوا الخندق من قريش، وسُليم، وغطفان، وأسد، عشرة آلاف، فهي عساكر ثلاثة، وعِناج - أي القيادة - الأمر إلى أبي سفيان»[٢].

هذا المقطع من النص التاريخي يعطينا فكرة واضحة عن الدور التحريضي الذي قام به اليهود في مكة مع قريش، وأثناء تجوالهم على القبائل المتحالفة معها.

فنجدهم يتهاوون إلى قمة الانحطاط الديني فيفضلون وثنية قريش على توحيد محمدﷺ، وهم يدينون بديانة سماوية توحيدية.

وسوف نتوقف عند هذا المنعطف الخطير الذي وصل إليه هؤلاء اليهود وذلك عند الحديث عن الدروس والعبر المستفادة.

٣ - وصول خبر الأحزاب إلى النبيﷺ وحفر الخندق

لا يحدثنا ابن هشام عن كيفية وصول الخبر إلى رسول اللهﷺ، وإنّما قال: «فلما سمع بهم رسول اللهﷺ وما أجمعوا له من الأمر، ضَرب الخندق على المدينة، فعمل فيه رسول اللهﷺ ترغيباً للمسلمين في الأجر، وعمل معه المسلمون فيه، فدأب فيه ودأبوا»[٣].

وقال الواقدي: «فلمّا فصلت قريش من مكّة إلى المدينة خرج ركبٌ من خزاعة إلى النبيﷺ فأخبره بفصول قريش»[٤].

---

(١) ابن هشام: ٣ / ٢١٥، والواقدي: ١ / ٤٤٤.

(٢) ابن هشام: ٣ / ٢١٥، والواقدي: ١ / ٤٤٤.

(٣) ابن هشام، السيرة النبوية: ٣ / ٢١٦.

(٤) الواقدي، المغازي: ١ / ٤٤٤.

وفي رواية الصدوق في الخصال، والمجلسي في البحار: «فهبط جبرئيل على النبيﷺ فأنبأه بذلك»[١].

إلاّ أن المتتبع لأحداث السيرة النبوية في عهدها المدني ومن خلال استعراض السرايا والغزوات التي تحركت خلال هذه الفترة، يجد أن النبيﷺ كان على حذر تام، ويتابع كلّ تحرك عدواني يستهدف الإسلام والمسلمين ودولته في المدينة، ولم يغفل النبيﷺ عن عداوة اليهود وحقدهم وخاصة بعد اجلاء بني قينقاع وبني النضير عن المدينة، ولم يغفل أيضاً عن قريش والقبائل المتحالفة معها، وما تنطوي عليه أنفسهم من الثأر لقتلاهم ببدر، ولهذا كان النبي يبث العيون في أنحاء الجزيرة العربية، وكانت تأتيه بخبر كل تحرّك مشبوه ضد الدولة الإسلامية، حتى ولو كان هذا التحرك في أقصى حدود الجزيرة العربية كما حصل في غزوة دومة الجندل.

ومن الصعب جداً أن نتصور أن يتم هذا التحرك الواسع من اليهود، ويتم هذا التحالف اليهودي الوثني وتتحزب الأحزاب والقبائل والأعراب والنبيﷺ لا يعلم بذلك حتى يخبره جبريل بخبرهم! أو يخبره ركب من خزاعة بعد تحرك قريش من مكة! فكيف تمكن النبيﷺ وأصحابه من حفر خندق طويل عريض قبل وصول قريش إلى المدينة؟ والمسافة بين مكة والمدينة يقطعها المسافر في أربعة أو خمسة أيام لا أكثر!

والذي تطمئن إليه النفس بالاستناد إلى الغزوات والسرايا السابقة واللاحقة لغزوة الخندق، أنّ النبيﷺ قد وصلت إليه أخبار هذا التحالف الكبير بين اليهود وقريش والقبائل، وما عزمت عليه من أمر وذلك قبل وصول ركب خزاعة، وقبل أن يخبره جبريل بذلك، على فرض صحة رواية الصدوق.

---

(١) الصدوق، الخصال: ٢ / ٣٦٨، والمجلسي، البحار: ٢ / ٢٤٤ و ٩ / ١٣٦ الطبعة الجديدة.

ومهما يكن من أمر، فبعد أن علم رسول الله ﷺ، بما أجمع عليه الأحزاب: «ندب رسول الله ﷺ الناس وأخبرهم خبر عدوهم...، وشاورهم رسول الله ﷺ - وكان رسول الله ﷺ يُكثر مشاورتهم في الحرب - فقال ﷺ: أنبرز لهم من المدينة، أم نكون فيها ونُخندقها، أم نكون قريباً ونجعل ظهورنا إلى هذا الجبل؟ فاختلفوا، فقالت طائفة: نكون ممّا يلي بعاث إلى ثنية الوداع إلى الجرف، فقال قائل: ندع المدينة خلوفاً، فقال سلمان: يا رسول الله، إنّا إذ كنا بأرض فارس وتخوّفنا الخيل خندقنا علينا، فهل لك يا رسول الله أن نُخندق؟ فأعجب رأي سلمان المسلمين، وذكروا حين دعاهم النبي ﷺ يوم أُحد أن يقيموا ولا يخرجوا، فكره المسلمون الخروج وأحبّوا الثبات في المدينة»[١].

والذي يدل عليه سياق هذا المقطع من النص التاريخي أن النبي ﷺ لم يعدل عن مبدأ المشاورة مع أصحابه، وهو مبدأ أخذه الرسول الأكرم ﷺ على نفسه وخاصة في أُمور الحرب كما نصت الرواية على ذلك، وقد أشرنا إلى هذا المبدأ النبوي ومبرراته فيما سبق.

كذلك يدل سياق النص على أن النبي ﷺ هو الذي بادر إلى اقتراح حفر الخندق، ولم يكن سلمان هو الذي بدأ بهذا الاقتراح، وإنما كان دوره دور الاقناع وبيان وجه الحكمة فيما اقترحه النبي ﷺ بعد أن رأى اختلاف المسلمين في الأمر، فاقتنع المسلمون عندها.

ولكن كلمات كثير من المؤرخين، قد أظهرت أن سلمان هو المشير بحفر الخندق[٢].

وحتى لو كان حفر الخندق باقتراح مباشر من سلمان، فلا ضير في ذلك كما سوف نبينه لاحقاً في الدروس والعبر المستفادة من هذه الغزوة.

---

(١) الواقدي، المغازي: ١ / ٤٤٤ - ٤٤٥.

(٢) للتوسع انظر الصحيح من سيرة النبي: ٩/٧٨ وما بعدها، وانظر هامش صفحة: ٩/٧٩.

٤ - صور من عمل النبي ﷺ وأصحابه في حفر الخندق

لقد نقل المؤرخون صوراً كثيرة تعكس، جدَّ النبي ﷺ وأصحابه وتفانيهم في حفر الخندق، وقد يطول بنا الأمر لو نقلنا كلَّ الذي دونوه في كتبهم، ولهذا سوف نكتفي ببعض اللقطات المؤثرة من هذه المشاهد الإيمانية.

قال الواقدي: «وأخذ رسول الله ﷺ يعمل معهم في الخندق ينشّط المسلمين.. وكان يومئذ يحمل التراب في المكاتل ويطرحه.. وكان البراء بن عازب يقول:... ولقد رأيته يومئذ يحمل التراب على ظهره حتى حال الغبار بيني وبينه... وقال أبو سعيد الخدري: لكأني أنظر إلى رسول الله ﷺ وهو يحفر الخندق مع المسلمين، والتراب على صدره، وبين عكنه[1]... قال جابر بن عبد الله: فرأيت رسول الله ﷺ يحفر، ورأيته خميصاً، ورأيت بين عُكنه الغبار... وعن أبي واقد الليثي، قال:... كنت أرى رسول الله ﷺ وإنه ليضرب مرة بالمِعول، ومرّة يغرف بالمسحاة التراب، ومرّة يحمل التراب في المكتل...»[2].

هذه النصوص التاريخية تعطينا فكرة واضحة لمشاركة النبي ﷺ المسلمين في حفر الخندق، ولم تكن هذه المشاركة مجرد تشجيع للمسلمين كما تعكس بعض المرويات، وإنّما كان ﷺ يكابد مع المسلمين النصب والجوع والعناء إلى آخر مشوار المشاركة وحتى الانتهاء من حفر الخندق. فهي مشاركة حقيقية وبجد واجتهاد وتفاني واخلاص وصدق، وليس كما يفعل بعض القادة والملوك من وضع حجر الأساس لمشروع ما، وسط بهرجة اعلامية مزيفة، ثمّ يعمل أصحاب الحرف في انجاز ذلك المشروع، ويبذلون الجهود الكبيرة لانجازه، حتى إذا ما

---

(١) العكنة: ما انطوى وتثنى من لحم البطن (القاموس المحيط).

(٢) الواقدي، المغازي: ١ / ٤٤٥ و ٤٤٩ و ٤٥٢ و ٤٥٣ .

تمّ المشروع سجل باسم ذلك القائد أو الملك أو الرمز!

أ مّا أصحاب رسول الله ﷺ من المهاجرين والأنصار، فقد كان لهم في رسول الله ﷺ أُسوة حسنة، فلما نظروا الناس إلى رسول الله يحفر اجتهدوا في الحفر، ونقلوا التراب.

روى عن جابر قوله: وعمل الناس يومئذ كلهم، والنبي ﷺ ، وجعلت الأنصار ترتجز وتقول:

نَحنُ الَّذينَ بايعوا محمّداً على الجِهادِ ما بقينا أَبدا

فقال النبي ﷺ :

اللَّهمَّ لا خَيْرَ إلاّ خَيرُ الآخِرَة فأغْفِر لِلأنصارِ والمُهاجِرَة[١]

كان هذا هو دأب وديدن المؤمنين المخلصين الذين أخلصوا لله قلوبهم ولرسوله ﷺ .

أ مّا الذين في قلوبهم مرض من المنافقين، فهؤلاء وإن لم يظهر لهم في هذه الغزوة دور كبير سوى بعض كلمات التخذيل والتشكيك في أقوال رسول الله ﷺ ووعده بالنصر للمسلمين - كما سوف يأتي - إلاّ أنّ مشاركتهم في حفر الخندق، لم تكن عن إخلاص نية وتفان، وإنّما كانوا يتظاهرون بالمشاركة، فإذا سنحت لهم فرصة رجعوا إلى بيوتهم وتركوا المؤمنين مع رسول الله ﷺ يكابدون ويعانون لاكمال حفر الخندق قبل وصول الأحزاب.

قال ابن إسحاق: «. . . وأبطأ عن رسول الله ﷺ وعن المسلمين في عملهم رجال من المنافقين، وجعلوا يورّون - أي يستترون - بالضّعيف من العمل، ويتسلّلون إلى أهليهم بغير علم من رسول الله ﷺ ولا إذن، وجعل

---

(١) المصدر نفسه: ١ / ٤٥٣ .

الرجل من المسلمين إذا نابته النائبة، من الحاجة التي لابدّ له منها، يذكر ذلك لرسول الله ﷺ، ويستأذنه في اللحوق بحاجته، فيأذن له، فإذا قضى حاجته رجع إلى ما كان فيه من عمل، رغبة في الخير، واحتساباً له.

فأنزل الله تعالى في أولئك المؤمنين: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُوا۟ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا۟ حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ فَإِذَا ٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمُ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٢﴾﴾.

فنزلت هذه الآية فيمن كان من المسلمين من أهل الحسبة والرغبة في الخير، والطاعة لله ولرسوله ﷺ.

ثمّ قال تعالى، يعني المنافقين الذين كانوا يتسللون من العمل، ويذهبون بغير إذن من النبي ﷺ: ﴿لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا ۚ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا ۚ فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾﴾[1].

والنص القرآني يرسم لنا صورة الانضباط والاستقامة والأدب الجمّ الذي اتصف به المؤمنون، وحالة التباطؤ والتسلّل والهروب من العمل وعدم الانقياد لدى المنافقين، والنبي ﷺ كان يعرف هؤلاء وهؤلاء فلم يشدد على المنافقين أو يأخذهم على ما هم عليه، إذ لم يؤثر تباطؤهم على سير العمل في الخندق واتمامه قبل وصول الأحزاب.

إلاّ أنّه ﷺ كان يقدّر الحالة النفسية والمعنوية لأصحابه المؤمنين وما يحتاجون إليه من تدبير لرفع معنوياتهم، فشاركهم العمل، ورفع من معنوياتهم، وأدخل السّرور عليهم من خلال ذلك، ومن خلال التّبسُّط واشاعة روح البهجة

---

(١) ابن هشام، السيرة النبوية: ٣ / ٢١٦، وانظر سورة النور، الآيات: ٦٢ - ٦٣.

والسرور والفرح فيما بينهم، وكان لذلك أثره الواضح في بعث الهمّة والنّشاط، بانجاز العمل الذي كُلّفوا به، قبل وصول عدوّهم.

روى ابن إسحاق والواقدي: «كان جعيل بن سراقة رجلا صالحاً، وكان ذميماً قبيحاً، وكان يعمل مع المسلمين يومئذ في الخندق، وكان رسول الله ﷺ قد غيّر اسمه يومئذ فسمّاه عَمراً، فجعل المسلمون يرتجزون:

سمّاه مِن بَعد جُعيل عَمْراً وكان للبائس يوماً ظهراً

فإذا مرّوا «بعمرو» قال رسول الله ﷺ : «عمراً، وإذا مرّوا «بظهر» قال رسول الله ﷺ : ظهراً»[1].

٥ - معجزات وكرامات للنبي ﷺ عند حفر الخندق

ظهرت خلال عمل المسلمين في حفر الخندق جملة من الأُمور الخارقة من قبل النبي ﷺ سجلها المؤرخون تحت عنوان المعجزات أو الكرامات أو دلائل النبوة.

وبعض هذه الأُمور قد اقترنت بأخبار النبي ﷺ بدلالاتها المستقبلية، وبعضها الآخر جاءت على هيئة أفعال خارقة سمّاها البعض بالمعجزات أو الكرامات.

قال ابن إسحاق: «وكان في حفر الخندق أحاديث بلغتني، فيها من الله تعالى عبرة في تصديق رسول الله ﷺ ، وتحقيق نبوّته، عاين ذلك المسلمون»[2].

ثمّ أخذ في تعداد هذه الأحاديث الواحدة بعد الأُخرى، ننقل منها موردين:

---

(١) السيرة النبوية: ٣ / ٢١٧، والمغازي: ١ / ٤٤٧ .

(٢) المصدر نفسه: ٣ / ٢١٧ .

الأول: قال ابن إسحاق: «وحدّثت عن سلمان الفارسي، أنه قال: ضربت في ناحية من الخندق، فغلظت عليَّ صخرة، ورسول اللهﷺ قريب مني، فلما رآني أضرب، ورأى شدّة المكان عليَّ، نزل فأخذ المعول من يدي، فضرب به ضربة لَمَعت تحت المِعول برقة، ثمّ ضرب به ضربة أُخرى، فلمعت تحته برقة أُخرى، ثمّ ضرب به الثالثة، فلمعت تحته برقة أُخرى، قال - سلمان - قلت: بأبي أنت وأُمي يا رسول الله! ما هذا الذي رأيت لَمَعَ تحت المعول وأنت تضرب؟ قالﷺ : أو قد رأيت ذلك يا سلمان؟ قال: قلت: نعم، قال: أما الأُولى فإن الله فتح عليَّ بها اليمن، وأ مّا الثانية فإنّ الله فتح عليَّ بها الشام والمغرب، وأ مّا الثالثة فإنّ الله فتح عليَّ بها المشرق».

قال ابن إسحاق: «وحدّثني من لا أتهم عن أبي هريرة أنه كان يقول، حين فتحت هذه الأمصار في زمن عمر وزمان عثمان وما بعده: افتحوا ما بدا لكم، فوالذي نفس أبي هريرة بيده، ما افتتحتم من مدينة، ولا تفتحونها إلى يوم القيامة إلاّ وقد أعطى الله سبحانه محمداً مفاتيحها قبل ذلك»[(١)].

الثاني: روي عن جابر بن عبد الله، قال: «عملنا مع رسول اللهﷺ في الخندق، فكانت عندي شويهة، غير جدّ سمينة، فقلت: والله لو صنعناها لرسول اللهﷺ ، فأمرت امرأتي، فطحنت لنا شيئاً من شعير، فصنعت لنا منه خبزاً، وذبحت تلك الشاة، فشويناها لرسول اللهﷺ .

فلما أمسينا وأراد رسول اللهﷺ الانصراف من الخندق - وكنا نعمل فيه نهاراً، فإذا أمسينا رجعنا إلى أهلينا - قلت: يا رسول الله، إني قد صنعت لك شويهة كانت عندنا، وصنعنا معها شيئاً من خبز هذا الشعير، فأحب أن تنصرف معي إلى منزلي، وإنّما أُريد أن ينصرف معي رسول اللهﷺ وحده. قال: فلما أن

(١) المصدر نفسه: ٣ / ٢١٩، وقارن برواية الواقدي في المغازي: ١ / ٤٤٩ - ٤٥٠ علماً بأن اليمن قد فُتحت بيد علي عليه السلام، ودخلت في الإسلام من دون قتال في حياة رسول اللهﷺ

قلت له ذلك، قال: نعم، ثمّ أمر صارخاً فصرخ: أن انصرفوا مع رسول الله ﷺ إلى بيت جابر بن عبد الله، قال: قلت: إنّا لله وإنّا إليه راجعون! قال: فأقبل رسول الله ﷺ،

وأقبل الناس معه، قال: نجلس وأخرجناها إليه، قال: فبرك وسمّى الله، ثمّ أكل، وتواردها الناس، كلما فرغ قوم قاموا وجاء ناس، حتى صدر أهل الخندق عنها»[١].

٦ - تحصين المدينة، وتشبيك دورها، وتسيير الدوريات القتالية

اختلف المؤرخون في مقدار طول الخندق وعرضه وعمقه، وهل كانت له أبواب أم لا؟ وإذا كانت له أبواب فكم عددها[٢]؟

ولا يهمنا كثيراً التوقف عند هذه الجزئيات، إنما المهم أن نعرف أن النبي ﷺ وبعد أن تقرر في مجلس الاستشارة حفر الخندق، «ركب فرساً له ومعه نفر من أصحابه من المهاجرين والأنصار، فارتاد موضعاً ينزله... فجعل سَلَعاً[٣] خلف ظهره، وخندق من المذاد إلى ذُباب إلى راتج»[٤].

فكان هذا الاختيار من النبي ﷺ اختياراً موفقاً، لأنّ المدينة لا تحتاج إلى خندق يدور حولها وإنّما تحتاج إلى الخندق في الجانب الشمالي من المدينة لأنّها الجانب المكشوف منها أمام العدوّ، أما الجوانب الأُخرى فهي حصينة منيعة، من

---

(١) ابن هشام، السيرة النبوية: ٣ / ٢١٨، وقارن برواية الواقدي في المغازي: ١ / ٤٥٢.

(٢) ومن عجيب ما قرأت، قول أحدهم: «إنّ الحفريات دلّت على أن الخندق كان طوله (٨) كيلومترات، وعرضه (٦) أمتار، وعمقه (٥) أمتار»!! ولا أدري كم كانت مساحة المدينة حتى يحفر الخندق بهذا الطول والعرض في جزء منها؟ انظر السيرة النبوية للندوي: ٣٤٨ الهامش.

(٣) جبل معروف بسوق المدينة.

(٤) الواقدي، المغازي: ١ / ٤٤٥، والمذاد، وذُباب، وراتج (مرتفعات وجبال صغيرة).

خلال الدور العالية المتلاصقة من ناحية جنوب المدينة، وحرة واقم من جهة شرقها، وحرة الوبرة من جهة غربها، بالاضافة إلى وجود البساتين والعوارض الطبيعية الأُخرى التي تحول دون امكان اجراء أي تسلسل أو قتال بقوات كبيرة.

أما جانب الجنوب الشرقي من المدينة، فكانت فيها حصون وآطام[١] يهود بني قريظة، فكانت كفيلة بحماية ظهر المسلمين، لوجود عهد وميثاق بين النبيﷺ وبين بني قريظة بأن لا يمالئوا عليه أحداً، ولا يناصروا عدوّاً ضدّه[٢].

وبعد الانتهاء من حفر الخندق، انصب اهتمام النبيﷺ على تحصين المدينة من داخلها لحماية سكانها من الأطفال والنساء والشيوخ، ولهذا اتخذ التدابير اللازمة لذلك من خلال الاستفادة من البيوت القوية البنيان، والآطام المنيعة داخل المدينة، وهجر البيوت الواهنة التي لا تساعد على الحماية والدفاع.

يقول الواقدي: «وشبّكوا المدينة البنيان من كلّ ناحية وهي كالحصن، ورفع المسلمون النساء والصبيان في الآطام، ورفعت بنو حارثة الذراري في أُطمهم.. وأنّ بني واقف جعلوا ذراريهم ونساءهم في أُطمهم»[٣].

بالاضافة إلى ذلك كان النبيﷺ وأثناء حصار الأحزاب، يسيِّر الدوريات القتالية ليلا في المدينة لحماية أهلها من تسلل قريش، أو يهود بني قريظة، بعد أن نقضوا العهد.

يقول الواقدي: «إنّ بني واقف... كانوا مع النبيﷺ وكانوا يتعاهدون أهليهم بانصاف النهار بإذن النبيﷺ ، فينهاهم النبيﷺ ، فإذا الحّوا أمرهم أن

(١) الأُطُم: حصن مبني بحجارة، والأُطُم: البناء المرتفع وجمعهُ آطام، وفي الحديث: حتّى توارت بآطام المدينة، يعني بأبنيتها المرتفعة كالحُصون (لسان العرب).

(٢) و (٣) الواقدي، المغازي: ١ / ٤٥٦.

يأخذوا السلاح خوفاً عليهم من بني قريظة»[١].

وفي نصٍّ آخر له يقول: «فكان رسول الله ﷺ يبعث سَلمة بن أسلم في مائتي رجل، وزيد بن حارثة في ثلاثمائة يحرسون المدينة ويظهرون التكبير، ومعهم خيل المسلمين، فإذا أصبحوا أَمِنوا.. ثمّ يقول: فكان ممّا ردّ الله به قريظة عمّا أرادوا أنّ المدينة كانت تحرس»[٢].

وكانت لهذه التحصينات الداخلية، والدوريات الليلية وهم يرفعون صوت التكبير عالياً، الدور الكبير في تماسك الجبهة الداخلية أمام العدو، وكان لها الأثر الفعّال في رفع معنويات المقاتلين، لاطمئنانهم على نسائهم وذراريهم من هجوم الأعداء عليهم، كما أن تلك الآطام والبيوت الحصينة سوف «تمكن هؤلاء الضعفاء من أن يفيدوا من مناعتها للدفع عن أنفسهم بدلا من بيوت واهنة لا تساعد على حمايتهم، ولا تدفع عنهم في شيء»[٣].

كما أن وجود الدوريات القتالية داخل المدينة، وهي ترفع صوت التكبير عالياً، قد بعثت برسالة إلى الأحزاب الوثنية من جهة، وإلى يهود بني قريظة من جهة أُخرى، مفادها: ان في داخل المدينة حراساً أشداء من المسلمين، وليس من السهل التعرّض لها، ولهذا قبع اليهود في حصونهم ولم يفكروا بالخروج منها، ولم تحاول الأحزاب التسلل إلى المدينة.

٧ - وصول جيش الأحزاب المدينة

استكمل رسول الله ﷺ كل الترتيبات العسكرية والأمنية اللازمة قبل وصول جحافل قريش ووثنية العرب وأعراب وقبائل البادية المتحالفة معها.

---

(١) المصدر نفسه: ١ / ٤٥١.

(٢) المصدر نفسه: ١ / ٤٦٠.

(٣) الصحيح من سيرة النبي: ٩ / ١٧.

قال ابن إسحاق: «ولمّا فرغ رسول الله ﷺ من الخندق، أقبلت قريش حتى نزلت بمجتمع الأسيال من رومة، . . في عشرة آلاف من أحابيشهم، ومَن تبعهم من بني كنانة وأهل تهامة، وأقبلت غطفان ومن تَبعهم من أهل نجد، حتّى نزلوا بذنب نقمى، إلى جانب أُحد، وخرج رسول الله ﷺ والمسلمون، حتى جعلوا ظهورهم إلى سَلَع، في ثلاثة آلاف من المسلمين، فضرب هنالك عسكره، والخندق بينه وبين القوم.

قال ابن هشام: واستعمل على المدينة ابن أُم مكتوم»[١].

ويقول الواقدي: قالوا: «وكان القوم جميعاً الذين وافوا الخندق من قريش، وسُليم وغطفان، وأسد عشرة آلاف»[٢].

وينبغي أن نشير هنا وقوع الاختلاف الكبير في الروايات حول تحديد عدد جيش الأحزاب، وعدد جيش المسلمين، وبشكل لا يمكن الجمع بينها، ولا نجد ضرورة لذلك، بعد أن كفانا مؤنته بعض كتاب السيرة[٣].

لقد فوجئت الأحزاب واندهشت عندما رأت الاستعدادات العسكرية التي اتخذها النبي ﷺ قبل وصولهم، وكانت دهشتهم كبيرة عندما شاهدوا الخندق أمامهم، فقال قائلهم: «هذه المكيدة، ما كانت العرب تصنعها ولا تكيدها»[٤].

نعم كان الأمر كذلك، إذ لم يكن حفر الخندق من الأُمور المعروفة لدى العرب في حروبهم، وهذا التاريخ بين أيدينا يحدثنا عن أيام العرب وحروبها في جاهليتها، فلا نعهدهم التجأووا إلى هذه الوسيلة في حروبهم التي كانت تعتمد

---

(١) ابن هشام، السيرة النبوية: ٣ / ٢١٩ - ٢٢٠ .

(٢) الواقدي، المغازي: ١ / ٤٤٤ .

(٣) انظر الصحيح من سيرة النبي ﷺ : ٩ / ١٧٨ وما بعدها .

(٤) الواقدي، المغازي: ١ / ٤٧٠، وابن هشام، السيرة النبوية: ٣ / ٢٢٤ .

على الكرّ والفر والمجاولة في ميدان الحرب، وقد يكون رسول الله ﷺ هو أوّل من استعمل الخندق في تاريخ العرب والمسلمين. ولهذا كان هذا الخندق مفاجأة مذهلة لأعداء الإسلام، وأبطل خطّتهم التي رسموها، لمهاجمة المدينة واستأصال المسلمين فيها.

٨ - يهود بني قريظة ينقضون العهد

أصبح المسلمون أمام عدوّهم من الأحزاب وجهاً لوجه، ولا يفصل بينهما إلاّ الخندق، ومضت أيّام ولم تقع حرب حقيقية بين الطرفين سوى المناوشات السريعة والرمي والتراشق بالنبال.

وقد قدر أبو سفيان بن حرب أنّ رسول الله ﷺ قد أعدّ نفسه لحرب طويلة، يستنزف فيها عدوّه كلّ ما لديه من معنويات رجاله، إلى المؤن والأغذية، إلى علف الدواب الذي لديه، إذ لم يترك لهم أهل المدينة شيئاً خلف الخندق الذي حفروه، «فليس هناك شيء للخيل إلاّ ما حملوه معهم من عَلَف... وقدموا في زمان ليس في العرض زرع، فقد حصد الناس قبل ذلك بشهر، فأدخلوا حصادهم وأتبانهم... وكادت ابلهم تهلك من الهزال، وكانت المدينة ليالي قدموا جديبة»[(١)].

ولهذا رأى أبو سفيان أن هذه الحرب قد لا تنتهي، إلاّ إذا انضم يهود بني قريظة إليهم، لأنّهم وهم في موقعهم في الجنوب الشرقي من المدينة، يشكلون مكمن الضعف في التحصينات التي اتخذها المسلمون حول المدينة، فلو انضم يهود بني قريظة إلى الأحزاب في حربهم للنبي ﷺ أمكن الاجهاز على المسلمين لأنّهم خلف أظهرهم وبإمكانهم التسلل إلى داخل المدينة والتعرّض للنساء والأطفال، وهم أعرف الناس بالمدينة ومسالكها لأنّهم من أهلها، «كما كان

---

(١) الواقدي، المغازي: ١ / ٤٤٤ .

بإمكانهم القيام بحركة جريئة لقطع خط رجعة المسلمين إلى داخل المدينة، وبذلك يفسحون المجال للأحزاب لاقتحام الخندق دون مقاومة تذكر. . .»[١].

إلاّ أن الذي كان يحول دون انضمام بني قريظة إلى صفوف الأحزاب هو ذلك العهد الذي بينهم وبين رسول الله ﷺ، والذي ينص في بعض بنوده: «ألاّ يكونوا مع رسول الله ولا عليه»، ويقال: «صالحهم ﷺ على أن ينصروه ممّن دهمه منهم. . .»[٢].

فتذكر أبو سفيان - ما كاد ينساه من دهشته - ما وعده به حيي بن أخطب في مسيره معهم بقوله: «إنّ قومي قريظة معكم، وهم أهل حلقة وافرة، هم سبعمائة مقاتل وخمسون مقاتلا، فقال أبو سفيان لحيي بن أخطب: ائتِ قومك، حتى ينقضوا العهد الذي بينهم وبين محمد، فذهب حيي حتى أتى بني قريظة»[٣].

انطلق حيي بن أخطب إلى بني قريظة سالكاً طرقاً متشعبة حتى وصل إلى حصنهم.

قال ابن إسحاق: «وخرج عدوّ الله حيي بن أخطب النضري، حتى أتى كعب ابن سعد القرظي، صاحب عقد بني قريظة وعهدهم، وكان قد وادع رسول الله ﷺ على قومه، وعاقده على ذلك وعاهده، فلما سمع كعب بحيي بن أخطب، أغلق دونه باب حصنه، فاستأذن عليه، فأبى أن يفتح له، فناداه حيي: ويحك يا كعب! افتح لي؛ قال: ويحك يا حيي: إنّك امرؤ مشؤوم، وإنّي قد عاهدت محمداً، فلست بناقض ما بيني وبينه، ولم أرَ منه إلاّ وفاءً وصدقاً، قال:

---

(١) الرسول القائد: ٢٣٠ .

(٢) الواقدي، المغازي: ١ / ٤٥٤ .

(٣) المصدر نفسه: ١ / ٤٥٤ .

ويحك افتح لي أُكلمك ; قال: ما أنا بفاعل ; قال: والله إن أغلقت دوني إلاّ عن جشيشتك[١]، أن آكل معك، فأحفظ[٢] الرجل، ففتح له.

فقال: ويحك يا كعب، جئتك بعزّ الدهر وببحر طام، جئتك بقريش على قادتها وسادتها، حتى أنزلتهم بمجتمع الأسيال من رومة، وبغطفان على قادتها وسادتها حتى أنزلتهم بذنب نقمى إلى جانب أُحد، قد عاهدوني وعاقدوني على أن لا يبرحوا حتى يستأصلوا محمداً ومن معه.

فقال له كعب: جئتني والله بذلّ الدهر، وبجهام[٣]، قد هَراق ماءه، فهو يرعد ويبرق، ليس فيه شيء. ويحك يا حيي! فدعني وما أنا عليه، فإني لم أرَ من محمد إلاّ صدقاً ووفاءً.

فلم يزل حيي بكعب يفتله في الذّروة والغارب[٤]، حتى سمح له، على أن أعطاه عهداً وميثاقاً، لئن رجعت قريش وغطفان، ولم يصيبوا محمداً أن أدخل معك في حصنك حتى يصيبني ما أصابك.

فنقض كعب بن أسد عهده، وبرئ مما كان بينه وبين رسول الله ﷺ»[٥].

النبي ﷺ يتحرى صدق خبر نقض بني قريظة للعهد:

قال ابن إسحاق: «فلما انتهى إلى رسول الله ﷺ الخبر وإلى المسلمين، بعث رسول الله ﷺ سعد بن معاذ سيد الأوس، وسعد بن عبادة سيد الخزرج، ومعهما عبد الله بن رواحة، وخوّات بن جبير، فقالوا: انطلقوا حتّى تنظروا، أحق

---

(١) الجشيشة: نوع من الطعام يصنع من الجشيش، وهو البُر يطحن غليظاً.

(٢) احفظه: اغضبه.

(٣) الجهام: السحاب الرقيق الذي لا ماء فيه.

(٤) مثل يضرب للمراوضة والمخاتلة.

(٥) ابن هشام، السيرة النبوية: ٣ / ٢٢٠ - ٢٢١.

ما بلغنا عن هؤلاء القوم أم لا؟ فإن كان حقاً الحنوا إليّ لحناً[١] أعرفه، ولا تفتّوا في أعضاد الناس، وإن كانوا على الوفاء فيما بيننا وبينهم فاجهروا به للناس.

فخرجوا حتّى أتوهم، فوجدوهم على أخبث ما بلغهم عنهم، نالوا من رسول الله ﷺ، وقالوا: من رسول الله؟ لا عهد بيننا وبين محمد ولا عقد. فشاتمهم سعد ابن معاذ وشاتموه، وكان رجلا فيه حدّة، فقال له سعد بن عبادة: دع عنك مشاتمتهم، فما بيننا وبينهم أربى[٢] من المشاتمة.

ثمّ أقبل سعد وسعد ومن معهما، إلى رسول الله ﷺ، فسلّموا عليه، ثمّ قالوا: عضل والقارة، أي كغدر عضل والقارة بأصحاب الرجيع، خبيب وأصحابه ; فقال رسول الله ﷺ: الله أكبر، أبشروا يا معشر المسلمين»[٣].

رغم حرص النبي ﷺ على كتمان خبر نقض بني قريظة للعهد عن المسلمين - ولو إلى حين - إلاّ أن الخبر انتشر سريعاً في أوساط المسلمين، فتحرج موقف المسلمين كثيراً، إذ أصبحوا غير مطمأنين على مصير عوائلهم وذراريهم وأموالهم، وكانوا يقدرون حجم المخاطر والأضرار التي سوف تلحق بهم لو قام هؤلاء اليهود بهجوم مباغت عليهم من خلفهم إذ لا خندق ولا موانع تمنعهم.

لذلك كان وقع خبر نكث بني قريظة لعهدهم شديداً على نفوس المسلمين: «وعظم عند ذلك البلاء، واشتد الخوف، وأتاهم عدوّهم من فوقهم ومن أسفل منهم، حتّى ظن المؤمنون كلّ ظنّ».

واستغل المنافقون - على عادتهم - هذه الظروف والمصائب القاسية التي

---

(١) اللحن، اللغز: وهو أنّه يخالف ظاهر الكلام معناه.

(٢) أربى: أعظم.

(٣) ابن هشام، السيرة النبوية: ٣ / ٢٢١ - ٢٢٢، وقارن برواية الواقدي، المغازي: ١ / ٤٥٥ - ٤٥٩.

يمرّ بها المسلمون، فأخذوا يشككون بأقوال النبيﷺ وينسحبون من مواقعهم بحجج واهية تضعيفاً لمعنويات المسلمين.

قال ابن إسحاق: «ونجم النفاق من بعض المنافقين، حتى قال معتّب بن قشير: كان محمد يعدنا أن نأكل كنوز كسرى وقيصر، وأَحَدُنا اليوم لا يأمن على نفسه أن يذهب إلى الغائط، وقال أوس بن قَيْظيّ، أحد بني حارثة: يا رسول الله، إنّ بيوتنا عَورة من العدوّ، وذلك على ملأ من رجال قومه، فأذن لنا أن نخرج فنرجع إلى دارنا، فانها خارج من المدينة»[(١)].

ولم يكن هؤلاء صادقين فيما أدعوه من أن بيوتهم مكشوفة للعدو، وقد كذبهم سعد بن معاذ كما في رواية الواقدي الذي يقول: «واجتمعت بنو الحارثة، فبعثوا أوس بن قيظيّ إلى رسول اللهﷺ فقالوا: يا رسول الله، إنّ بيوتنا عورة، وليس دار من دور الأنصار مثل دارنا، ليس بيننا وبين غطفان أحد يردّهم عنّا، فأذن لنا فلنرجع إلى دورنا نمنع ذرارينا ونساءنا، فأذن لهم رسول اللهﷺ ، فرجعوا وتهيّأوا للانصراف. فبلغ سعد بن معاذ، فجاء إلى رسول اللهﷺ فقال: يا رسول الله، لا تأذن لهم، إنّا والله ما أصابنا وإيّاهم شدّة قطّ إلاّ صنعوا هكذا.

ثمّ أقبل عليهم فقال لبني الحارثة: هذا لنا منكم أبداً، ما أصابنا وإيّاكم شدّة إلاّ صنعتم هكذا. فردّهم رسول اللهﷺ»[(٢)].

وقد صور القرآن الكريم باجمال وتفصيل حالة صورة الهول والكرب المزلزل الذي عاشه المسلمون، وما قاله المنافقون من أقوال تكشف عن خبيئة أنفسهم بعد أن وجدوا الفرصة سانحة أمامهم.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ جَآءَتۡكُمۡ جُنُودٞ فَأَرۡسَلۡنَا

(١) السيرة النبوية: ٣ / ٢٢٢، والواقدي، المغازي: ١ / ٤٥٩ - ٤٦٠ .

(٢) الواقدي، المغازي: ١ / ٤٦٣ .

عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٩﴾ إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَـٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١١﴾ وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَـٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾ وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَـٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُوا۟ ۚ وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِىَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ ۖ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴿١٣﴾﴾[1].

٩ - الأساليب السياسية لكسب المعركة

لقد كان النبي ﷺ يعرف جيداً تركيبة جيش الأحزاب، ودخائل أنفس قادتها، وكان ممن خرج مع الأحزاب قبيلة غطفان بقيادة - الأحمق المطاع - عيينة بن حصن، والحارث بن عوف، ولم يكن خروجهم مع الأحزاب من أجل مكاسب سياسية يطمحون بها، أو باعث عقائدي يقاتلون من أجله، وإنّما خرجوا من أجل الحصول على الأموال بالاستيلاء عليها من خيرات المدينة عند احتلالها، أو الاستفادة من تمر خيبر الذي وعدهم حيي بن أخطب بها قبل خروجهم[2].

لقد شخّص النبي ﷺ أن مكمن الضعف في جيش الأحزاب يتمثل في قبيلة غطفان وقادتها، وهي قوة لا يستهان بها في تركيبة جيش الأحزاب، فإذا انسحب هؤلاء من حصار المدينة تضعضع جيش الأحزاب، ونشب الخلاف فيما بينهم وبين قريش والقبائل الأُخرى، بل يحتمل نشوب القتال فيما بينهم.

ولهذا «بعث رسول الله ﷺ إلى عيينة بن حصن، وإلى الحارث بن عوف، وهما قائدا غطفان، فأعطاهما ثلث ثمار المدينة على أن يرجعا بمن معهما عنه

---

(١) الأحزاب: ٩ - ١٣ .

(٢) الواقدي، المغازي: ١ / ٤٤٣ .

وعن أصحابه، فجرى بينه وبينهما الصلح، حتى كتبوا الكتاب ولم تقع الشهادة ولا عزيمة الصلح، إلاّ المراوضة في ذلك. فلما أراد رسول الله ﷺ أن يفعل، بعث إلى سعد بن معاذ، وسعد بن عبادة، فذكر ذلك لهما، واستشارهما فيه.

فقالا له: يا رسول الله، أمراً نُحبه فتصنعه، أم شيئاً أمرك الله به، لابدّ لنا من العمل به، أم شيئاً تصنعه لنا؟

قال ﷺ: بل شيء أصنعه لكم، والله ما أصنع ذلك إلاّ لأنّني رأيت العرب قد رمتكم عن قوس واحدة، وكالبوكم من كلّ جانب، فأردت أن أكسر عنكم من شوكتهم إلى أمر مّا.

فقال له سعد بن معاذ: يا رسول الله، قد كنّا نحن وهؤلاء القوم على الشّرك بالله وعبادة الأوثان لا نعبد الله ولا نعرفه، وهم لا يطمعون أن يأكلوا منها تمرة إلاّ قِرىً[1] أو بيعاً، أفحين أكرمنا الله بالإسلام، وهدانا له وأعزّنا بك وبه، نعطيهم أموالنا! والله ما لنا بهذا من حاجة، والله لا نعطيهم إلاّ السيف، حتى يحكم الله بيننا وبينهم.

قال رسول الله ﷺ: فأنت وذاك.

فتناول سعد بن معاذ الصحيفة، فمحا ما فيها من الكتاب، ثمّ قال: ليجهدوا علينا»[2].

وفي قصة مفاوضات النبي ﷺ مع قائدا غطفان، كلام متشعب بين المؤرخين واشكالات وتوجيهات كثيرة، وأصبحت هذه القضية - وما شابهها من

---

(١) القرى: ما يصنع للضيف من الطعام.

(٢) ابن هشام، السيرة النبوية: ٣ / ٢٢٣، وقارن برواية الواقدي في المغازي: ١ / ٤٧٧ وما بعدها، وابن سعد، الطبقات: ٢ / ٢٨٤.

القضايا - من الأدلة أو الشواهد عند القائلين بمبدأ اجتهاد الرسولﷺ فيما لا نص فيه[١]، على ثبوت الاجتهاد لهﷺ وبعضهم استفاد منها كدليل على بعض الأحكام الشرعية.

ولا نرى ضرورة لهذا السجال حول هذه القضية ولا تحميل القضية من اللوازم الغريبة عنها بما تأباها، ولا نفيها من أساسها بعد ثبوتها في المصادر الأساسية لكتب السيرة النبوية.

فلابد إذن من توجيهها التوجيه المناسب الذي لا يمس شخصية النبيﷺ وبما عهدنا منهﷺ من حسن تدبيره العسكري في الغزوات والسرايا، التي استعرضناها سابقاً والتي سوف تأتينا لاحقاً.

لقد روي عن النبيﷺ : «إنّ الحرب خدعة»[٢]، فلتكن هذه القضية بكل تفاصيلها تدخل تحت هذا العنوان كما بيّنا في صدر الحديث عنها.

لقد كان هدف النبيﷺ من هذا الصلح مع غطفان واضحاً بحسب رواية الواقدي، فقد قال لقائدي غطفان: «أرأيت ان جعلت لكم ثلث تمر المدينة ترجعان بمن معكم وتخذّلان بين الأعراب؟ قالا: تعطينا نصف تمر المدينة، فأبى رسول اللهﷺ أن يزيدهما على الثلث، فرضيا بذلك..»[٣].

فالنبيﷺ يبحث عن ثغرة في قوى الأحزاب، وقد وجدها في غطفان وقائديها، وهما على استعداد ليس فقط للانسحاب من الميدان، وإنّما التخذيل

---

(١) انظر كتابنا: حركة الاجتهاد عند الشيعة الإمامية، فصل «اجتهاد الرّسول» حيث ناقشنا دعوى اجتهاد الرسولﷺ وأثبتنا بطلانها من خلال الأدلة والبراهين.

(٢) ابن هشام، السيرة النبوية: ٣ / ٢٢٩، وانظر دلائل النبوة، للبيهقي: ٣ / ٤٠٥ وما بعدها، وصحيح البخاري، كتاب الجهاد رقم ١٥٧، باب «الحرب خدعة»، وصحيح مسلم، كتاب الجهاد، رقم ١٨.

(٣) الواقدي، المغازي: ١ / ٤٧٧.

بين الأعراب، فما قيمة ثلث تمر المدينة أمام هذين الهدفين الاستراتيجيين؟ في وقت اجتمع الكفر كلّه لاستئصال المسلمين، «وإن العرب قد رمتكم عن قوس واحد» على حد تعبير النبيﷺ.

يقول أحد كتّاب السيرة في بيان هدف النبيﷺ من مفاوضة غطفان

هو: «ابتغاء صرفهم عن قريش، ليفت ذلك في عضدهم فيرجعوا هم أيضاً. . وتجلت حنكته السياسية في مساومة غطفان لزلزلتها عن موقفها إلى جانب قريش»[١].

أما لماذا تراجع النبيﷺ عن امضاء هذا الصلح؟ فمن الواضح أن عملية

الصلح لم تتم من أول الأمر؛ إذ لم تقع الشهادة ولا عزيمة الصّلح، إلاّ المراوضة في ذلك، فكانت مجرد مفاوضات أولية بين النبيﷺ وقائدي غطفان، ثمّ لما استشار النبيﷺ السعدين وجد فيهما القوة المعنوية والعزّة والاستقامة والصلابة رغم كل الشدائد والكروب، اطمأنت نفس النبيﷺ ولم يجد الحاجة إلى المضي في هذه الصفقة مع غطفان.

(١) حسن - إبراهيم حسن، تاريخ الإسلام السياسي والديني: ١ / ١١٩ - ١٢٠ .

الأسئلة:

١ - ما هي أهم خلفيات غزوة الأحزاب؟

٢ - كيف تحرك اليهود لتحزيب الأحزاب؟ وما هي الأساليب التي استخدموها لإقناعهم؟

٣ - كيف وصل خبر الأحزاب إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم ؟ وما هو الاجراء الذي اتخذه عندها؟

٤ - كيف كان عمل النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه في حفر الخندق؟ وما هي دلالات ذلك؟

٥ - ما هي الاجراءات الأمنية الأُخرى التي اتخذها النبي صلى الله عليه وآله وسلم إلى جانب حفر الخندق؟

٦ - كيف كانت ردة فعل الأحزاب عندما واجهوا الخندق؟

٧ - كيف تمكن الأحزاب من اقناع يهود بني قريظة لتنقض عهدها مع النبي صلى الله عليه وآله وسلم ؟

٨ - لماذا ركّز النبي صلى الله عليه وآله وسلم على قبيلة غطفان وأجرى المفاوضات معهم دون غيرهم؟

الدرس الرابع عشر
أحداث ووقائع السنة الخامسة من الهجرة
غزوة الأحزاب (الخندق)
«القسم الثاني»

محاور البحث:

١ - الأحزاب تشدِّد الحصار على المسلمين
٢ - عمرو بن ودّ العامري وأصحابه يعبرون الخندق
٣ - الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام ودوره في غزوة الأحزاب
٤ - ضربة علي عليه السلام يوم الخندق، وعبادة الثقلين
٥ - «الحرب خدعة» ودور نعيم بن مسعود في ذلك
٦ - دُعاء النبي صلى الله عليه وآله وسلم وجُند الله، والريح العاصف
٧ - النبي صلى الله عليه وآله وسلم يستطلع خبر الأحزاب
٨ - عودة النبي صلى الله عليه وآله وسلم والمسلمين إلى المدينة
٩ - أسباب هزيمة الأحزاب
١٠ - الدروس والعبر والعظات من غزوة الأحزاب
• الأسئلة

غزوة الأحزاب «الخندق» / ق ٢

١ - الأحزاب تشدِّد الحصار على المسلمين، ومناوشات بين الطرفين

لم تخطط قريش والقبائل التي خرجت معها، لحرب مفتوحة طويلة الأمد مع المسلمين، وإنّما كانت تحسبها حرب أيام قلائل تعود بعدها إلى مكة تتغنى بانتصاراتها وترفع من سمعتها بين القبائل.

إلاّ أنَّ الأمر لم يكن كما تخيل رجالات قريش وقادتها، وإنّما واجهوا أمراً لم يعهدوه ولم يحسبوا له حسابه، وطال ليل إقامتهم، وهم في كل يوم يستنزفون ما عندهم من طعام ومتاع وعلف لدوابهم وليس لهم مدد من خلفهم، ولبعد مكة عنهم كثيراً.

ولهذا كلّه حاولت قريش أن تحسم المعركة من خلال تضييق الخناق على المسلمين، وتشديد الحصار عليهم، والبحث عن ثغرات من خلال الخندق للنفوذ إلى المدينة.

يقول جابر بن عبد الله: «لقد رأيتني أحرس الخندق، وخيل المشركين تطيفُ بالخندق وتطلب غرّة ومضيقاً من الخندق فتقحتم فيه، وكان عمرو بن العاص، وخالد بن الوليد هما اللذان يفعلان ذلك، يطلبان الغفلة من المسلمين، فلقينا خالد بن الوليد في مائة فارس، قد جال بخيله يريد مضيقاً من الخندق يريد أن يعبر فرسانه، فنضحناهم بالنبل حتى انصرف»[١].

---

(١) الواقدي، المغازي: ١ / ٤٦٥ .

ويصف أحد المسلمين شدّة الحصار الذي ضربته قريش يقول: «كان ليلنا بالخندق نهاراً حتى فرجه الله»[١].

وعن أُم سلمة زوج النبيﷺ قالت: «قد شهدت معه - أي النبي - مشاهد فيها قتال وخوف: المرسيع، وخيبر، وكنا في الحديبية، وفي الفتح، وحنين، لم يكن من ذلك شيء أتعب لرسول اللهﷺ ولا أخوف عندنا من الخندق»[٢].

وفي نص آخر للواقدي أكثر تفصيلا يقول فيه: «فكان المشركون يتناوبون بينهم، فيغدو أبو سفيان بن حرب في أصحابه يوماً، وصرار بن الخطاب يوماً، فلا يزالون يجيلون خيلهم ما بين المذاد إلى راتج، وهم في نشر من أصحابهم، يتفرّقون مرة ويجتمعون أُخرى، حتى عظم البلاء وخاف الناس خوفاً شديداً، ويقدّمون رماتهم، فعمدوا يوماً من ذلك فتناوشوا بالنبل ساعة، وهم جميعاً في وجه واحد وجاه قبة رسول اللهﷺ، ورسول الله قائم عليه الدّرع والمغفر.. فيرمي حبّان بن العرقة سعد بن معاذ بسهم فأصاب أكحَله[٣]، فقال: خذها وأنا ابن العرقة! فقال رسول اللهﷺ: عرق الله وجهك في النار»[٤].

وأثناء هذا الحصار وتراشق النبل استشهد عدد من المسلمين، وكان وحشي - قاتل حمزة - مع جيش المشركين ويحمل مزراقه - أي حربته - فزرق الطفيل بن النعمان من بني سلمة بمزراقه فقتله[٥].

ووصل الأمر في شدته وهوله ان المسلمين اشتبك بعضهم مع البعض وهم

---

(١) المصدر نفسه: ١ / ٤٦٨.

(٢) المصدر نفسه: ١ / ٤٦٧.

(٣) الأكحل: عرق في اليد.

(٤) المصدر نفسه: ١ / ٤٦٨ - ٤٦٩.

(٥) الواقدي، المغازي: ١ / ٤٧٣.

يظنونهم من الأعداء.

يقول الراوي: «خرجت طليعتان لرسول اللهﷺ ليلا، فالتقيا ولا يشعر بعضهم ببعض، ولا يظنّون إلاّ أنّهم العدو، فكانت بينهم جراحة وقتل.. ثمّ نادوا بشعار الإسلام، وكفَّ بعضهم عن بعض، وكان شعارهم: «حم. لا ينصرون» فجاؤوا إلى النبيﷺ فأخبروه، فقال رسول اللهﷺ: جراحكم في سبيل الله، وَمن قتل منكم فإنه شهيد، فكانوا بعد ذلك إذا دنا المسلمون بعضهم من بعض نادوا بشعارهم، لأن يكفّ بعضهم عن بعض، فلا يرمون بنبل ولا بحجر»[١].

٢ - عمرو بن ود العامري وأصحابه يعبرون الخندق

بعد محاولات كثيرة من فرسان قريش لعبور الخندق، أثمر الأمر عن عبور مجموعة منهم على رأسهم عمرو بن عبد ودٍّ أخو بني عامر بن لؤي.

قال ابن إسحاق والواقدي: «فأقام رسول اللهﷺ والمسلمون، وعدوّهم محاصروهم، ولم يكن بينهم قتال؛ ثمّ إنّ رؤساءهم أجمعوا أن يغدوا جميعاً، فغدا أبو سفيان بن حرب، وعكرمة ابن أبي جهل، وضرار بن الخطاب، وخالد بن الوليد، وعمرو بن العاص، وهبيرة ابن وهب، ونوفل بن عبد الله المخزومي، وعمرو بن عبد ود.. في عدة، فجعلوا يطيفون بالخندق، ومعه رؤساء غطفان، ومن سُليم رؤساؤهم، وتركوا الرجال منهم خلوفاً، يطلبون مضيقاً يريدون يقتحمون خيلهم إلى النبيﷺ وأصحابه، فانتهوا إلى مكان قد أغفله المسلمون، فجعلوا يكرهون خيلهم ويقولون: هذه المكيدة، ما كانت العرب تصنعها ولا تكيدها. قالوا: إنّ معه رجلا فارسيّاً، فهو الذي أشار عليهم

---

(١) المصدر نفسه: ١/ ٢٧٤، وامتاع الاسماع للمقريزي: ١/ ٢٣٤، والسيرة الحلبية: ٢/ ٣١٢.

بهذا، قالوا فمن هناك إذا؟

فعبر عكرمة بن أبي جهل، ونوفل بن عبد الله، وضرار بن الخطّاب، وهبيرة بن أبي وهب، وعمرو بن عبد ود، وقام سائر المشركين من وراء الخندق لا يعبرون، وقيل لأبي سفيان: ألا تعبر؟ قال: قد عبرتم، فإن احتجتم إلينا عبرنا»[١]!

٣ - الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام ودوره الكبير في غزوة الأحزاب

من أبرز الأحداث التي وقعت في غزوة الخندق وأكثرها تأثيراً في نتيجة المعركة، مبارزة علي بن أبي طالب عليه السلام لعمرو بن عبد ودّ العامري. إذ في هذا الحدث تجلى الإيمان كلّه على الشرك كلّه، فانتصر الإيمان وأصبحت تلك الضربة الإلهية التي ضربها علي عليه السلام آنذاك «تساوي عبادة الثقلين» أو «أفضل من عبادة الثقلين» كما تبين النصوص الآتية.

ومن المؤسف له أن كبار المؤرخين من أمثال ابن هشام، والواقدي والطبري، وغيرهم لم يسجلوا هذه الواقعة بتفاصيلها، والبعض الآخر مرّ عليها مرور الكرام وكأنّها حدث عادي جداً، وفريق ثالث منهم شكك في أهمية الحدث، وكذب ما روي عن رسول الله بخصوصها.

ولهذا سوف نحاول أن نلملم جزئيات هذه الحادثة من روايات المؤرخين وكتّاب السيرة لنخرج بصورة واضحة للحدث ونعطيه حقّه الذي يحاول البعض بخسه.

لقد عبرت فرسان قريش الخندق وأصبحوا وجهاً لوجه أمام المسلمين، «وخرج عليّ بن أبي طالب عليه السلام في نفر من المسلمين، حتى أخذ عليهم الثّغرة

---

(١) ابن هشام، السيرة النبوية: ٣ / ٢٢٤، والواقدي، المغازي: ١ / ٤٧٠، والطبري: ٢ / ٥٧٣ .

التي اقتحموا منها خيلهم»[١].

وكان أبرز هؤلاء الأبطال الذين عبروا الخندق هو: «عمرو بن عبد ود العامري» الذي يصفه الواقدي: «وعمرو، يومئذ ثائر، قد شهد بدراً فارتثّ جريحاً فلم يشهد أُحداً، وحرّم الدّهن حتى يثأر من محمد وأصحابه، وهو يومئذ كبير يقال بلغ تسعين سنة» وزاد الطبري وابن هشام بقولهما: «فلما كان يوم الخندق خرج معلماً ليُرى مكانه»[٢].

يقول الديار بكري: وكان عمرو بن عبد ود من مشاهير الأبطال وشجعان العرب وكانوا يعدلونه بألف رجل... فجال وطلب المبارزة والأصحاب ساكتون كأنما على رؤوسهم الطير لأنّهم كانوا يعلمون شجاعته، وفي «الاكتفاء» ذكر ابن إسحاق في غير رواية البكائي: إنّ «عمر بن ود» لما نادى يطلب من يبارز قام «علي» وهو مقنع بالحديد فقال: أنا له يا رسول الله ﷺ، فقال له: أُجلس إنه عمرو، ثمّ نادى عمرو وجعل يوبخهم ويقول: أين جنتكم التي تزعمون انه من قتل منكم دخلها؟ أفلا تبرزون إليّ رجلا؟ فقال علي: أنا له يا رسول الله، فقال له: اجلس إنه عمرو، ثمّ نادى الثالثة وقال:

ولقد بُححتُ من النّداء بجمعكم: هل مِن مُبارز
ووقفت إذ جَبن المشجع موقف الرجل المناجز
وكذاك اني لم أزل متسرعاً نحو الهزاهز
ان الشجاعة في الفتى والجود من خير الغرائز

فقام علي، وقال أنا له يا رسول الله، فقال ﷺ إنه عمرو، فقال: إن كان عمرو.

---

(١) ابن هشام، السيرة النبوية: ٣ / ٢٢٤، والطبري: ٢ / ٥٧٤.

(٢) انظر الواقدي، المغازي: ١ / ٤٧٠، والطبري: ٢ / ٥٧٤، وابن هشام، السيرة النبوية: ٣ / ٢٢٥.

فأذن له رسول الله ﷺ فمشى إليه عليٌّ وهو يقول:

لا تعجلنَّ فقد أتاكَ مجيب صوتك غير عاجز
ذو نية وبصيرة والصدق منجي كلّ فائز
إني لا أرجو أن أُقيم عليك نائحه الجنائز
من ضربة نجلاء يبقى ذكرها عند الهزائز

فقال عمرو: من أنت؟ قال: أنا علي. قال: ابن عبد مناف؟ قال: أنا علي بن أبي طالب. فقال عمرو: غيرك يابن أخي من أعمامك من هو أسنّ منك فإني أُكره أن اهريق دمك. فقال علي: لكنّي والله ما أكره أن اهريق دمك. . . .

وفي رواية: لما أذن رسول الله ﷺ لعليّ، أعطاه سيفه «ذا الفقار» وألبسه درعه الحديد، وعممه عمامته، وقال: «اللهم اعنه عليه». وفي رواية: «رفع عمامته إلى السماء وقال: إلهي أخذت عبيدة مني يوم بدر، وحمزة يوم أُحد، وهذا علي أخي وابن عمي فلا تذرني فرداً وأنت خير الوارثين».

وفي رواية الواقدي: «فأقبل عمرو يومئذ وهو فارس وعلي راجل، فقال له علي عليه السلام: إنك كنت تقول في الجاهلية: لا يدعوني أحد إلى واحدة من ثلاث إلاّ قبلتها! قال: أجل! قال علي: فإني أدعوك أن تشهد أن لا إله إلاّ الله وأنّ محمّداً رسول الله، وتسلم لله رب العالمين، فقال: يا ابن أخي، أخِّر هذا عنّي، قال: فأخرى، ترجع إلى بلادك، فإن يكن محمد صادقاً كنت أسعد الناس به، وإن غير ذلك كان الذي تريد. قال: هذا ما لا تتحدث به نساء قريش أبداً. . قال: فالثالثة: قال: البراز. قال: فضحك عمرو ثمّ قال: إنّ هذه الخصلة ما كنت أظنّ أنّ أحداً من العرب يرومني عليها! إني لا أكره أن اقتل مثلك، وكان أبوك لي نديماً، فارجع فأنت غلام حدث»[(١)].

يعلّق ابن أبي الحديد في هذا الموضع من النص فيقول: «كان شيخنا أبو

---

(١) الديار بكري، تاريخ الخميس: ١ / ٤٨٦ - ٤٨٧، والواقدي، المغازي: ١ / ٤٧١ .

الخير مصدّق بن شبيب النحويّ يقول: - إذا مررنا في القراءة بهذا الموضع -: «والله ما أمره بالرجوع ابقاءً عليه، بل خوفاً منه، فقد عرفت قتلاه ببدر وأحد، وعلم أنّه إن ناهضه قتله، فاستحيا أن يظهر الفشل، فأظهر الإبقاء والإرعاء، وإنّه لكاذب فيهما»[١].

وعندما قال علي عليه السلام لعمرو بن عبد ود: «ولكني أحب أن أقتلك» فحمي عمرو عند ذلك فاقتحم عن فرسه وسل سيفه وعقره وضرب وجهه، ثمّ أقبل على علي، فتنازلا وتجاولا فقتله علي عليه السلام[٢].

فكان جابر يحدّث يقول: «فدنا أحدهما من صاحبه وثارت بينهما غبرة فما نراهما، فسمعنا التكبير تحتها فعرفنا أنّ علياً قتله»[٣].

بعد أن قتل علي عليه السلام عمرو بن عبد ود، ارتعب من كان معه من الفرسان الذين عبروا الخندق «وخرجت خيلهم منهزمة حتى اقتحمت الخندق هاربة، وفي رواية: ثمّ حمل ضرار بن الخطاب وهبيرة بن أبي وهب على علي وهو أقبل إليهما، فأما ضرار فلما نظر في وجه عليّ ولّى هارباً، وبعد ذلك سئل عن سبب فراره، قال: خيل لي أن الموت يريني صورته! وأما هبيرة فثبت في مقاتلته حتى أصابه أثر السيف فعند ذلك القى درعه وهرب! وفي روضة الأحباب: اقتحم الخندق نوفل حين الفرار فسقط فيه، فرماه المسلمون بالحجارة فصرخ: يا معشر العرب لا قتلة أحسن من هذه. فنزل إليه عليّ فضربه بالسيف فقطعه نصفين.. وفرّ عكرمة وهبيرة، ومرداس، وضرار، حتى انتهوا إلى جيشهم فأخبروهم بمقتل عمرو ونوفل، فتوهن من ذلك قريش وخاف أبو سفيان، وكادت أن تهرب فزارة وتفرقت غطفان.

وفي معالم التنزيل: طلب المشركون جيفة نوفل بالثمن، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: خذوه فإنه خبيث الجيفة، خبيث الدية.

---

(١) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة: ١٩ / ٦٤.

(٢) الديار بكري، تاريخ الخميس: ١ / ٤٨٧.

(٣) الواقدي، المغازي: ١ / ٤٧١.

وروي أن علياً لمّا قتل عمراً لم يسلبه، فجاءت أُخت عمرو حتى قامت عليه، فلما رأته غير مسلوب سلبه، قالت: ما قتله إلاّ كفؤ كريم، ثمّ سألت عن قاتله، قيل: علي بن أبي طالب، فأنشأت هذين البيتين:

لو كان قاتل عمرو غير قاتله لكنت أبكي عليه آخر الأبد

لكنّ قاتله من لا يعاب به من كان يدعى قديماً بيضة البلد»[١]

وهنالك نصوص وروايات أُخرى حول هذه المبارزة التاريخية التي تجلى فيها الإيمان كله إلى الشرك كلّه، لم نذكرها خوف الإطالة.

والملفت للنظر أن ابن هشام في سيرته وهو تلخيص لسيرة ابن إسحاق، يمرّ على هذه الحادثة ويذكرها باقتضاب شديد، ويستبعد نصوصاً لابن إسحاق قد لا تتفق مع هواه واتجاهه، مما دعى السهيلي في الروض الأنف أن يستدرك عليه بقوله: «ووقع في مغازي ابن إسحاق من غير رواية ابن هشام عن البكائي فيها زيادة حسنة، رأيت أن أوردها هنا تتميماً للخبر»[٢] فأورد ما ذكره.

بل حتى الأبيات الشعرية التي قال ابن إسحاق: وقال علي بن أبي طالب رضوان الله عليه في ذلك:

نَصَرَ الحجارة من سَفاهة رأيهِ ونصرتُ ربَّ محمّد بصوابي

فصددت حين تركته متجدّلا كالجذع بين دكادِك وَرَوانِي

وعففتُ عن أثوابه ولو أنّني كنتُ المقطَّر بزّني أثوابي

لا تحسبنّ الله خاذل دينه ونبيّه يا معشر الأحزاب

هنا يقول: قال ابن هشام: وأكثر أهل العلم بالشعر يشك فيها لعلي بن أبي طالب»[٣].

---

(١) الديار بكري، تاريخ الخميس: ١ / ٤٨٧ - ٤٨٨، والسيرة الحلبية: ٢ / ٤٢٦ وما بعدها.

(٢) السهيلي، الروض الأنف: ١ / ٢٧٩ - ٢٨٠.

(٣) ابن هشام، السيرة النبوية: ٣ / ٢٢٥.

٤ - ضربة علي عليه السلام يوم الخندق، وعبادة الثقلين

لقد انتهت غزوة الخندق في اللحظة التي سقط فيها «فارس يليل» عمرو بن عبد ود العامري إلى الأرض صريعاً، إذ دخل الوهن والضعف في صفوف جيش الأحزاب، وكادوا أن يهربوا من ساعتها، ولكنهم تماسكوا قليلا للبحث عن مخرج لهم للهروب يحفظون به ماء وجوههم.

ولهذا تقيّم ضربة علي يوم الخندق من خلال الآثار التي تركتها هذه الضربة في دنيا الإسلام من جهة، ودنيا الكفر والشرك من جهة أُخرى.

ولرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم - الذي لا ينطق عن الهوى - كلمات قالها في حق علي عليه السلام في هذه الواقعة لها وزنها في دنيا الإسلام، ورنَّ صداها في آذان المسلمين في حينها، وبقيت خالدة خلود الحق وأهله، رغم أرجاف المرجفين، وتشكيك المشككين، وعمى بصيرة الحاقدين والمبغضين.

روى الخطيب البغدادي في تاريخه والمتقي الهندي في الكنز: «عن بهز بن حكيم عن أبيه عن جده عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: «لمبارزة علي بن أبي طالب لعمرو بن عبد ود يوم الخندق أفضل من عمل أُمتي إلى يوم القيامة»[١].

وروى الأربلي في كشف الغمة، والقندوزي في الينابيع، وابن أبي الحديد في الشرح.. وغيرهم قالوا: «إنّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حين برز عليّ إلى عمرو بن ود قال حينئذ: «برز الإسلام أو الإيمان كلّه إلى الشرك كلّه»[٢].

---

(١) الخطيب البغدادي - أحمد بن علي، تاريخ بغداد: ١٣ / ١٩، تحقيق: مصطفى عبد القادر، طبعة دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة الأُولى، (١٤١٧ هـ - ١٩٩٧ م). والمتقي الهندي في كنز العمال: ١ / ٢٨٦ حديث رقم: ٣٣٠٣٢.

(٢) كشف الغمة: ١ / ٢٠٥، وينابيع المودة: ٩٤ - ٩٥، وشرح نهج البلاغة: ١٣ / ٢٦١.

وفي رواية ابن مسعود عن النبيﷺ : «أبشر يا علي، فلو وزن عملك اليوم بعمل أُمتي لرجح عملك بعملهم»[١].

يعلق المجلسي في البحار على هذا الحديث بقوله: «وذلك أنه لم يبق بيت من بيوت المشركين إلاّ وقددخله وهن بقتل عمرو، ولم يبق بيت من بيوت المسلمين إلاّ وقد دخله عزّ بقتل عمرو»[٢].

وكان الصحابة في عهد رسول اللهﷺ ومن بعده، قد أدركوا جميعاً قيمة ضربة علي يوم الخندق، ولم يساورهم الشك في أنها كانت الحد الفاصل لهذه المعركة، وبها تمّ الفرج عن المؤمنين في محنتهم إلى استمرت أكثر من شهر من الحصار العنيف المتواصل.

في رواية يرويها الشيخ المفيد في الإرشاد، وغيره من المؤرخين، والنص من ارشاد المفيد:

قال: «روى قيس بن الربيع قال: حدّثنا أبو هارون العَبدي، عن ربيعة السّعدي قال: أتيت حذيفة بن اليمان[٣] فقلتُ له: يا أبا عبد الله، إنّنا لنتحدّث عن علي عليه السلام ومناقبه، فيقول لنا أهل البصرة: إنكم تفرطون في علي، فهل أنت محدثي بحديث فيه؟

فقال حذيفة: يا ربيعة، وما تسألني عن علي عليه السلام ؟ والذي نفسي بيده، لو وضع جميع أعمال أصحاب محمد في كفّة الميزان، منذ بعث الله محمداً إلى يوم القيامة، ووضع عمل عليّ في الكفّة الأُخرى، لَرجَحَ عمل علي على جميع أعمالهم.

---

(١) القندوزي، ينابيع المودة: ٩٤ .

(٢) المجلسي: بحار الأنوار: ٢٠ / ٢٠٥ .

(٣) وحذيفة بن اليمان ممن شهد واقعة وغزوة الخندق وسجّل له دور في آخر المعركة كما سوف يأتي.

فقال ربيعة: هذا الذي لا يقام له ولا يقعَد[١]!!

فقال حذيفة: يا لُكَع، وكيف لا يُحْمَل؟ وأين كان أبو بكر وعمر وحذيفة وجميع أصحاب محمّد يوم عمرو بن عبد ودٍّ، وقد دعا إلى المبارزة؟ فأحجَمَ الناس كلّهم ما خلا علياً عليه السلام ، فإنّه برز إليه فقتله اللهُ على يديه، والذي نفس حذيفة بيده، لعَمَله ذلك اليوم أعظم أجراً من أعمال أصحاب محمد إلى يوم القيامة»[٢].

ويروى عن حذيفة أيضاً قوله: «لو قسمت فضيلة علي عليه السلام بقتل عمرو يوم الخندق بين المسلمين بأجمعهم لوسعتهم».

وفي رواية عمرو بن الأزهر، عن عمرو بن عبيد، عن الحسن: «أنّ علياً عليه السلام لمّا قَتَل عَمرو بن ودٍّ احتزّ رأسه وحمله، فألقاه بين يدي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقام أبو بكر وعمر، فقبّلا رأس علي عليه السلام»[٣].

وروى عليّ بن حكيم الأودي قال: «سمعت أبا بكر بن عيّاش يقول: لقد ضَرَبَ علي عليه السلام ضربةً ما كان في الإسلام ضربة أعزُّ منها - يعني ضربةَ عَمرو بن عبد ودٍّ، ولقد ضُرِبَ عليٌّ ضربة ما كان في الإسلام أشأم منها - يعني ضربة ابن ملجم لعنه الله»[٤].

وقد أدرك جابر الأنصاري أن ضربة علي عليه السلام لعمرو بن عبد ود تعني نهاية الأحزاب فكان يقول: «فما شبّهتُ قتلَ علي عمراً إلاّ بما قَصّ الله تعالى من قصّة

---

(١) أي لا يسمى له لأنه لا يدرك.

(٢) الإرشاد: ٢ / ١٠٣، وإعلام الورى: ١٩٥، وشرح نهج البلاغة: ١٩ / ٦٠.

(٣) ابن أبي الحديد، شرح النهج: ١٣ / ٢٨٤ و ١٩ / ٦٣، ومجمع البيان: ٨ / ٣٤٤.

(٤) شرح نهج البلاغة: ١٩ / ٦١، ومناقب آل أبي طالب: ٣ / ٢٣٨.

داود وجالوت حيث يقول: ﴿فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ﴾[(١)].

وقد أدرك بعض المؤرخين أيضاً أن غزوة الخندق قد انتهت بهزيمة الأحزاب بعد أن «سعى نحو - أي نحو عمرو بن عبد ود - علي بن أبي طالب وقتله وقتل بعده صاحباً له، وكان قتلهما سبب هزيمة الأحزاب على كثرة عددهم ووفرة عُدَدهم»[(٢)].

بعد هذا وذاك، وبعد أن سُجِّلت الحادثة في سجلات التاريخ، وأثبت رواتها، وتداولتها الأجيال جيلا بعد جيل، يأتي من يشكك في حديث رسول الله ﷺ بل يرفضه من أساسه! وينسبه آخر إلى رافضي افتراه!

يقول ابن تيمية: «والحديث الذي ذكر عن النبي ﷺ أنه قال: قتل عليّ لعمرو بن عبد ودٍّ، أفضل من عبادة الثقلين، من الأحاديث الموضوعة، ولهذا لم يروه أحد من علماء المسلمين في شيء من الكتب التي يعتمد عليها، بل ولا يعرف له إسناد صحيح ولا ضعيف. وهو كذب لا يجوز نسبته إلى النبي ﷺ، فإنه لا يجوز أن يكون قتل كافر أفضل من عبادة الجن والإنس، فإن ذلك يدخل فيه عبادة الأنبياء، وقد قُتل من الكفّار من كان قتله أعظم من قتل عمرو بن عبد ودٍّ. . . وعمرو بن عبد ودٍّ هذا لم يعرف له ذكر في غزاة بدر ولا أُحد، ولا غير ذلك من مغازي قريش، التي غزوا فيها النبي ﷺ، ولا في شيء من السرايا، ولم يشتهر ذكره إلاّ في قصّة الخندق، مع إن قصته ليست مذكورة في الصحاح ونحوها. . . ولا كان من مقدّمي القتال»[(٣)].

---

(١) البقرة: ٢٥١، والرواية في ارشاد الشيخ المفيد: ١/ ١٠٢، واعلام الورى للطبرسي: ١/ ٣٨٢.

(٢) ابن العنبري، غريغوريوس الملطي (ت ٦٨٥هـ)، تاريخ مختصر الدول: ٩٥، أُفست منابع الثقافة الإسلامية - بيروت.

(٣) ابن تيمية: أحمد بن عبد الحليم، منهاج السنة: ٨ / ١٠٨ - ١١٠ (بتلخيص)، تحقيق الدكتور محمد رشاد سالم، طبعة مؤسسة قرطبة، الطبعة الأُولى، (١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م).

ولابن تيمية منهج معروف في التشكيك في فضائل أهل البيت عليهم السلام وتكذيبها بشكل سافر، ومن دون دليل أو برهان علمي، وهذه القضية واحدة من عشرات القضايا التي شكك فيها وكذبها في كتابه «منهاج السنة» ومؤلفاته الأُخرى.

ولا يمكننا التوقف طويلا عند هذه القضايا ومناقشتها لأنها خارجة عن موضوع بحثنا، وقد كفانا بعض المحققين مؤونة ذلك فجزاهم الله خيراً[(١)].

وقد ردّ الحلبي الشافعي في السيرة الحلبية على ابن تيمية بقوله: «ويَرد عليه أنّ عمرو بن عبد ود هذا لم يعرف له ذكر إلاّ في هذه الغزوة.. وكان عمرو بن عبد ود قد قاتل يوم بدر حتى أثبتته الجراحة فلم يشهد يوم أُحد فلما كان يوم الخندق خرج معلماً، أي جعل له علامة يعرف بها ليرى مكانه، ويرده أيضاً: ما تقدم من أنه نذر أن لا يمس رأسه دهناً حتى يقتل محمداً صلى الله عليه وآله وسلم.

واستدلاله بقوله: كيف يكون ضربة عمرو أفضل من عبادة الثقلين.. فيه نظر، لأنّ قتل هذا كان فيه نصرة للدين وخذلان للكافرين»[(٢)].

هذا وقد أنكر ابن تيمية أن يكون لحديث رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بحق علي عليه السلام، اسناد صحيح ولا ضعيف ثمّ ترقّى وقال «وهو كذب لا يجوز نسبته إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم»! وإن قصته ليست مذكورة في الصحاح.. ولا ندري ما هو منهج ابن تيمية في الحكم على الرواية بالصحة أو الضعف؟ فالرواية لها سند معروف رواها «بهز بن حكيم» الذي قال فيه أبو داود: «بهز بن حكيم أحاديثه صحاح»[(٣)].

---

(١) للتوسع: انظر الميلاني - علي، دراسات في منهاج السنة، وعبد الحميد - صائب، ابن تيمية حياته وعقائده.

(٢) الحلبي، السيرة الحلبية: ٢ / ٤٢٨ الطبعة الحديثة.

(٣) الصحيح من سيرة النبي صلى الله عليه وآله وسلم: ٩ / ٣٦١ - ٣٦٢.

أما عدم ذكر الرواية في كتاب الصحاح، فهذا لا يقلل من شأن الرواية إذ ما أكثر الأحاديث الصحيحة والمتواترة التي لم تذكر في كتاب الصحاح، والرواية ذكرها الحاكم في المستدرك على الصحيحين.

أما ما قاله الذهبي عن الحديث بقوله: «قبح الله رافضياً افتراه»[١] فهو مردود عليه، فالذي روى الحديث من الصحابة، ووصفه ابن داود بأن أحاديثه صحيحة، ولم يعرف بين المحدثين بكونه رافضياً حتى تردّ روايته، كذلك كتاب المستدرك على الصحيحين للحاكم النيشابوري لا يعد من كتب الرافضة، فكيف تسنى لرافضي أن يدس هذا الحديث فيه؟

ومهما يكن من أمر فإن قتل عمرو بن عبد ودٍّ، التي وقعت بعد مضي قرابة شهر من الحصار على أصح الأقوال[٢] كان من أهم الأسباب في هزيمة الأحزاب بالاضافة إلى الريح العاتية التي أرسلها الله تعالى عليهم، وأُمور أُخرى يأتي تفصيلها.

ورحم الله الشاعر الأزري البغدادي وهو يخلد هذه الضربة بقوله:

فانتضى مَشرَفيّهُ فتلقّى ساقَ عمرو بضربة فبراها
وإلى الحشر رنّةُ السيفِ منهُ يملأُ الخافقين رَجعُ صداها
يا لها ضربةً حَوَت مَكْرُمَات لم يَزِن ثقلَ اجرها ثقلاها
هذه من عُلاهُ إحدى المعالي وعلى هذه فَقِس ما سِواها[٣]

---

(١) تلخيص مستدرك الحاكم للذهبي (مطبوع في هامش المستدرك نفسه): ٣ / ٣٢ .

(٢) انظر الصحيح من سيرة النبي: ٩ / ٣٩٦ (الهامش) .

(٣) شرح الأزرية لأحمد معتوق: ٤١، طبعة دار السلام - بيروت .

٥ - الحرب خدعة، ودور نعيم بن مسعود في ذلك

الذي يلفت نظر الباحث في غزوة الخندق هو الدور الذي قام به اليهود وعلى رأسهم حيي بن أخطب ورفاقه من يهود بني النضير، في تحزيب الأحزاب والاتيان بهم إلى المدينة، ثمّ تحركهم على يهود بني قريظة وحملهم على نقض العهد مع رسول الله ﷺ والمسلمين.

إلاّ أن الباحث لا يجد أي دور عسكري يذكر لهؤلاء اليهود بعد ذلك سوى محاولة لإرسال حمولة من الشعير والتمر والتبن من يهود بني قريظة إلى جيش الأحزاب، إلاّ أن المسلمين غنموها ولم تصلهم(١).

كذلك لا نجد جيش الأحزاب بقيادة أبي سفيان قد اعتمد على هؤلاء اليهود عسكرياً في المواجهة مع رسول الله ﷺ مع أن يهود بني قريظة كانوا في موقع استراتيجي وخلف ظهر المسلمين! فلا اليهود بادروا للقيام بدور عسكري في هذه الغزوة، ولا الأحزاب طلبت من هؤلاء اليهود القيام بدور معين، واستمر هذا الموقف السلبي إلى الأيام الأخيرة من هذه الغزوة.

والذي يبدو - وتؤيده الوقائع والنصوص - أنّ السبب في ذلك هو أزمة الثقة بين الطرفين فلم تكن قريش والأحزاب تولي ثقتها باليهود، ولا اليهود يثقون ويطمئنون بقريش والأحزاب.

وأزمة الثقة بين الطرفين كان واضحاً من أول الأمر، إذ طلبت قريش من اليهود اعترافاً رسمياً بأحقية دينها وقضيتها فاعترفت لهم اليهود بذلك، كذلك طلب أبو سفيان من حيي بن أخطب أن يتحرك على يهود بني قريظة لتنقض عهدها مع رسول الله ﷺ يؤكد عدم ثقة أبي سفيان بهؤلاء اليهود، والحوار الذي

---

(١) السمهودي، وفاء الوفا: ١ / ٣٠٤ .

جرى بين حيي بن أخطب وكعب بن أسد صاحب عهد بني قريظة يؤكد بدوره أزمة الثقة بين الطرفين، وقد مرّت بنا نصوص هذه الحوارات.

أضف إلى ذلك ما هو معروف عن اليهود ودورهم في اشعال الحروب بين القبائل العربية، ووقوفهم خارج ساحة الصراع موقف المتفرج بانتظار ما تسفر عنه تلك المعارك. والتي تكون دائماً لصالحهم لأنّها تُضْعِّف كلا الطرفين المتصارعين، وشواهد تاريخ الصراع بين قبيلتي الأوس والخزرج خير شاهد على ذلك، كما مرّ بنا في بداية الحديث عن العهد المدني من هذه الدروس.

ولو عدنا إلى نص الحوار الساخن بين حيي بن أخطب وكعب بن أسد لاتضح لنا هذا الأمر أكثر، يقول حيي مخاطباً كعباً: «ويحك.. جئتك بقريش على قادتها وسادتها، وجئتك بكنانة... وجئتك بغطفان... والعدد عشرة آلاف، والخيل ألف فرس، وسلاح كثير، ومحمّد لا يفلت في فورنا هذا، وقد تعاقدوا وتعاهدوا ألاّ يرجعوا حتى يستأصلوا محمداً ومن معه»[١].

فلم يطلب منه أي دعم عسكري لجيش الأحزاب سوى نقض العهد الذي بينه وبين رسول الله ﷺ.

وخلاصة الأمر: أن جيش الأحزاب بنفسه لم يكن متماسكاً تماسكاً قوياً، إذ كان يتألف من مجموعة من القبائل، وكل له أغراضه وأطماعه الخاصة، وأزمة الثقة المستحكة بين جيش الأحزاب واليهود كانت واضحة من أول الأمر، وانتظار اليهود لنتائج الغزوة من دون أن يكون لهم دور عسكري فيها، كل هذه الأُمور سهلت مهمة «نُعيم بن مسعود» التي ترسمها لنا بعض نصوص السيرة النبوية بشكل قد يكون فيه بعض المبالغة.

فمن هو «نعيم بن مسعود»؟ وما كان دوره في هذه الغزوة؟

---

(١) الواقدي، المغازي: ١ / ٤٥٥ - ٤٥٦، وابن هشام، السيرة النبوية: ٣ / ٢٢١ .

لقد مرّ بنا سابقاً دور «نعيم بن مسعود» في غزوة بدر الصغرى، وما قام به من تخذيل في صفوف المسلمين في المدينة وتخويفهم بالجيش القادم إليهم من مكة بقيادة أبي سفيان بن حرب[١]، إلاّ أنه لم يوفق في مهمته تلك.

وهنا نلتقي بهذا الرجل وهو يقوم بنفس الدور السابق، ولكن هذه المرّة في صفوف جيش الأحزاب ومن تحالف معهم من القبائل واليهود، ولصالح المسلمين! إلاّ أنه كان موفقاً هذه المرة.

والنصوص التاريخية لغزوة الأحزاب تسلط الأضواء على دور «نعيم بن مسعود» كفصل أخير لهذه الغزوة.

قال ابن إسحاق: «ثمّ إنّ نعيم بن مَسعود... أتى رسول الله ﷺ، فقال: يا رسول الله، إني قد أسلمت، وإن قومي لم يعلموا بإسلامي، فمرني بما شئت، فقال رسول الله ﷺ: إنما أنت رجل واحد، فخذّل عنا[٢] إن استطعت، فإن الحرب خُدعة.

فخرج نعيم بن مسعود حتى أتى بني قريظة، وكان لهم نديماً في الجاهلية، فقال: يا بني قريظة، قد عرفتم ودّي إياكم، وخاصّة ما بيني وبينكم، قالوا: صدقت، لست عندنا بمتّهم؛ فقال لهم: إنّ قريشاً وغطفان ليسوا كأنتم، البلد بلدكم، فيه أموالكم وأبناؤكم ونساؤكم، لا تقدرون على أن تحوّلوا منه إلى غيره، وإنّ قريشاً وغطفان قد جاؤوا لحرب محمّد وأصحابه، وقد ظاهرتموهم عليه، وبلدهم وأموالهم ونساؤهم بغيره، فليسوا كأنتم، فإن رأوا نُهزة[٣] أصابوها، وإن كان غير ذلك لحقوا ببلادهم وخلّوا بينكم وبين الرجل ببلدكم، ولا طاقة لكم به إن خلا بكم، فلا تُقاتلوا مع القوم حتى تأخذوا منهم رُهُناً من

---

(١) المصدر نفسه: ١ / ٣٨٥ - ٣٨٦.

(٢) خذل عنا: أي ادخل بين القوم حتى تخذل بعضهم بعضاً.

(٣) النُهزة: الفرصة، وانتهاز الشيء واختلاسه.

أشرافهم، يكونون بأيديكم ثقة لكم على أن تقاتلوا معهم محمداً حتى تناجزوه، فقالوا: لقد أشرتَ بالرأي.

ثمّ خرج حتى أتى قريشاً، فقال لأبي سفيان بن حرب ومن معه من رجال قريش: قد عَرفتم ودّي لكم وفِراقي محمداً، وإنه قد بلغني أمر قد رأيت عليَّ حقّاً أن أبلغكموه، نصحاً لكم، فاكتموا عني ; فقالوا: نفعل، قال: تعلّموا أن معشر يهود قد نَدموا على ما صنعوا فيما بينهم وبين محمد، وقد أرسلوا إليه: إنا قد نَدمنا على ما فَعلنا، فَهل يرضيك أن نأخذ لك من القبيلتين، من قريش وغطفان رجالا من أشرافهم فنعطيكهم، فَتضرب أعناقهم ثمّ نكون معك على من بَقي منهم حتى نستأصلهم؟ فأرسل إليهم: أن نعم.

فإن بعث إليكم يهود يلتمسون منكم رُهناً من رجالكم فلا تدفعوا إليهم منكم رجلا واحداً.

ثمّ خرج حتى أتى غطفان، فقال: يا معشر غطفان، إنكم أصلي وعشيرتي، وأحبّ الناس إليّ، ولا أَراكم تتّهموني، قالوا: صدقت، ما أنت عندنا بمتَّهم، قال: فاكتموا عني، قالوا: نفعل، فما أمرك؟ ثمّ قال لهم مثلُ ما قال لقريش وحذّرهم ما حذّرهم»[(١)].

هكذا رويت قصة دور نُعيم بن مسعود في التخذيل بين الأحزاب في أغلب المصادر التاريخية، إلاّ أن الواقدي في المغازي بعد أن يروي القصة بالشكل الذي نقلناه عن ابن إسحاق، يذكر روايات أُخرى لهذه القصة ثمّ يعقب على ذلك بقوله: قال ابن واقد: وأثبت الأشياء عندنا قول نُعيم الأول[(٢)] ولم يعلق الواقدي على ذلك.

---

(١) ابن هشام، السيرة النبوية: ٣ / ٢٢٩ - ٢٣٠، والواقدي، المغازي: ١ / ٤٨٠ وما بعدها، والطبري: ٢ / ٥٧٨ - ٥٧٩ .

(٢) الواقدي، المغازي: ١ / ٤٨٤ - ٤٨٧، وقارن بما ذكر الصحيح من سيرة النبي: ٩ / ٤١٠ وما بعدها .

وهذا يعني انه يرجح النص التاريخي الذي ذكره أولا لأنه أقرب إلى الصواب.

ومهما يكن من أمر نعيم بن مسعود والدور الذي قام به، فإن أبا سفيان كان يبحث عن أي مبرر للإنسحاب من أطراف المدينة، إلى مكة بعد أن طال زمن مكوثهم فيها، فوجد فيما قاله نعيم فرصة ثمينة لاقناع رجال قريش وغطفان بالانسحاب، فاختار وفداً من هؤلاء أرسلهم إلى يهود بني قريظة ليسمعوا بأنفسهم ما يقوله هؤلاء اليهود، ثمّ بعد عودتهم يحسم الأمر بالانسحاب.

قال ابن إسحاق: «أرسل أبو سفيان ورؤوس غطفان إلى بني قريظة، عكرمة ابن أبي جهل، في نفر من قريش وغطفان، فقالوا لهم: إنّا لسْنا بدار مقام، قد هلك الخفّ والحافر»[1]، فاغدوا للقتال حتى نناجز محمداً ونفرغ ممّا بيننا وبينه.

فأرسلوا إليهم: إنّ اليوم السّبت، وهو يوم لا نعمل فيه شيئاً، ولسنا مع ذلك بالذين نقاتل معكم حتى تعطونا رُهناً من رجالكم، يكونون بأيدينا ثقة لنا، حتى نناجز محمداً، فإنّا نخشى إن ضرّستكم الحرب، واشتدّ عليكم القتال، أن تشمّروا إلى بلادكم وتتركونا والرّجل في بلدنا، ولا طاقة لنا بذلك من محمد.

فلمّا رجعت إليهم الرّسل بالذي قالت بنو قريظة، قالت قريش وغطفان: تعلمون والله أنّ الذي حدّثكم نعيم بن مسعود لحقّ.

فأرسلوا إلى بني قريظة: إنّا والله لا ندفع إليكم رجلا واحداً من رجالنا، فإن كنتم تريدون القتال فاخرجوا فقاتلوا.

فقالت بنو قريظة حين انتهت الرّسل إليهم بهذا: إنّ الذي ذكر لكم نعيم بن مسعود لحقّ، ما يريد القوم إلاّ أن يقاتلوا، فإن وجدوا فرصة انتهزوها، وإن كان

---

(١) يريد «بالخف»: الإبل، و «بالحافر»: الخيل.

غير ذلك تشمّروا إلى بلادهم، وخلّوا بينكم وبين الرجل في بلادكم.

فأرسلوا إلى قريش وغطفان: إنّا والله لا نقاتل معكم حتى تعطونا رُهناً، فأبوا عليهم، وخذّل الله بينهم، وبعث الله عزّ وجل عليهم الريح في ليال شاتية شديدة البرد، فجعلت تكفأ قدورهم، وتطرح أبنيتهم (آنيتهم).

فلمّا انتهى إلى رسول الله ﷺ ما اختلف من أمرهم، وما فرّق الله من جماعتهم، دعا حذيفة بن اليمان، فبعثه إليهم لينظر ما فعل القوم ليلا»[1].

وهكذا أدّت مَهمَّة ابن مسعود إلى انعدام الثقة بالكامل بين الوثنية واليهود، بعد أن كانت مجرد تشكيك في النوايا وأزمة ثقة بين الطرفين، وهذا ما كان رسول الله ﷺ يهدف إليه، إذ إن أي توحد أو تنسيق بين وثنية قريش من الخارج، ويهود بني قريظة من الداخل سيسمح للمشركين فرصة الاغارة على المدينة عبر أحياء بني قريظة.

ولهذا كان تفتيت جبهة الأحزاب وتقطع الرباط الذي يشد بعضها إلى بعض، هدفاً استراتيجياً للنبي ﷺ ، من خلال ما ألقاه على نعيم بن مسعود الذي نجح في مهمته، وكان ذلك بداية النصر الذي بدأ يلوح في الأُفق بعد حصار لم تعهده المدينة في تاريخها.

٦ - دعاء النبي ﷺ وجُند الله، والريح العاصف

تنقل لنا نصوص غزوة الخندق أدعية للنبي ﷺ على الأحزاب، واستجابة الله سبحانه لدعائه ﷺ.

يروي الواقدي عمّن حدثه... عن جابر بن عبد الله قال: «دعا رسول الله ﷺ على الأحزاب في مسجد الأحزاب يوم الاثنين ويوم الثلاثاء ويوم

(١) ابن هشام، السيرة النبوية: ٣ / ٢٣٠ - ٢٣١، والطبري: ٢ / ٥٧٨ - ٥٧٩، وقارن بروايات الواقدي في المغازي: ١ / ٤٨٠ - ٤٨٧.

الأربعاء، فاستجيب له بين الظّهر والعصر يوم الأربعاء.

قال: فعرفنا السرور في وجهه. قال جابر: فما نزل بي أمر غائظ مهمّ إلاّ تَحيَّنت تلك الساعة من ذلك اليوم، فأدعو الله فأعرف الإجابة.

وفي نص آخر عن جابر أيضاً قال: قام رسول الله ﷺ على الجبل الذي عليه المسجد، فدعا في إزار ورفع يديه مدّاً، ثمّ جاءه مرّة أُخرى فصلّى ودعا.

وكان عبد الله بن أبي أوفى يحدّث أنّ رسول الله ﷺ دعا على الأحزاب فقال: اللهمّ مُنزِلُ الكتاب، سَريع الحساب، أهزم الأحزاب، اللهمّ اهزمهم»[1].

وقد ذكرت للنبي ﷺ أدعية أُخرى في هذه الواقعة فلتراجع في مظانها[2].

جُند الله التي لا ترى:

تتحدث الآية التاسعة من سورة الأحزاب عن جُند الله في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَاۚ﴾.

وكانت الجنود التي أتت المؤمنين هم: قريشاً وغطفان وأسداً وسُليماً، الذين كانوا يشكلون جيش الأحزاب، والذي بلغ عدده عشرة آلاف رجل كما في النصوص التاريخية.

أما الجنود التي بعثها الله تعالى عليهم ﴿وَجُنُوداً لَمْ تَرَوْهَا﴾ فقد فسرت بالريح والملائكة وأضاف بعضهم إلى الريح «الظلمة»[3].

---

(١) الواقدي، المغازي: ١ / ٤٨٧ - ٤٨٨.

(٢) للتوسع انظر: دلائل النبوة للبيهقي: ٣ / ٤٠٣ - ٤٠٤، وبحار الأنوار للمجلسي: ٩١ / ٢١٢ - ٢١٣.

(٣) ابن هشام، السيرة النبوية: ٣ / ٢٤٥، وتاريخ اليعقوبي: ٢ / ٥٠.

والنصوص التاريخية حول ما صنعته الريح بهم من مصائب كثيرة، فقال بعضهم: «أرسل الله تعالى عليهم الريح، فهتكت القباب، وكفأت القدور، ودفنت الرجال! وقطعت الأوتاد، فانطلقوا لا يلوي أحد على أحد». وفي نص آخر: «وكانت الريح التي أرسلها الله سبحانه عليهم هي ريح الصبا، فأكفأت قدورهم، وطرحت آنيتهم، ونزعت فساطيطهم»(١).

وسوف يأتينا من حديث حذيفة بن اليمان عما فعلت تلك الريح مزيد توضيح لهذا الأمر.

أما النصوص التاريخية التي تتحدث عن الملائكة، وحضورها لتخذيل الأحزاب، فهي ترسم لهم دوراً لا يختلف عن دور الريح، إذ «يظهر من بعض النصوص: أن ما فعلته الريح هو نفس ما فعلته الملائكة، وأن حركة الريح هي حركة الملائكة بالذات»(٢).

وعن دور الملائكة في هذه الغزوة يقول الطبرسي في المجمع: «إنّ الملائكة لم يقاتلوا يومئذ، بل كانوا يشجعون المؤمنين، ويجبنون الكافرين»(٣).

وفي رواية المجلسي في البحار: «جاءت الملائكة، فقالت: يا رسول الله، إنّ الله قد أمرنا بالطاعة لك، فمرنا بما شئت، فقال ﷺ: زعزعي المشركين وأرعبيهم، وكونوا من ورائهم، ففعلت بهم ذلك»(٤).

ولهذا قيل: «إنما بعث الله الملائكة تزجر خيل العدو وابلهم، فقطعوا مدة

---

(١) السيرة الحلبية: ٢ / ٤٣٧، وتاريخ الخميس: ١ / ٤٩١ .

(٢) الصحيح من سيرة النبي ﷺ: ٩ / ٤٢٧ .

(٣) الطبرسي، مجمع البيان: ٨ / ١٢٤، طبعة مؤسسة الأعلمي - بيروت .

(٤) بحار الأنوار: ٢٠ / ٢٤٨، والمجلد ٩ / ١٣٩ من الطبعة الحديثة .

ثلاثة أيام في يوم واحد فارين منهزمين»[١].

أما عن عدد الملائكة وصفاتهم وشمائلهم.. فهذا ما سكتت عنه الآية القرآنية والروايات التاريخية أيضاً وإن حاول بعضهم أن يقحم نفسه في هذا الميدان ويقول «إنّهم كانوا ألفاً»[٢].

وخلاصة الأمر:

لقد فعلت العوامل الغيبية التي سخرها الله تعالى في هذه الغزوة فعلتها في جيش الأحزاب، وشتت شملهم، فكانوا لا يسمعون في معسكرهم إلاّ أصوات الرياح العاتية، وتكبير الملائكة، «الذي كثر في جوانب عسكرهم حتى كان سيّد كلِّ حي يقول: يا بني فلان هلم، حتى إذا اجتمعوا عنده قال: النجاة النجاة، أُتيتم»[٣].

٧ - النبي ﷺ يستطلع خبر الأحزاب من خلال حذيفة بن اليمان

ذكر ابن إسحاق، والواقدي، والطبري خبر إرسال النبي ﷺ حذيفة بن اليمان في تلك الليلة العاصفة.

قال إبن إسحاق: عن محمد بن كعب القرظي، قال: «قال رجل من أهل الكوفة لحذيفة بن اليمان: يا أبا عبد الله، أرأيتم رسول الله ﷺ وصحبتموه؟ قال: نعم، يا ابن أخي ; قال: فكيف كنتم تصنعون؟ قال: والله لقد كنا نجهد، قال:

---

(١) الصالحي الشامي - محمد بن يوسف، سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد: ٤ / ٥٤٦. تحقيق: إبراهيم الترزي وزميله، طبعة المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية - القاهرة، (١٤١٨ هـ - ١٩٩٧ م).

(٢) تاريخ الخميس: ١ / ٤٩١.

(٣) العامري - عماد الدين يحيى، بهجة المحافل وبغية الأماثل: ١ / ٢٦٩. طبعة دار صادر - بيروت، (د - ت).

والله لو أدركناه ما تركناه يمشي على الأرض ولحملناه على أعناقنا.

فقال حذيفة: يا ابن أخي، والله لقد رأيتنا مع رسول اللهﷺ بالخندق، وصلّى رسول اللهﷺ هُوِيّاً[١] من الليل، ثمّ التفت إلينا فقال: مَن رجل يقوم فينظر لنا ما فعل القوم ثمّ يرجع - يشرط له رسول اللهﷺ الرّجعة - أسأل الله تعالى أن يكون رفيقي في الجنة؟ فما قام رجل من القوم، من شدّة الخوف، وشدّة الجوع، وشدّة البرد، فلما لم يقم أحد، دعاني رسول اللهﷺ فلم يكن لي بدّ من القيام حين دعاني، فقال: يا حذيفة، اذهب فادخل في القوم، فانظر ماذا يصنعون ﴿يفعلون﴾، ولا تحدثنَّ شيئاً حتى تأتينا.

قال - حذيفة -: فذهبت، فدخلت في القوم والريح وجنود الله تفعل بهم ما تفعل، لا تقرُّ لهم قِدراً ولا ناراً ولا بناء.

فقام أبو سفيان، فقال: يا معشر قريش: لينظر امرء مَن جليسه؟ قال حذيفة: فأخذتُ بيد الرجل الذي كان إلى جنبي، فقلت: مَن أنت؟ قال: فلان بن فلان.

ثمّ قال أبو سفيان: يا معشر قريش، إنكم والله ما أصبحتم بدار مُقام، لقد هَلَك الكُراع والخف، وأخلفتنا بنو قريظة، وبلغنا عنهم الذي نكره، ولقينا من شدّة الريح ما تَرون. . . فارتحلوا فإني مرتحل! ثمّ قام إلى جَمله وهو مَعقول، فجلس عليه، ثمّ ضربه، فوثب به على ثلاث، فوالله ما أطلق عقاله إلاّ وهو قائم، ولولا عهد رسول اللهﷺ إليّ «أن لا تُحدث شيئاً حتى تأتيني» لقتلته بسهم.

قال حذيفية: فرجعتُ إلى رسول اللهﷺ وهو قائم يصلي. . . فلما سلّم أخبرته الخبر. . .»[٢].

---

(١) هويا من الليل (بفتح الهاء وضمها): قطعة مِنه.

(٢) ابن هشام، السيرة النبوية: ٣ / ٢٢٢ - ٢٢٤، والطبري: ٢ / ٥٧٩ - ٥٨١ (برواية إبن إسحاق)، والواقدي في المغازي: ١ / ٤٨٨ - ٤٩١ بزيادة تفاصيل في الرواية.

وفي رواية الواقدي تتمة مهمة تعكس كيفية انسحاب الأحزاب بذلّة وهوان فيقول: «وقام أبو سفيان، وجلس على بعيره وهو معقول، فناداه عكرمة بن أبي جهل: إنك رأس القوم وقائدهم، تقشع وتترك الناس؟ فاستحيى أبو سفيان فأناخ جمله ونزل عنه، وأخذ بزمامه وهو يقوده، وقال: ارحلوا! فجعل الناس يرتحلون وهو قائم حتى خف العسكر، ثمّ قال لعمرو بن العاص: يا أبا عبد الله، لابدّ لي ولك أن نقيم في جريدة - مجموعة - من خيل بازاء محمد وأصحابه، فإنّا لا نأمن أن نطلب حتى ينفد العسكر. فقال عمرو: أنا أُقيم، وقال لخالد بن الوليد: ما ترى يا أبا سليمان؟ فقال: أنا أيضاً أُقيم، فأقام عمرو وخالد في مائتي فارس، وسار العسكر إلاّ هذه الجريدة - أي المجموعة - على متون الخيل... وأقامت الخيل حتى كان السّحر، ثمّ مضوا فلحقوا الأثقال والعسكر مع ارتفاع النهار بملل، فغدوا إلى السيالة... ثمّ تفرّقت كلّ قبيلة إلى محالّها»[1].

هكذا ارتحلت الأحزاب تجر ذيول الهزيمة والعار، بعد أن كانت على طمع في الاغارة على المدينة واستئصال أهلها.

٨ - عودة النبي والمسلمين إلى المدينة

مع إشراقة الصباح مدّ المسلمون بأبصارهم اتجاه جموع الأحزاب في الطرف الآخر للخندق، فلم يجدوا من تلك الجموع والجحافل أحداً، ولم يبق إلاّ آثارهم الواهية التي أتت عليها ريح الصبا، فتركتها كالحشيم المحتضر.

عندها أيقن المسلمون بنصر الله وعنايته بهم، ففرحوا بذلك، وخفوا مسرعين إلى المدينة لا يلوون على شيء.

يقول الواقدي: فلمّا أصبح رسول الله ﷺ بالخندق، أصبح وليس بحضرته

---

(١) الواقدي، المغازي: ١ / ٤٩٠ - ٤٩١ .

أحد من العساكر، قد هربوا وذهبوا.

ولمّا أصبحوا أذن رسول الله ﷺ للمسلمين في الانصراف إلى منازلهم، فخرجوا مبادرين مسرورين بذلك، وكره رسول الله ﷺ أن تعلم بنو قريظة رجعتهم إلى منازلهم، فأمر بردّهم، وبعث من يُنادي في أثرهم، فما رجع رجل واحد.

وكان ممن يردّهم عبد الله بن عمر، أمره رسول الله ﷺ، قال عبد الله: «فجعلت أصيح في أثرهم في كلٍّ ناحية: أنّ رسول الله أمركم أن ترجعوا، فما رجع رجل واحد منهم من القُرّ[1] والجوع. فكان يقول: كره رسول الله ﷺ يرى سرعتهم، وكره أن يكون لقريش عيون.

قال جابر بن عبد الله: أمرني رسول الله ﷺ أن اردّهم، فجعلتُ أصيح بهم فما يرجع أحد، فانطلقت في أثر بني حارثة، فوالله ما أدركتهم حتى دخلوا بيوتهم، ولقد صحتُ فما يخرج إليّ أحد من جَهد الجوع والقرّ، فرجعتُ إلى النبي ﷺ فألقاه في بني حرام منصرفاً، فأخبرته فضحك ﷺ»[2].

٩ - أسباب هزيمة الأحزاب

لقد انهزمت الأحزاب في هذه الغزوة شرّ هزيمة، ولم تشهد قريش وحلفاؤها هزيمة في تاريخ حروبها وغزواتها كما شهدته في هذه الغزوة، إذ لم تقم لها قائمة بعدها أبداً، وهو مغزى قول النبي ﷺ في نهاية هذه الغزوة «الآن نغزوهم ولا يغزوننا» وهي كلمة معبرة لها مداليلها التي سوف نتوقف عندها.

وللنصر والهزيمة أسباب ومسببات، لابد من معرفتها والتوقف عندها، واستخلاص العبر منها. وفي غزوة الخندق تظافرت جملة من العوامل أدت في

---

(١) القر: البرد الشديد.

(٢) الواقدي، المغازي: ١ / ٤٩١ - ٤٩٢.

النتيجة إلى نصر المسلمين وهزيمة جيش الأحزاب ووثنية العرب التي تحالفت مع شخصيات يهود بني النضير وبني قريظة.

وقد ذكر بعض الباحثين في السيرة جملة من الأسباب لهزيمة الأحزاب وانتصار المسلمين ورجح بعضها على الأُخرى.

وقبل أن نستعرض كلمات الباحثين في هذه الأسباب، لابد لنا من العودة إلى القرآن الكريم من خلال آيات سورة الأحزاب حيث يقول سبحانه وتعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا﴾[1].

فما أرسله الله وسخره لهذه المعركة من «ريح عاتية، وجند لا ترى» كان له الأثر والدور الكبير في هزيمة الأحزاب.

إلاّ أنا أشرنا سابقاً إلى أنّ روح الهزيمة عند قائد جيش الأحزاب أبي سفيان كانت كامنة تبحث عمن يحررها من عقالها، فوجدها فرصة في تلك الليلة الليلاء ذات الريح والبرد وأصوات جند الله فقال بصوت عال «ارتحلوا فإني مرتحل».

فمن خلال ما أشار إليه القرآن الكريم، ومن خلال النصوص التاريخية لهذه الغزوة يمكن لنا أن نستعرض جملة من أسباب هزيمة الأحزاب كما يلي:

أولا: انعدام الثقة بين فئات الأحزاب المتحالفة في هذه الغزوة، قريش ويهود بني النضير وبني قريظة، وكذلك قبائل غطفان وأسد وسليم، وقد أشرنا إلى ذلك سابقاً، وكان لنعيم بن مسعود دور مهم في تعميق أزمة الثقة هذه وبث الفرقة بينهم.

ثانياً: عامل الزمن الذي لم يكن في صالح الأحزاب إذ واجهتهم مصائب

---

(١) الأحزاب: ٩.

في الامدادات لهم ولدوابهم، بالاضافة إلى أجواء الخريف والشتاء الباردة التي لم يعتادها عرب مكة ومن حولها.

ثالثاً: ما أرسله الله عليهم من الريح والجنود التي لا ترى الذي كان له الأثر الكبير في هذه الهزيمة وإن لم يكن السبب الأوحد فيها، إذ لم يصرح القرآن الكريم بأن هزيمة الأحزاب كان سببه ذلك.

رابعاً: تشتت قيادة جيش الأحزاب: فقد كانت قيادة جيش الأحزاب في الظاهر بيد أبي سفيان بن حرب إلاّ أنّه كان لكل قبيلة قائدها، ولم تكن للأحزاب قيادة موحّدة تستطيع السيطرة والتوجيه ووضع الخطط اللازمة وتلافي الأخطاء... وقد كان من المستحيل اتفاقهم على قائد منهم ليسيطر على الجميع، لأنّ هذا القائد سينال شرفاً عظيماً يتميز به على الآخرين، ولا يمكن للآخرين أن يرضوا بهذا الامتياز وحتى قيادة أبي سفيان الجزئية كانت خاوية وضعيفة مثلما كانت في غزوة أُحد أيضاً.

خامساً: المباغتة بالخندق:

لقد كان حفر الخندق مباغتة تامة للأحزاب و «مكيدة لم تعرفها العرب في حروبها» فلم تكن العرب تعرف هذا الأسلوب، كما لم تكن تعرف أُسلوب القتال المناسب لاجتياز الخندق والتغلب على المدافعين عنه.

لذلك بقي القتال «مُستكناً»[1] طول مدّة الحصار، عدا محاولات قليلة قام بها المشركون لمحاولة اجتياز الخندق باءت كلها بالفشل الذريع»[2].

سادساً: عامل الخوف والرعب الذي دخل قلوبهم بعد مقتل فرسانهم من

---

(١) القتال المُستكِن: هو القتال الجامد الخالي من قابلية الحركة التي بدونها لا نصر في الحرب.

(٢) خطاب، الرسول القائد: ٢٣٤ - ٢٣٥ (مرجع سابق).

أمثال عمرو بن عبد ود ونوفل بن عبد الله وهزيمة باقي فرسانهم الذين عبروا الخندق.

ويعتبر هذا السبب من أهم أسباب هزيمة الأحزاب المعنوية والنفسية ومن بعدها هزيمتهم العسكرية بل إنَّ بعض المؤرخين يجعله السبب الرئيسي لهزيمة الأحزاب.

يقول ابن العبري في تاريخ مختصر الدول: «وكان قتلهما - عمرو بن عبد ود ونوفل - سبب هزيمة الأحزاب على كثرة عَددهم، ووفرة عُددهم»[١].

ويقول ابن أبي الحديد المعتزلي: «الذي هزم الأحزاب هو علي بن أبي طالب، لأنه قتل شجاعهم وفارسهم «عمرو» لما اقتحموا الخندق...»[٢].

وهو رأي الشيخ المفيد في الإرشاد إذ يقول: «فتوجه العتب إليهم... ولم ينج من ذلك أحد بالاتفاق إلاّ أمير المؤمنين عليه السلام إذ كان الفتح له، وعلى يديه، وكان قتله عمرو ونوفل بن عبد الله، سبب هزيمة الأحزاب»[٣].

وفي الدر المنثور للسيوطي: «أخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه وابن عساكر عن ابن مسعود (رضي الله عنه) أنه كان يقرأ هذا الحرف ﴿وَكَفَى اللهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ﴾ بعلي بن أبي طالب»[٤].

وهذه هي أهم الأسباب التي ذكرها المؤرخون لهزيمة الأحزاب وانتصار المسلمين في غزوة الخندق أو غزوة الأحزاب، وقد تكون ثمّة أسباب أُخرى يمكن أن تنتظم مع هذه الأسباب.

إلاّ أننا - ونحن نستعرض هذه الأسباب الظاهرية للنصر - ينبغي أن

---

(١) ابن العبري، تاريخ مختصر الدول: ٩٥ .

(٢) شرح نهج البلاغة: ٥ / ٧ .

(٣) الإرشاد للمفيد: ٢ / ١٠٥ .

(٤) السيوطي، تفسير الدر المنثور: ٦ / ٥٥ .

لا نغفل عن السبب الحقيقي لكلِّ نصر حظي به المسلمون فيوقائعهم وغزواتهم والذي أكّده القرآن الكريم في أكثر من مناسبة بقوله تعالى: ﴿وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِنْدِ اللهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾[١].

وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَنصُرُوا اللهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾[٢].

وقوله تعالى: ﴿إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللهُ فَلاَ غَالِبَ لَكُمْ﴾[٣].

إلى ما شاء الله من الآيات القرآنية التي تؤكد هذا المعنى وترسخه في وجدان المؤمنين.

والقرآن الكريم أسند إلى الله سبحانه كل ما تم من أحداث في هذه الغزوة: ﴿وَرَدَّ اللهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْراً وَكَفَى اللهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللهُ قَوِيّاً عَزِيزاً﴾.

وكان رسول اللهﷺ يؤكد هذا المعنى في كل مواقع الحسم والانتصار الذي خاضه جند الإسلام لدحر الشرك والوثنية واعلاء لكلمة التوحيد الإلهية.

وفي غزوة الخندق، وبعد أن دُحر الأحزاب وانهزموا، أكّد رسول الله هذا المعنى بما روي عنهﷺ أنه كان يقول: «لا إله إلاّ الله وحده، أعزّ جُنده، ونصر عبده، وغلب الأحزاب وحده، فلا شيء بعده»[٤]. وعندما قال عبد الله بن الزبعرى يمدح قريشاً في يوم الخندق، التي يقول في آخرها:

حتى إذا وردوا المدينة وارتَدوا للموت كل مُجرَّب قضّاب
شهراً وعشراً قاهرين محمداً وصِحابه في الحرب خير صَحاب

---

(١) آل عمران: ١٢٨، والأنفال: ١٠ .

(٢) محمد: ٧ .

(٣) آل عمران: ١٦٠، وانظر كلمة (نَصَرَ) من المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم .

(٤) الذهبي، تاريخ الإسلام (المغازي): ٣٠٣ - ٣٠٤، وصحيح البخاري، حديث: ٤١٤ المغازي.

نادوا برحلتهم صبيحةَ قُلتُم كدنا نكون بها مع الخُيّاب
لولا الخَنادق غادروا من جَمعهم قتلى لطير سُغَّب وذئاب

أجابه كعب بن مالك بأبيات يقول في آخر بيت منها:

جاءت سَخينةُ كي تُغالب ربّها فَلَيُغْلَبَنَّ مُغالبُ الغَلاّبِ

قال له رسول الله ﷺ : لقد شكرك اللهُ يا كعب على قولك هذا(١).

١٠ - الدروس والعبر المستفادة من غزوة الأحزاب

لمّ تشهد غزوة الخندق هذه معركة ميدانية والتحام بين جيشين إلاّ في مورد واحد، ولم يقع فيها شهداء من المسلمين وقتلى من المشركين إلاّ عدد يسير، إلاّ أن هذه الغزوة تميزت عن غيرها من الغزوات السابقة واللاحقة لها بامتيازات كثيرة، تشكل بدورها منظومة من الدروس والعبر والعظات، ومن أهمها:

أولا: التعاطف اليهودي الوثني:

لقد قامت هذه الغزوة على تحالف غير مقدس بين رجالات اليهود من بني النضير الذين كانوا قد أُخرجوا من المدينة سابقاً، وبين وثنية العرَب والمشركين المتمثلة بقريش والقبائل المتحالفة معها. والملفت للنظر في هذا التحالف هو انعدام الثقة بين الطرفين، فلم تستجب رؤوس الوثنية في قريش لمطالب اليهود إلاّ بعد أن أخذوا إقراراً منهم بأفضلية وثنيتهم على دين التوحيد الذي جاء به محمدﷺ من ربّه. وهو اقرار خطير يزعزع الموقع الديني لهؤلاء اليهود الذين كانت قريش تنظر إليهم نظرة احترام وتقديس باعتبارهم من أهل الكتاب وأهل العلم الأول، فكيف يفضلون الوثنية وعبادة الأصنام على دين توحيدي سماوي جاء به محمدﷺ من الله سبحانه، وكانوا هم يخبرونهم عنه في غابر الزمن!!

---

(١) ابن هشام، السيرة النبوية: ٣ / ٢٥٧ - ٢٦١، وانظر هامش صفحة (٢٦١) من المصدر نفسه.

وهو موقف مدان دفعهم إليه مصالحهم الدنيوية وحقدهم وكراهيتهم للإسلام والمسلمين، وقاتل الله الحقد والتعصب الذي يعمي عن الحق وأهله.

يقول أحد المستشرقين اليهود في إدانة هذا الموقف الذي وقفه أشراف بني النضير: «لكن الذي يلامون عليه بحق، والذي يؤلم كل مؤمن بإله واحد، من اليهود والمسلمين على السواء، إنّما هو تلك المحادثة التي جرت بين نفر من اليهود، وبين قريش الوثنين، حيث فضّل هؤلاء النفر من اليهود أديان قريش، على دين صاحب الرسالة الإسلامية.

نعم إن ضرورات الحروب أباحت للأُمم استعمال الحيل والأكاذيب، والتوسّل بالخداع والأضاليل، للتغلّب على العدوّ، ولكن مع هذا، كان من واجب هؤلاء اليهود، ألاّ يتورطوا في مثل هذا الخطأ الفاحش، وألا يصرّحوا أمام زعماء قريش بأن عبادة الأصنام أفضل من التوحيد الإسلامي، ولو أدّى بهم الأمر إلى عدم إجابة مطلبهم، لأنّ بني إسرائيل الذين كانوا مدّة قرون حاملي راية التوحيد في العالم بين الأُمم الوثنيّة، باسم الآباء الأقدمين، والذين نكبوا بنكبات لا تحصى من تقتيل واضطهاد بسبب إيمانهم بإله واحد في عصور شتّى من الأدوار التاريخية، كان من واجبهم أن يضحّوا بحياتهم، وكل عزيز لديهم، في سبيل أن يخذلوا المشركين. هذا فضلا عن أنهم بالتجائهم إلى عبدة الأصنام، إنّما كانوا يحاربون أنفسهم وبأنفسهم، ويناقضون تعاليم التوراة التي توصيهم بالنفور من أصحاب الأصنام، والوقوف معهم موقف الخصومة»[1].

أما الموقف الثاني من اليهود، والذي يعدُّ أشد نكاية وأكثر غدراً من الموقف الأول، هو اشتراك يهود بني قريظة في هذا التحالف، ونقضهم لكلِّ العهود والمواثيق التي واثقوا عليها رسول الله ﷺ. ومن دون أن يجدوا مبرراً

(١) ولفنسون - د. اسرائيل، تاريخ اليهود في بلاد العرب: ٢٧٠ - ٢٧١.

يدعوهم إلى هذا النقض، بل إن رئيسهم كعب بن أسد اعترف بأنه: «لم يَرَ من محمد إلاّ صدقاً ووفاء». فهل كان جزاء محمدﷺ وصدقه معهم ووفاؤه لعهده وميثاقه وإحسانه إليهم، هو الخيانة والمكر وعدم الالتزام بالعهود والمواثيق؟

«وقد نتج من انضمام بني قريظة إلى جيوش الأحزاب، ونقضهم المعاهدة التي كانت بينهم وبين النبيّ، أن الرسول لم يمهل عليهم بعد تخلّصه من جيوش الأحزاب، بل بدأ يحاصرهم في نفس اليوم الذي أخذت قريش وغطفان تنجلي عن المدينة»[(١)].

إلاّ أن دور اليهود المعادي للإسلام والمسلمين لم ينتهِ عند هذا المقطع التاريخي من واقعة الأحزاب، ومقولتهم التي قالوها لوثنية قريش وسجلها عليهم القرآن الكريم سوف يكررونها، «وهم يقولونها اليوم وغداً، إنهم يشوِّهون بوسائل الدعاية والإعلام التي في أيديهم كل حركة إسلامية ناجحة على ظهر الأرض، ويعينون عليها أهل الباطل، لتشويهها وتحطيمها - بالضبط كما كانوا يعينون مشركي قريش ويستنصرون بهم في الوقت ذاته - لتشويه الحركة الإسلامية وتحطيمها»[(٢)].

ثانياً: المنافقون ومكرهم وتخذيلهم:

وفي هذه الغزوة نلتقى مرّة أُخرى بالمنافقين، إذ وجد هؤلاء في حصار المدينة والشدّة الآخذة بالخناق... فرصة للكشف عن خبيئة نفوسهم، وفرصة للتوهين والتخذيل وبثّ الشك والريبة في وعد الله، ووعد رسوله.

ولا نحتاج إلى مزيد بيان في رسم صورة لدور هؤلاء المنافقين أثناء هذه

(١) المصدر نفسه: ٢٧٧ .

(٢) سيد قطب، في ظلال القرآن: ٢ / ٦٨١ .

الغزوة وما نجم منها من حصار، بعد أن كشف لنا القرآن الكريم - وبأروع بيان - عن حقيقتهم، وجردهم من أقنعتهم التي تستروا بها.

إلاّ أن بلية هؤلاء المنافقين لا تنتهي ومكرهم وكيدهم بالمؤمنين سوف يستمر، ونموذجهم سوف يتكرر، فينبغي الحذر الشديد منهم في كل زمان ومكان، وعدم الركون إلى حلاوة ألسنتهم، وزيف مواقفهم.

يقول سيّد قطب (رحمه الله): «ومثل هؤلاء المنافقين والمرجفين قائمون في كلِّ جماعة، وموقفهم في الشدّة هو موقف إخوانهم هؤلاء، فهم نموذج مكرر في الأجيال والجماعات على مدار الزمان»[1].

ثالثاً: مبدأ المشورة، وحفر الخندق:

ونلتقى مرّة أُخرى في هذه الغزوة بمبدأ المشاورة التي كان النبيﷺ قد ألزم نفسه بها، وخاصة في قضايا الحرب، وقد تحدثنا سابقاً عن هذا المبدأ ودلالاته وآثاره، وليس لدينا ما نضيفه على ما قلناه سابقاً، إلاّ أن الملفت في هذه الغزوة أن استشارة النبيﷺ لأصحابه كان في بداية الاستعداد للغزوة، وفي وسطها أو قبل نهايتها بقليل.

ففي بداية الاستعداد للمواجهة يطرح النبيﷺ في مجلسه الاستشاري جملة من الافكار حول ما يجب أن يتخذونه للدفاع عن المدينة، ومنها البقاء فيها مع التخندق، ويطرح سلمان الفارسي رأيه حول البقاء في المدينة والتخندق فيها فيستحسن النبيﷺ الفكرة والمسلمون كذلك.

وفكرة حفر الخندق - سواءً كانت من النبيﷺ وتأييد سلمان الفارسي، أم باقتراح من سلمان من أول الأمر - أفادت المسلمين كثيراً، ودفعت عن المدينة

---

(١) المرجع نفسه: ٦ / ٥٥٤ .

خطراً ماحقاً، وخيبت آمال الأحزاب وطموحاتهم في ما خططوا له، فهو أُسلوب جديد في المواجهة، لم يكن متعارفاً في الجزيرة العربية.

وهذه القضية تعني في دلالتها الكثيرة - بالاضافة إلى أهمية الشورى في حياة المسلمين - «ان الحكمة ضالة المؤمن، فحيثما وجدها أخذ بها، وأن الشريعة الإسلامية بمقدار ما تكره للمسلمين اتباع غيرهم وتقليدهم على غير بصيرة، تحب لهم أن يجمعوا لأنفسهم أطراف الخير كلّه، والمبادئ المفيدة جميعها، أينما لاح لهم ذلك، وحيثما وجد»[١].

إنّ الإسلام لا يضيق ذرعاً بالاستفادة مما عند الأُمم الأُخرى من تجارب تفيد الأُمة وتنفع المجتمع، وما حفر الخندق إلاّ مثالا على ذلك.

أما المورد الثاني الذي استشار فيه النبي أصحابه من الأنصار، فهو يتعلّق بقضية المفاوضات مع قبيلة غطفان للانسحاب من جيش الأحزاب مقابل ثلث تمر المدينة. وقد تحدثنا عن هذه القضية في موضعه المناسب، وبينا بعض المناقشات فيه.

ولقد حُمِّلت هذه القضية من اللوازم الغريبة عنها الشيء الكثير، واستدل بها على بعض الأحكام التي تتعلّق بنظام الجزية، والقضية بعيدة كل البعد عن ذلك، وليس فيها من هذه الدلالات العجيبة[٢].

ومهما يكن من أمر هذه القضية، إلاّ أنها أَبرزت للنبيﷺ القوة المعنوية التي يتمتع بها أصحابه الصادقون، ومدى اعتمادهم على نصر الله وتوفيقه على الرغم من هذا الذي فوجئوا به من اجتماع أشتات المشركين عليهم في كثرة ساحقة، إلى جانب ما طلعت به بنو قريظة في الوقت نفسه من نقض العهود والمواثيق[٣].

---

(١) البوطي، فقه السيرة: ٣٢١ .

(٢) المصدر نفسه: ٣٢٥ - ٣٢٦، وقارن بما ذكر في الصحيح من سيرة النبي: ٩/ ٢٤٢ وما بعدها.

(٣) انظر المصدر نفسه: ٣٢٥ .

رابعاً: الرّسول، القائد، والداعية:

لقد كانت قيادة الرّسولﷺ في هذه الغزوة - كغيرها من الغزوات - قيادة قوية حازمة رشيدة، من أول ساعات وصول الخبر إليهﷺ بتحشد الأحزاب لمهاجمة المدينة، إلى آخر لحظات انسحاب جيش الأحزاب وهو يجر ذيول الهزيمة.

وقد استعرضنا ومن خلال النصوص التاريخية كلّ الاجراءات العسكرية التي اتخذها النبيﷺ للمواجهة، ولا نريد أن نكرر ما ذكرناه سابقاً.

إلاّ أن الذي ينبغي أن نؤكد عليه في هذا المقطع، أنّ قيادة النبيﷺ في الوقت الذي كانت قيادة ميدانية حازمة، وساهرة على مصالح المسلمين، والحفاظ على مكتسبات الدولة الإسلامية الفتية، إلاّ أنهﷺ كان الداعية والإنسان، إذ كان يدعو المسلمين إلى المشاركة في المسؤولية العظيمة من خلال مشاركته بنفسه للمسلمين في كل ما يتحملونه من أذى ومعاناة في سبيل الله، ويفيض عليهم من إنسانيته، وبما كانت تمتلئ به نفسه من محبة لأصحابه ومن شفقة عليهم، «فأنت تجد أن رسولﷺ الله، لم يندب المسلمين إلى حفر الخندق، ثمّ ذهب يراقبهم في قصر منيف له مستريحاً هادئاً، ولا أقبل إليهم في احتفال صاخب رنان ليمسك معول أحدهم بأطراف أصابعه، فيضرب به ضربة واحدة في الأرض ايذاناً ببدء العمل، وتحييلا لهم أنه قد شاركهم فيه، ثمّ يلقي المعول ويدير إليهم ظهره، لينفض عن حلته ما قد علق بها من ذرات غبار!

ولكن رسول اللهﷺ - الداعية والإنسان والقائد - قد انخرط في العمل كأي واحد من أصحابه، حتى لبس ثوباً من الأتربة والغبار على جسمه، فما تفرق عن أي عامل آخر من صحبه وإخوانه، يرتجزون لينشط بعضهم بعضاً، فيرتجز معهم، ويتعبون ويجوعون فيكون أولهم تعباً وجوعاً.

وتلك هي حقيقة ما أقامته الشريعة الإسلامية من مساواة بين الحاكم

والمحكوم، والغني والفقير، والصعلوك والأمير، وأنت لا تجد فرعاً من فروع الشريعة وأحكامها إلاّ قائماً على هذا الأساس، ضماناً لهذا الحق»[١].

خامساً: الكرامات النبوية في غزوة الخندق:

ولقد رأينا ما رافق النبيﷺ عند حفر الخندق من أُمور خارقة عجيبة، تعدُّ من المعاجز أو من كرامات النبوة، وقد نقل ابن إسحاق والواقدي طرفاً من هذه الكرامات والخوارق، ونقلنا بدورنا شيئاً منها.

والذي نستفيده من هذه القضية ونؤكد عليه هو: أن هذه الكرامات والخوارق والتي يسميها البعض - تسامحاً - بالمعاجز، لا يمكن لنا انكارها بالكامل، أو تفسيرها تفسيراً مادياً لا تنسجم مع واقعها، أو مع شخصية النبيﷺ المؤيد من السماء، والمسدد بالمؤيدات الإلهية.

وكيف يمكننا انكارها - على كثرتها - وبعد ورودها في عيون مراجع السيرة، وتضمنتها كتب الحديث والصحاح، وكشف واقع المسلمين المستبقلي عن كثير منها، من قبيل ما أخبر بهﷺ من فتح اليمن، والشام والمغرب والمشرق، أو ما فتح الله على المسلمين من قصور كسرى وقيصر.

وما الفرق بيننا حينئذ، - إن أنكرناها - عن أُولئك الذين قالوا: «كان محمد يعدنا أن نأكل كنوز كسرى وقيصر، وأحدنا اليوم لا يأمن على نفسه أن يذهب إلى الغائط»[٢]. والذين حكى لنا القرآن الكريم مقولتهم في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾﴾[٣].

إلاّ أنّ الذي ينبغي أن نؤكد عليه، هو: ضرورة التثبت والتدقيق فيما ينسب

---

(١) المصدر نفسه: ٣٢٢ .

(٢) ابن هشام: ٣ / ٢٢٢ .

(٣) الأحزاب: ١٢ .

إلى النبيﷺ من كرامات وأُمور خارقة، والتأكد من رواتها ودلالاتها ومضامينها. وأن لا ننجرَّ في بيان سيرته المعطاءة إلى النزعة التي سار عليها بعض المتصوفة والدراويش وأصحاب الطرق.

وغني عن التذكير والتأكيد: «إن هذه الخوارق التي أجراها الله تعالى على يد رسوله محمدﷺ ، ليست هي معجزته التي تحدى فيها الناس أن يأتوا بمثلها، إنما المعجزة الكبرى هي القرآن الذي تحدى العالمين أن يأتوا بمثله، ولا يمكن أن يأتوا بمثله، ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً»[١].

سادساً: دور علي عليه السلام في غزوة الخندق:

لقد تحدثنا بالتفصيل عن دور الإمام علي عليه السلام في غزوة الخندق من خلال النصوص والدلالات الدالة عليها، وذلك لأهمية هذا الدور من جهة، وما ترتب عليه من آثار من جهة أُخرى.

إلاّ أن الملفت في هذه القضية هو التنكر لها من قبل المؤرخين، والتشكيك في أهميتها من قبل بعض آخر ممن ليس له إلاّ التنكر والتشكيك في فضائل علي وأهل البيت عليهم السلام .

إلاّ أن هؤلاء المؤرخين ومن تبعهم من المشككين. . ما أضروا إلاّ بأنفسهم إذ ابتعدوا عن الموضوعية والأمانة العملية، واندفعوا وراء أهوائهم السياسية أو المذهبية أو المطامع المادية العاجلة. . . ومضوا شوطاً بعيداً في الابتعاد عن الحق وأهله، وعن بيان الحقيقة كما هي ناصحة للأجيال القادمة، لتقتبس منها الضياء والنور والهدى.

«ولكن هيهات أن تستتر فضائل علي عليه السلام مهما اجتهد أئمة التحريف والتزوير لا لإطفاء نوره، إلاّ أنه ما زاده إلاّ رفعة وسمّواً، وكان كالمسك كلّما

---

(١) أبو زهرة - محمد، خاتم النبيين: ٢ / ٩٢٥، طبعة المكتبة العصرية - صيدا - بيروت، (د-ت).

سُتر انتشر عَرفه، وكلّما كُتم تضوّع نشره، وكالشمس لا تستر بالراح، وكضوء النهار إن حجبت عنه عين واحدة، أدركته عيون كثيرة»[١].

سابعاً: دلالات قول رسول الله ﷺ: «الآن نغزوهم ولا يغزوننا»:

لقد رويت هذه الكلمة عن النبي ﷺ بعد مقتل عمرو بن عبد ود كما هي عند الشيخ المفيد وابن أبي الحديد[٢]، أو بعد جلاء الأحزاب كما يقول بعض المؤرخين.

إلاّ أنه لا فرق بين القولين إذ لم تكن بعد مقتل عمرو بن عبد ود وصاحبه نوفل ابن عبد الله وفرار الباقين من فرسان قريش إلاّ فاصلة زمنية قليلة لم يحصل فيها شيء يرقى في أهميته إلى حادث مقتل عمرو وصاحبه سوى الريح وجند الله التي شتَّتت شمل الأحزاب، وقد رويت هذه الكلمة المعبرة عن رسول الله ببعض الألفاظ الأُخرى مع وحدة المضمون فيها.

ففي رواية ابن أبي الحديد في النهج: إنّ رسول الله ﷺ قال يوم قُتل عمرو: «ذهبت ريحهم، ولا يغزوننا بعد اليوم، ونحن نغزوهم إن شاء الله»[٣].

وفي بعض المصادر الأُخرى: «الآن نغزوهم ولا يغزوننا، نحن نسير إليهم»[٤].

وفي رواية ابن إسحاق: «لن تغزوكم قريش بعد عامكم هذا، ولكنكم

---

(١) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة: ١ / ١٧ (المقدمة)، وانظر ما قاله الحاكم النيسابوري في المستدرك تعليقاً على الأحاديث الواردة في قتل علي عليه السلام لعمرو بن عبد ود، مستدرك الحاكم: ٣/ ٣٤ .

(٢) الإرشاد: ١ / ١٠٥ - ١٠٦، وشرح نهج البلاغة: ١٩ / ٦٢ .

(٣) شرح نهج البلاغة: ١٩ / ٦١ .

(٤) العامري - جمال الدين، بهجة المحافل: ١ / ٢٧١ .

تغزونهم»[١].

وصدق رسول الله ﷺ إذ لم تقم لقريش وحلفائها بعد غزوة الخندق قائمة، ولم تجهز جيشاً لمحاربة رسول الله ﷺ حتى فتح مكة.

وللحديث دلالات كثيرة أوجزها رسول الله ﷺ في هذه الألفاظ القليلة المعبرة.

لقد كانت غزوة الخندق أو غزوة الأحزاب هي المعركة الحاسمة - وإن لم يقع فيها قتال كبير - بعد معركة بدر وأُحد، إذ لو نجح فلول المشركين ومن تحالف معهم من اليهود في هذه المعركة لما بقي للإسلام باقية، ولهدمت صوامع وبيع ومساجد يذكر فيها اسم الله، ولبسطت الوثنية بأجنحتها على الجزيرة العربية مرّة أُخرى.

إلاّ أن عزم رسول الله ﷺ وقيادته الحكيمة وصبر المؤمنين ومقاومتهم للحصار.. قد آتت ثمارها بنصر مؤزر، وليس هذا فحسب، بل إن الموقف العسكري إزاء الوثنية قد تبدل أساساً، وانقلب من الدفاع إلى الهجوم في اليوم الذي انتهت به غزوة الخندق. لماذا؟

يقول أحد الباحثين:

«ومن الحق أن يعتبر ارتداد الأحزاب عن المدينة نصراً عظيماً، ولا نرتاب في أنه كان ذا أثر كبير فيما تم من تعالي الإسلام وانتشار قوته ودعوته فيما بعد.. وإنه كان لهذا الارتداد - الهزيمة - أثره السلبي والايجابي في آن واحد، إذ جعل العرب المتربصين، والاعداء والمنافقين في المدينة، يرون في هذه النتيجة دلالة النصر الرباني، والقوة المعنوية، فيقفون عند حدهم.

(١) ابن هشام، السيرة النبوية: ٣ / ٢٥٤، والسيرة النبوية لابن كثير: ٣ / ٢٢١ - ٢٢٢.

ولم يفكر المكيون - الوثنيون - بعد هذه الغزوة بمتابعة عدوانهم، ولم يعد في الامكان بعد هذا اليوم أن تجتمع خصوم المدينة على هذه الصورة، فقد أصبحت قريش تشك في ولاء القبائل العربية، كما أصبحت القبائل نفسها تشك في قدرة قريش؛ وفي إمكانها من التغلب على المسلمين»[١].

لقد انتقلت المبادرة إلى يد المسلمين بعد هذه الغزوة، ولم يتركوها حتى شَمُل الإسلام شبه الجزيرة العربية كلّها، وارتفعت راية الإسلام شرقاً وغرباً فوق كل راية.

﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُواْ خَيْرًاۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴿٢٥﴾﴾[٢].

(١) خليل - عماد الدين، دراسة في السيرة: ٢١٨ - ٢١٩، والرسول القائد: ٢٣٩ .

(٢) الأحزاب: ٢٥ .

الأسئلة:

١ - ما هي الأسباب التي دعت المشركين لتشديد الحصار على المسلمين؟

٢ - من هو عمرو بن عبد ود؟ ولماذا أحجم المسلمون عن منازلته؟

٣ - ما هو الدور الذي قام به علي بن أبي طالب في غزوة الأحزاب؟

٤ - كيف قيّم رسول الله ﷺ موقف علي عليه السلام يوم الأحزاب؟

٥ - ما هو الدور الذي قام به نعيم بن مسعود بين فلول الأحزاب؟

٦ - ما هي أهم الأسباب التي أدت إلى هزيمة الأحزاب؟

٧ - ما هي الدروس والعبر المستفادة من التحالف اليهودي الوثني في غزوة الأحزاب؟

٨ - كيف استفاد المسلمون من مبدأ المشاورة والأخذ برأي سلمان الفارسي في حفر الخندق؟

٩ - ما هي دلالات مشاركة الرسول ﷺ في حفر الخندق؟

١٠ - ما هي دلالات قول النبي ﷺ : «الآن نغزوهم ولا يغزوننا»؟

الدرس الخامس عشر
أحداث ووقائع السنة الخامسة من الهجرة
غزوة يهود بني قريظة

محاور البحث:

١ - مَن هُم بنو قريظة
٢ - تاريخ الغزوة وأسبابها
٣ - دعوة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم المسلمين للقتال
٤ - علي بن أبي طالب عليه السلام يتقدم برايته إلى بني قريظة
٥ - محاصرة بني قريظة في قلاعهم
٦ - مفاوضات بني قريظة مع النبي صلى الله عليه وآله وسلم
٧ - أبو لبابة الأنصاري وقصته وتوبته
٨ - اسلام نفر من اليهود
٩ - نزول بني قريظة على حكم رسول الله
١٠ - حُكم سعد بن معاذ في بني قريظة
١١ - مقاتل بني قريظة
١٢ - الغنائم والفيء من بني قريظة
١٣ - شهادة سعد بن معاذ
١٤ - مقتل سلام بن أبي الحقيق
١٥ - شبهات المستشرقين حول واقعة بني قريظة
١٦ - الدروس والعبر
• الأسئلة

«غزوة بني قريظة»

المدخل

تعتبر غزوة بني قريظة امتداداً لغزوة الأحزاب، والجزء المكمل لها، بل يمكن اعتبارهما غزوة واحدة مع الاختلاف في التسمية فيهما، إذ إنّ يهود بني قريظة بعد أن نقضوا عهدهم وميثاقهم مع النبيﷺ أصبحوا في عداد جيش الأحزاب المتكون من وثنية قريش والقبائل المتحاربة معها، وحسابهم في ميزان العقاب واحد، وقد يكون عقاب بني قريظة أشد وأنكى ; لنقضهم العهد وغدرهم بالمسلمين في أشدِّ الأوقات الحرجة.

فبعد أن عادت فلول قريش وغطفان وأسد وسليم. . إلى ديارهم خائبين، انكفأت يهود بني قريظة إلى آطامهم وحصونهم مرتقبين ما سوف ينزل بهم من عقاب كانوا يتوقعونه.

وما كان رسول اللهﷺ والمسلمون ليتركونهم بعد فعلتهم وغدرتهم تلك، ومن المستبعد في الحسابات السياسية والأمنية أن يجدد العهد معهم، بعد أن نقضوه من طرف واحد وبلا مبرر، وفي أحلك الظروف وأقساها.

وما كان رسول اللهﷺ ليمهلهم حتى يستجمعوا قواهم ويستحكموا حصونهم. . بل باغتهم بعد سويعات قليلة من انسحاب الأحزاب، وقد يكون قبل وصول خبر الانسحاب والانهزام إليهم.

فكانت غزوة بني قريظة بما فيها من تفاصيل ذكرها المؤرخون ونحن بدورنا نقتصر على أهمها لنستجلي منها الدروس والعبر والعظات اللازمة.

١ - مَن هُم بنو قريظة؟

لا تسعفنا النصوص التاريخية بتفاصيل دقيقة عن يهود بني قريظة، سوى شذرات قليلة، وملامح باهتة لا يمكن أن نستجمع أجزاءها ; لنستكمل منها صورة واضحة عنهم.

فالمعروف عند المؤرخين أن يهود الحجاز كانوا قبائل وعشائر وبطوناً، منهم: بنو النضير، وبنو قريظة، وبنو قينقاع، وبنو عكرمة... وإنهم كانوا حَضَراً استقروا في الأماكن التي نزلوا فيها.

وقد عرف بنو قريظة وبنو النضير من بين اليهود بـ (الكاهنين)، نسبوا ذلك إلى جدهم الذي يقال له (الكاهن)، وهو كاهن بن هارون بن عمران، على زعم بعض الأخبار[١].

فهم على هذه النسبة من أصل رفيع، ومن نسب حسيب، يميزهم عن بقية طوائف اليهود، ولهذا كانوا يفتخرون بنسبهم هذا، ويرون لهم السيادة والشرف على من سواهم من إخوانهم في الدين[٢].

وكان لبني قريظة حصون، يتحصنون بها وقت الخطر، ولهم آبار، وكانوا رجال فلاحة وزراعة، وكانت منازلهم بالعالية على واديين يقال لهما: مذينيب ومهزور، حيث يقع مسجد بني قريظة - الذي أعدّه النبيﷺ أيام محاصرته لهم للصلاة فيه - بالقرب من الحرّة الشرقية، والتي تعرف بحرة واقم، وحرة بني قريظة، لأنهم كانوا بطرفها القبلي[٣].

---

(١) د. جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام: ٦/ ٥٢٢ نقلا عن الأغاني للاصفهاني.

(٢) المصدر نفسه: ٦ / ٥٢٢، وقارن بما ذكره السمهودي في وفاء الوفاء: ١ / ١٦٢.

(٣) السمهودي، وفاء الوفاء: ١ / ١٦١ و ٣ / ٨٢٣ - ٨٢٤ و ٤ / ١١٨٨.

وعلى هذا يعدُّ بنو قريظة من سكان أطراف المدينة في منطقة العوالي التي تشكل مجموعة قرى محيطة بالمدينة.

وكان يهود بني قريظة قد دخلوا في العهد والميثاق الذي كتبه النبيﷺ معهم، وصاحب عهدهم كعب بن أسد القرظي، «الذي وادع رسول اللهﷺ على قومه، وعاقده على ذلك وعاهده... والذي شهد بأنه لم يرَ من محمد إلاّ صدقاً ووفاء»(١).

٢ - تاريخ غزوة بني قريظة وأسبابها

قال الواقدي: «سار إليهم النبيﷺ يوم الأربعاء لسبع بقين من ذي القعدة، فحاصرهم خمسة عشر يوماً، ثمّ انصرف يوم الخميس لسبع خلون من ذي الحجة سنة خمس»(٢).

وهذا التاريخ هو نفس التاريخ الذي انصرف فيهﷺ من غزوة الخندق، إذ إن النبيﷺ «انصرف من غزوة الخندق يوم الأربعاء لسبع ليال بقين من ذي القعدة»(٣).

أما سبب هذه الغزوة فهو ما قامت به يهود بني قريظة من غدر وخيانة من خلال نقضهم لعهدهم وميثاقهم مع النبيﷺ.

لقد سبب نقض بني قريظة لعهدهم أذى كثيراً للمسلمين، وأطال عليهم مدة حصارهم، وانتهزها المنافقون فرصة لتخذيل الناس وإشاعة اليأس في أوساطهم.

---

(١) ابن هشام، السيرة النبوية: ٢ / ٢٢٠ - ٢٢١.

(٢) الواقدي، المغازي: ١ / ٤٩٦، وابن سعد، الطبقات: ٢ / ٢٨٦.

(٣) تاريخ الخميس للديار بكري: ١ / ٤٩٢ نقلا عن المواهب اللدنية، والتنبيه والإشراف للمسعودي: ٢١٧.

على أن هذا النقض - الذي هو غدر وخيانة في آن واحد - قد كشف عما كانت في نفوس هؤلاءاليهود من حقد وكراهية للمسلمين، ولم يكونوا صادقين في عهدهم وإنما كانوا ينتظرون الفرصة المناسبة وقد جاءتهم من خلال جيش الأحزاب.

«لقدكان من الطبيعي جداً أن يصفي المسلمون حسابهم مع أُولئك الخونة الغادرين، وأن يكيلوا لهم بنفس الكيل الذي أرادوا أن يكيلوا به لهم. من أجل ذلك بادر رسول الله ﷺ بمحاصرة بني قريظة، غداة انكشاف الأحزاب عن المدينة، ورأى أن مباغتتهم قبل أن يستكملوا عدتهم ويقووا حصونهم هو الواجب الأول»(١).

٣ - دعوة الرّسول ﷺ المسلمين للتوجه إلى بني قريظة

قال ابن إسحاق والواقدي: «ولما أصبح رسول الله ﷺ - صباح يوم الأربعاء لسبع بقين من ذي القعدة سنة خمس - انصرف عن الخندق راجعاً إلى المدينة والمسلمون، ووضعوا السلاح، فلما كانت الظّهر، أتى جبرئيل رسول الله ﷺ. معتجراً بعمامة من استبرق، على بغلة عليها رحاله، عليها قطيفة من ديباج، فقال: أقد وضعت السلاح يا رسول الله؟ قال: نعم، فقال جبرئيل: فما وضعت الملائكة السلاح بعد، وما رجعت الآن إلاّ من طلب القوم، إنّ الله عزّ وجل يأمرك يا محمد بالمسير إلى بني قريظة، فإني عامد إليهم فمزلزل بهم، فأمر رسول الله ﷺ مؤذّناً، فأذن في الناس، من كان سامعاً مطيعاً فلا يصلينّ العصر إلاّ ببني قريظة، واستعمل على المدينة ابن أُمّ مكتوم»(٢).

---

(١) دويدار، صور من حياة الرسول: ٤٣٤ - ٤٣٥، طبعة دار المعارف بمصر، الطبعة الرابعة، (د - ت).

(٢) ابن هشام، السيرة النبوية: ٣ / ٢٣٣، والواقدي، المغازي: ١ / ٥٠١ .

٤ - علي بن أبي طالب عليه السلام يتقدم برايته إلى بني قريظة

قال ابن إسحاق: «وقدّم رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب برايته إلى بني قريظة، وابتدرها الناس، فسار علي بن أبي طالب، حتى إذا دنا من الحصون - غرز الراية عند أصل الحصن - فسمع منها مقالة قبيحة لرسول الله ﷺ ، فرجع حتى لقي رسول الله ﷺ بالطريق، فقال: يا رسول الله، لا عليك أن لا تدنو من هؤلاء الأخابث؛ قال: لِمَ؟ أظنك سمعت منهم لي أذى؟ قال: نعم يا رسول الله؛ قال ﷺ : لو رأوني لم يقولوا من ذلك شيئاً.

فلما دنا رسول الله ﷺ من حصونهم، قال: يا إخوان القِردة، هل أخزاكم الله وأنزل بكم نقمته؟ قالوا: يا أبا القاسم، ما كنت جهولا.

ولما أتى رسول الله ﷺ بني قريظة، نزل على بئر من آبارهم من ناحية أموالهم، يقال لها بئر «أنا».

قال ابن إسحاق: وتلاحق به الناس، فأتى رجل منهم من بعد العشاء الآخرة، ولم يصلوا العَصر، لقول رسول الله ﷺ : لا يصلينَّ أحد العصر إلاّ ببني قريظة، فشغلهم ما لم يكن منه بدّ في حَربهم، وأبوا أن يصلّوا لقول رسول الله ﷺ : حتى تأتوا بني قريظة، فصلّوا العصر بها، بعد العشاء الآخرة، فما عابهم الله بذلك في كتابه، ولا عنّفهم به رسول الله ﷺ»[١].

٥ - محاصرة بني قريظة في حصونهم

وحاصرهم رسول الله ﷺ خمساً وعشرين ليلة، حتى جهدهم الحصار، وقذف الله في قلوبهم الرعب[٢].

---

(١) المصدر نفسه: ٢ / ٢٣٤ - ٢٣٥ .

(٢) ابن هشام، السيرة النبوية: ٣ / ٢٣٣ - ٢٣٥ .

وفي رواية ابن سعد: «فحاصرهم خمسة عشر يوماً، أشدّ الحصار، ورموا بالنبل فانجرحوا فلم يطلع منهم أحد»[١].

وفي رواية الواقدي: «فقدم رسول الله ﷺ الرّماة، وعبّأ أصحابه فأحاطوا بحصونهم مِن كلِّ ناحية، فجعل المسلمون يرامونهم بالنبل والحجارة، وجعل المسلمون يعتقبون فيعقب بعضهم بعضاً، فما برح رسول الله ﷺ يراميهم حتى أيقنوا بالهلكة.

وفي رواية ابن عمر: كانوا يراموننا مِن حصونهم بالنبل والحجارة أشدّ الرّمي، وكنا نقوم حيث تبلغهم نبلنا»[٢].

والذي يبدو من خلال هذه النصوص التاريخية أنه لم يكن هنالك مواجهة قتالية بين المسلمين وبين بني قريظة، سوى التراشق بالنبال والرمي بالحجارة، وما نقله الواقدي «من مبارزة فردية بين أحد اليهود والزبير بن العوام، وان الزبير قتل ذلك اليهودي فنفله رسول الله ﷺ سَلبه. . شكك الواقدي نفسه في هذه الرواية ونقل عن ابن واقد قوله: «ولم يُسمع بهذا الحديث في قتالهم»[٣].

٦ - مفاوضات بني قريظة مع النبي ﷺ لاستسلامهم

اشتد الحصار على بني قريظة، وأيقنوا أن مقاومتهم للحصار لا تنفعهم شيئاً، وأنهم لا ملجأ لهم إلاّ الاستسلام، ولكنهم كانوا يطمحون بالحفاظ على أرواحهم وبعض أموالهم ومتاعهم، أو يكون مصيرهم كمصير يهود بني قينقاع أو بني النضير من قبلهم.

---

(١) ابن سعد، الطبقات: ٢ / ٢٨٧ .

(٢) الواقدي، المغازي: ١ / ٥٠١ .

(٣) المصدر نفسه: ١ / ٥٠٥ .

لهذا كلّه التجأوا إلى المفاوضات مع النبيﷺ «فأرسلوا إلى رسول اللهﷺ «وقالوا: نكلّمك، فقال رسول اللهﷺ : نعم، فأنزلوا نبّاش بن قيس، فكلّم رسول اللهﷺ ساعة وقال: يا محمّد، ننزل على ما نزلت عليه بنو النّضير، لك الأموال والحَلقة وتحقن دماءنا، ونخرج من بلادك بالنساء والذّراري، ولنا ما حملت الإبل إلاّ الحَلَقة، فأبى رسول اللهﷺ .

فقال: فتحقن دماءنا وتسلم لنا النساء والذّريّة، ولا حاجة لنا فيما حملت الإبل. فقال رسول اللهﷺ : لا، إلاّ أن تنزلوا على حكمي.

فرجع نبّاش إلى أصحابه بمقالة رسول اللهﷺ»[1] .

بعد عودة نبّاش خائباً إلى قومه، وإخبارهم بمقالة رسول اللهﷺ ، ازداد يأس بني قريظة، وعلموا يقيناً أن العقاب الصارم نازل بهم لا محالة، فما هو إلاّ القتل والموت الذي لا مفرّ منه، والحوار الساخن الذي جرى بين رؤسائهم وساداتهم بعد عودة نبّاش يعكس لنا شدّة ما كانوا يعانونه من اضطراب ووجل وخوف.

روى ابن إسحاق والواقدي نص هذا الحوار واللفظ للأول: «. . . فلما أيقنوا بأنّ رسول اللهﷺ غير منصرف عنهم حتى يناجزهم، قال كعب بن أسد لهم:

«يا معشر يهود، قد نزل بكم من الأمر ما ترون، وإني عارض عليكم خلالا ثلاثاً، فُخذوا أيها شئتم ; قالوا: وما هي؟

قال: نُتابع هذا الرجل - أي رسول اللهﷺ - ونصدّقه، فوالله لقد تبيّن لكم أنه لنبيٌّ مرسل، وأنه للذي تجدونه في كتابكم، فتأمنون على دمائكم وأموالكم وأبنائكم ونساءكم، ; قالوا: لا نُفارق حكم التّوراة أبداً، ولا نستبدل به غيره.

---

(١) المصدر نفسه: ١ / ٥٠١ .

قال: فإذا أبيتم عليَّ هذه، فهلمّ فلنقتل أبناءنا ونساءنا، ثمّ نخرج إلى محمد وأصحابه رجالا مصلتين السيوف، لم نترك وراءنا ثقلا، حتى يحكم الله بيننا وبين محمد، فإن نَهلك نهلك ولم نترك وراءنا نسلا نخشى عليه، وإن نظهر فَلَعمري لنجدنّ النساء والأبناء. قالوا: نقتل هؤلاء المساكين! فما خير العيش بعدهم؟

قال: فإن أبيتم عليَّ هذه، فإنّ الليلة ليلة السبت، وإنه عسى أن يكون محمد وأصحابه قد أمنونا فيها، فانزلوا لعلّنا نصيب من محمد وأصحابه غِرّة.

قالوا: نفسد سَبتنا علينا، ونحدث فيه ما لم يحدث مَن كان قبلنا إلاّ من قد علمت، فأصابه ما لم يَخْفَ عليك من المسخ!

قال: ما باتَ رجل منكم منذ ولدته أُمه ليلة واحدة من الدهر حازماً»[1].

عجيب أمر اليهود هؤلاء، فلاهم بقوا على عهدهم وميثاقهم مع رسول الله ﷺ وعاشوا عيش السعداء مع المسلمين، ومن دون أن يتعرض أحدٌ لهم ولأموالهم وأعراضهم ودمائهم.

ولا هم يمتلكون الشجاعة والاقدام كي يواجهوا نتيجة ما أقدموا عليه من خيانة ونقض للعهد، ومآزرة لجيوش الأحزاب الوثنية.

ولا هم صدقوا لديانتهم وتوراتهم بعد أن فضلوا وثنية قريش على دين التوحيد الذي جاء به محمد ﷺ من ربّه، والذي صدقته كتبهم وتعاليم دينهم.

فكانوا كما قال لهم رئيسهم وصاحب عهدهم كعب بن أسد الذي نقضه: «ما بات رجل منكم. . . ليلة واحدة من الدهر حازماً» فافتقدوا الحزم والرشد والوفاء والصدق، مع أنفسهم ومع دينهم، ومع المسلمين، فخسروا بذلك كل

(١) ابن هشام، السيرة النبوية: ٣ / ٢٣٥ - ٢٣٦، وقارن برواية الواقدي في المغازي: ١ / ٥٠١ - ٥٠٣.

شيء كما سوف يتبين لنا من مصيرهم الذي انتهوا إليه.

وكان أول من تنطبق عليه مقولة «كعب بن أسد» هو نفسه، فأين كان حزمه عندما استجاب لحيي بن أخطب، ونقض العهد، بعد أن شهد أنه لم يَرَ من محمد إلاّ صدقاً ووفاءً؟

٧ - أبو لبابة الأنصاري، وقصته، وتوبته

حاول يهود بني قريظة مرّة أُخرى أن يجدوا مخرجاً من الورطة التي ورطوا أنفسهم فيها، ومن الحصار الذي أخذ يشتد عليهم، فسعوا للجوء إلى حلفائهم من الأوس لعلهم يجدون عندهم حلاّ لما هم فيه.

قال ابن إسحاق: «ثمّ إنهم - أي يهود بني قريظة - بعثوا إلى رسول اللهﷺ: أن ابعث إلينا أبا لُبابة[١] بن عبد المنذر، أخا بني عمرو بن عوف، وكانوا حلفاء الأوس، لنستشيره في أمرنا.

فأرسله رسول اللهﷺ إليهم، فلما رأوه قام إليه الرجال، وجهشَ إليه النساء والصبيان يبكون في وجهه، فرقَّ لهم.

وقالوا له: يا أبا لبابة! أترى أن ننزل على حُكم محمد؟ قال: نعم، وأشار بيده إلى حلقه، إنّه الذبح»[٢].

لا ندري من أين فهم أبو لبابة أن رسول اللهﷺ مصمم على قتل بني قريظة وذبحهم واستئصالهم؟ هل سمع ذلك من رسول اللهﷺ ؟ فهذا ما لا يحدثنا به أحد من المؤرخين؟ وإذا كان رسول اللهﷺ عازماً على ذلك فلماذا حكّم فيهم

---

(١) هو أبو لبابة بن عبد المنذر بن الزبير الأنصاري المدني، واختلف في اسمه، فقيل: رفاعة، وقيل: مبشر، وقيل: بشير، وفي «الروض الأنف» اسمه: رفاعة. توفي في خلافة علي عليه السلام.

(٢) ابن هشام، السيرة النبوية: ٣ / ٢٣٦ .

سعد بن معاذ؟

لعلّ أبا لبابة قد فهم ذلك من عدم استجابة رسول اللهﷺ لهم بحقن دمائهم، فاستنتج أن رسول اللهﷺ سيذبحهم إن نزلوا على حكمه، وبهذا أشار لبني قريظة[١].

ومهما يكن من أمر، فإن قصة أبي لبابة وتوبته تتداخل - عرضياً - هنا مع قصة مفاوضات يهود بني قريظة، فيذكر المؤرخون قصته، ثم يعودون لاكمال نتيجة المفاوضات والمصير الذي انتهى إليه بني قريظة.

قال أبو لبابة: «فوالله ما زالت قدماي من مكانهما حتى عرفت أني قد خُنت الله ورسولهﷺ ثمّ انطلق أبو لبابة على وجهه ولم يأتِ رسول اللهﷺ حتى ارتبط في المسجد إلى عمود، من عُمده، وقال: لا أبرح مكاني هذا حتى يتوب الله عليَّ مما صنعت، وعاهد الله: أن لا أطأ بني قريظة أبداً، ولا أُرى في بلد خُنتُ الله ورسوله فيه أبداً.

قال ابن هشام: وأنزل الله تعالى في أبي لبابة...: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓاْ أَمَـٰنَـٰتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْـلَمُونَ ﴿٢٧﴾﴾[٢].

قال ابن إسحاق: «فلما بلغ رسول اللهﷺ خبره - وكان قد استبطأه - قال: أما إنه لوجاءني لاستغفرت له، فأما إذ قد فعل ما فعل، فما أنا بالذي أطلقه من مكانه حتى يتوب الله عليه.

أما قصة توبة الله على أبي لبابة فيقول ابن إسحاق: ... إن توبة أبي لبابة نزلت على رسول اللهﷺ من السَّحَر، وهو في بيت أُمّ سلمة.

---

(١) المصدر نفسه: ٣ / ٢٣٦ (الهامش) نقلا عن شرح المواهب.

(٢) الأنفال: ٢٧، وانظر: أسباب النزول للواحدي النيسابوري: ١٥٧، طبعة دار الكتب العلمية - بيروت.

فقالت أُم سلمة: فسمعت رسول الله ﷺ من السَّحَر وهو يضحك، فقلتُ: مِمَّ تضحك يا رسول الله؟ أضحك الله سنّك ; قال ﷺ: تِيبَ على أبي لبابة. قلتُ: أفلا أُبشّره يا رسول الله؟ قال: بلى.

فقامت على حجرتها.. فقالت: يا أبا لُبابة، أبشر فقد تاب الله عليك.

قالت: فثار الناس إليه ليطلقوه، فقال: لا والله حتى يكون رسول الله ﷺ هو الذي يطلقني بيده، فلما مرَّ عليه رسول الله ﷺ خارجاً إلى صلاة الصبح أطلقه.

قال ابن هشام: أقام أبو لبابة مرتبطاً بالجذع ستّ ليال، تأتيه امرأته في كلِّ وقت صلاة، فتحله للصلاة، ثمّ يعود فيرتبط بالجذع.

والآية التي نزلت في توبته قول الله عزّ وجل: ﴿وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُوا۟ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا۟ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠٢﴾﴾[(١)(٢)].

ولا نريد أن نتوقف عند قصة أبي لبابة وتوبته، وما يَرد عليها من إشكالات ومناقشات بعد أن كفانا مؤونة ذلك بعض كتاب السيرة المحدثين[(٣)] إلاّ أن في قصته عبرة وعظة تستحق التأمل فيها.

٨ - اسلام نفر من اليهود

لم يكن أمام يهود بني قريظة فرصة للنجاة من القتل، على جريمة غدرهم ونقضهم للعهد، وممالأتهم للأحزاب.. سوى خيار واحد يحقنون فيه دماءهم،

---

(١) التوبة: ١٠٢.

(٢) ابن هشام، السيرة النبوية: ٢ / ٢٣٦ - ٢٣٨، وقارن برواية الواقدي في المغازي: ١ / ٥٠٥ - ٥٠٩.

(٣) انظر الصحيح من سيرة النبي: ١٢ / ٥٥ - ٧٥.

ويحفظون به أموالهم ونساءهم وأطفالهم من السبي والضياع، وهو الدخول في الإسلام، والإيمان بنبوة النبيﷺ.

إلاّ أن هؤلاء لم يكن فيهم الحزم - كما قال قائلهم - ولا الرشد، ولم يكن عندهم الاستعداد للخروج من تعصبهم وعنجهيتهم وحقدهم الذي أعمى عليهم بصيرتهم، فلم يسلم أحد منهم، إلاّ نفر لا يتجاوز عددهم الثلاثة كما في رواية ابن إسحاق والواقدي، وهؤلاء لم يكونوا من يهود بني قريظة ولا بني النضير، وإنما كانوا من بني هَدَل، وكانوا يسكنون مع بني قريظة في منازلهم التي حصروا فيها.

قال ابن إسحاق: «ثمّ إنّ ثعلبة بن سَعية، وأُسيد بن سَعية، وأسد بن عبيد، وهم نفر من بني هَدل، ليسوا من بني قريظة ولا النضير، نَسَبُهُم فوق ذلك، هم بنو عمٍّ القوم، أسلموا لتلك الليلة التي نزلت فيها بنو قريظة على حكم رسول اللهﷺ»[1].

وفي رواية الواقدي: «إن هؤلاء الثلاثة قالوا لبني قريظة قبل إسلامهم: «يا معشر بني قريظة، والله إنكم لتعلمون أنه رسول الله، وأن صفته عندنا، حدثنا بها علماؤنا وعلماء بني النضير. هذا أولهم - يعني حيي بن أخطب - مع جبير بن الهيِّبان أصدق الناس عندنا، وهو خبّرنا بصفته عند موته، قالوا - أي بني قريظة - لا نُفارق التوراة.

فلمّا رأى هؤلاء النفر إباءهم، نزلوا في الليلة التي في صُبحها نزلت قريظة، فأسلموا فآمنوا على أنفسهم وأهلهم وأموالهم»[2].

---

(١) ابن هشام، السيرة النبوية: ٣ / ٢٣٨ .

(٢) المغازي للواقدي: ١ / ٥٠٣ .

وهنالك قصة شخص آخر من بني قريظة يدعى: عمرو بن سعدي القرظي يذكرها ابن إسحاق والواقدي، لم تتضح لنا معالم ما انتهى إليه مصيره، هل إنه أسلم؟ أم إنه ولّى هارباً[١].

وهنالك قصة امرأة اصطفاها النبيﷺ من غنائم بني قريظة تدعى «ريحانة» يقال أنها أسلمت كما سوف يأتينا لاحقاً.

٩ - نزول بني قريظة على حكم رسول الله ﷺ

قال الواقدي، وابن إسحاق: «ولمّا جهدهم الحصار، ونزلوا على حكم رسول اللهﷺ ، أمر رسول الله بأسراهم فكُتِّفوا رباطاً، وجُعل على كتافهم محمد بن مَسلمة، ونُحّوا ناحية، وأخرجوا النساء والذريّة من الحصون فكانوا ناحية.. وأمر رسول اللهﷺ بجمع أمتعتهم وما وجد في حصونهم من الحَلقة والأثاث والثياب.. وقد وجد فيها: ألف وخمسمائة سيف، وثلاثمائة درع، وألفا رمح، وألف وخمسمائة تُرس.. وأخرجوا أثاثاً كثيراً، وآنية كثيرة، ووجدوا خمراً وجرادَ سَكر، فهريق ذلك كلّه ولم يخمّس، ووجدوا من الجمال النواضح عدّة، ومن الماشية، فجمع ذلك كلّه...»[٢].

والذي يفهم من هذه الرواية أن يهود بني قريظة بعد أن جهدهم الحصار وأضرّ بهم، نزلوا على حكم رسول اللهﷺ ، ومن دون أن يقترحوا أحداً للتحكيم في مصيرهم.

إلاّ أن ابن هشام يروي ان بني قريظة نزلوا على حكم سعد بن معاذ، فيقول: «حدثني بعض من أثق به من أهل العلم: أن علي بن أبي طالب صاح

---

(١) المصدران نفسهما: ٣ / ٢٣٨ و ١ / ٥٠٣ - ٥٠٤ .

(٢) الواقدي، المغازي: ١ / ٥٠٩ - ٥١٠، والسيرة النبوية: ٣ / ٢٣٩ .

وهم محاصرو بني قريظة: يا كتيبة الإيمان، وتقدم هو والزّبير بن العوام، وقال: والله لأذوقنّ ما ذاق حمزة أو لأفتحنَّ حِصنهم، فقالوا: يا محمد، ننزل على حُكم سَعد ابن معاذ»[١].

وفي بعض الروايات التاريخية: «ان بني قريظة نزلوا على حكم النبيﷺ، فردّ الحكم فيهم إلى سعد بن معاذ»[٢].

وقد يكون هذا الرأي هو الأنسب برواية ابن إسحاق في السيرة، والواقدي في المغازي[٣].

ولعلّ نزول بني قريظة على حكم رسول اللهﷺ ليحكم فيهم سعد بن معاذ، سببه الحلف والولاء الذي بينهم وبين قبيلة الأوس التي ينتمي إليها «سعد بن معاذ»، فكانوا يطمعون أن يكون مصيرهم كمصير يهود بني قينقاع الذين كانوا حلفاء الخزرج فتدخل في أمرهم عبد الله بن أبي فوهبهم له كما مرَّ بنا سابقاً. أو يكون مصيرهم كمصير يهود بني النضير الذين رُحّلوا من المدينة من دون أن يتعرضوا للقتل والابادة.

وقد تكون لإشارة أبي لبابة دور في إختيار النزول على حكم سعد بن معاذ، دون حكم رسول اللهﷺ الذي كان يعني «الذبح» بحسب اشارة أبي لبابة لهم!

والذي يلفت النظر في هذه القضية هو اسراع قبيلة الأوس للتدخل في مصير بني قريظة والحاحهم على رسول اللهﷺ بأن يهبهم لهم، وادعاءهم بأن حلفاءهم هؤلاء قد ندموا على ما فعلوا بالأمس من خيانة وغدر ونقض للعهد!

---

(١) ابن هشام، السيرة النبوية: ٣ / ٢٤٠ .

(٢) ابن كثير، السيرة النبوية: ٣ / ٢٣٥، وصحيح مسلم: ٥ / ١٦١ .

(٣) ابن هشام، السيرة النبوية: ٣ / ٢٣٩، والواقدي، المغازي: ١ / ٥١٠ وما بعدها .

يروي الواقدي وابن هشام: «ودنت الأوس إلى رسول الله ﷺ فقالوا: يا رسول الله، حلفاؤنا دون الخزرج، وقد رأيت ما صنعت ببني قينقاع بالأمس حلفاء ابن أُبي، وهبت له ثلاثمائة حاسر وأربعمائة دارع، وقد ندم حلفاؤنا على ما كان من نَقضهم العهد، فَهَبهم لنا. ورسول الله ﷺ ساكت لا يتكلّم، حتى أكثروا عليه وألحّوا ونطقت الأوس كلّها.

فقال رسول الله ﷺ : أما ترضون أن يكون الحكم فيهم إلى رجل منكم؟ قالوا: بلى، قال: فذلك إلى سعد بن معاذ»[١].

والذي تطمئن إليه النفس من هذه الروايات الواردة في هذه القضية، أن يهود بني قريظة وبعد ان اشتد عليهم الحصار دخلوا في مفاوضات مع النبي ﷺ لاستسلامهم، وقدموا جملة من المقترحات والحلول إلاّ أن النبي ﷺ لم يرضَ إلاّ النزول على حكمه، فرضوا بذلك على أمل أن تتدخل قبيلة الأوس في أمرهم لحلفهم العتيد معهم في الجاهلية، ثمّ بعد أن نزلوا على حكم رسول الله ﷺ أُخذوا وكُتفوا وجمعت أموالهم وأمتعتهم. . . ثمّ بعد ذلك تدخلت الأوس فجعل رسول الله ﷺ الحكم فيهم إلى سعد بن معاذ.

١٠ - حُكم سعد بن معاذ في بني قريظة

مرّ بنا سابقاً أن سعد بن معاذ، قد رُمي بسهم في يوم الخندق فقطع منه الأكحل[٢]، وهو في جولة تفقدية لحصون المدينة التي كانت فيها أُمه وبعض النساء، واختلفت الروايات فيمن رماه بذلك السهم من المشركين[٣]، إلاّ أن هذا السهم قد أصاب منه مقتلا فأعاقه عن المشاركة إلى نهاية غزوة الخندق، «وكان

---

(١) الواقدي، المغازي: ١ / ٥١٠، وابن هشام، السيرة النبوية: ٣ / ٢٣٩ .

(٢) الأكحل: عرق في الذراع .

(٣) انظر: ابن هشام، السيرة النبوية: ٣ / ٢٢٦ - ٢٢٨ .

رسول الله ﷺ قد قال لقومه حين أصابه السهم بالخندق: اجعلوه في خيمة رفيدة[١] حتى أعوده من قريب.

فلمّا حكّمه رسول الله ﷺ في بني قريظة، أتاه قومه فحملوه على حمار قد وطّئوا له بوسادة من أَدَم... ثمّ أقبلوا معه إلى رسول الله ﷺ، وهم يقولون: يا أبا عمرو، أحسن في مواليك، فإن رسول الله إنّما ولاك ذلك لتحسن فيهم، فلما أكثروا عليه قال: لقد آنى - آن - لسعد أن لا تأخذه في الله لومة لائم!!

فرجع بعض من كان معه من قومه إلى دار بني عبد الأشهل، فنعى لهم رجال بني قريظة، قبل أن يصل إليهم سعد، عن كلمته التي سمع منه.

فلما انتهى سعد إلى رسول الله ﷺ والمسلمين، قال رسول الله ﷺ: قوموا إلى سيّدكم... فقاموا إليه، فقالوا: يا أبا عمرو، إن رسول الله ﷺ قد ولاّك أمر مواليك لتحكم فيهم، فقال سعد بن معاذ: عليكم بذلك عهد الله وميثاقه، أنّ الحكم فيهم لمَا حكمتُ؟ قالوا: نعم، وعلى مَن هاهنا؟ في الناحية التي فيها رسول الله ﷺ، وهو معرض عن رسول الله ﷺ إجلالا له، فقال رسول الله ﷺ: نعم.

قال سعد: فإني أحكم فيهم أن تُقتل الرجال، وتقسّم الأموال، وتُسبى الذراري والنساء!

قال: ابن إسحاق: «... قال رسول الله ﷺ لسعد: لقد حكمتَ فيهم بحكم الله من فوق سبعة أرقعة»[٢][٣].

---

(١) وعن الواقدي: ١ / ٥١٠ اسمها «كُعَيْبَة بنت سعد»، وكانت تداوي الجرحى، وتلمُّ الشّعث، وتقوم على الضائع والذي لا أحد له، وكان لها خيمة في المسجد.

(٢) ابن هشام، السيرة النبوية: ٣ / ٢٣٩ - ٢٤٠، والواقدي، المغازي: ١ / ٥١٠ - ٥١٢.

(٣) الأرقعة: السماوات، الواحدة رقيع، وسمّيت بذلك لأنّ بعضها كان يرقعُ بعضاً. (شرح السيرة النبوية لأبي ذر الخشني: ٣٠٦).

لقد كان حكم سعد ضربة موجعة لليهود الذين خانوا الله ورسوله، استأصلت شأفتهم، وطهرت المدينة منهم.

والملاحظ في حكم سعد بن معاذ أن بطون الأوس والخزرج قد أذعنوا لحكمه اذعاناً كاملا ولم يحصل أي اعتراض إلاّ من نفر يسير من الأوس بدا عليهم كراهية ذلك، ومن دون أن تظهر لهم ردود أفعال عنيفة.

يقول الواقدي: «وجاء سعد بن عبادة، والحباب بن المنذر - وهما من قبيلة الخزرج - فقالا: يا رسول الله، إنّ الأوس كرهت قَتل بني قريظة لمكان حلفهم، فقال سعد بن معاذ: يا رسول الله، ما كرهه من الأوس من فيه خير، فمن كرهه من الأوس لا أرضاه الله! فقام أُسيد بن حضير فقال: يا رسول الله، لا تبقينّ داراً من دور الأوس إلاّ فرّقتهم - أي الأسرى من يهود بني قريظة - فيها، فمن سخط ذلك فلا يرغم الله إلاّ أنفه»[١].

ثمّ تتحدث الرواية عن إرسال بعض الأسرى من بني قريظة إلى بطون قبيلة الأوس فضربت أعناقهم من قبلهم.

١١ - مقاتل بني قريظة

لقد حكم سعد بن معاذ بالقتل على الرجال فقط، فلم يشمل القتل من لم يبلغ سن البلوغ من الصبيان، ولا النساء والأطفال، إلاّ امرأة واحدة منهم ارتكبت جريمة قتل سابقة فقتلت لجريمتها تلك.

وقد اختلفت الروايات التاريخية في عدد الذين قتلوا، فيقول ابن إسحاق: «وهم ستمائة أو سبعمائة، والمكثّر لهم يقول: كانوا بين الثمانمائة والتسعمائة»[٢].

---

(١) الواقدي، المغازي: ١ / ٥١٥ .

(٢) ابن هشام، السيرة النبوية: ٣ / ٢٤١ .

وفي رواية الواقدي: «كانوا ستمائة.. قال - الراوي -: كانوا ما بين ستمائة إلى سبعمائة، وكان ابن عباس (رحمه الله) يقول: كانوا سبعمائة وخمسين»[١].

ورغم تعنّت هؤلاء اليهود وصلفهم وهم يعرضون على السيف والقتل، إلاّ أن رسول الله ﷺ تعامل معهم بإنسانية عالية وهم لا زالوا أسرى، فعندما امتنع أحد اليهود عن الانسياق للقتل، وجاذب أحد المسلمين ليهرب، ضربه ذلك المسلم فأدمى أنفه.. فلما رآه رسول الله ﷺ قال لذلك المسلم الذي جاء به: لِمَ صنعتَ به هذا؟ أما كان في السيف كفاية؟... ثمّ قال ﷺ: «أحسنوا إسارهم، وقيِّلوهم، وأسقوهم حتى يبردوا.. لا تجمعوا عليهم حرَّ الشمس وحرَّ السلاح، فقيّلوهم، واسقوهم، وأطعموهم...»[٢].

لقد كان عدد هؤلاء اليهود كبيراً، فلم يمكن قتلهم دفعة واحدة، ولهذا حبسوا في دار امرأة من بني النجار اختلفت الروايات في اسمها[٣]، ثمّ اختار رسول الله ﷺ قتلهم طائفة بعد طائفة في سوق المدينة، وأمام الملأ العام لكي يكون قتلهم عبرة لمن تسول له نفسه بالتآمر والخيانة للمسلمين والدولة الإسلامية.

قال ابن إسحاق: «ثمّ استنزلوا، فحبسهم رسول الله ﷺ بالمدينة في دار بنت الحارث امرأة من بني النجار، ثمّ خرج رسول الله ﷺ إلى سوق المدينة، التي سوقها اليوم، فخَندق بها خنادق، ثمّ بعث إليهم فضرب أعناقهم في تلك الخنادق يُخرج بهم إليه أرسالا»[٤].

---

(١) الواقدي، المغازي: ١ / ٥١٧ - ٥١٨.

(٢) المصدر نفسه: ١ / ٥١٤.

(٣) انظر ابن هشام: ٣ / ٢٤٠ (الهامش)، والواقدي: ٥١٢، والسهيلي، الروض الأنف: ٣ / ٢٨٣.

(٤) ابن هشام، السيرة النبوية: ٣ / ٢٤٠ - ٢٤١.

وكانت الطائفة التي ترسل إلى القتل ينقطع أخبارها عن الباقين فلا يعرفون مصيرهم ولا مصير أنفسهم، يسألون من رئيسهم كعب بن أسد يا كعب: «ما تراه يصنع بنا؟ قال: أفي كلّ موطن لا تعقلون؟ ألا ترون الداعي لا ينزع، وأنه من ذُهب به منكم لا يَرجع؟ هو والله القتل. . . »[١].

والذي يبدو أن هول الموقف قد أذهلهم، فطاشت عقولهم، وفقدوا صوابهم، فأصبحوا لا يعقلون ما يجري عليهم!

وهكذا نزل السيف في بني قريظة قتلا، فضربت أعناقهم جميعاً، ودفعوا ثمن خيانتهم ونقضهم للعهد والميثاق.

وقد نقل ابن إسحاق والواقدي وغيرهما من المؤرخين قصصاً مطولة عن مقاتل هؤلاء اليهود، وسجلوا بعض المواقف والكلمات لهم وهم يعرضون

على القتل، وفي آخر لحظاتهم من الدنيا، وهي صور فيها مواطن للعبرة والعظمة نتوقف عند بعضها باختصار ونشير إلى بعضها الآخر، ونحيل تفاصيلها إلى مصادرها التاريخية.

أولا: مقتل حيي بن أخطب:

وكان هذا الرجل من أشد الناس عداوة لله ولرسوله وهو السبب لما جرى على بني قريظة.

قال الواقدي وابن إسحاق: «ثمّ أُتي بحيي بن أخطب مجموعة يداه إلى عنقه، عليه حُلّة شقحية - فقاحية - أي حمراء - قد لبسها للقتل، ثمّ عمد إليها فشقّها أنمُلةً لئلاّ يسلبه إيّاها أحد.

وقد قال له رسول الله ﷺ حين طلع: ألم يمكّن الله منك يا عدوّ الله؟ قال:

(١) المصدر نفسه: ٣ / ٢٤١ .

بلى والله، ما لمتُ نفسي في عداوتك، ولقد التمستُ العزَّ في مكانه، وأبى الله إلاّ أن يمكنك منّي، ولقد قلقلتُ كلَّ مُقَلقل[1] ولكنه مَن يخذل الله يُخذل. ثمّ أقبل على الناس فقال: يا أيها الناس، لا بأس بأمر الله، قَدَرٌ وكتابٌ، مَلحَمة كتبت على بني إسرائيل! ثمّ أمر به فضرب عنقه»[2].

ثانياً: مقتل كعب بن أسد:

وقد مرّ بنا أن هذا الرجل هو صاحب عهد بني قريظة مع رسول الله ﷺ وهو الذي نقض العهد بعد أن جاءه حيي بن أخطب.

قال الواقدي: «وأُتي رسول الله ﷺ بكعب بن أسد مجموعة يداه إلى

عنقه، وكان حسن الوجه، فقال رسول الله ﷺ : كعب بن أسد؟ قال كعب: نعم يا أبا القاسم. قال ﷺ : وما انتفعتم بنصح ابن خِراش، وكان مصدّقاً بي، أما أمركم باتّباعي وإن رأيتموني تقرئوني منه السّلام؟ قال: بلى والتوراة يا أبا القاسم، ولولا أن تعيّرني اليهود بالجزع من السيف لاتّبعتك، ولكنّي على دين اليهود، قال رسول الله ﷺ : قدّمه فاضرب عنقه، فقدّمه فضرب عنقه»[3].

ثالثاً: مقتل غزّال بن سَمَوأل، ونبّاش بن قيس:

وهما من رؤساء يهود بني قريظة، وقد قصد حيي بن أخطب نزّال بن سَمَوأل قبل أن يذهب إلى كعب بن أسد، ليحمله على نقض عهد رسول الله.

قال الواقدي: «ثمّ أُتي بغزّال بن سَمَوأل، فقال ﷺ : ألم يمكّن الله منك؟ قال: بلى يا أبا القاسم، فأمر به النبي ﷺ فضربت عنقه».

---

(١) أي ذهبت في كل وجه في البلاد (أساس البلاغة للزمخشري: ٧٨٨).

(٢) الواقدي، المغازي: ١ / ٥١٢ - ٥١٤، وابن هشام، السيرة النبوية: ٣ / ٢٤١.

(٣) المصدر نفسه: ١ / ٥١٦.

ثمّ أُتي بنبّاش بن قيس، وقد جابذ الذي جاء به حتى قاتله، فدقّ الذي جاء به أنفه فأرعَفه فقال رسول الله ﷺ للذي جاء به: لِمَ صنعت به هذا؟ أما كان في السيف كفاية؟ فقال: يا رسول الله، جابذني لأن يهرب، فقال - نبّاش -: كذب والتوراة يا أبا القاسم، ولو خلاّني ما تأخرت عن موطن قتل فيه قومي حتى أكون كأحدهم..

قال الواقدي: «لما قتل رسول الله ﷺ حيي بن أخطب، ونبّاش بن قيس، وغزّال بن سَمَوأل، وكعب بن أسد، قال لسعد بن معاذ: عليك بمن بقي، فكان سعد يُخرجهم رَسْلا رَسْلا يقتلهم»[١].

رابعاً: مقتل نباتة امرأة الحسن القرظي:

ذكر ابن إسحاق والواقدي مقتل امرأة واحدة من يهود بني قريظة، ولم يصرح ابن إسحاق باسمها، إلاّ أن الواقدي ذكر أن اسمها «نباتة» وذكر أنها من يهود بني النضير كانت تحت رجل من بني قريظة، وقال أبو ذر الخشني في شرح السيرة: هي امرأة الحسن القرظي[٢].

وكان السبب في قتلها هو القصاص لأحد المسلمين الذي قُتل على يدها عمداً.

قال الواقدي: «... فلمّا كان اليوم الذي أمر رسول الله ﷺ أن يقتلوا - أي بني قريظة - دخلت - نباتة - على عائشة فجعلت تضحك ظهراً لبطن وهي تقول: سَراةُ بني قريظة يقتلون! إذ سمعت صوت قائل يقول: يا نباتة. قالت: أنا والله التي أُدعى.

قالت عائشة: ولِمَ؟ قالت: قَتَلني زوجي؟ فقالت عائشة: وكيف قَتلك

---

(١) المصدر نفسه: ١ / ٥١٤ - ٥١٦ .

(٢) ابن هشام: ٣ / ٢٤٢، والواقدي: ١ / ٥١٦، وشرح السيرة لأبي ذر: ٣٠٧ .

زوجك؟ قالت: كنت في حصن الزّبير بن باطا، فأمرني فدلّيت رحىً على أصحاب محمد فشدخت رأس رجل منهم فمات وأنا اقتل به.

فأمر رسول الله ﷺ بها فقتلت بخلاّد بن سويد»[١].

خامساً: مقتل الزبير بن باطا القرظي:

وقد ذكر قصة مقتله كل من الواقدي، وابن إسحاق، وهي قصة طريفة فيها بعض الدروس والعبر، قال ابن إسحاق: «كان ثابت بن قيس بن الشمّاس. . ، أتى الزبير بن باطا القرظي - وكان الزبير قد مَنَّ على ثابت بن قيس في الجاهلية - يوم بُعاث[٢] - أخذه فجزّ ناصيته، ثمّ خلّى سبيله - فجاءه ثابت وهو شيخ كبير، فقال: يا أبا عبد الرحمن، هل تعرفني؟ قال: وهل يَجهلُ مثلي مثلك. قال: إني قد اردت أن أُجزيك بيدك عندي، قال: إن الكريم يجزي الكريم. ثمّ أتى ثابت بن قيس رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله إنه قد كانت للزبير عليَّ منّة، وقد أحببتُ أن أجزيه بها، فَهَب لي دَمه، فقال رسول الله ﷺ: هو لك.

فأتاه فقال: إنّ رسول الله ﷺ قد وهب لي دَمَك، فهو لك.

قال: شيخ كبير لا أهل له ولا ولد، فما يصنع بالحياة؟

فأتى ثابت رسول الله ﷺ فقال: بأبي أنت وأُمي يا رسول الله، هب لي امرأته وولده. قال ﷺ: هُم لك.

فأتاه فقال: قد وهب لي رسول الله ﷺ أهلك وولدك، فهم لك.

قال: أهل بيت بالحجاز - بيثرب - لا مال لهم، فما بقاؤهم على ذلك؟

---

(١) الواقدي، المغازي: ٣ / ٥١٧، وابن هشام، السيرة النبوية: ٣ / ٢٤٢ .

(٢) يوم بُعاث: وهو اليوم الذي قاتل فيه الأوس والخزرج بعضهم بعضاً، وهي آخر حروبهم قبل دخولهم في الإسلام .

فأتى ثابت رسول الله ﷺ ، فقال: يا رسول الله، مالَهُ. قال ﷺ : هو لك.

فأتاه ثابت فقال: قد أعطاني رسول الله ﷺ مالَك، فهو لك.

قال: أي ثابت، ما فعل الذي كان وجهه مرآة صينيّة يتراءى فيها عذارى الحيّ، كعب بن أسد؟ قال: قُتل. قال: فما فعل سيّد الحاضر والبادي حيي بن أخطب؟ قال: قُتل. قال: فما فعل مقدّمتنا إذا شددنا، وحاميتنا إذا فررنا، غزّال ابن سَموأل؟ قال: قُتل. قال: فما فعل المجلسان؟ يعني كعب بن قريظة، وبني عَمرو بن قريظة، قال: ذهبوا قتلوا.

قال: فإني أسألك يا ثابت بيدي عندك إلاّ ألحقتني بالقوم، فوالله ما في العيش بعد هؤلاء من خير، فما أنا بصابر لله فَتَلة ناضح(١) حتى ألقى الأحبَّة، فقدّمه ثابت، فضرب عنقه»(٢).

١٢ - الغنائم والفيء من بني قريظة

ذكرنا سابقاً رواية الواقدي في مقدار ما وجد في حصون بني قريظة من الأسلحة والأثاث والثياب والجمال والماشية.. يعود الواقدي في آخر كلامه عن هذه الغزوة ليحدثنا في رواية طويلة عن «قَسْم المغنم وبيعه» إلاّ أن ابن إسحاق يوجز الكلام في ذلك فيقول: «ثمّ إن رسول الله ﷺ قسّم أموال بني قريظة ونساءهم وأبناءهم على المسلمين، وأعلم في ذلك اليوم سُهمان الخيل وسُهمان الرجال، وأخرج منها الخمس، فكان للفارس ثلاثة أسهم، للفرسان سَهمان ولفارسه سهم، وللراجل من ليس له فرس سهم. وكانت الخيل يوم بني قريظة

(١) الناضح: الجمل الذي يستخرج عليه الماء من البئر، وأراد بقوله: فتلة دلو ناضح، - قصر الزمان والمدة - بمقدار ما يأخذ الرجل الدلو إذا أُخرجت فيصبها في الحوض.

(٢) ابن هشام، السيرة النبوية: ٣ / ٢٤٢ - ٢٤٣، وقارن برواية الواقدي: ١ / ٥١٨ - ٥٢٠.

ستة وثلاثين فرساً، وكان أوّل فيء وقعت فيه السّهمان، وأُخرج منها الخمس، فعلى سنتها وما مضى من رسول الله ﷺ فيها وقعت المقاسم، ومضت السنّة في المغازي.

ثمّ بعث رسول الله ﷺ سعد بن زيد الأنصاري، بسبايا من سبايا بني قريظة إلى نجد، فابتاع لهم بها خيلا وسلاحاً.

وكان رسول الله ﷺ قد اصطفى لنفسه من نسائهم ريحانة بنت عمرو بن خنافة - جنافة - إحدى نساء بني عمرو بن قريظة، فكانت عند رسول الله ﷺ حتى توفي عنها وهي في مِلكه....

إلاّ أن ابن إسحاق يذكر أن ريحانة قد أسلمت، وجاء من يبشر رسول الله ﷺ بذلك، فسرّه ذلك من أمرها»[1].

١٣ - شهادة سعد بن معاذ

لسعد بن معاذ (رضي الله عنه) مكانة سامية في دنيا الإسلام والمسلمين، رغم أنه لم يعايش التجربة الإسلامية في مكة لأنه كان من أهل يثرب ومن الأنصار، إلاّ أن الفترة التي عاشها مع رسول الله ﷺ في المدينة وإلى نهاية السنة الخامسة، وهي سنيّ الدفاع عن الإسلام ودولته، سجلت له فيها مواقف مشرفة في الجهاد والتضحية ختمها بقضاء شهد له فيها رسول الله ﷺ - وهو الصادق الأمين - بقوله: «لقد حكمت بحكم الله عزّ وجل مِن فوق سبعة أرقعة».

لقد كان سعد من الشخصيات والوجوه المتنفذة في مجتمع المدينة، وكان إسلامه مع أُسيد بن الحضير على يد مصعب بن عمير قبل بيعة العقبة الثانية «فلما أسلم سعد لم يبق من بني عبد الأشهل - عشيرة سعد - أحد إلاّ أسلم يومئذ. ثمّ

(١) المصدر نفسه: ٣ / ٢٤٤ - ٢٤٥، والمغازي: ١ / ٥٢١ وما بعدها.

كان مصعب في دار سعد هو وأسعد بن زرارة، يدعون إلى الله . . .»[١] .

ترجم له ابن سعد في طبقات البدريين من الأنصار من طبقاته، واحتل الاسم الأول فيهم، ضمن ترجمة موسعة تناول فيها تجربته الإسلامية الجهادية مع رسول الله إلى حين وفاته (رضي الله عنه)[٢] .

«لقد كان لواء الأوس يوم بدر مع سعد بن معاذ، وشهد مع رسول الله ﷺ يوم أُحد وثبت معه حين ولّى الناس وشهد الخندق»[٣] .

وقد مرّ بنا أن سعداً قد رمي بسهم من قبل المشركين فأصاب أكحله، وقد حوّله رسول الله ﷺ إلى إمرأة كانت تداوي الجرحى في المسجد تدعى رفيدة.

يروى الواقدي: «وكان سعد بن معاذ في الليلة التي في صبحها نزلت قريظة على حكم رسول الله ﷺ قد دعا فقال: اللهمّ إن كنت أبقيت من حرب قريش شيئاً فأبقني لها، فإنه لا قَومَ أحبّ إليّ أن أُقاتل من قوم كذّبوا رسول الله، وآذوه وأخرجوه! وإن كانت الحرب قد وضعت أوزارها عنّا وعنهم، فاجعله لي شهادة، ولا تُمتني حتى تقرّ عيني من بني قريظة»[٤] .

لقد استجاب الله دعاء سعد، وأقر عينه من بني قريظة، فما «أن انقضى شأن بني قريظة انفجر بسعد بن معاذ جُرحه فمات شهيداً»[٥] .

وكان رسول الله ﷺ يكثر من عيادة سعد بن معاذ، وكانت آخر مرة عاده

---

(١) الذهبي، تاريخ الإسلام: مجلد المغازي: ٣٢٩ .

(٢) ابن سعد، الطبقات: ٣ / ٢٢٣ وما بعدها .

(٣) المصدر نفسه: ٣ / ١٤٤ .

(٤) الواقدي، المغازي: ١ / ٥١٢ .

(٥) ابن هشام، السيرة النبوية: ٣ / ٢٥٠ .

فيها قبل ساعات من وفاته، «دخل عليه رسول الله ﷺ يعوده، في نفر من أصحابه، فوجدوه قد سُجّى بملاءة بيضاء، فجلس رسول الله ﷺ وجعل رأسه في حجره ثمّ قال: اللهمّ إنّ سعداً قد جاهد في سبيلك، وصدّق رسولك، وقضى الذي عليه، فاقبض روحه بخير ما تقبض فيه أرواح الخلق»[١].

فلم يمكث سعد بن معاذ بعد آخر لقاء مع رسول الله ﷺ «ساعة من نهار أو أكثر من ساعة ومات خلافه».

يروي الواقدي وابن إسحاق: «ونزل جبرئيل عليه السلام حين مات سعد على رسول الله ﷺ معتجراً بعمامة من استبرق، فقال: يا محمد، مَن هذا الرجل الصالح الذي مات فيكم؟ فتحت له أبواب السماء، واهتزّ له عرش الرحمن. فقال رسول الله ﷺ لجبرئيل عليه السلام : عهدي بسعد بن معاذ وهو يموت! ثمّ خرج فَزعاً إلى خيمة كعيبة - أو رفيدة - يجرّ ثوبه مسرعاً، فوجد سعداً قد مات»[٢].

هذا وقد ذكر المؤرخون وبإسهاب وتفصيل قصة وفاة سعد، وتشييعه، ودفنه، ومراثيه، والكرامات التي ظهرت عند دفنه.

وتوقف بعض المؤرخين والمحدثين طويلا عند خبر «اهتزاز عرش الرحمان لوفاة سعد» وهو خبر رواه عشرة من الصحابة، وجاء في كتب الصحاح وكتب السيرة، إلاّ أن بعض المحدثين ناقش في صحة أو كره روايته[٣].

ولسنا بصدد الدخول في هذا النقاش والسجال، ويكفينا ما ذكرناه بحق هذا العبد الصالح المجاهد المطيع لله ولرسوله ﷺ.

---

(١) الواقدي، المغازي: ١ / ٥٢٥ .

(٢) الواقدي، المغازي: ١ / ٥٢٦، وابن هشام، السيرة النبوية: ٣ / ٢٥٠ - ٢٥١ .

(٣) للتوسع انظر: المصدرين السابقين، والصحيح من سيرة النبي ﷺ : ١٢ / ٢٠٧ وما بعدها .

١٤ – مقتل سلام بن أبي الحقيق

كان سلام بن أبي الحقيق - وكنيته أبو رافع - من أكابر مجرمي اليهود، الذين حزبوا الأحزاب ضد المسلمين وأعانهم بالمؤن والأموال الكثيرة وبعد مقتل بني قريظة لم يبق من رؤساء اليهود أو رموزها ممن اشتركوا في تحزيب الأحزاب سوى هذا المجرم، الذي التجأ إلى خيبر وتحصن بها.

وقد ذكر ابن إسحاق خبر مقتله والنفر الخمسة الذين قتلوه، وسماهم بأسمائهم بعد غزوة بني قريظة.

قال ابن إسحاق: «ولمّا انقضى شأن الخندق، وأمر بني قريظة، وكان سلام ابن أبي الحقيق، وهو أبو رافع فيمن حزّب الأحزاب على رسول الله ﷺ، وكانت الأوس قبل أُحد قد قتلت كعب بن الأشرف في عداوته لرسول الله ﷺ وتحريضه عليه، استأذنت الخزرج رسول الله ﷺ في قتل سلام بن أبي الحقيق، وهو بخيبر، فأذن لهم. . . »[1]، ثمّ فصل الكلام في أسماء من اشترك في قتله، والخطة التي أعدوها لذلك وكيفية قتله، ثمّ انسحابهم إلى المدينة وإخبار رسول الله ﷺ بمقتله، وشعر حسان بن ثابت في قتله.

١٥ – شبهات المستشرقين حول واقعة بني قريظة

وبانتهاء غزوة بني قريظة، وفتح حصونهم أنهى المسلمون آخر معاقل الكتل اليهودية في المدينة ممن اختاروا بأنفسهم الوقوف في وجه الإسلام والمسلمين موقف الحقد والعداء والخيانة والتآمر ونقض المواثيق والعهود، وبقيت أمام المسلمين جولة أُخرى من الصراع مع أُولئك اليهود الذين تحصنوا في حصونهم المنيعة خارج حدود المدينة.

وقد لاحظنا في ثنايا هذه الغزوة ومنعطفاتها الحرجة الكثير من المواقف

---

(١) ابن هشام، السيرة النبوية: ٣ / ٢٧٤ وما بعدها .

التي فيها الدروس والعبر والعظات نقف عند بعضها. في نهاية هذا الدرس.

وقبل أن ننهي هذا الدرس لابد لنا من الوقوف عند بعض الشبهات التي أثارها بعض المستشرقين حول وقائع ما جرى على بني قريظة.

لقد صوّر بعض كتّاب السيرة من المستشرقين وقائع ما جرى على بني قريظة وكأنها مأساة إنسانية مصدرها الحقد على اليهود، ومن قِبَلِ سعد بن معاذ خاصة، لأنه قد أُصيب في غزوة الخندق بسهم قاتل، ومن قِبَل أهل يثرب عامة الذين كانوا ينتظرون بفارغ الصبر إزاحة اليهود من المدينة فكانت هذه فرصتهم الذهبية.

كذلك شنّع هؤلاء المستشرقون على النبيﷺ لقساوته مع هؤلاء اليهود في الوقت الذي كان يستخدم أُسلوب الرحمة واللين مع غيرهم.

والأدهى من ذلك كلّه أنّ هؤلاء المستشرقون قد وضعوا قضية مقتل بني قريظة في اطار ديني بحت! وكأن هؤلاء لم يقتلوا لخيانتهم ونقضهم للعهود والمواثيق وإنما قتلوا لثباتهم على دينهم ويهوديتهم وتوراتهم، وعقائدهم التي لا يستبدلونها بشيء ولو كلفهم ذلك حياتهم!

يقول المستشرق الفرنسي إمل درمنغهم: «. . . وكان اليهود يطمعون أن يرأف سعد بهم، وكان النبيُّ يعلم أن سعداً، الذي جُرح في غزوة الخندق جَرحاً خطراً، حاقدٌ على اليهود كثيراً لما أدّوا إليه من إيقاد تلك الغزوة»[١].

ويقول المستشرق اليهودي، إسرائيل ولفنسون: «. . . قضت هذه الغزوة القضاء التام على بطون اليهود في يثرب، وقد كان القضاء على اليهود هو رائد بطون الأوس والخزرج، منذ الساعة الأُولى لمجاورتهم لهم في يثرب وقد بذلت

---

(١) حياة محمد: ٦٥ .

في هذا السبيل جهوداً عظيمة في فترات مختلفة، ولم توفق حتّى جاءت الحوادث بعد الهجرة، فحققت آمالهم وأطماعهم، في وقت كانت خامدة فيهم تلك الآمال!».

ويقول أيضاً: «ولا شك أن اليهود، لم يكونوا ينظرون - هكذا - إلى هذه الخيانة من حلفائهم بني الأوس، ولا إلى غدر سعد بن معاذ بهم، ولم ينجهم كما نَجّى عبد الله بن أُبي حلفاءه من بني قينقاع».

ثمّ يقول: «وكان بنو قريظة طوال الليل، قبل إعدامهم، يقرأون في كتاب الزبور، ويناقشون في شؤون الدين الإسرائيلي، حيث اتفقوا على أن ينصروه إلى آخر رمق من الحياة.. وقد اقترح كعب بن أسد، زعيم بني قريظة، على أبناء جلدته، قبل خروجهم من آطامهم، أن يعتنقوا الإسلام فيأمنوا على دمائهم وأموالهم ونسائهم، فقالوا: لا نفارق حكم التوراة أبداً، ولا نستبدل به غيره. هذه الجمل تدل على رسوخ الديانة في نفوس بني قريظة، وإنهم ما كانوا ليعبأوا بالموت في سبيل التمسك بدينهم، والمحافظة على عقائدهم»[١].

أما المستشرق واشنطن ايرفينغ، فيعقب على واقعة مقتل بني قريظة بقوله: «... كذلك رفضه العفو عن «بني قريظة» بقسوة لا تتلاءم مع دعوته ككل، أخذها عليه المؤرخون الغربيون بتلك المذبحة التي ذبح فيها اليهود بسوق المدينة، رغم أن سلوكه ضد هؤلاء كان مختلفاً عن سلوكه مع باقي القبائل والناس، حيث كان يفضل الرحمة واللين...»[٢].

هكذا صوّر المستشرقون قضية بني قريظة ومصيرهم، وكأنه لم تكن هنالك

---

(١) تاريخ اليهود في بلاد العرب: ٢٨٠ - ٢٨٤.

(٢) ايرفينغ - واشنطن، محمد وخلفاؤه: ٢٩٣ - ٢٩٤، ترجمة ومقارنة: د. هاني يحيى نصري، طبعة المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء المغرب، الطبعة الأُولى، (١٩٩٩م).

أية أدلة جنائية ضدهم، تثبت جريمتهم التي ارتكبوها بحق من دخلوا معهم في حلف وميثاق وعهد من المسلمين وعلى رأسهم النبي الأكرمﷺ ، وتنكرهم حتى لحلفهم القديم مع قبيلة الأوس وإصرارهم على الجريمة حتى نهايتها.

ولا نريد أن نطيل الوقوف كثيراً للردّ على هذه الاتهامات المبتنية على عدم الموضوعية في تقييم الأحداث وتحليلها، والانحياز الكامل إلى الطرف المدان في القضية ورفع مسؤولية ما جرى عنهم، وإدانة النبيﷺ والمسلمين ووصف ما قاموا به بالقساوة المفرطةوالتي منشأها - بنظرهم - أما الحقد أو الطموحات الدنيوية أو الإرهاب الديني والعقائدي.

ولو أن هؤلاء نظروا إلى قضية بني قريظة ومن خلال الوقائع التي سجلتها النصوص التاريخية لوجدوا:

أولا: أنَّ النبيﷺ لم يكن أمامه خيار آخر في التعامل مع هؤلاء بعد ثبوت خيانتهم ونقضهم للعهد، وانضمامهم إلى الوثنيين والمشركين الذين كانوا يشكلون جيش الأحزاب سوى ما قام به من قتلهم واستئصالهم عن آخرهم، لأنّ العفو عنهم وتركهم آمنين في ديارهم يعني تركهم جاثمين إلى جوار المسلمين والاطلاع على أسرارهم وايصالها إلى عدوهم، ثمّ التحالف مع العدو مرّة أُخرى كما فعلوها بالأمس القريب مع جيش الأحزاب.

كذلك اتخاذ عقوبة أخف من خلال إجلائهم من المدينة كما فعل ببني النضير، يعني إطلاق عدوك حراً في الأرض لكي يؤلب لك الأعداء ويحزب عليك الأحزاب، ثمّ إن مساواتهم ببني النضير الذين لم يكن منهم سوى نقض الميثاق، دون الدخول مع المشركين في حلف عدائي عسكري خلاف العدل والانصاف في العقوبة.

فلم يكن أمام النبيﷺ سوى ما قام به، وهو ما تقرُّهُ قوانين الحرب قديمها وحديثها، ويقره منطق الحق والعدل والمروءة، وتقره أيضاً توراة اليهود التي

يستندون إليها في أُمور دينهم ودنياهم.

يقول المؤرخ «بودلي»: «والحقيقة أنه لو فكر يهود المدينة في الأمر لوجدوا أن محمداً ما فعل شيئاً - أكثر أو أقل - من تنفيذ التعليمات التي وضعها قومهم في الإصحاح العشرين من تثنية سفر الاشتراع: «حين تقرب من مدينة لكي تحاربها استدعها للصلح، فإن أجابتك إلى الصلح وفتحت لك، فكل الشعوب الموجود فيها يكون لك للتسخير ويُستَّعبد لك، وإن لم تسالمك بل عملت معك حرباً فحاصرها، وإذا دفعها الرب إلهك إلى يدك فاضرب جميع ذكورها بحد السيف، وأما النساء والأطفال والبهائم وكل ما في المدينة - كل غنيمتها - فتغتنمها لنفسك».

وهنالك نص موجود في التوراة الاصحاح الثالث عشر من سفر التثنية، لم يذكره هذا المؤرخ ولا غيره، وهو أعظم جَوْراً من النص الذي ذكره لأنه يقول بصراحة ما نصه: «فضرباً تضرب سكان المدينة بحد السيف، وتحرّمها بكل ما فيها مع بهمائمها بحد السيف، وتجمع كل امتعتها إلى وسط ساحتها، وتحرق بالنار المدينة، وكل أمتعتها كاملة للرب إلهك، فتكون تلالا إلى الأبد لا تبنى بعد»(١).

فهل بعد هذا يقال: إنّ محمداً ﷺ ظلم يهود بني قريظة، أو إنه استخدم معهم القسوة المفرطة التي لم يكن يستخدمها مع غيرهم، أو إن سعد بن معاذ قد جاء في حكمه عليهم من منطلق حقده لهم..! وهل يُعد ظالماً من يحكم عليهم بتوراتهم، ويعاملهم بما عاملوا به الناس؟

ثانياً: لو أن هؤلاء المستشرقين الذين يذرفون دموع التماسيح على بني قريظة، قد أنصفوا أنفسهم وأنصفوا التاريخ الذي بين أيديهم، لوجدوا أن

---

(١) دويدار - أمين: صور من حياة الرسول: ٤٤١، وللتوسع في النصوص التوراتية انظر: عباس محمود العقاد في كتابه، عبقريات اسلامية: ٢١٩، طبع دار الفتوح - القاهرة مصر، ومحمد جواد مغنية، تفسير الكاشف: ٦ / ٢٠٩ .

مسؤولية كل ما جرى على بني قريظة، ومن قبلهم بني النضير - وإن كانت عقوبتهم أخف - يتحملها من صرح بعداوته لرسول الله ﷺ وهو حيي بن أخطب، الذي لم يألوا جهداً في عدائه لله ولرسوله من أول يوم التقى فيه النبي ﷺ إلى يوم مقتله، وقد نقلنا نص كلماته في الدروس السابقة وآخرها ما قاله لرسول الله ﷺ عند مقتله بكل صراحة ووقاحة وعناد وعنجهية: «أما والله ما لمتُ نفسي في عداوتك، ولكنه من يخذل الله يُخذل».

وصور ذلك بدقة الشاعر الثّعلبي بقوله:

لعَمرِكَ ما لامَ ابنُ أخطبَ نَفسَهُ ... ولكنَّه مَن يَخذل الله يُخذَلِ
لجاهدَ حتى أبلغَ النَّفس عُذرها ... وَقلقَل يَبغي العزَّ كلَّ مُقَلقَلِ[1]

كما يتحمل المسؤولية معه، صاحب عقد بني قريظة وعهدهم، كعب بن أسد القرظي، الذي كان قد وادع رسول الله ﷺ على قومه، وعاقده على ذلك وعاهده، والذي كان يقول: «فإني لم أرَ من محمد إلاّ صدقاً ووفاءً»[2].

ثالثاً: متى كان رؤساء أُولئك اليهود أوفياء لدينهم وتوراتهم حتى يقال عنهم: «إنّهم ما كانوا يعبأوا بالموت في سبيل التمسك بدينهم، والمحافظة على عقائدهم»[3].

فهل كانت تعاليم دينهم تدعوهم إلى الغدر والخيانة ونقض العهود والمواثيق؟

وكيف يكونون أوفياء لدينهم وتوراتهم وهم ينساقون مع قريش، ويفضلون

---

(١) ابن هشام، السيرة النبوية: ٣ / ٢٤١ .

(٢) المصدر نفسه: ٣ / ٢٢٠ - ٢٢١، وانظر ما قاله الدكتور محمد حسين هيكل في كتابه حياة محمد: ٣٤٠ - ٣٤١ .

(٣) ولفنسون، تاريخ اليهود في بلاد العرب: ٢٨٠ وما بعدها .

وثنيتهم وشركهم على دين محمدﷺ ؟

ثمّ أين ومتى تعرض هؤلاء اليهود بكافة طوائفهم إلى الاضطهاد الديني والعقائدي حتى تصور قضيتهم بأنها استئصال واضطهاد ديني عقائدي؟

ألم يكتب رسول اللهﷺ عهده النبوي المشهور والذي تناولته كل مصادر السيرة والتاريخ والأثر والذي ينص على: «وأنّ يهود بني عوف أُمة مع المؤمنين، لليهود دينهم، وللمسلمين دينهم، مَواليهم وأنفسهم إلاّ مَن ظَلَم وأثم، فإنه لا يوبغ إلاّ نفسه وأهل بيته»[١]، ثمّ يفصل الحديث في باقي الطوائف اليهودية ولا يستثني أحداً منهم، بالاضافة إلى نصوص أُخرى في نفس وثيقة العهد، تعطي لليهود الحرية الدينية، وتقاسمهم العيش المشترك في المدينة مع المسلمين.

فأين هو الاضطهاد الديني والعقائدي المزعوم؟ ومتى تعرض النبيﷺ والمسلمون لليهود ومنعوهم من ممارسة شؤون حياتهم الدينية والاقتصادية والاجتماعية؟

نعم «كان العقاب الذي ينزله رسول اللهﷺ بخصومه من اليهود يتناسب دوماً مع حجم الجرم الذي مارسته الكتل اليهودية.. ولم يستخدم أُسلوب القتل إلاّ إزاء أُولئك الذين خانوا العهد في ساحة الحرب، وتعاونوا مع الأعداء، وهو العقاب الذي تمارسه جميع القوانين.

أما اليهود، كأفراد لا ينتمون إلى هذه الكتلة وتلك من الكتل اليهودية ذات الوجود السياسي والعسكري، فقد ظلوا حتى النهاية يمارسون حقوقهم وحريتهم في مدينة الرسولﷺ بدليل أنّه توفيﷺ ودرعه مرهونة عند واحد من هؤلاء»[٢].

---

(١) حميد الله - محمد، مجموعة الوثائق السياسي للعهد النبوي: ٥٩ - ٦٠، ونص وثيقة العهد هذه موجودة عند أغلب المؤرخين في كتبهم، وقد حققها وعلّق عليها وترجمها بعض المستشرقين كما في المصدر نفسه: ٥٧ - ٥٩ .

(٢) خليل - عماد الدين، دراسة في السيرة النبوية: ٣٤٨ - ٣٤٩ .

١٦ – الدروس والعبر

لقد تجلت في هذه الواقعة الكثير من الدروس والعبر، لا يمكننا استيعابها كلّها وإنما نتوقف بعضها بحسب تسلسلها في أحداث الواقعة.

أولا: نقض العهد والميثاق:

تعتبر العهود والمواثيق من الأُمور التي يجب الالتزام بها من الطرفين المتعاهدين وتطبيق بنودها القانونية بحسب ما تنص عليه وثيقة العهد المبرمة بينهما، وهذا ما كانت تلتزم به العرب في جاهليتها، فكانت هنالك أحلاف وعهود بين القبائل العربية، وكانت تلتزم بها ولا تحيد عنها، وتعتبر كلّ من خرج عليها أو خالف بنودها خائناً وناقضاً للعهد تجب محاربته.

وجاء الإسلام وأقرّ هذه الطريقة العقلائية في التعامل بين المسلمين وغيرهم، فكانت هنالك وثيقة الصلح، والمعاهدة، والاستئمان، ومن أهمها وثيقة العهد التي كتبها رسول الله ﷺ في المدينة.

وكان رسول الله ﷺ والمسلمون يحترمون هذه المواثيق والعهود ولا ينقضونها ما لم ينقض الآخرون ذلك. والشواهد من سيرة النبي ﷺ على ذلك كثيرة، منها قضية بني قريظة، الذين نقضوا العهد والميثاق فجاز قتالهم حينئذ، وسبي نسائهم وأطفالهم، وسلب أموالهم(١).

«بل إن عمل بني قريظة لم يكن نقضاً لعهودهم وحسب، وإنما كان غدراً وخيانة في وقت واحد... لأنه طعن من الخلف لمن أدار إليك ظهره وهو واثق بك، مطمئن إلى أمانتك ومروءتك»(٢).

---

(١) للتوسع انظر: كتاب الخلاف للشيخ الطوسي: ٥ / ٥٣٤، طبعة جامعة المدرسين – قم.

(٢) دويدار – أمين، صور من حياة الرسول: ٤٣٤ – ٤٣٥.

ثانياً: أبو لبابة الأنصاري، وخيانة الله والرسول... ثمّ توبته:

لقد ناقش بعض كتاب السيرة قصة أبي لبابة مناقشة طويلة وجمع الروايات المتناقضة وأخذ يناقشها، ثمّ أثبت خيانته بشكل قاطع وشكّك في توبته، بقوله: ربما وربما...[١].

إلاّ أننا ينبغي أن ننصف الرجل، فإنه قد تعرض لضغط نفسي قاهر، وهو يشاهد رجال وأطفال ونساء بني قريظة وهم يجهشون بالبكاء ويستغيثون، فلم يستطع السيطرة على عواطفه، مع ما كانت تربطه من علائق الجوار والحلف السابق معهم، فاقدم على ما أقدم عليه من الاشارة إلى حلقه، فكانت زلة عظيمة، وخيانة للرسول والمسلمين لأنه إفشاء لأسرارهم.

إلاّ أنّ الرجل لم يتستر على ما فعل، ولم يتمادَ في خيانته، وإنما ندم في نفس اللحظة التي أشار فيها إلى حلقه، فهام على وجهه ثمّ جاء إلى المسجد وربط نفسه بإحدى الاسطوانات حتى أنزل الله توبته. فكان مثالا لقوله تعالى: ﴿وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُوا۟ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا۟ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠٢﴾﴾[٢].

وفي قصته عبرة وموعظة لنا كمؤمنين، فقد نقدم على ما أقدم عليه أبو لبابة، وقد نرتكب بعض الذنوب والمعاصي في حالات الضعف البشرية، ومواطن الانسياق مع الشهوات والأهواء النفسية، إلاّ أننا ينبغي أن نتذكر ونعود، عودة التائب النادم، ونتذكر قول الله عزّ وجل: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴿٢٠١﴾﴾[٣].

والدرس الآخر الذي يمكن أن نستفيده من قصة أبي لبابة هو أن لا نكون

---

(١) انظر الصحيح من سيرة النبي: ١٢ / ٥٥ - ٧٠، من الطبعة الحديثة.

(٢) التوبة: ١٠٢.

(٣) الأعراف: ٢٠١.

ضعفاء أمام عواطفنا البشرية فيضيع علينا وجه الحق كما ضاع على صاحبنا أبي لبابة، فنقدم على ما أقدم عليه، فنخسر أنفسنا إن لم يتداركنا الله برحمته، كما تدارك صاحبنا.

ثالثاً: سعد بن معاذ: «لا تأخذه في الله لومة لائم»:

على العكس من صاحبنا أبي لبابة كان سعد بن معاذ نافذ البصيرة، صلب الإيمان، لم تأخذه في الله لومة لائم، ولا عتب مستعتب.

لقد كان هذا الصحابي الجليل بمستوى المسؤولية التي أوكلها رسول الله ﷺ إليه، وبمستوى التكريم الذي أولاه النبي ﷺ له حين قدومه، بقوله ﷺ: «قوموا لسيّدكم».

لقد تعرض سعد بن معاذ لضغوط نفسية واجتماعية وقبائلية كبيرة كان من شأنها أن تحمله إلى الانحياز في حكمه لصالح بني قريظة، فمنظر الأطفال والنساء وأوضاع الرجال المكبلين من بني قريظة تثير في النفس البشرية الشفقة والعطف، والحاح قبيلة الأوس وهي قبيلته وهو رئيسهم وزعيمهم، تدعوه إلى مجاراتهم وارضاء رغباتهم بالعفو، أو التخفيف عن المجرمين من بني قريظة.

إلاّ أنه لم يستسلم لعواطفه كما استسلم لها صاحبنا أبو لبابة، ولم يؤثر رضى قومه على رضى الله. فقال قولته المشهورة «لقد آن لسعد أن لا تأخذه في الله لومة لائم».

وحكم بحكمه الذي بقي خالداً تردد الأيام والليالي صداه، والذي قال رسول الله ﷺ فيه: «لقد حكمت فيهم بحكم الله من فوق سبعة أرقعة».

وهكذا ينبغي أن يكون المؤمن، صلب الإيمان، نافذ البصيرة، لا تأخذه في الله لومة لائم، ولا يدع المجال لعواطفه وأحاسيسه أن تقوده، ولا ينساق وراء رغبات القوم والأهل والعشيرة إن لم تنسجم هذه الرغبات مع ما يريده الله ورسوله ﷺ.

رابعاً: وجود الرواسب القبلية:

والذي يدعو إلى العجب في قضية بني قريظة هو تدخل بعض الأنصار من قبيلة الأوس في هذه القضية، والحاحهم الشديد على رسول الله ﷺ لكي يعفوا عنهم، وادعاؤهم بأن بني قريظة قد ندموا وتابوا! مع أنه لم يظهر منهم أي أثر للندم والتوبة عما اقتفروه من خيانة ونقض، ثمّ الحاحهم على سيّد قومهم سعد بن معاذ كي يعفو أو يخفف في حكمه عليهم، وملاحقتهم له إلى آخر لحظة، ومن ثمّ كراهيتهم للاشتراك في قتل هؤلاء الخونة بعد صدور الحكم عليهم - على فرض صحة الرواية - فهذه التصرفات ان دلت على شيء فإنما تدل على أن رواسب الجاهلية وحميتها لا زالت فاعلة في نفوس هؤلاء فتصرفوا كما تصرف عبد الله بن أبي في قضية بني قينقاع، مع انهم يعلمون أن ابن أبي يمثل رأس النفاق، وتصرفه لم يكن يرضي الله ورسوله، إلاّ أن قبيلة الأوس وقعوا في نفس الخطأ الذي وقع فيه.

وهذه القضية إن دلت على شيء فهي تدل على أن التغير الاجتماعي للعادات والتقاليد تحتاج إلى جهد كبير كجهد رسول الله ﷺ ، وإلى زمن طويل مليٍّ بالعقبات.

خامساً: قضية تأخير الصلاة ومشروعية الاجتهاد في الفروع:

حاول بعض الكتّاب[١] وأغلب علماء الأُصول من اخواننا أهل السنة[٢]، أن يوظفوا قضية تأخير الصلاة من قبل بعض أصحاب رسول الله ﷺ إلى حين وصولهم إلى بني قريظة وذلك لاختلافهم في تفسير كلام رسول الله ﷺ : «ألا لا يصلين أحد العصر إلاّ في بني قريظة» لتقرير مبدأ مشروعية الاجتهاد في استنباط

(١) انظر: فقه السيرة للدكتور البوطي: ٣٣٢ .

(٢) انظر فواتح الرحموت، المطبوع على هامش المستصفى: ٢ / ٤٢٥ .

الأحكام الشرعية، الذي يستلزم بدوره مبدأ الخلاف في مسائل الفروع، إلاّ أننا في الوقت الذي لا ننكر مبدأ الاجتهاد في فهم النصوص الشرعية التي يستنبط منها الأحكام الشرعية، ولا ننكر اختلاف الفقهاء في فهم الدليل الشرعي، مما يؤدي إلى اختلاف بعض الأحكام الشرعية من فقيه إلى آخر، إلاّ أن ما استند إليه من هذه الواقعة لتقرير هذا المبدأ فيه نظر، إذ إنه ليس من الاجتهاد المصطلح في شيء، وما هو إلاّ فهم ساذج لكلام رسول الله ﷺ، وأين هذا من الاجتهاد الذي يعني: استنباط الحكم الشرعي من مداركه المقررة، والذي يستدعي بذل الجهد، وتقصي الأدلة، ومحاكمة الأدلة بعضها ببعض، وتطبيق الكليات على الجزئيات، ومقدمات كثيرة أُخرى حتى يصل إلى الحكم الشرعي الواقعي أو الظاهري.

ولا نريد أن نتوقف كثيراً عند هذه المسألة بعد أن ناقشناها مناقشة مستفيضة في غير هذا الكتاب[١].

سادساً: من يخذل الله يُخذل:

عندما نتأمل في الكلمات التي قالها حيي بن أخطب، وكعب بن أسد، نجد فيها الكثير من مواطن العبرة والعظة.

فهؤلاء «كانوا على يقين من نبوة محمدﷺ وعلى اطلاع تام على ما أثبتته التوراة من الحديث عنهﷺ وعن علاماته وبعثته، ولكنهم كانوا عبيداً لعصبيتهم وتكبرهم، وذلك هو سبب الكفر عند كثير ممن يتظاهر بعدم الإيمان والفهم، وذلك هو الدليل البين على أن الإسلام في عقيدته وعامة أحكامه إنما هو دين الفطرة البشرية الصافية...»[٢].

لقد وصل العناد بحيي بن أخطب - الذي هو سبب كل مشاكل بني قريظة

---

(١) للتوسع انظر كتابنا: حركة الاجتهاد عند الشيعة الإمامية، مبحث اجتهاد الصحابة: ١٤٢.

(٢) البوطي، فقه السيرة: ٣٣٣.

ومن قبلها بنو النضير - أن يقول للنبي: «ما لمتُ نفسي في عداوتك» فهي إذاً العداوة والبغضاء والحقد التي تعمي البصيرة وتقود الإنسان إلى التهلكة، ثمّ يقول: «ولقد التمست العزّ في مكانه» وأي عزّة زائفة كان يلهث وراءها هذا الرجل ومن على شاكلته؟ وهل العزّة عند قريش ووثنيتها، أم عند رسول الله ﷺ وتوحيده؟ ألم تكن عزّة الإسلام والمسلمين تتجلى أمامهم في كل يوم وطيلة أكثر من خمس سنوات قضاها المسلمون بين أظهرهم في المدينة؟

وصدق الله العظيم إذ يقول: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾(١).

ثمّ يقولها حيي بصراحة: «من يخذل الله يُخذل» يا ترى من أين أخذ حيي هذه الحكمة البالغة التي لم ينتفع بها؟ أتراها موجودة في بقايا توراة موسى عليه السلام التي بين أيديهم؟ أم إنه اطّلع على آيات القرآن الكريم فوجدها صريحة فيه؟ كلا الأمرين ممكن وصحيح.

إلاّ أنه - لحقده وتعصبه وعداوته - لم ينتفع من هذه الحكم البالغة التي جاءت في توراة موسى عليه السلام وقرآن محمد ﷺ فخذله الله وأخزاه في الدنيا قبل الآخرة، وتلك عاقبة كلّ من يعادي الله ورسوله ﷺ.

يقول تعالى: ﴿إِن يَنصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا الَّذِي يَنصُرُكُم مِّن بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١٦٠﴾﴾(٢).

لقد كانت هزيمة الأحزاب ومن بعدها بنو قريظة، نصراً مؤزاً للمسلمين،

---

(١) الحج: ٤٦.

(٢) آل عمران: ١٦٠.

انتقلوا بعدها إلى مرحلة جديدة في مواجهة أعداء الدعوة الإسلامية، مرحلة اتسمت بطابع الهجوم بعد أن كانت حرباً دفاعية لتثبيت أُسس الإسلام.

وفي غزوة بني قريظة فقد المنافقون جناحهم الثاني الذي كان يطيرون به، ومن قبلها فقدوا جناحهم الأول باجلاء بني النضير وبني قينقاع، فأصبحوا ولا أنصار لهم من أحلافهم اليهود، فخفتت أصواتهم - ولو إلى حين - ومكن الله منهم.

وصدق الله العظيم حيث يقول - وقوله الحق - في هزيمة بني قريظة: ﴿وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴿٢٦﴾ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا ﴿٢٧﴾﴾[1].

---

(١) الأحزاب: ٢٦ - ٢٧ .

الأسئلة:

١ - مَن هُم بنو قريظة؟ وما هي أسباب غزوهم؟

٢ - كيف جرت المفاوضات بين بني قريظة ورسول الله ﷺ ؟

٣ - ما هو دور أبي لبابة في هذه الغزوة؟ وما هي الدروس والعبر التي نستفيدها من قصّته؟

٤ - لماذا أصرّ رسول الله ﷺ على نزول بني قريظة على حكمه؟

٥ - ما هي الدروس والعبر التي نستفيدها من حكم سعد بن معاذ في بني قريظة؟

٦ - ما هي دلالات ومعاني الكلمات التي أطلقها رؤوساء بني قريظة وهم يتقدمون للقتل؟

٧ - كيف نناقش شبهات بعض المستشرقين حول واقعة بني قريظة؟

٨ - ما هي أهم الدروس والعبر والفوائد التي نستخلصها من واقعة بني قريظة؟

الدرس السادس عشر
أحداث السنة السادسة من الهجرة
غزوة بني المصطلق (المُريسيع)
«القسم الأول»

محاور البحث:

المدخل

١ - غزوتان سبقتا غزوة بني المصطلق:

أ - غزوة بني لحيان ب - غزوة ذي قَرَد

٢ - غزوة بني المصطلق (المُريسيع)

تاريخ غزوة بني المصطلق واختلاف المؤرخين فيها

٣ - أسباب الغزوة ونتائجها

النص التاريخي لوقائع الغزوة

قصة زواج النبيﷺ من جويرية بنت الحارث

٤ - الوليد بن عقبة وبنو المصطلق

٥ - المنافقون وإثارة الفتنة بين المهاجرين والأنصار

٦ - ابن أُبي يعتذر كذباً ونفاقاً، وقومه يدافعون عنه بالباطل

٧ - الرسول الأكرمﷺ رّحال السفر مع المسلمين

٨ - ما نزل في ابن أبي من القرآن

٩ - موقف ابن عبد الله بن أبي من والده، وموقف النبيﷺ منه

١٠ - الدروس والعبر

- الأسئلة

غزوة بني المصطلق / ق ١

المدخل

لقد كان لغزوة الأحزاب ونتائجها، ومن ثَمَّ غزوة بني قريظة وانتصار المسلمين فيها، آثار عظيمة في حياة الدعوة الإسلامية سواء في داخل المدينة أو خارجها.

لقد استقرّ الوضع الداخلي في المدينة، وخفتَ صوت المنافقين بعد أن فقدوا حلفاءهم من اليهود، وانتعش وضع المسلمين الاقتصادي بعد الغنائم الكثيرة التي غنموها من بني قريظة، وأصبح المسلمون في وضع نفسي واجتماعي مستقر نسبياً.

وتركت هاتان الغزوتان في نفوس المسلمين آثاراً معنوية عالية، تحثهم على مواصلة مسيرة الجهاد والدعوة حتى أزالت الشرك والوثنية من أرض الجزيرة العربية، ومن ثمّ الانطلاق براية التوحيد إلى العالم بأسره.

أما قريش والقبائل المتحالفة معها، واليهود القاطنين في خارج المدينة. فهؤلاء جميعاً أرهبتهم انتصارات المسلمين المتتالية، فذهبوا يتحدثون عن قوة المسلمين وسلطانهم، وعن مكانة النبيﷺ وقوته وقيادته ورهبة جانبه.

إلاّ أن هذه الأحوال الايجابية كانت تستدعي اليقظة والحذر الشديدين من قبل النبيﷺ والمسلمين تحسباً من أي عدوان جديد من قبل أعدائهم الحانقين والموتورين.

«من أجل ذلك لم يُلقِ المسلمون سلاحهم، ولم يستنيموا لأعدائهم، اتكالا على أن الله معهم، وأنه مؤيدهم بحوله وقوته، فإنَّ الله لا يكون مع الغافلين أبداً، ولا يؤيد المتواكلين الذين يرجون منه النصر والتأييد دون أن يأخذوا بأسباب القوة ما استطاعوا»[١].

فما أن انتهت غزوة بني قريظة في أواخر السنة الخامسة، حتى بدأ النبيﷺ - ومنذ أوائل السنة السادسة - يخطط لمرحلة جديدة من الجهاد والدعوة ضد أعداء الإسلام، تتسم بطابع الهجوم والمباغتة بعد أن كانت حركة المسلمين الجهادية تتصف بطابع الدفاع عبر السنين الخمس الماضية.

فكانت في هذه السنة وما أعقبها من سنوات مجموعة من الغزوات والسرايا، رافقتها أحداث ومنعطفات تاريخية مهمة.

وسوف نتحدث في هذا الدرس والدروس القادمة عن هذه الغزوات وما رافقتها من أحداث بحسب تسلسلها الزمني، مع الاشارة المختصرة جداً لبعض السرايا.

١ - غزوتان سبقتا غزوة بني المصطلق

أ - غزوة بني لحيان:

١ - تاريخ الغزوة:

اتفق المؤرخون على أن هذه الغزوة وقعت بعد غزوة بني قريظة وفي السنة السادسة من الهجرة، واختلفوا في الشهر الذي وقعت فيه الغزوة.

قال ابن إسحاق: «وكان فتح بني قريظة في ذي القعدة وصَدر ذي

---

(١) دويدار، صور من حياة الرسول: ٤٤٤ - ٤٤٥ (مرجع سابق).

الحجة . . . ثمّ أقام رسول الله ﷺ بالمدينة ذا الحجّة والمحرّم وصفراً وشهري ربيع، وخرج في جمادي الأُولى على رأس ستّة أشهر من فتح قريظة، إلى بني لحيان. . . .

إلاّ أن الواقدي وابن سعد يقول: خرج رسول الله ﷺ لهلال ربيع الأوّل سنة ستّ»[١].

٢ - أسباب الغزوة وأهدافها:

كان رسول الله ﷺ ، وبحسب الرواية التاريخية، يهدف من غزوته هذه أمران:

أولّهما: تأديب ومعاقبة بني لحيان الذين غدروا بدعاة المسلمين عند ماء «الرجيع» قبل عامين، وهم ستة من الصحابة، اغتالوا أربعة منهم، وباعوا الاثنين الباقيين لقريش فقتلتهما.

ثانيهما: التأثير في معنويات قريش والقبائل الأُخرى، وارهابهم وتخويفهم[٢].

قال ابن إسحاق: «إنّ رسول الله ﷺ خرج في غزوة بني لحيان، وأظهر أنّه يريد الشام ليصيب من غِرَّة[٣]، فخرج من المدينة فسلك على غُراب[٤] ثمّ على مخيض - أو محيص - ثمّ على البتراء، ثمّ صفّق[٥] ذات اليسار، ثمّ استقام به

(١) ابن هشام، السيرة النبوية: ٣/ ٢٧٩، والواقدي، المغازي: ١/ ٥٣٥، وابن سعد، الطبقات: ٢/ ٢٨٧.

(٢) انظر: الرسول القائد: ٢٤٨.

(٣) الغِرَّة: الغفلة.

(٤) جبل بناحية المدينة على الطريق إلى الشام.

(٥) صفّق: عدل.

الطريق على الحجّة من طريق مكة، فأغذّ السير سريعاً، حتى نزل على غُران، وهي منازل بني لحيان. . . فوجدهم قد حذروا وتمنّعوا في رؤوس الجبال.

فلما نزلها رسول الله ﷺ وأخطأه من غِرّتهم ما أراد، قال ﷺ: لو أنا هبطنا عُسْفَان لرأى أهل مكة أنّا قد جئنا مكة، فَخرج في مئتي راكب من أصحابه حتّى نزل عُسْفَان، ثمَّ بعثَ فارسين من أصحابه حتى بلغا كراع الغميم[١]، ثمّ كرّ رسول الله ﷺ قافلا.

فكان جابر بن عبد الله يقول: «سمعت رسول الله ﷺ يقول حين وجه راجعاً: آيبون تائبون إن شاء الله لربّنا حامدون، أعوذ بالله مِن وعثاء السفر، وكآبة المنقلب، وسوء المنظر في الأهل والمال»[٢].

وهنالك اختلاف بين بعض المؤرخين في بعض جزئيات هذه الغزوة، لا يهمنا كثيراً التعرّض إليها.

ولم تستغرق الرحلة إلى هذه الغزوة ذهاباً وإياباً سوى أربع عشرة ليلة، عاد بعدها رسول الله ﷺ إلى المدينة، وقد حقّق هدفه - أو جزأً منه - في هذه الغزوة.

ب - غزوة ذي قَرَد:

وسماها كلٌّ من الواقدي وابن سعد بـ (غزوة الغابة)[٣] ووجه تسميتها بـ (ذي قَرَد) لمطاردة المسلمين لرجال غطفان انتهت إلى هذه المنطقة، وهي عين ماء قريبة من خيبر، وسميت بـ (الغابة) لأنها المنطقة التي نهبت منها الإبل، حيث

(١) كُراع الغميم: موضع بناحية الحجاز بين مكة والمدينة.

(٢) ابن هشام: ٣ / ٢٧٩ - ٢٨٠، والواقدي: ١ / ٥٣٥ - ٥٣٧، وابن سعد: ٢ / ٢٨٩.

(٣) الواقدي: ١ / ٥٣٧، وابن سعد، الطبقات: ٢ / ٢٨٩.

أغار عيينة بن حصن بن حذيفة الفزاري، في خيل من غطفان على لقاح[(١)] لرسول الله ﷺ بالغابة، وفيها رجل من بني غفار وامرأة له، فقتلوا الرجل، واحتملوا المرأة في اللقاح»[(٢)].

فالهدف من هذه الغزوة - كما هو الواضح - مطاردة عيينة بن حصن وجماعة غطفان لإعادة ما انتهبوه من إبل المسلمين، وتخليص المرأة الغفارية التي احتملوها معهم.

قال ابن سعد: «ثمّ غزوة رسول الله ﷺ الغابة، وهي على بريد من المدينة طريق الشام في شهر ربيع الأول سنة ستّ من مُهاجره.

قالوا: كانت لقاح رسول الله ﷺ، وهي عشرون لَقحَة ترعى بالغابة، وكان أبو ذر فيها، فأغار عليهم عيينة بن حصن ليلة الأربعاء في أربعين فارساً، فاستاقوها وقتلوا ابن أبي ذر، وجاء الصريخ فنادى الفزع الفزع! فنودي: يا خيل الله اركبي، وكان أوّل ما نودي بها، وركب رسول الله ﷺ، فخرج غداة الأربعاء في الحديد مقنّعاً فوقف، فكان أوّل من أقبل إليه المقداد بن عمرو وعليه الدرع والمِغفَر شاهراً سيفه، فعقد له رسول الله ﷺ لواءً في رمحه وقال: امض حتى تلحقك الخيول، أنا على أثرك، واستخلف رسول الله ﷺ على المدينة عبد الله بن أُمّ مكتوم، وخلّف سعد بن عبادة في ثلاثمائة من قومه يحرسون المدينة. قال المقداد: فخرجت فأدركت أُخريات العدوّ، وقد قتل أبو قتادة مَسعَدَة فأعطاه رسول الله فرسه وسلاحه، وقتل عكاشة بن مِحصِن أثار بن عمرو بن أثار، وقتل المقداد بن عمرو حبيب بن عيينة بن حصن وقرفة بن مالك بن حذيفة بن بدر، وقُتل من المسلمين مُحرز بن نضلة، قتله مسعدة، وأدرك سلمة بن الأكْوع القوم وهو على رجليه، فجعل يراميهم بالنبل ويقول:

خـــذهـــا وأنـــا ابـــن الأكـــوع   الـــيـــومُ يـــوم الـــرُّضـــع

---

(١) اللقاح: الإبل الحوامل ذوات اللبان.

(٢) ابن هشام: ٣ / ٢٨١.

حتى انتهى بهم إلى ذي القَرد.

قال سلمة: فلحقنا رسول اللهﷺ ، والناس والخيول عشاءً، فقلت: يا رسول الله إنّ القوم عطاش فلو بعثتني في مائة رجل استنقذت ما بأيديهم من السّرح وأخذت بأعناق القوم، فقال النبيﷺ : مَلكت فأسجَح(١)، ثمّ قالﷺ : إنهم الآن ليُقرَونَ في غطفان.

وذهب الصريخ إلى بني عمرو بن عوف، فجاءت الأمداد، فلم تزل الخيل تأتي والرجال على أقدامهم وعلى الإبل، حتى انتهوا إلى رسول اللهﷺ ، بذي قَرَد فاستنقذوا عشر لقائح وأفلت القوم بما بقي وهي عشر، وصلّى رسول اللهﷺ بذي قَرد صلاة الخوف، وأقام به يوماً وليلة يتحسس الخبر..»(٢).

ثمّ يذكر ابن سعد أُموراً جزئية عن هذه الغزوة وبطولات فردية لسلمة بن الأكوع وغيره لا تخلو من المبالغة الواضحة.

بقي أن نشير إلى أن اللِقاح - الإبل الحوامل ذوات الألبان - التي تقول الرواية أنها كانت لرسول اللهﷺ ، ما هي إلاّ غنائم من غزوات شتّى: «منها ما أصاب في ذات الرِّقاع، ومنها ما قدم به محمد بن مَسلمة من نجد... فكان الراعي يؤوب بلبنها كلّ ليلة عند المغرب»(٣) وهذا يعني أن أهل المدينة من المسلمين كانوا ينتفعون من نمائها، ورسول اللهﷺ يقاسمهم المنفعة فيها كأحدهم.

ولابد من الاشارة أيضاً إلى صلاة الخوف التي ذكرها ابن سعد في آخر

(١) أي قدرت فسهل وأحسن العفو، وهو مثل سائر. (النهاية لابن الأثير: ٢ / ١٤٦).

(٢) ابن سعد، الطبقات: ٢ / ٢٨٩ - ٢٩٠ وقارن برواية الواقدي في المغازي: ١ / ٥٣٧ وما بعدها، وابن هشام في السيرة النبوية: ٣ / ٢٨١ وما بعدها.

(٣) الواقدي، المغازي: ١ / ٥٣٨.

روايته، وأنّ رسول اللهﷺ قد صلاها في هذه الغزوة. . . فإنها تتنافى مع ما ذكره قبل ذلك في قوله: «وأفلت القوم» أي أن رسول الله وصل إلى ذي قَرد ولم يكن هنالك أحد من غطفان في هذه المنطقة، فلماذا أذن صلاة الخوف؟

والغريب أن الواقدي يروي عمن حدثه عن ابن عباس كيفية هذه الصلاة فيقول: «قام رسول اللهﷺ إلى القبلة، وصف طائفة خلفه، وطائفة مواجهة للعدوِّ، فصلّى بالطائفة التي خلفه ركعة وسجدتين، ثمّ انصرفوا فقاموا مقام أصحابهم، وأقبل الآخرون فصلّى بهم رسول اللهﷺ ركعة وسجدتين فكان لرسول اللهﷺ ركعتان، ولكلِّ رجل من الطائفتين ركعة»[١].

فما المقصود من مواجهة العدو بعد أن فروا إلى ديارهم بباقي الإبل؟ إلاّ أن يقال إنّ المقصود من مواجهة العدو: «أي تكون في وجه العدو، أي في المحل الذي يظن مجيئهم منه. . . »[٢].

وهو توجيه فيه تكلف واضح، إذ على هذا التوجيه كان على رسول الله والمسلمين أن يصلوا صلاة الخوف في كل غزوة وسرية لأنّ ملاك الصلاة، وهو الخوف من مداهمة العدو لهم حاصل فيها، فما هي الخصوصية لهذه الغزوة دون غيرها.

ومهما يكن من أمر، فإن صلاة الخوف قد وقع فيها اختلاف بين المؤرخين في تاريخ تشريعها، وفي كيفيتها.

فيذكرها مؤرخ في غزوة معينة ثمّ يذكر كيفية أدائها من قبل الرسولﷺ، ويأتي مؤرخ آخر ويذكرها في غزوة أُخرى وبكيفية أُخرى، حتى قال أحدهم: «فتجوز صلاتها - أي صلاة الخوف - على أي صفة صلاها رسول اللهﷺ، وقد

---

(١) المصدر نفسه: ١ / ٥٤٦ .

(٢) السيرة الحلبية: ٣ / ١٠ .

جاءت الأخبار بأنها على ستة عشر نوعاً! في صحيح مسلم بعضها، ومعظمها في سنن أبي داود، وفي صحيح ابن حيان منها تسعة. . . »[١].

ولا ندري كيف ينسجم هذا النقل، مع ما روي عن رسول الله ﷺ: «صلوا كما رأيتموني أُصلّي»، وكيف ينسجم مع كون العبادات توقيفية؟

أما رواية ابن عباس التي رواها الواقدي، فهي تحكي لنا صلاة عجيبة، إذ لم يصلِّ من المسلمين أحد خلف رسول الله ﷺ إلاّ ركعة واحدة بسجدتين ثمّ ينصرف! إلاّ رسول الله الذي صلّى ركعتين، ولكلّ رجل من الطائفتين ركعة[٢]!!

ولهذا استنكر الشافعي حديث ابن عباس وقال: «لا يثبت، لأنّ الخوف لا يؤثر في نقض الركعات»[٣].

ومهما يكن من أمر:

فإنّ ما ذكر من اختلاف في كيفية صلاة الخوف، وغيرها من الصلوات كصلاة العيد، والصلاة على الميت، والصلاة في السفر. . . لا يمكن أن ننسبه لرسول الله ﷺ ونقول: «فتجوز صلاتها على أي صفة صلاها رسول الله ﷺ»[٤].

فالاختلاف يعود في حقيقته إلى أغلاط المؤرخين والرواة، فكلٌّ ينقله بالشكل والكيفية التي تلقاها، فلابد من التثبت في الأمر والرجوع فيه إلى «أهل الذكر» لحسم مادة النزاع.

---

(١) الزحيلي - د. وهبه، الفقه الإسلامي وأدلته: ٢ / ٤٣٤ - ٤٣٥، طبعة دار الفكر - دمشق، الطبعة الثالثة، (١٤٠٩هـ - ١٩٨٩م).

(٢) انظر رواية الواقدي: ١ / ٥٤٦.

(٣) الفقه الإسلامي وأدلته: ٢ / ٤٣٨.

(٤) المصدر نفسه: ٢ / ٤٣٤.

٢ - غزوة بني المصطلق (المُريسيع)

تاريخ الغزوة واختلاف المؤرخين فيها:

اختلفت كلمات المؤرخين في تحديد تاريخ هذه الغزوة، في تقدمها أو تأخرها عن غزوة الأحزاب وبني قريظة.

فقد ذكرها الواقدي بعد غزوة دومة الجندل، وقال: «في سنة خمس خرج رسول الله ﷺ يوم الاثنين لليلتين خلتا من شعبان»(١) ثمّ ذكر بعدها غزوة الأحزاب وبني قريظة، وتابعه في ذلك ابن سعد في الطبقات(٢)، وذكرها ابن إسحاق في حوادث السنة السادسة من الهجرة.

قال ابن إسحاق: «فأقام رسول الله ﷺ بالمدينة بعض جمادى الآخرة ورجباً، ثمّ غزا بني المصطلق من خزاعة، في شَعبان سنة ستّ» وتابعه على ذلك كل من الطبري، وابن كثير وغيرهم(٣). وذكروها بعد غزوة الأحزاب وبني قريظة.

أما بقيّة المؤرخين والمحدثين، فبعضهم تابع القول الأول، وآخرون تابعوا القول الثاني، إلاّ ما نسبه البخاري إلى مغازي محمد بن موسى بن عقبة، من أن هذه الغزوة وقعت السنة الرابعة(٤) إلاّ أن الموجود في مغازي ابن عقبة أنها في شعبان من سنة خمس(٥).

---

(١) الواقدي، المغازي: ٣ / ٤٠٤.

(٢) طبقات ابن سعد: ٢ / ٢٨١.

(٣) ابن هشام، السيرة النبوية: ٣ / ٢٨٩، والطبري: ٢ / ٦٠٤، والسيرة النبوية لابن كثير: ٣ / ٢٩٧.

(٤) انظر: ابن سيد الناس، عيون الأثر: ٢ / ١٢٨، وصحيح البخاري: ٥ / ٦٥.

(٥) ابن عقبة - موسى، المغازي، النبوية: ٣١٣، جمع وتحقيق ودراسة: حسين مرادي نسب، طبعة منشورات ذو القربى - قم، الطبعة الأُولى، (١٤٢٤ هـ).

والعجيب في تاريخ هذه الغزوة وأحداثها ما أورده البخاري في صحيحه من تناقض واضح، فهو يذكر وفاة سعد بن معاذ بعد غزوة الأحزاب وبني قريظة التي يؤرخ لها بأنها وقعت سنة أربع! ثمّ يذكر بعدها غزوة ذي الرقاع، ثمّ غزوة بني المصطلق، فيذكر فيها حديث الإفك، والنزاع الذي جرى بين سعد بن معاذ، وسعد بن عبادة[١].

فإذا كان سعد بن معاذ قد استشهد بعد غزوة بني قريظة - كما هو صحيح - فكيف يمكن والحال هذه أن يحضر مجلس رسول الله ﷺ، ويجادل سعد بن عبادة في قصة الإفك، التي وقعت بعد غزوة بني قريظة بعدة أشهر؟!

وقد اضطربت كلمات شُراح صحيح البخاري في معالجة هذا التناقض الذي وقع فيه البخاري[٢].

«ولهذا اعتبر بعض المفسرين والمحدثين ما ذكره البخاري «وهم»، وإن تقدم قريظة على المريسيع هو الصحيح، والوهم لم يسلم منه أحد من بني آدم»[٣].

فإذا كان البخاري قد وقع في التناقض أو الوهم في هذه القضية، فمن الممكن أن يقع في التناقض والوهم في غيرها، فكيف يدعى صحة روايات كتابه ولا يمكن المناقشة فيه؟!

وعلى أي حال، فإن رواية ابن إسحاق في السيرة أسلم من غيرها، حيث تجنب ذكر سعد بن معاذ وذكر مكانه اسم أُسيد بن حضير، وهو ابن عم سعد بن معاذ وحلَّ محله في زعامة قبيلة الأوس.

ولعلّ الوجه في قبول رواية ابن إسحاق في كون غزوة بني المصطلق وقعت

---

(١) انظر صحيح البخاري: ٥ / ٦١ - ٦٩ .

(٢) انظر: ابن حجر، فتح الباري في شرح صحيح البخاري: ٨ / ٤٧١ .

(٣) السيرة الحلبية: ٢ / ٤٠٥ - ٤٠٦ .

بعد غزوة الأحزاب وبني قريظة وفي سنة ستّ، هو ما نلاحظه من تفاعل بين أحداث السيرة النبوية، ومدى ما تتركه من تأثير في الأحداث اللاحقة لها، وخاصة الأحداث والغزوات الكبرى. كغزوة بدر، وأُحد، والأحزاب. . . فإننا نجد أن غزوة بدر تركت آثارها وبصماتها على غزوة أُحد، ونجد الصحابة يذكرونها ويتشهدون ببعض مواقفها عند الاستعداد لغزوة أُحد، كذلك نجد تأثير غزوة أُحد على ما بعدها من الغزوات، مع أننا لا نجد أي أثر أو ذكر لغزوة بني المصطلق في حوادث غزوة الأحزاب وبني قريظة مع وقوع حوادث كبيرة فيها كحادثة المنافقين في الطريق وحديث الإفك، فكيف تكون غزوة بني المصطلق قبل غزوة الأحزاب وبني قريظة، ولا نجد لها أي أثر يذكر فيهما، مع ما أحدثته هذه الغزوة من هزة اجتماعية في المجتمع المدني؟

وجه التسمية:

عرفت هذه الغزوة بغزوة: «بني المصطلق» وهم قبيلة خزاعة، ومنها تفرقت بطونهم، وقيل: إنما سميت خُزاعة بهذا الاسم لأنهم لما ساروا مع قومهم من مأرب فانتهوا إلى مكة تخزّعوا عنهم - أي تخلفوا عنهم في مسيرهم - وسار الآخرون إلى الشام[١].

وتعرف أيضاً عند المؤرخين بغزوة «المُريسيع»، وهي ماء لبني خزاعة بطريق الفُرع بينه وبين الفرع ثمانية برد من المدينة، أو نحو يوم، أو يومان[٢].

«ويقال لها: غزوة محارب، وقيل محارب غيرها. ويقال لها: غزوة الأعاجيب لما وقع فيها من الأُمور العجيبة. . .»[٣].

---

(١) المسعودي، التنبيه والإشراف: ٢١٥، ولسان العرب: ٤ / ٨٢ (مادة خَزَعَ).

(٢) المصدر نفسه: ٢١٥، وطبقات ابن سعد: ٢ / ٢٨١ .

(٣) السيرة الحلبية: ٢ / ٣٧٧ .

٣ - سبب الغزوة ونتائجها

تعتبر هذه الغزوة من الغزوات المهمة، ليس من جهة ما وقع فيها من مواجهات عسكرية. فإنها كانت سهلة يسيرة من هذه الجهة، إذ لم يقع فيها قتال على قول بعض المؤرخين[١] أو وقع فيها قتال يسير، غَنِم بعدها المسلمون غنائم كثيرة فيها النساء والذراري والأموال. . . .

وإنما تكمن أهميتها فيما وقع فيها من أحداث هزت المجتمع المدني، وكادت أن تحصل فتنة هوجاء، عالجها رسول الله ﷺ بحكمته وبصيرته النافذة، وسعة صدره وحلمه الكبير.

النصّ التاريخي لوقائع الغزوة:

روى ابن إسحاق والواقدي وابن سعد، واللفظ للأخير: «قالوا: إنّ بني المصطلق من خزاعة، وهم من حلفاء بني مُدلج، وكانوا ينزلون على بئر لهم يقال لها «المُريسيع». . . وكان رأسهم وسيّدهم الحارث بن أبي ضرار، فسار في قومه ومن قدر عليه من العرب فدعاهم إلى حرب رسول الله ﷺ ، فأجابوه وتهيّأوا للمسير معه إليه، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فبعث بُريدة بن الحصيب الأسلمي يعلم علم ذلك، فأتاهم ولقي الحارث بن أبي ضرار وكلّمه، ورجع إلى رسول الله ﷺ فأخبره خبرهم.

فندب رسول الله ﷺ الناس إليهم فأسرعوا الخروج وقادوا الخيول. . . وخرج معه بَشَر كثير من المنافقين لم يخرجوا في غُزاة قطّ قبلها.

واستخلف على المدينة زيد بن حارثة[٢] وخرج يوم الاثنين لليلتين خلتا من

---

(١) زاد المعاد: ٢ / ٥٣٨ .

(٢) وقال ابن هشام: ٣ / ٢٨٩ : «واستعمل على المدينة أبا ذر الغفاري، ويقال: نُميلة بن عبد الله الليثي».

شعبان. وبلغ الحارث بن أبي ضرار ومن ومعه مسير رسول الله ﷺ، وأنه قد قَتل عَينه الذي كان وجّهه ليأتيه بخبر رسول الله ﷺ، فسيء بذلك الحارث ومن معه وخافوا خوفاً شديداً وتفرّق عنهم من كان معهم من العرب.

وانتهى رسول الله ﷺ إلى المُريسيع، وهو الماء فاضطرب [هكذا] عليه قُبته، ومعه عائشة وأُم سلمة! فتهيّأوا للقتال وصفّ رسول الله ﷺ أصحابه، ودفع راية المهاجرين إلى أبي بكر الصديق[١]، وراية الأنصار إلى سعد بن عبادة، فرموا بالنبل ساعة، ثمّ أمر رسول الله ﷺ أصحابه فحملوا حَملة رجل واحد، فما أفلت منهم إنسان، وقُتل عشرة منهم وأُسر سائرهم، وسبى رسول الله ﷺ الرجال والنساء والذريّة والنّعَم والشاة، ولم يُقتل من المسلمين إلاّ رجل واحد.

وكان ابن عمر يحدّث أن النبي ﷺ أغار عليهم وهم غارّون[٢] ونَعَمهم تسقى على الماء، فقتل مقاتلتهم وسبى ذراريهم - والحديث - الأول أثبت.

وأمر - رسول الله ﷺ - بالأسرى فكتفوا واستعمل عليهم بريدة بن الحُصيب، وأمر بالغنائم فجمعت واستعمل عليها شُقران مولاه، وجمع الذرية في ناحية، واستعمل على مقسم الخمس وسهمان المسلمين محمية بن جزء الزُّبيدي، واقتسم السبي وفُرق وصار في أيدي الرجال وقسم النعم والشاة.. وأسهم للفرس سهمان

ولصاحبه سهم، وللراجل سهم، وكانت الإبل ألفي بعير، والشاة خمسة آلاف شاة، وكان السبي مائتي أهل بيت»[٣].

---

(١) وفي رواية الواقدي: ١ / ٤٠٧: «ويقال: كان مع عمار بن ياسر راية المهاجرين».

(٢) غارّون: أي غافلون.

(٣) ابن سعد، الطبقات: ٢ / ٢٨١، وقارن برواية الواقدي: ١ / ٤٠٤ وما بعدها، وابن هشام: ٣ / ٢٨٩ وما بعدها.

قصة زواج النبيﷺ من جويرية بنت الحارث:

روى الواقدي وابن إسحاق وابن سعد - باختصار شديد - أكثر من رواية في كيفية زواج النبيﷺ من جويرية بنت الحارث.

قال ابن إسحاق: «عن عروة بن الزبير، عن عائشة، قالت: «لما قسّم رسول اللهﷺ سبايا بني المصطلق، وقعت جويرية بنت الحارث في السهم لثابت بن قيس، أو لابن عم له، فكاتبته على نفسها، وكانت امرأة حلوةً مُلاّحة، لا يراها أحد إلاّ أخذت بنفسه، فأتت رسول اللهﷺ تستعينه في كتابتها.

قالت عائشة: فوالله ما هو إلاّ رأيتها على باب حُجرتي فكرهتها، وعرفتُ أنه سيرى منهاﷺ ما رأيت، فدخلت عليه.

فقالت: يا رسول الله، أنا جويرية بنت الحارث بن أبي ضرار، سيّد قومه، وقد أصابني من البلاء، ما لم يخف عليك، فوقعت في السّهم لثابت بن قيس.. فكاتبته على نفسي، فجئتك استعينك على كتابتي.

قالﷺ : فهل لك في خير من ذلك؟ قالت: وما هو يا رسول الله؟

قالﷺ : أقضي عنك كتابتك وأتزوّجك ; قالت: نعم يا رسول الله، قال: قد فعلت».

قالت - عائشة -: وخرج الخبر إلى الناس أن رسول اللهﷺ قد تزوّج جويرية ابنة الحارث بن أبي ضرار، فقال الناس: أصهار رسول اللهﷺ ، وأرسلوا

ما بأيديهم. قالت: فقد أُعتق بتزويجه إياها مائة أهل بيت من بني المطلق، فما أعلم امرأة كانت أعظم على قومها بركة منها»[(١)].

إلاّ أن ابن هشام يروي رواية أُخرى لا يذكر سندها، وإنما بلفظ: ويقال.

---

(١) ابن هشام، السيرة النبوية: ٣ / ٢٩٤ - ٢٩٥، والواقدي، المغازي: ١ / ٤١١ .

وفيها: «أن والد جويرية جاء بفدائها إلى رسول الله ﷺ وخبأ بعيرين في الطريق، فأخبره رسول الله ﷺ بمكانهما، فأسلم وأسلم معه ابنان له وناس من قومه، فدفع الإبل لرسول الله ﷺ ودفعت إليه ابنته جويرية، فأسلمت، وحسن إسلامها، فخطبها رسول الله ﷺ إلى أبيها، فزوّجه إياها وأصدقها أربعمائة درهم»[١].

وفي رواية الواقدي: «إن أباها دفع فديتها إلى ثابت بن قيس ثمّ خطبها رسول الله ﷺ»[٢].

ثمّ يرجح الواقدي رواية عائشة ويقول: إنها أثبت.

وروي في مقدار صداقها «فقيل: إنّ رسول الله ﷺ جعل صداقها عِتق كلِّ أسير من بني المصطلق، ويقال: جعل صداقها عِتق أربعين من قومها»[٣].

وهنالك روايات أُخرى لبعض المؤرخين في قصة زواج النبي ﷺ من جويرية ومقدار صداقها[٤]، إلاّ أن مجمل هذه الروايات الواردة في هذه القضية تحمل في طياتها مجموعة من التناقضات والاختلافات لا يهمنا كثيراً التوقف عندها لمعالجتها.

«والذي ينبغي أن نتوقف عنده قليلا هو ما جاء في مستهل رواية عائشة التي تصف بها جويرية بأنها امرأة حلوة ملاحة، لا يراها أحد إلاّ أخذت بنفسه، فأتت رسول الله ﷺ . . . ثمّ تقول: وعرفت أنه سيرى منها ﷺ ما رأيت»[٥].

(١) المصدر نفسه: ٣ / ٢٩٥ - ٢٩٦ .

(٢) الواقدي، المغازي: ١ / ٤١٢ .

(٣) الواقدي، المغازي: ١ / ٤١٢ .

(٤) انظر: الصحيح من سيرة النبي: ١٢ / ٢٦٧ .

(٥) ابن هشام، السيرة النبوية: ٣ / ٢٩٤ - ٢٩٥ .

فهذا المقطع من الرواية، قد توحي للقارئ بأن جمال جويرية وملاحتها هو الذي أثر على مشاعر النبيﷺ وأحاسيسه، مما دعاهﷺ إلى الاسراع في طلب الزواج منها، مقابل دفع مال كتابتها وفكها من أسرها! وكأنه لم تكن هنالك اعتبارات أُخرى لهذه القضية!

مع أن لهذا الزواج جوانب انسانية واجتماعية وسياسية كشف عنها الاعلان عن هذا الزواج حيث أرسل المسلمون ما بأيديهم من الأسرى، وأسلم قومها وتحولوا باسلامهم من الصف المعادي والمحارب للإسلام إلى الصَّفِّ الموالي والمناصر له. وذيل رواية عائشة التي تقولها فيها: «فما أعلم امرأة كانت أعظم على قومها بركة منها» يؤيد ذلك.

ثـمّ إنَّ رسـول اللهﷺ بأيِّ مسوِّغ شرعي أباح لنفسه أن ينظر إلى جمال وملاحة جويرية، حتى وقع في الذي كانت تخشاه عائشة من العواقب الوخيمة عليها نتيجة هذا اللقاء؟

وكأنَّ السهيلي في الروض الأنف، قد التفت إلى هذه الاشكالية الشرعية في الرواية فأخذ يوجهها بقوله: «وأما نظرهﷺ لجويرية حتى عرف من حسنها ما عرف، فإنما ذلك لأنها امرأة مملوكة، ولو كانت حرة ما ملأ عينه منها، لأنه لا يكره النظر إلى الإماء، وجائز أن يكون نظر إليها، لأنّه نوى نكاحها، كما نظر إلى المرأة التي قالت له: إني قد وهبت نفسي لك يا رسول الله، فصعد فيها النظر ثمّ صوب، ثمّ أنكحها من غيره، وقد ثبت عنهﷺ الرخصة في النظر إلى المرأة عند إرادة نكاحها»[1].

إن هذا التخريج الفقهي الذي ذكره السهيلي، قد يكون فيه نوع من الوجاهة، إلاّ أنه لا يوجه كلام عائشة بحق النبيﷺ ، الذي يشوبه نوع من سوء

---

(١) السهيلي، الروض الأنف: ٤ / ١٩، وانظر السيرة الحلبية: ٢ / ٣٨٠ وما بعدها .

الظن بالنبيﷺ قبل أن تدخل عليه جويرية أو يراها!

ومهما يكن من أمر، فإن الذي يتناسب مع الأحداث التي وقعت بعد هذه الغزوة، -وهو حادث المنافقين، وقضية الإفك - إنّ النبيﷺ قد تزوج من جويرية قبل هذه الأحداث وبعد الانتهاء من الأُمور الحربية والعسكرية، بل صرَّح بعض المؤرخين أنّ النبيﷺ تزوجها حين كان لا يزال على ماء المُريسيع[1].

فالملاحظ أنّ المدينة قد انشغلت بعد هذه الغزوة بقضية المنافقين، وما قاله ابن أبي، وبحديث الإفك الذي استمر إلى أكثر من عشرين يوماً بحسب الروايات، ولا نجد أيَّ ذكر للأسرى أو الغنائم التي استحوذ عليها المسلمون في هذه الغزوة، مما يعني أنَّ النبيﷺ قد قسّمها في مكانها، ثمّ وقع الذي وقع من أمر المنافقين، وحادث الإفك في الطريق.

٤ - الوليد بن عقبة، وبنو المصطلق

وفي سياق الحديث عن بني المصطلق يذكر المؤرخون والمفسرون، أنَّ هذه القبيلة قد أسلمت وحسن إسلامها، ولم يظهر منها أيّ سلوك معادي للإسلام والمسلمين.

إلاّ أنّ أحد المسلمين كاد أن يثير حرباً بينها وبين المسلمين من خلال فِرية مرّرها على المسلمين كما في رواية ابن إسحاق الذي يقول: «إنّ رسول اللهﷺ بعث إليهم بعد إسلامهم الوليد بن عقبة بن أبي مُعيط، فلما سمعوا به ركبوا إليه، فلما سمع بهم هابهم، فرجع إلى رسول اللهﷺ فأخبره أن القوم قد همّوا بقتله، ومنعوه ما قِبَلَهم من صدقتهم، فأكثر المسلمون في ذكر غزوهم، حتى همّ رسول اللهﷺ بأن يغزوهم، فبينا هم على ذلك قدم وفدهم على رسول اللهﷺ،

---

(١) السيرة الحلبية: ٢ / ٣٨٠ و ٣٨٢ .

فقالوا: يا رسول الله سمعنا برسولك حين بعثته إلينا، فخرجنا إليه لنُكرمه، ونؤدي إليه ما قِبلنا من الصدقة، فانشمر[1] راجعاً، فبلغنا أنه زعم لرسول الله ﷺ أنّا خرجنا إليه لنقتله، ووالله ما جئنا لذلك.

فأنزل الله تعالى فيه وفيهم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ فَتُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلۡتُمۡ نَٰدِمِينَ ۝٦ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ فِيكُمۡ رَسُولَ ٱللَّهِۚ لَوۡ يُطِيعُكُمۡ فِي كَثِيرٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡرِ لَعَنِتُّمۡ...﴾[2].

ونزول الآية في قصة الوليد بن عقبة مستفيض من طرق أهل السنة والشيعة[3]، إلاّ أن هذه الحادثة متأخرة عن غزوة بني المصطلق بزمن طويل على ما يبدو من سياقها، وإنما ذكرت هنا لارتباطها ببني المصطلق، وإسلام الوليد بن عقبة كان يوم فتح مكة أي في رمضان سنة ثمان للهجرة، كما قال: ابن عبد البر في الاستيعاب عند ترجمته له، وللرجل تاريخ أسود ولم تكن هذه الحادثة أولها ولا آخرها،

ويكفي قول ابن عبد البر فيه: «وله أخبار فيها نكارة وشناعة تقطع على سوء حاله وقُبح أفعاله»[4].

٥ - المنافقون وإثارتهم للفتنة بين المهاجرين والأنصار

«لقد كانت غزوة بني المصطلق غزوة موفقة في كل خطواتها، وكان المسلمون أحرياء أن يغتبطوا ويفرحوا بما كتب الله لهم فيها من التوفيق والنصر،

---

(١) انشمر: أي جد واسرع في الرجوع.

(٢) الحجرات: ٦ - ٧، وانظر ابن هشام، السيرة النبوية: ٣ / ٢٩٦، وأسباب النزول للواحدي: ٢١٦ وما بعدها.

(٣) انظر: تفسير الميزان: ١٨ / ٣١٩.

(٤) ابن عبد البر، الاستيعاب: ٢ / ٣٣٢ وما بعدها.

لولا أن المنافقين أبوا إلاّ أن يكدِّروا صفو هذا السرور، ويذهبوا من بهاء هذا النصر.

لقد استغلوا حادثين حدثا بعد هذه الغزوة، كانا جديرين أن يمرّا كما تمرّ الحوادث العادية دون أن يلفتا نظر أحد، أو يثيرا دهشة أحد، ولكن المنافقين أبَوا إلاّ أن يستغلوا هذه الفرصة، يثيروا بهما فتنة كادت تعصف بوحدة المهاجرين والأنصار».

أما الحادث الأول: فقد كان خلافاً على الماء بين أجير لعمر بن الخطاب، وحليف لبني الخزرج.

قال ابن إسحاق والواقدي: «فبينا رسول الله ﷺ على ذلك الماء - أي المُريسيع - وردت واردة الناس... فازدحم جهجاه - بن سعيد الغفاري - وسنان ابن وَبَر الجهني على الماء، فاقتتلا، فصرخ الجُهني: يا معشر الأنصار، وصرخ جَهجَاه: يا معشر المهاجرين»[١].

قال السهيلي: «وفي الصحيح أنه ﷺ حين سمعها منهما قال: «دعوها فإنها منتنة» يعني أنها كلمة خبيثة، لأنها من دعوى الجاهلية، وجعل الله المؤمنين إخوة وحزباً واحداً، فإنما ينبغي أن تكون الدعوة للمسلمين...»[٢].

كادت هذه الحادثة البسيطة أن توقع فتنة بين المهاجرينَ والأنصار، لولا حكمة رسول الله ﷺ في معالجة الأُمور ووأد الفتنة في مهدها، فما أن سمع رسول الله نداء الرجلين حتى أسرع إلى مكان الحادث، «فقال: ما بال دعوى الجاهلية.. دعوها فإنها منتنة» ثمّ كلموا ذلك الرجل المضروب فترك حقّه،

(١) السيرة النبوية: ٣ / ٢٩٠ .

(٢) السهيلي، الروض الأنف: ٤ / ١٧ .

فسكنت الفتنة، وانطفت ثائرة الحرب»[١].

لكن عبد الله بن أُبي عزّ عليه أن تنطفئ هذه الشرارة قبل أن تحدث الحريق الذي كان بودِّه أن يأتي على الأخضر واليابس، وأن تموت هذه الفتنة قبل أن تذهب بما في صفوف المسلمين من وحدة وائتلاف.

قال ابن إسحاق: «فغضب عبد الله بن أبي، وعنده رهط من قومه فيهم: زيد ابن أرقم، غلام حَدث، فقال: أوقد فعلوها؟! قد نافرونا وكاثرونا في بلادنا، والله ما أُعدنا وجلابيب قريش[٢]، إلاّ كما قال الأوّل: سمّن كلبك يأكلك[٣]، أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجنّ الأعزّ منها الأذل، ثمّ أقبل على من حضره من قومه، فقال لهم: هذا ما فعلتم بأنفسكم، أحللتموهم بلادكم، وقاسمتموهم أموالكم، أما والله لو أمسكتم عنهم ما بأيديكم لتحوّلوا إلى غير داركم.

فسمع ذلك زيد بن أرقم، فمشى به إلى رسول الله ﷺ فأخبره الخبر، وعنده عمر بن الخطّاب، فقال - أي عمر -: مُر به عَبّاد بن بشر فليقتله! فقال له رسول الله ﷺ: فكيف يا عمر إذا تحدّث الناس أنّ محمداً يقتل أصحابه! لا ولكن أذّن بالرّحيل، وذلك في ساعة لم يكن رسول الله ﷺ يرتحل فيها، فارتحل الناس»[٤].

وفي رواية الواقدي عن عمر بن الخطاب - وهي رواية متناقضة - عندما

---

(١) السيرة الحلبية: ٢ / ٣٨٧ .

(٢) الجلابيب: لقب لمن كان أسلم من المهاجرين، لقَّبهم بذلك المشركون، وأصل الجلابيب: الأُزر الغلاظ، واحدها جلباب، وكانوا يلتحفون بها فلقّبوهم بذلك (شرح أبي ذر: ٣٣٣).

(٣) هو مثل، وتقول العرب في خلافه: جَوّع كلبكَ يتبعك .

(٤) ابن هشام، السيرة النبوية: ٣ / ٢٩٠ - ٢٩١ .

طلب عمر من رسول الله ﷺ أن يضرب عنق ابن أُبي سأله رسول الله ﷺ - على نحو الاستفهام الاستنكاري -: «أو كنت فاعلا؟ فقال له: نعم. فقال رسول الله ﷺ: إذن لأُرعِدَت له آنف بيثرب كثيرة..» فلم ينتهِ عمر عند هذا الحد وإنما طلب من رسول الله أن يأمر - محمّد بن مَسلمَة يقتله، فقال ﷺ: «لا يتحدث الناس أنّ محمّداً قتل أصحابه»[١].

والملاحظ في رواية ابن إسحاق ذكر أن عمر قال للنبي ﷺ: مُرْ عَبّاد بن بُسر! وفي هذه الرواية يتبدل الاسم إلى «محمد بن مسلمة»!

وعلى أي حال لم يصمّم رسول الله ﷺ على الرحيل من ذلك المكان، إلاّ بعد أن تأكد له صحة ما نقل عن ابن أُبي، ففي رواية الواقدي - الأكثر تفصيلا من رواية ابن إسحاق - عندما أخبر زيد بن أرقم النبي ﷺ بما قاله ابن أُبي: «كره رسول الله ﷺ خبره وتغيّر وجهه، ثمّ قال ﷺ - لزيد -: «يا غلام لعلّك غضبت عليه؟... لعلّك أخطأ سمعك؟... لعلّه شُبّه عليك؟... إلاّ أنّ زيداً يجيبه في كلّ مرّة بأنه سمع ذلك منه»[٢].

٦ - ابن أُبي يعتذر كذباً ونفاقاً وقومه يدافعون عنه

أراد ابن أُبي أن يخلِّص نفسه من الورطة التي أوقع نفسه فيها، فجاء إلى رسول الله ﷺ، لا ليعتذر منه، بل ليحلف بالله كاذباً بأنه لم يقل ما نقل عنه! قال ابن إسحاق: «وقد مشى عبد الله بن أُبي... إلى رسول الله ﷺ، حين بلغه أن زيد بن أرقم قد بلّغه ما سمع منه، فحلف بالله: ما قلت ما قال، ولا تكلمت به! فقال مَن حضر رسول الله ﷺ من الأنصار من أصحابه: يا رسول الله، عسى أن

---

(١) الواقدي، المغازي: ١ / ٤١٧.

(٢) المصدر نفسه: ١ / ٤١٧ وما بعدها.

يكون الغلام قد أوهم في حديثه، ولم يحفظ ما قال الرجل، حَدَباً - أي تحنّناً وعطفاً - على ابن أُبي بن سلول، ودفاعاً عنه».

ثمّ قال ابن إسحاق: «فلما استقلّ رسول اللهﷺ وسار، لقيه أُسيد بن حضير، فحيّاه بتحيّة النبوّة، وسلم عليه، ثمّ قال: يا نبي الله، والله لقد رُحت في ساعة منكرة ماكنت تروح في مثلها؛ فقال له رسول اللهﷺ : أو ما بَلغك ما قال صاحبكم؟

قال: وأيّ صاحب يا رسول الله؟ قالﷺ : عبد الله بن أُبي، قال: وما قال؟

قالﷺ : زعم أنّه إن رجع إلى المدينة ليُخرجن الأعزُّ منها الأذلّ!

قال: فأنت يا رسول الله تخرجه منها إن شئت، هو والله الذليل وأنت العزيز.

ثمّ قال: يا رسول الله، ارفق به، فوالله لقد جاءنا الله بك، وإنّ قومه لينظمون له الخرز ليتوّجوه، فإنه ليرى أنّك قد استلبته ملكاً»[١].

٧ - الرسول الأكرمﷺ يشدُّ رحال السفر مع المسلمين

لقد عالج رسول اللهﷺ هذا الموقف بحكمة عالية، وذلك من خلال الرحيل عن المكان، والسير الحثيث بالمسلمين، ليشغلهم عن الفتنة وآثارها الوخيمة.

قال ابن إسحاق: «ثمّ مشى رسول اللهﷺ بالناس يومَهم ذلك حتى أمسى، وليلتهم حتى أصبح، وصَدر يومهم ذلك حتى آذتهم الشمس، ثمّ نزل بالناس،

(١) ابن هشام: ٣ / ٢٩٢، والواقدي، المغازي: ١ / ٤١٩ .

فلم يلبثوا أن وَجدوا مسَّ الأرض فوقعوا نياماً، وإنما فعل ذلك رسول الله ﷺ ليَشْغَل الناس عن الحديث الذي كان بالأمس، من حديث عبد الله بن أُبي»[١].

٨ – ما نزل في ابن أُبي من القرآن

ذكر المؤرخون والمفسرون نزول سورة المنافقين وآيات أُخرى غيرها في ابن أُبي لموقفه في هذه القضية، ومواقفه الأُخرى المشابهة لها.

قال ابن إسحاق: «ونزلت السورة التي ذَكَر الله فيها المنافقين في ابن أُبي ومن كان على مثل رأيه.

وقيل: إنَّ آية سورة التوبة في قوله تعالى: ﴿يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُوا۟ وَلَقَدْ قَالُوا۟ كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ وَكَفَرُوا۟ بَعْدَ إِسْلَٰمِهِمْ...﴾[٢] قد نزلت في ابن أُبي في هذه المناسبة»[٣]. ولعلها نزلت في مناسبة أُخرى كان للمنافقين فيها دور تخريبي.

ولم يقتصر ذكر المنافقين في القرآن على السورة المخصصة باسمهم، بل تكرر ذكرهم في السور القرآنية كسورة البقرة، وآل عمران، والنساء، والمائدة، والأنفال، والتوبة، والعنبكوت، والأحزاب، والفتح، والحديد، والحشر، والتحريم، مما يدل على اهتمام القرآن بأمرهم من خلال كشف أفعالهم ومساوئ أخلاقهم، وأكاذيبهم، وخداعهم ودسائسهم والفتن التي أقاموها على النبي ﷺ وعلى المسلمين[٤].

---

(١) المصدر نفسه: ٣ / ٢٩٢، والمغازي: ١ / ٤١٩ .

(٢) التوبة: ٧٤ .

(٣) انظر: الميزان: ١٩ / ٢٨٣ وما بعدها، وأسباب النزول للواصلي: ٢٨٧ .

(٤) المصدر نفسه: ١٩ / ٢٨٧ .

٩ - موقف ابن عبد الله بن أُبي من والده، وموقف النبيﷺ منه

قال الواقدي، وابن إسحاق: «وبلغ ابنه عبد الله بن عبد الله بن أُبي مقالة عمر ابن الخطاب. . - الذي أشار على النبيﷺ بقتل ابن أُبي - فجاء إلى النبيﷺ فقال: يا رسول الله، إن كنت تريد أن تقتل أبي فيما بلغك عنه، فأمرني، فوالله لأحملنّ إليك رأسه قبل أن تقوم من مجلسك هذا، ولقد علمت الخزرج ما كان فيها رجل أبرَّ بوالد منّي، وإني لأخشى يا رسول الله أن تأمر غيري فيقتله، فلا تدعني نفسي أنظر إلى قاتل أبي يمشي في الناس، فأقتله فأدخل النار، وعَفوكَ أفضل، ومنُّك أعظم.

فقال رسول اللهﷺ : «يا عبد الله، ما أردتُ قتله، وما أمرتُ به، ولنُحسنَنَّ صُحبته ما كان بين أظهرنا. . . »[١].

لقد كان الإجراء الحكيم الذي اتخذه رسول اللهﷺ اتجاه ابن أُبي، أشد من القتل الذي اقترحه على النبيﷺ عمر بن الخطاب، فقد عاش ابن أُبي بعد هذه الحادثة منبوذاً مهاناً، لا يسلِّم عليه أحد من قومه، وكانوا إذ كلموه يعاتبونه أشد العتاب، ويعنفونه أشد تعنيف.

قال الواقدي: «مرَّ عبادة بن الصامت بعبد الله بن أُبي. . . فلم يُسلِّم عليه، ثمّ مرَّ أوس بن خولي فلم يسلم عليه، فقال ابن أُبي: إنّ هذا الأمر قد تمالأتما عليه. فرجعا إليه فأنبّاه، وبكتاه بما صنع، وبما نزل من القرآن إكذاباً لحديثه».

وقال ابن إسحاق: «وجعل بعد ذلك إذا أحدث الحدثَ كان قومه هم الذين يعاتبونه ويأخذونه ويعنّفونه، فقال رسول اللهﷺ لعُمر بن الخطاب، حين بلغه ذلك من شأنهم: كيف ترى يا عمر، أما والله لو قتلته يوم قلتَ لي أُقتله،

---

(١) الواقدي، المغازي: ١ / ٤٢٠ - ٤٢١ .

لأرعدت له آنُفٌ، لو أمرتها اليوم بقتله لقتلته ; فقال عمر: قد والله علمتُ لأمر رسول اللهﷺ أعظم بركة من أمري»[١].

وهكذا انطوت صفحة هذه الحادثة بسلام من خلال تدبير وحكمة النبيﷺ.

١٠ - الدورس والعبر والعظات

لقد أشرنا في ثنايا هذين الدرسين إلى كثير من الدروس والعبر التي يمكن استفادتها من هذه الغزوة وما وقع فيها من أحداث.

وفيما يلي فهرسة مختصرة لبعض هذه الدروس والعبر:

أولا: الفتنة وآثارها المخربة في المجتمع:

لقد وجد المنافقون فرصتهم في هذه الغزوة إذ خرجوا مع جيش الإسلام بكثافة لم تعهدها غزوات رسول اللهﷺ من قبل، وكأنهم أعدوا أنفسهم لفتنة عمياء تواطؤا عليها في المدينة قبل خروجهم، فافتعلوا حادث بئر المريسيع، ونادوا بنداء الجاهلية، ثمّ قاد ابن أُبي حملة ضد رسول اللهﷺ والمهاجرين ووصفهم بالأذلاء، ووعد باخراجهم من المدينة، ثمّ افتعلوا حديث الإفك الذي انشغل به المجتمع الإسلامي لأكثر من شهر، وكثر فيه اللغط والقال والقيل...

هذه الأجواء المتشنجة التي افتعلها المنافقون والذين في قلوبهم مرض، وآثار الفتن التي افتعلوها والتي تأذى منها رسول اللهﷺ والمؤمنون كثيراً، تعطينا درساً بليغاً في الحذر واليقظة والانتباه إلى مكامن الخطر والفتنة في المجتمع الإسلامي الذي يستقر له الأمر، وتوفر لابنائه أسباب القوة والمنعة، فينطلق هؤلاء المنافقون من مواقعهم الاجتماعية أو السياسية لاضعاف المجتمع

---

(١) المصدر نفسه: ١ / ٤٢٠، وابن هشام، السيرة النبوية: ٣ / ٢٩٣ .

الإسلامي، مستخدمين كلَّ أساليب ووسائل المكر والكيد وجميع الوسائل الخسيسة التي قد لا يستخدمها عدوك المباشر، «وائتمار الضعفاء في جنح الظلام لا يقل خطورة عن نكاية الأقوياء في ميادين الصدام، بل إنّ المرء قد يألم لإشاعة ملفقة أكثر مما يألم لطعنة مواجهة»[١].

ثانياً: رواسب الجاهلية وحميتها:

رغم الجهود التي بذلها رسول اللهﷺ ورغم التربية القرآنية التي كان يتنزل به الوحي، لبناء الجماعة الصالحة، والمجتمع الإسلامي الخالي من رواسب الجاهلية وتبعتها، فنجدهم يستخدمون نفس الأساليب والمصطلحات والشعارات التي كانوا يعيشون في أجوائها قبل الإسلام، ولم يأخذوا من تعاليم الإسلام والقرآن في معالجة مشاكلهم الآنية، فينادي هذا: يا آل فلان، وينادى ذاك: يا آل فلان.. وتكاد أن تقع فتنة عمياء.. لولا حكمة رسول اللهﷺ في معالجة الأُمور، حيث ذكرهم بأنها دعوى الجاهلية، وقال لها: «دعوها، فإنّها فتنة».

ثالثاً: حكمة رسول اللهﷺ في معالجة الأُمور:

لقد برزت لنا في هذه الغزوة جملة من الأحداث المرّة، والتي كادت أن تنسي المسلمين حلاوة الانتصار في هذه الغزوة، ولقد تحدثنا عنها بالتفصيل في ثنايا البحث.

والدرس الذي ينبغي أن نتوقف عنده ونتأمل فيه، ونستلهم منه العبر والعظات البليغة، هو الطريقة الحكيمة التي عالج بها النبيﷺ تلك الأحداث والمشاكل، والتي دلت على براعة فائقة في سياسة الأُمور وتربية الناس، والتغلب على مشاكلهم، وعدم الانسياق للعاطفة أو ردود الأفعال المتشنجة التي اقترحها أحد الصحابة عندما أشار عليه بقتل عبد الله بن أُبي، إلاّ أنّ رسول اللهﷺ الذي

---

(١) الغزالي، فقه السيرة: ٢٨٥ .

كانت الحكمة وسعة الصدر رائدة في التدبير، أجابه بذلك الجواب الذي نقلناه سابقاً، «كيف يا عمر إذا تحدث الناس أنّ محمداً يقتل أصحابه؟».

رابعاً: الموقف الإيماني من عبد الله بن عبد الله بن أُبي:

لقد جَسّد لنا موقف عبد الله بن عبد الله بن أُبي - الذي ظنّ أن رسول الله ﷺ سوف يأمر بقتل أبيه، فجاء يعرض على رسول الله ﷺ أن يتولى هو قتل أبيه إذا كان يريد أن يحكم بذلك، رغم أنه كان من أكثر الناس بِرّاً بوالده - أروَع صور الإيمان والتسليم لله ولرسوله، وايثار رضاهما على كلِّ نوازع العاطفة والانسياق معها، فكان - بحقٍّ - مصداقاً لقول رسول الله ﷺ : «لا يؤمن أحدكم حتّى أكونَ أحبُ إليه من والده وولده والناس أجمعين».

في مقابل هذا الموقف الإيماني نجد موقف بعض الأنصار من قبيلة الأوس التي ينتمي إليها ابن أُبي حيث يدافعون عنه، ويغلطون من جاء بخبر مقولته، وهم يعلمون جيداً أنه قد قالها بملء شدقيه وبمحضرهم، فكان موقفهم يجسد حمية الجاهلية التي نهى الإسلام عنها، والتي لا تلتقي مع الإيمان وخصاله.

خامساً: التثبت والتبين في قبول الخبر:

لقد ذكر بعض المؤرخين قصة الوليد بن عقبة مع قبيلة بني المصطلق، وما كاد أن يحدثه من فتنة وحرب، ثمّ ما نزل في حقّه من القرآن الكريم، وقد تكون قصّته متأخرة زماناً عن تاريخ هذه الغزوة إلاّ أنّ فيها مواطن للتأمل، واستفاد المسلمون منها كثيراً، ليس فقط في زمن حدوثها، وإنما على مرّ الزمن، لأنّ هذه القضية وما نزل فيها من القرآن قد أسست مبدأ كيفية التعامل مع ما ينقل من أخبار وروايات ودرجة وثاقة الناقل، وهو باب واسع تحدث عنه علماء الفقه والأُصول والدراية والرجال، تحت عنوان: حجية خبر الثقة، الذي تعتبر الآية الكريمة التي نزلت في هذه القضية من أهم أدلته الشرعية.

والدرس العملي الذي نستفيده من هذه القصة، هو ضرورة التثبّت

والاحتياط في قبول الأخبار التي نسمعها، وعدم الانسياق وراء كلِّ خبر من دون معرفة درجة وثاقة الناقل للخبر، وحيثيات نقله.

سادساً: التآلف الاجتماعي والسياسي في زواجهﷺ من جويرية بنت الحارث:

كان من بين أسرى بني المصطلق جويرية بنت الحارث وهي ابنة سيّد قومها الحارث بن ضرار فتزوجها رسول اللهﷺ بحسب الرواية التي نقلناها سابقاً، ولم يكن دافع هذا الزواج هو كون جويرية عليها مسحة من الجمال، وإنها «كانت امرأة حلوة ملاّحة، لا يراها أحد إلاّ أخذت بنفسه» كما تقول الرواية المروية عن عائشة، والتي ناقشنا جوانب منها في ثنايا الدرس، وإنما كان لهذا الزواج أبعاده وأهدافه الاجتماعية والسياسية. وفيه مصلحة للإسلام والمسلمين، وليس مجرد زواج عابر، وقد تحققت جميع هذه الأهداف من هذا الزواج المبارك، حيث أسلمت قبيلتها كلُّها وأخلصوا في إسلامهم، وأطلق المسلمون جميع من بأيديهم من أسرى قبيلتها وكانوا مائة أهل بيت من بني المصطلق، وأسلم والدها الحارث ابن ضرار، وكان له ثقل اجتماعي وقبلي كبير في الجزيرة العربية، كلّ ذلك كان ببركة هذا الزواج، حتّى قالت عائشة بعد ذلك في حق جويرية: «فما أعلم امرأةً أعظم بركةً على قومها منها».

ويعود الفضل في ذلك كلّه إلى السياسة الاجتماعية الحكيمة التي اتبعها رسول اللهﷺ في زواجه من بنات بعض الرموز الاجتماعية والقبلية من أجل مصلحة إسلامية عليا.

هذه أهم الدروس والعبر من هذه الغزوة، ومن المؤكد أن هنالك دروساً وعبراً وعظات أُخرى يمكن أن تستفاد من ثنايا أحداث هذه الغزوة.

الأسئلة:

١ - متى وقعت غزوتا بني لحيان وذي قَرَد؟ وما أسبابهما؟

٢ - متى وقعت غزوة بني المصطلق؟ وما هي أسبابها ونتائجها؟

٣ - ما هي قصة الوليد بن عقبة مع بني المصطلق؟ وكيف عالجها النبيﷺ ؟

٤ - ما هي أسباب الفتنة التي أثارها المنافقون بعد حادث بئر المريسيع؟

٥ - كيف عالج رسول اللهﷺ الفتنة التي أثارها عبد الله بن أُبي؟

٦ - كيف كان موقف ابن عبد الله بن أُبي من أقوال وتصرفات والده؟

٧ - اذكر الدروس والعبر من غزوة بني المصطلق باختصار.

الفهرست

الدرس الثالث/ ملامح الدولة الإسلامية في المدينة(ق٣)

أُسُسُ بناءِ المُجتمع الإسلامي الجديد

«٥٧-٨٣»

الدرس الرابع/ حوادث السنة الثانية للهجرة

ما قبل واقعة بدر

«٨٥-١٠٤»

الدرس الخامس/ حوادث السنة الثانية من الهجرة

(معركة بدر الكبرى) «ق١»

«١٠٥-١٢٢»

الدرس السادس/ حوادث السنة الثانية من الهجرة

(معركة بدر الكبرى) «ق٢»

«١٢٣-١٥٠»

الدرس السابع/ حوادث السنة الثانية من الهجرة
(معركة بدر الكبرى)«ق٣»
«١٥١-١٩٤»

الدرس الثامن/ أحداث السنة الثانية إلى الثالثة من الهجرة
«ما بين بدر وأُحد أحداث ووقائع»
«١٩٥-٢٢٦»

الدرس التاسع/ أحداث السنة الثالثة من الهجرة
(غزوة أُحد)«ق١»
«٢٢٦-٢٨٢»

الدَّرْسُ العاشِر/ أحداثُ السَّنَةِ الثَّالِثَةِ من الهجرة إلى السنة الرابعة (غزوة أُحد)«ق٢»

«٢٨٣-٣١٨»

الدرس الحادي عشر/ أحداث ووقائع السنة الرابعة من الهجرة (الأوضاع السياسية في المدينة بعد معركة أُحد)

«٣١٩-٣٤٥»

الدرس الثاني عشر/ أحداث ووقائع السنة الرابعة من الهجرة المواجهة مع اليهود والمشركين

«٣٤٦-٣٩٠»

الدرس الثالث عشر/ أحداث ووقائع السنة الخامسة من الهجرة

غزوة الأحزاب (الخندق) «ق ١»

«٣٩١-٤٢٢»

الدرس الرابع عشر/ أحداث ووقائع السنة الخامسة من الهجرة

غزوة الأحزاب (الخندق) «ق ٢»

«٤٢٣-٤٦٦»

الدرس الخامس عشر/ أحداث ووقائع السنة الخامسة من الهجرة

(غزوة بني قريظة)

«٤٦٧-٥٠٩»

الدرس السادس عشر/ أحداث السنة السادسة من الهجرة
غزوة بني المصطلق (المُريسيع) «ق١»
«٥١٠-٥٥٢»